مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

سماحة آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

الجزء الأول

مواهب الرحمن

في

تفسير القرآن

تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء الأول

سرشناسه	:	سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور	:	مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر	:	قم: دارالتفسیر، ۲۰۰۷م. -= ۱۴۲۸ق. -= ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری	:	۱۴ج.
شابک	:	دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت	:	عربی.
یادداشت	:	ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت	:	ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت	:	ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیپا).
مندرجات	:	ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲- ۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع	:	تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره	:	BP۹۸/س۲۳م۸ ۱۳۸۶
رده بندی دیویی	:	۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	:	۱۰۵۳۵۷۱

قم - خیابان معلم - میدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲ منشورات دارالتفسیر

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/١

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگين

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١٤-١)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة: ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء الأول: ISBN Vol 1: 978-964-535-052-7

١ـ لا يجوز طبع هذا الكتاب الّا باذنٍ خاص من مكتب السيد السبزواري في النجف الأشرف.

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب، الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

اَلْحَمْدُ للهِ الَّذي أنْزَلَ الْقُرآنَ شِفاءً وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنينَ، وَجَعَلَهُ فِي لَوحٍ مَحْفُوظٍ لا يَمَسُّهُ إلَّا المُطَهَّرُونَ، لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِن بَينِ يَدَيهِ وَلا مِن خَلفِهِ، تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ حَميدٍ، فيهِ تَفصِيلُ كُلِّ شَيءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ، وَجَعَلَهُ مِن أَعظَمِ مَواهِبِهِ عَلى عِبادِهِ.

وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلى مَن أُعطِيَ السَّبعَ المَثانِي وَالقُرآنَ العَظيم، الَّذي فَرَّقَ اللهُ عَلَيهِ قُرانَهُ لِيَقرَأَهُ عَلَى النّاسِ عَلى مُكثٍ، اَلنَّبِيِّ الْأُمِيِّ الَّذي هُوَ غايَةُ نِظامِ التَّكوينِ، وَمُكَمِّلُ ما اُنزِلَ مِنَ المَعارِف عَلَى الْأنبياءِ وَالمُرسَلِينَ؛ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِاللهِ، سَيِّدِ وُلدِ آدَمَ، وَخاتَمِ النَّبِيِّينَ، الَّذي اَرسَلَهُ اللهُ رَحمَةً لِلعالَمِينَ، وَتَشَرَّفَت بِهِ السَّماواتُ وَجَميعُ الرَّوحانِيِّينَ.

وَعَلى آلِهِ الذينَ رَفَعُوا بِهِمَمِهِمُ العالِيَةِ أعلامَ الدِّين، وَشَرَعُوا نَهجَ الهُدى لِلقاصِدينَ، حُماةِ مَعالِمِ الشَّرعِ المُبين، وَمُحيِي مَآثِرِ النَّبِيِّينَ، اَلَّذينَ قَرَنَهُمُ اللهُ بِالكِتابِ المُبينِ، أئِمَّةِ الهُدى وَقادَةِ أَهلِ الدِّينِ.

وَعَلى أصحابِهِ الَّذينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوهُ، وَنَصَرُوهُ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي اُنزِلَ مَعَهُ، اَلذينَ أَبلَوُا البَلاءَ الحَسَنَ فِي نُصرَتِهِ وَإقامَةِ دينِهِ.

***

وبعد : فقد شملتني عنايته تبارك وتعالى لتفسير هذا الكتاب العظيم، الذي عجزت العقول عن درك كنهه، فكما أنّ ظاهر لفظه : **﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**، فحقائقه ورموزه أولى أن تكون كذلك، ففي كلّ سورة منه بحار من المعارف، وتتجلّى من كل آية منه أنوار من الحقائق، وكيف لا يكون كذلك وقائله لا نهاية لعلمه وكماله، ولا حدَّ لعظمته وجلاله، وما حصل من التحديدات إنّما هو من مقتضيات الاستعدادات، لا أن يكون تحديداً فيه.

وقد ظهر لي بعد مراجعتي لجملةٍ من التفاسير، أنّه فسّر كل صنف من العلماء القرآن بما هو المأنوس عندهم، فالفلاسفة والمتكلّمون فسَّروه بمذهبهم من الآراء الفلسفية والكلامية، والعرفاء والصوفية علىٰ طريقتهم، والفقهاء همّهم تفسير الآيات الوارده في الأحكام، والمحدّثون فسّروه بخصوص ما ورد من السنّة الشريفة في الآيات، كما أنّ الأُدباء كان منهجهم الاهتمام بجهاته الأدبية دون غيرها.

والعجب أنّه كلّما كثر في هذا الوحي المبين، والنور العظيم من هذه البيانات والتفاسير، فهو علىٰ كرسي رفعته وجماله، ويزداد علىٰ مرِّ العصور تلألؤا وجلالاً.

وقد فسَّر نفسه بنفسه، لأنّه تبيان كلّ شيء، فإذا كان كذلك فأولى أن يكون تبياناً لنفسه، مستدلاً لذلك بما ورد من السنّة النّبويّة، والمأثور عن آله الّذين قرنهم النبيّ ﷺ بالكتاب، وجعلهم الأدلاء عليه، فجمعت بينهما وبين ما اتّفق عليه الجميع مع تقرير الشريعة له، وقد بذلت جهدي في عدم التفسير بالرأي مهما أمكنني ذلك، تأسياً بقول نبيّنا الأعظم ﷺ : «**من فسَّر القرآن برأيه فأصاب الحقَّ فقد أخطأ**»، وقد ذكرت ما يمكن أن يستظهر من الآيات المباركة بقرائن معتبرة،

فإن هذا الحديث الشريف لايشمله ، إذ التفسير بالرأي غير الاستظهار من الآيات المباركة بالقرائن .

وتركت التعرّض للتفاسير النّادرة ، والأراء المزّيفة ، والفروض التي تتغير بمرور الزّمان .

وكان منهجنا في التفسير :

أوّلاً : التعرّض في تفسير الآية لمضمونها ، وبيان مفرداتها ، ثمّ ما يتعلّق بها من المباحث . وقد ذكرت فيها المبحث الدلالي، وأردت منه المعنى العامّ ممّا تشير إليه الآية المباركة من الدلالات الظاهرة ، أو الدقائق العلمية ، أو غيرها .

وثانياً : لم أتعرّض لبيان النظم بين الآيات ، وذلك لأنّ الجامع القريب في جميعها موجود ، وهو تكميل النفس أو الهداية ، ومع وجوده لا وجه لذكر النظم بين الآيات ، لأنّ الغرض القريب بنفسه هو الجامع والرابط بين الآيات .

كما إنّي لمّ أهتم بذكر شأن النزول غالباً؛ لأنّ الآيات المباركة كليّات تنطبق علىٰ مصاديقها في جميع الأزمنة ، فلا وجه لتخصيصها بزمان النزول ، أو بفرد دون فرد آخر . وكذلك جميع الروايات الواردة عن الأئمّة الهداة في بيان بعض المصاديق لها ، فهو ليس من باب التخصيص، بل من باب تطبيق الكلّي على الفرد ، كما ستعرف ذلك كله إن شاء الله تعالىٰ .

وثالثاً : احترزتُ عن ذكر العبارات المغلقة ، والألفاظ الصعبة ، أو التفصيل الزائد عن الحدِّ، وحاولت أن أُبيِّن المعنىٰ بأسهل الألفاظ والكلمات، حتّىٰ يعمّ النفع للجميع ، وتتمّ الحجّة به عليهم .

وما توفيقي إلّا بالله ، عليه توكلت وإليه أُنيب .

النجف الاشرف

عبد الأعلى الموسوي السبزواري

سورة فاتحة الكتاب

وهي سبع آيات

الآية ١ ـ ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الآية المباركة ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ تشتمل علىٰ كثيرٍ من المعارف الإٰلهية، لاسيَّما الصفات الراجعة إلى ذات الباري عزَّ وجل، وفي اختيار صفتي ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ما فيه من البشارة للإنسان، من كونه مورد رحمته وعطفه تعالىٰ، مهما تعدَّدت اسباب الشرِّ وقويت. وفيها إرشاد إلى تعليم الإنسان لتوخِّي الرحمة والمودة في افعاله، وجعل نفسه من مظاهر رحمته تعالى، ليعرف أنّه مؤمن بالله تعالىٰ. وأن لا يعتمد علىٰ نفسه مهما بلغ من الكمال، لأنّه المحتاج بعدُ. بل لابدّ له من إيكال أمره إلى الغني المطلق.

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾. الـ (باء) للاستعانة، لأنَّ الإنسان مفتقر بذاته، والمحتاج المطلق لابد أن يستعين في جميع شؤونه بالغنيِّ المطلق، الَّذي هو الله تعالىٰ، فالممكنات في ذاتها وعوارضها، وحدوثها وبقائها محتاجة إليه، فهي بلسان الحال تستعين به تعالىٰ، فقدّرت الإستعانة في المقال تطبيقاً بين لساني الحال والمقال.

وجعل المتعلَّق كلّ ما يفعل بعد البسملة ـ وإن كان صحيحاً ـ لا بأس به، ولكن كون المتعلّق هو الاستعانة، يدل عليه ـ أيضاً ـ بالملازمة، فإنَّ الاستعانة

المطلقه به تعالىٰ، تستلزم الاستعانة في كلّ فعل يؤتي به، خصوصاً ما يؤتى به بعد البسملة، كما أنّ كون المتعلّق هو الفعل الخاص مثل القراءة في المقام، يستلزم تحقّق الاستعانة المطلقة أيضاً، إذ المراد القراءة مستعيناً به، لا القراءة المطلقة ولو بلا استعانة ورعاية منه تعالىٰ، فيكون الفرق بينهما كالفرق بين الطبيعي والفرد، في أنَّ تحقّق كل منهما خارجاً يستلزم تحقّق الآخر، بل هو عينه.

﴿اسم﴾: أصله من السموّ ـ مخفّفة ـ بمعنى الرفعة، ومنه السماء، ويصحّ أن يكون اشتقاقه من السمة بمعنى العلامة، والهاء عوض الواو، فيكون أصله الوسم، فالوسم والوسام والوسامة بمعنى العلامة.

والهمزة: همزة وصل على التقديرين، ويصحّ الاشتقاق من كلّ منهما؛ لأنّ التبديل والتغيير في حروف الكلمة جائز، ما لم يضرّ بالمدلول، إلّا أن يكون اللفظ بخصوص شخصه سماعياً. ومن وقوع التغيير والتبديل في هذا اللفظ في الاشتقاقات الصحيحة وسهولة لغة العرب، نستفيد صحَّة ما تقدَّم.

ويصحّ رجوع أحد المعنيين الي الآخر في جامع قريب: وهو البروز والظهور، لأن الرفعة نحو العلامة، والعلامة نحو رفعةٍ لذيها، وهما يستلزمان البروز والظهور. ودأب اللغويّون والأُدباء ـ وتبعهم المفسرون ـ علىٰ جعل المصاديق المتعددة ـ مع وجود جامع قريب ـ من مختلف المعنى، مكثرين بذلك من المعاني، غافلين عن الأصل الذي يرجع الكلّ إليه، فكان الأجدر بهم بذل الجهد في بيان الجامع القريب والأصل الذي يتفرع منه، حتى يصير بذلك علم اللّغة أنفع مما هو عليه، ولذهب موضوع المشترك اللفظي وغيره من التفاصيل، إلّا في موارد نادرة.

ولعلَّ سبب إعراضهم عن ذلك، هو أنّ ذكر اللفظ وبيان موارد استعمالاته

سهل يسير، بخلاف الفحص عن الجامع وتفريع ألفاظ منه.

ثمّ إنَّ لفظ الاسم اسمُ جنسٍ لأسماء غير محصورة، تحدث وتزول علىٰ مرّ العصور، في ألفاظ ولهجات غير متناهية. وهذا من اللّايتناهى الَّذي اتّفق الفلاسفة علىٰ صحّته، واصطلح القدماء منهم عليه بـ«اللّايتناهى اللّايقفي»، ولشرحه موضع آخر يأتي عند قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾[1]، إن شاء الله تعالىٰ.

ولفظ الاسم هنا واسطة محضة لاسم الله تبارك وتعالىٰ، لا أن يكون له موضوعيّة خاصّة، فيكون ممّا به يُنظر، لا ممّا إليه ينظر، كما هو الشأن في جميع الأسماء، إلّا أنَّ فيها واسطة لتعرّف المعنىٰ، وهنا واسطة لتعرف اللفظ أي «الله».

وعلى أيّة حال، سواء كان الاسم من الوسم واقعاً بمعني العلامة، أو من السمو بمعنى الرفعة، ففي ذكو البسملة يكون إظهارٌ لاضافة العبد نفسه إليه تعالى، إضافة تشريفيةً بذكر اسمه تعالي، ورفعةٌ لمقام العبد به، وذكر الاسم في غيره تعالى علامة للمعنى المراد، وإخراجه من الخفاء الى البروز والظهور.

ولاريب في أنَّ الاسم عرض قائم بالغير، سواء اريد لفظ «ا س م» أو مدلوله اللفظي كلفظ «كتاب» مثلاً، وما أُطيل فيه قديماً من أنّ الاسم عين المسمّى أو غيره، قد ظهر في الفلسفة المتعالية بطلانه.

وفي تخلّل لفظ الاسم بين حرف «الباء» ولفظ الجلالة، إشارة الى أنَّ ما هو حدّ الإدراك للإنسان، إنّما هو ذكر اسمه تعالى والاعتقاد به، مشيراً من حيث الإضافة إلى الذات، لا أن يحوم أحد حول كشف الحقيقة والذات، فانّها لن تدرك لغيره تعالىٰ.

---

١. سورة الروم: الآية ٢٢.

وأمّا قوله تعالي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[1] مخاطباً نبيّه ﷺ، حيث ذكر الاسم فيه أيضاً، فهو لأجل تعليم الغير، لا بالنسبة إلى مقام النبيّ الجامع من الحقائق كنوزها، والحاوي لدقائق رموزها.

ثمّ إنّه قد ذكرت هذه الكلمة (اسم) في القرآن الكريم، مفردةً ومجموعة مضافة إلى الله تعالىٰ، وإلى الرّب، وإلي الضمير الراجع إليه تعالي، وموصوفة. فقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2]. وفي الكلّ مقرونة بالتعظيم والتجليل، وقد كثرت استعمالات هذ الكلمة في الآثار الواردة عن نبيّنا الأعظم ﷺ وأئمّة الهدىٰ عليهم السلام، فى دعواتهم مع الله تعالىٰ: (**باسمك العظيم**) و(**اسمك الأعظم**) و(**باسمك الأعظم الأعظم**)......، والمراد بالعظيم: ما أذن الله تعالى لخلقه أن يدعوه به، كجميع اسمائه تعالىٰ. والمراد بالأعظم: ما هو مستور عن خلقه، ولكنّه تعالى أذن لبعض أحبّائه أن يدعوه به، وأمّا الأعظم الأعظم: فهو ما استأثره لنفسه ولم يظهره لأحد غيره.

﴿الله﴾: أجلُّ لفظٍ في الممكنات كلّها، لأعظم معنىً في الموجودات جميعها. بهت في عذوبة لفظه كلّ سالك مجذوب، وتحيّر في عظمة معناه جميع أرباب القلوب، تتدفقّ المحبّة والرأفة عن الاسم، فكيف بالمعنى؟! فكأنّ نفس المعنى يتجلّى فيه، ويقول: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا﴾[3]، جمعت فيه من الكمالات حقائقها، ومن الألطاف والعنايات دقائقها ورقائقها، يطلبه الملائكة الكروبيون كما يطلبه أهل الأرضين، والكلّ لا يصل إليه، ظهر لغيره بالآثار

---

١. سورة العلق، الآية: ١.

٢. سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

٣. سورة طه، الآية: ١٤.

وخفي عن الجميع بالذّات ، فما أعظم شأنه، فقد عجزت العقول ـ وإن قويت فطنتها ـ عن درك أفعاله، فضلاً عن صفاته، فكيف بذاته؟! فكلمّا زاد الإنسان تأمّلاً فيه، زيد تحيّراً وجهلاً ، فسبحان الذي اكتفى بالتحيّر في الذات والصفات والأفعال، عن التعمّق فيها ، لعلمه الأزلي بعدم قدرة ما سواه علىٰ ذلك ، أو لعدم لياقة جملة من العقول به .

ثمّ إنّه قد ذكر أهل اللغة أنّ (الله) اسمٌ جنس للواجب بالذات، ولكنّه منحصر في الفرد كالشمس والقمر ونحوهما، وتبعهم فيه جمع من المفسِّرين .

وهو غير صحيح عقلاً؛ لأنّ المتفرد بذاته في جميع شؤونه وجهاته، والبسيط فوق ما نتعقّله من معنى البساطة، كيف يقال في اللفظ المختصّ به إنّه اسم جنس عام ؟!

وقد ثبت في الفلسفة الإلٰهية المتعالية، أنّ الكلّية والجزئية، والجنسية ونحوها من شؤون المفاهيم الممكنة ، وذاته الأقدس فوق ذلك مطلقاً ، فلا يصحّ إطلاق اسم الجنس على اللفظ المختصّ به تعالىٰ .

نعم ، لو أراد القائل بأنّه اسم جنس علىٰ نحو الجنسية الوجودية ، أي السعة الوجودية بالعنوان المشير إلى الذات، لا الجنسية الماهوية ، لكان له وجه لطيف ، ولكنّهم بمعزل عن ذلك .

نعم ، ربما يطلق الإله علىٰ غيره تعالى إطلاقاً اعتقادياً باطلاً ، كقول فرعون : **﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾**[1]، وقوله تعالىٰ : **﴿أَجَعَلَ الْآلِـهَةَ إِلَـٰهاً وَاحِداً﴾**[2].

كما أنّ القول بأنّ (الله) اسم جنس باطل، من جهة العلوم الأدبية أيضاً ، لعدم

---

١ . سورة القصص ، الآية ٣٨.

٢ . سورة ص، الآية: ٥.

وقوعه صفة، ووقوعه موصوفاً دائماً، فلا يصحّ أن يكون اسم جنس، بل هو عَلَمٌ مختصٌّ لواجب الوجود بالذات، المستجمع لجميع الصفات الكمالية، لظهور آثار العَلَمية فيه، علىٰ ما هو المعروف بين الأُدباء.

ونظير ذلك ما ذكروا إنّه مشتق من (وَلَهَ)، بمعنى تحيَّر، أو من (أَلَهَ) بمعنى تعبَّد، لتعبّد الكلّ له تكويناً أو اختياراً، وتحيّرهم فيه.

وهذا أيضاً مردود، أوّلاً: بأنّ التحيّر والتعبّد عنوان وصفي، فلا يصحّ أن يؤخذ في ما هو اسم للذّات المتّصف بجميع صفات الجمال والكمال والجلال.

وثانياً: بما رواه ابن راشد ـ في الصحيح ـ عن موسى بن جعفر عليه السلام:

«سُئل عن معنى (الله) تعالى؟ فقال عليه السلام: استولى علىٰ مادقَّ وجلَّ».

فإنّ الحديث ظاهر في أنّ لفظ (الله) غير مشتقّ من أَلَهَ ووَلَهَ، بل هو اسمٌ جامد بمعنى القيّومية المطلقة علىٰ ما سواه.

فالحقّ ما نُسب إلى الخليل اللغوي وغيره، من أنّ لفظ الجلالة بسيط وليس بمشتق، واللّام جزء اللفظ، وأنّ الواضع له هو الله تعالىٰ، بل جميع أسمائه عرفت بتعليمه عزَّوجلَّ، فهو المعرِّف فيها والمعرَّف بها، ويشهد له:

قول الصادق عليه السلام: «اعرفوا الله بالله».

إن قلت: إنّ كلام اللغويين في مفهوم (الله)، من حيث إنّه مفهوم لا الذات الأقدس، إذاً لا إشكال في صحّة قولهم في الاشتقاق، وكونه من اسم الجنس.

قلت: قولهم إنّما يصحّ في المفاهيم الممكنة، وأمّا إذا كان الموضوع واحداً وواجباً بالذات، يكون الإطلاق عليه مع إطلاقه على الممكن كالاشتراك اللفظي، كما ذهب إليه جمع من الفلاسفة في أسمائه تعالىٰ، فيكون إطلاقه عليه تعالى بنحو العَلَمية، وفي الممكن بنحو اسم الجنس، كما في لفظ المدينة مثلاً فإنّها عَلَم لمدينة الرسول صلى الله عليه وآله، واسمُ جنسٍ لسائر المدن، ولكن في اسمه تعالى لا يجوز

إطلاقه علىٰ غيره لاختصاصه به، كما في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّنِيَ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا﴾**[1] ويستفاد ذلك من كلام العرب قبل الإسلام أيضاً.

هذا ما يتعلّق بلفظ الجلالة من حيث هو.

وأمّا معناه: فلا ريب في أنّه ممّا تحيرَّت فيه العقول، مع اعتراف الجميع بوجوده، ودأب القرآن وما ورد في الشريعة التعبير عنه تعالى بالأسماء الحسنى (الصفات) التي ذكرت في القرآن، من دون تحديد بالنسبة إلى الذات، بل ورد في الأثر عن الأئمّة عليهم السلام:

«يا من لا يعلم ما هو، ولا كيف هو، ولا أين هو، ولا حيث هو، إلّا هو».

فأثبتوا له تعالى أصل الهوية، ولكن حَصَروا العَلَم بالهويّة به تعالىٰ.

نعم، ورد في الآثار عنهم عليهم السلام التعبير عنه تعالىٰ:

«أنّه ذات لا كالذّوات، وشيءٌ لا كالأشياء».

وعن أبي جعفر عليه السلام: «اذكروا من عظمة الله ما شئتم، ولا تذكروا ذاته، فإنّكم لا تذكرون منه شيئاً إلّا وهو أعظم منه».

وعن الصادق عليه السلام: «إن الله تعالى يقول: **﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾**، فإذا انتهى الكلام إلى الله تعالى فأمسكوا».

وأمّا ما ورد عن الفلاسفة المتألّهين: إنّه الذات الجامع لجميع الكمالات الواقعيّة، والمسلوب عنه جميع النواقص كذلك.

وعن العرفاء وبعض محقّقي الفلسفة الإلٰهية: أنّه الذات المسلوب عنه الإمكان مطلقاً.

وعن بعض قدماء اليونان، الذي عبّر عنه في كلماتهم بشيخ اليونانيّين:

---

١. سورة طه، الآية: ١٤.

أنّه ذاتٌ فوق الوجود.

يمكن إرجاع جميع ذلك إلى ما ورد عن الأئمّة الهداة عليهم السلام، وإن قصرت عبارات بعضهم عن ذلك. وسنعود إلى بعض ما يتعلّق بالمقام في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

ولعلّ عدم تعرض القرآن وسائر الكتب السماويّة، لحقيقة ذاته الأقدس، لوضوحه بالآثار، وقصور الممكن مطلقاً عن درك حقيقة ذات الواجب، وإنّما حدّه درك الآثار فقط، وهو تعالى بين ذلك كاملاً في كتابه، وتتمّ بذلك الحجّة والبيان.

وعلى أي تقدير، فـ(الله) هو الجامع لجميع الأسماء الحسنى التسعة والتسعين، أو الثلثمائة وستّين، التي من أحصاها دخل الجنّة ـ علىٰ ما رواه الفريقان ـ وهذه الأسماء المباركة منطوية في لفظ الجلالة، انطواء الشعاع في نور الشمس، مع المسامحة في هذا التشبيه.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

هما من الرحمة ومن مشتقّاتها، ورحمتُه عزّوجلّ أعمّ صفاته وأوسعها، شملت جميع ما سواه، قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، فكلما يطلق عليه شيء في جميع العوالم، يكون من رحمته تعالىٰ.

وإشكال: أنّ الشرَّ يطلق عليه الشيء أيضاً، فلابدّ وأن يكون من رحمته تعالىٰ.

مردود: بأنّه ليس في التكوينيّات شرّ محض، وإنّما يتحقّق الشرّ بالإضافة علىٰ ما يأتي.

---

١. سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

وأمّا في الاختيارات، فإنّ وساطة الاختيار بين الفعل والفاعل، تجعل الشرَّ باختيار الفاعل، فلا يكون من رحمته تعالىٰ، كما في قوله تعالىٰ: **﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾**(١).

وسيأتي تفصيل هذا البحث المفيد مستقلاً إن شاءالله تعالى، في الآيات المناسبة له.

وفي قوله تعالىٰ: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾**(٢)، إشارة إلى مظاهر رحمته الواسعة، وقد اعترف الأنبياء صلّى الله عليهم، والأئمّة عليهم السلام، وجميع الفلاسفة المتألّهين، بالقصور عن الإحاطة بمراتب رحمته تعالى الواسعة، وإنّ بعض عظمائهم أطال القول في أنّ وجود كلّ شيء من رحمته تعالىٰ، وأثبت ذلك بالأدلّة الكثيرة، ومع ذلك اعترف بالقصور عن دركها، وسيأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة لها.

ثمّ إنّ هاتين الكَلِمَتين من الصفات المشبهة، إلّا أنّهم فرّقوا بينهما بوجوه:

الأوّل: أنّ (الرحمٰن) مبالغة، و(الرحيم) صفة مشبهة، تدلّ علىٰ مجرّد الثبوت. هذا، وإن كان صحيحاً بالنسبة إلى ذات اللفظين حين الإطلاق على المخلوق، وأمّا من حيث إضافتِهمَا إلى الله عزّوجلّ فلا وجه للمبالغة بالنسبة إليه تعالىٰ، لأنّ صفاته بالنسبة إليه تعالى غير محدودة، فلا تجري المبالغة فيها.

نعم تصحّ المبالغة بالنسبة إلى مورد الرحمة، علىٰ نحو قوله تعالىٰ: **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾**(٣)، وقوله تعالىٰ: **﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ**

---

١. سورة النساء، الآية: ٧٩.

٢. سورة لقمان، الآية: ٢٧.

٣. سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

حِسَابٍ﴾[١]، إلىٰ غير ذلك ممّا ترجع المبالغة فيه، إلَى المبالغة في الرحمة بالنسبة إلى المخلوق.

وأمّا ما في بعض التفاسير: من أن فعلان لا يدلّ على الثبوت بخلاف فعيل، وإنّما ذكر تعالى (الرحيم) لأجل إظهار ثبوت الرحمة بالنسبة إليه تعالىٰ.

مخدوش: لأنّ التفرقة بين اللفظين، إنّما تصحّ في الممكنات دون الواجب تبارك وتعالىٰ، كما عرفت.

الثاني: (الرحمٰن) يختصّ بالدّنيا، و(الرَّحيمُ) بالآخرة، لتقدّم الدُّنيا على الآخرة في سلسلة العوالم والنشآت الزمانية، فيكون المقدّم للمتقدّم، والأخير للمتأخّر، أو لذكر الرحيم مقروناً بالغفران والتوبة في جملة من الآيات الكريمة، والغفران وأثر التوبة في الآخرة، فيكون الرحيم مختصّاً بها.

والوجهان مخدوشان، لا يصلحان حتّى للاستحسان، فإنّ العوالم بالنسبة إليه تبارك وتعالى في عرض واحد، وإنّه محيط بالزمان والزمانيات وخارج عنهما، إلّا أن يلحظ ذلك بالنسبة إلى المخلوق. وقد ورد الرحمٰن بالنسبة إلى الآخرة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا﴾[٣].

كما ورد (الرحيم) بالنسبة إلى الدُّنيا، في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[٤].

وقد ورد عن الأئمّة الهداة: «يا رحمٰن الدُّنيا والآخرة ورحيمهما».

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

٢. سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

٣. سورة مريم، الآية: ٨٥.

٤. سورة النساء، الآية: ٢٩.

الثالث : أنّ الأوّل عام للجميع، لقوله تعالىٰ : ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[١]، والثاني خاص بالمؤمنين لقوله تعالىٰ : ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢].

وهو أيضاً مردود ، فإنّ ذكر بعض الأفراد وأشرفها، لا يدلّ علىٰ نفي ما عداه إلّا بالمفهوم ، وقد ثبت في محلّه أنّه لا مفهوم للقيد ، فراجع .

الرابع : أنّ الرحمٰن ذات الرحمة الشاملة لكلّ محتاج إليها ، وبجميع مراتبها التفضلية ، بلا اختصاص لها بنوع دون نوع ، من الجماد و النبات والحيوان والإنسان وسائر المخلوقات ، فلأجل إهمال المتعلّق اُستفيد العموم والشمول لجميع الأنواع الممكنة، من حضيض الجمادات الى أوج المجرَّدات .

نعم ، من أهمِّ مصاديق الرحمانيّة، تنظيم عالم التكوين بأحسن نظام، ومن أجلى مصاديق الرحيميّة، تنظيم التشريع بأكمل نظام ، وأثر التشريع إنّما يظهر بالنسبة إلى المؤمنين العاملين به ، اختصّ الرحيميّة بالآخرة من هذه الجهة ، فهو تعالى رحيمٌ في الدُّنيا بالتشريع، وفي الآخرة بالجزاء عليه .

والذي ينبغي أن يُقال : إنّه لاريب أنّ جميع ما سواه تعالى مورد إفاضة الوجود منه تبارك وتعالىٰ، وهذا هو الرحمة الرحمانية التي خرج بها ما سواه من العدم إلى الوجود؛ كما لا ريب في أنّ كلّ نوع من أنواع الموجودات مطلقاً ، بل كلّ صنف من أصنافها له خصوصيّة لاتوجد تلك الخصوصيّة في غيرها ، وهي غير محدودة بحدّ ، وتنكشف في طيّ العصور ومر القرون ، وتلك الخصوصيّات غير المتناهية المجعولة منه تبارك وتعالى مورد الرحمة الرحيميّة .

فكما أنّ في الإنسان نوعاً خاصّاً منه، وهو المؤمن مورد رحمته الرحيميّة، كذلك يكون في المَلَك والفَلَك والجَماد والنبات والحيوان أيضاً

١ . سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

٢ . سورة التوبة، الآية: ١٢٨.

أصنافٌ خاصَّة، تكون في الأصناف مورد رحمته الرحيميّة، بعد عدم برهانٍ صحيح على اختصاص رحمته الرحيميّة بخصوص دار الآخرة، كما عرفت.

وقد ذُكرا في مفتتح القرآن العظيم، للإعلام بأنّ القرآن من أبرز مظاهر رحمتيه تعالىٰ، أمّا الرحمانيّة فلفرض وحيه وإنزاله، وأمّا الرحيميّة فلأنّه تبارك وتعالى تجلّىٰ لعباده، فأظهر فيه المعارف الربوبية، وخلاصة الكتب السماوية، وزبدة حقائق التكوين والتشريع، وربط به قلوب أوليائه.

ثم إنّه يظهر من ذكر الرحمٰن بعد اسم الجلالة في البسملة، وفي قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾[١]. وسائر موارد استعمال هذا الإسم المبارك في القرآن العظيم، أنّ لهذا الإسم الشريف أهمَّية عظمىٰ، ومنزلة كبرىٰ عند الله تعالىٰ، فهو من أُمّهات الأسماء كالحيّ، والربّ، والقيّوم، والرحيم، وإلى هذه الأربعة ترجع سائر أسمائه عزّوجلَّ. فإذا رجعنا إلى موارد استعمالات هذا اللفظ في القرآن الكريم، نرى أنّه استعمل مقروناً بالتعظيم والتجليل بالنسبة إلى عالمي الدُّنيا والآخرة:

قال تعالىٰ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَانِ﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾[٥].

---

١. سورة الإسراء، الآية: ١١٠.

٢. سورة مريم، الآية: ٦١.

٣. سورة الفرقان، الآية: ٢٦.

٤. سورة الرحمٰن، الآية: ١ ـ ٢.

٥. سورة الملك، الآية: ٣.

وأمّا الرَّحيم: فقد ذُكر في القرآن الكريم غالباً مقروناً مع الرؤوف والتواب والغفور ، فقد جمع الله تبارك وتعالى في كتابيه التدويني (القرآن)، والتكويني بين رحمته الرحمانية ورحمته الرحيميّة ، فتكون الرحمة الرحمانية عامَّة لجميع الممكنات :

قال تعالىٰ : ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1] أي استولى ، والعرش هنا عبارة عمّا سواه تعالىٰ .

والرحمة الرحيميّة تعمّ جميع ذوي الكمالات، التي أُفيضت عليهم ، من المجرّدات إلى الجمادات ، فتكون من مظاهر رحمتيه تعالى الرحمانية والرحيميّة ، كما عرفت .

***

١ . سورة طٰه، الآية: ٥.

بحوث المقام

بحثٌ دلالي:

البسملة هي إيجاد الإضافة بين العبد وخالقه إضافة تشريفية، وقد اختيرت هذه الجملة المباركة، لأنّ فيها من أوسمة الخير ما عرفت، فإن قَرن العبد اعتقاده بالعمل بما يدعو إليه تعالىٰ، كانت البسملة وساماً قوليّاً واعتقاديّاً وعمليّاً، وإلّا كانت لفظية فقط، لها بعض الآثار كالتبرك باللِّسان مثلاً.

ومثل هذه الإضافة لم تكن أمراً غريباً عند النّاس، بل هو مألوف عندهم بذكر أسماء عظمائهم ورؤسائهم، في مبادئ أُمورهم، تشرّفاً وتقرّباً إليهم، ووساماً لأنفسهم، مع أن المنسوب إليه كنفس المنسوب، والنسبة في معرض الهلاك والزوال، فأثبت القرآن للنّاس إضافة تشريفية إلى الله تبارك وتعالى، الذي لم يزل ولا يزال، وتبقى الإضافة إليه كذلك أيضاً، فقرَّر ما هو المألوف لديهم بلفظ آخر وهو البسملة، كما في قوله تعالىٰ: **﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾**[1].

ومنه يعلم أهمّية البسملة، فإنّ فيها إضافة إلى الرحمن الرحيم الأزلي الأبدي، ولهذا وردت أخبار تؤكد على الابتداء بها في جميع الأُمور، كما سيجيء في البحث الآتي.

فإذا قال العبد المؤمن: **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ﴾**، يكون هن مظاهر رحمته تعالى من جهتين:

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.

جهة التلفّظ بالقول.

وجهة الذات، فإن ذاتَه من مظاهر رحمته. كما عرفت.

ثمّ إنَّ الاسم ما أنبأ عن المسمّىٰ، وهو:

تارةً: يكون ذات المسمّىٰ.

وأخرى: جوهراً موجوداً خارجياً.

وثالثة: عرضاً كذلك.

والكلّ يصحّ بالنسبة إليه تعالىٰ.

فمن الأوّل: ما ورد في الأثر عن عليّ عليه السلام: «يا من دلَّ على ذاته بذاته»، فاتّحد فيه تعالى الدال والمدلول، واختلف بالاعتبار، ومثله كثير.

ومن الثاني: أنبياء الله وأولياؤه الذين جاهدوا في الله، وفي الحديث: «نحن أسماء الله الحسنىٰ»، بل عن بعض الفلاسفة المتألّهين: «إنّ جميع الموجودات تحكي عن جماله وجلاله».

ومن الثالث: الأسماء اللفظية التي تطلق عليه تعالىٰ، ويأتي في المواضع المناسبة تتمّة الكلام.

والمعروف أنَّ أسماءه تعالى توقيفية، لا يجوز إطلاق اسم عليه تعالىٰ، لم يرد في الشريعة المقدّسة إطلاقه عليه، وإن أمكن ذلك عقلاً، فلا يجوز إطلاق المادَّة والصورة عليه تعالى؛ لامتناعه عقلاً وعدم الورود شرعاً، كما لا يجوز إطلاق العلَّة عليه تعالى؛ لعدم وروده شرعاً وإن أمكن عقلاً.

وأمّا الخالق والجاعل، وسائر مشتقّاتهما، فقد أُطلقا عليه شرعاً، وهو صحيح عقلاً أيضاً، كما أنّه لم يعهد إطلاق اللَّقب والكنية عليه تعالىٰ، لأجل أُمور يأتي التعرض لها، وإن قيل إنّ الرحمٰن بمنزلة اللقب له تعالىٰ، ولكنّه لم أظفر بما يعضده من خبرٍ يدلّ علىٰ ذلك.

بحث فقهي:

البسملة في اوّل كلّ سورة إمّا جزء منها، أو من السورة التي تسبقها، أو آية متكرّرة في القرآن، أو من غيره ذكرت تبرّكاً.

والكلّ واضح البطلان كما يأتي، سوى الأوّل، وقد وردت النصوص علىٰ ذلك، فتكون البسملة جزءً من كل سورة التي افتتحت بها، إلّا في سورة التوبة فإنّه لا بسملة لها، كما ستعرف.

فعن علي عليه السلام: «البسملة في أوّل كلّ سورة آية منها، وإنّما كان يعرف انقضاء السورة بنزولها ابتداءً للأُخرى، وما أنزل الله تعالى كتاباً من السماء إلّا وهي فاتحته».

وعنه عليه السلام أيضاً: «أنّها من الفاتحة، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقرأها ويعدّها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني».

وعن أبي جعفر عليه السلام: «سرقوا أكرم آية من كتاب الله، بسم الله الرحمن الرحيم».

وعن الرضا عليه السلام: «ما بالهم قاتلهم الله! عَمَدوا إلى أعظم آية في كتاب الله، فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها».

وفي سنن أبي داود، قال ابن عبّاس: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان لا يعرف فصل السورة ـ أي انقضاءَها ـ حتّى ينزل عليه بسم الله الرحمٰن الرحيم».

وفي صحيح مسلم، عن أنس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أنزل عليّ آنفاً سورة، فقرأ: ﴿بسم الله الرَّحمن الرَّحيم﴾».

وروى الدارقطني، عن أبي هريرة:

«إذا قرأتم الحمد فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم، فإنّها أُمّ القرآن، أُمّ

الكتاب ، والسبع المثاني ، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها» .

والأخبار في كونها جزء من سور القرآن كثيرة من الفريقين .

ويستحبّ الجهرُ بالبسملة مطلقاً ، كما ورد النصّ بذلك ، وقد جُعل ذلك من علامات المؤمن ، كما في الحديث . ولعلَّ السرِّ في ذلك هو أنّ الجهر بها إجهار بالحقّ ، وإعلان لحقيقة الواقع .

كما تستحب الاستعاذة بالله من الشيطان عند قراءة القرآن، لقوله تعالىٰ: **﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾**[1]، بل يستفاد من بعض الآيات ـ لاسيما سورة النّاس ـ استحباب الاستعاذة مطلقاً . وهي إمّا قولية أو فعلية . واجتماعهما في واحد هو من الكمال ، وسيأتي التفصيل .

بحث روائي:

عن نبيّنا الأعظمﷺ فيما رواه الفريقان :

«كلّ أمر ذي بال لم يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر» .

وعن الصادقعليه السلام : «لا تدعها ـ أي البسملة ـ ولو كان بعدها شعر» .

أقول : يحمل الخبر الأوّل على الأفضلية جمعاً بينهما .

وعن أبي جعفرعليه السلام : «أوّل كلّ كتاب نزل من السماء بسم الله الرحمن الرحيم» .

وعن الرضاعليه السلام : «إنّها أقرب إلى اسم الله الأعظم من ناظر العين إلى سوادها» .

---

١ . سورة النحل، الآية: ٩٨ ـ ١٠٠.

أقول : يأتي ما يتعلَّق بالاسم الأعظم، ومراتبه وآثاره، ومَن هو العالِم به.

وعن أبي جعفرعليه السلام : «إذا قرأتها فلا تبال أن لا تستعيذ، واذا قرأتها سترتك ما بين السماء والأرض».

أقول : ويظهر منه إنّه عند دوران الأمر بين البسملة والاستعاذة، تكون البسملة أولى.

وعن الصادقعليه السلام : «مَن تركها من شيعتنا، امتحنه الله بمكروه لينبّهه على الشكر والثناء، ويمحو عنه وصمة تقصيره عند تركه».

أقول : يظهر منه ومن جملةٍ من الأخبار أنّ ترك المندوب، وفعل المكروه فيه آثار خاصّة، فضلاً عن ترك الواجب وفعل المحرم.

وعن الرضاعليه السلام : «إنها الآية التي قال الله عزّوجلّ : **﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾**».

وعنهعليه السلام أيضاً في تفسير البسملة : «يعني : أسِمُ بسمةٍ من سمات الله تعالى وهي العبادة. قيل له : ما السمة؟ قالعليه السلام : العلامة».

أقول : العلامات الدالّة على الله عزّوجلّ كثيرة :

فإمّا جوهر خارجي كالمشاعر العظام.

أو عمل خارجي كالصَّلاة.

أو ذكر قلبي كالتفكُّر في عَظمة الله تعالى والتوجّه إليه.

أو ذكر لفظي كالبسملة ونحوها.

وفي رواية أنّ كلّ واحد من أجزاء البسملة، إشارة إلى اسمٍ من أسمائه تعالىٰ، فعن الصادقعليه السلام :

«الباء بهاء الله، والسين سناء الله، والميم مجد الله (ملك الله)، والله إله كلّ شيء، الرحمٰن بجميع خلقه، الرحيم بالمؤمنين خاصّة».

أقول: المراد ببهاء الله جماله وجلاله، والسناء بمعنى الرفعة، وأشار عليه السلام في هذا التفسير إلى علم الحروف، وهو علمٌ شريف إلّا أنَّه مكنون عند أهله، وسيأتي البحث عنه إن شاء الله تعالىٰ.

وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ لله عزَّوجلَّ مائة رحمة، أنزل منها واحدة إلى الأرض، فقسَّمها بين خلقه، فبها يتعاطفون ويتراحمون، وادّخر تسعاً وتسعين لنفسه، يرحم بها عباده يوم القيامة».

أقول: رواه الفريقان.

وعن علي عليه السلام: «الرَّحمٰن العاطف على خلقه بالرزق، لا تنقطع عنهم مواد رزقه وإن انقطعوا عن طاعته».

أقول: المراد من مواد الرزق أسبابه.

وعن الصادق عليه السلام: «الرَّحمٰن اسمٌ خاص لصفةٍ عامّة، والرَّحيم اسمٌ عام لصفة خاصّة».

أقول: اسم خاصّ: أي لا يطلق علىٰ غيره تعالىٰ.

والصفة العامّة: لأنّ رحمته تعالى وسعت كلَّ شيء.

والرحيم: اسمٌ عام لإطلاقه علىٰ غيره تعالى أيضاً.

والصفة الخاصّة: يعني مختص بالمؤمنين في الآخرة، وتقدَّم أن هذا الاختصاص إضافي، أي أنَّ أفضل أقسام الرحيميّة إنّما تكون للمؤمنين فقط.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. الألف واللّام في (الحمد) للجنس أو الاستغراق، والمعنى واحد، والفرق بالاعتبار، فإذا لوحظ الحمد من حيث طبعه وذاته، الشامل لجميع ما يدخل تحته من الأفراد، يطلق عليه الجنس، وإذا لوحظ من حيث الأفراد، فهو استغراق، فالحقيقة

واحدة، والفرق بالاجمال والتفصيل. وعلىٰ أي تقدير يفيد الانحصار به تعالىٰ، كما سيأتي.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾

الحمد: هو الثناء على الجميل الاختياري، والمعنى أنّ كل حمد يصدر من أي حامد، اختيارياً كان أو غير اختياري (تكويني)، فهو لله تعالىٰ، لأنّ الكلّ مخلوق ومربوب له عزّوجلّ، فهو الخالق والمدبِّر لجميع ما سواه، فيرجع ما سواه إليه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[1]، فكما أنّه تعالى مبدأ الكلّ، يستلزم أن يكون حمد الكلّ له.

وفي الآيات دلالات واضحة عليه، قال تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْأَخِرَةِ﴾[4].

ثمّ إنَّ هناك عناوين أربعة: الحمد، والمدح، والشكر، والتسبيح.

ونسب إلى أهل اللغة، وجمعٌ من الأُدباء والمفسِّرين:

أنَّ الأوّل: هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري.

---

١. سورة الشورىٰ، الآية: ١٥٣.

٢. سورة التغابن، الآية: ١.

٣. سورة الروم، الآية: ١٨.

٤. سورة القصص، الآية: ٧٠.

والثاني : هو الثناء باللسان على الجميل، ولو لم يكن اختيارياً ، كما في قولك : (مدحتُ اللؤلؤة علىٰ صفائها ، والنجوم اللّامعة علىٰ جلائها وبهائها) ، فيكون الفرق بينهما بالعموم والخصوص .

ولم يرد لفظ المدح في القرآن الكريم ، كما أنَّه لم يستعمل الحمد فيه إلّا لله تبارك وتعالىٰ .

والثالث : ما أنبأ عن عظمة المُنعم، سواء أكان بالقلب أو اللسان أو الأركان ، فالتفكر في عظمته تعالى شكرٌ له ، وذكره باللسان وفعل الصَّلاة شكر له أيضاً .

فالحمد أعمّ من الشكر من ناحية المتعلَّق ، لأنَّه الجميل الاختياري، سواء أكان للحامد أم لغيره ، وأخصّ منه من ناحية المورد، لأنَّ مورده اللّسان فقط في الإنسان ، والشكر بالعكس فإنَّ متعلَّقه الانعام على الشاكر فقط ، ومورده يعمُّ القلب واللسان والأركان .

وقد ورد الشكر في القرآن بالنسبة إليه تعالى كثيراً :

قال تعالىٰ : ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[2] .

وقد يكون من الله عزَّوجلَّ لعباده:

قال تعالىٰ : ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً﴾[3] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[4] .

---

١ . سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

٢ . سورة البقرة، الآية: ١٧٢.

٣ . سورة الإسراء، الآية: ١٩.

٤ . سورة النساء، الآية: ١٤٧.

والمراد بشكره تعالىٰ، هو الجزاء على الخير، سواء كان في الدُّنيا أو في الآخرة أو فيهما معاً. كما يقع من الخلق للخلق، قال تعالىٰ: ﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[١].

والتسبيح: هو التنزيه عن كلّ نقص مطلقاً، ويختصّ ذلك بالله تعالى كاختصاص الحمد به تعالىٰ:

قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٣].

ويأتي التفصيل. هذا ما هو المعروف بينهم.

وهنا وجه آخر: وهو أنّ مادّة (ح م د)، مع مادّة (م د ح) واحدة في أصل المواد، وإنّما الاختلاف بالتقديم والتأخير، وهذا الاختلاف أوجب اختصاص لفظ الحمد بالله تعالىٰ، وإطلاق المدح علىٰ غيره أيضاً، فيكون لفظ الحمد كلفظ (الله)، و(الرحمن) مختصاً به تعالىٰ، فلا ينبغي إطلاقه بالنسبة إلى غيره عزّوجلّ، ولو أُطلق يكون بمعنى المدح، بخلاف المدح، فإنّه يُطلق علىٰ غيره تعالى إطلاقاً شائعاً، هذا من ناحية الحصر اللفظي.

وأمّا من ناحية الحصر المعنوي، فلا ريب في أنّ الممكنات له ومنه وبه تعالىٰ، وقد ثبت في محلّه أنّ كلّ ما بالغير يكون بذاته، وكماله منه، فكمال الكلّ ومحمودية الكلّ ترجع إليه.

ثم انَّ الحمد يكون من الله تعالى لذاته المقدّسة، وهو كثير في القرآن:

---

١. سورة لقمان، الآية: ١٤.

٢. سورة الصافّات، الآية: ١٥٩.

٣. سورة الإسراء، الآية: ٤٤.

قال تعالىٰ: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ﴾[٣].

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة.

ويكون من خلقه له تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾[٤].

وأمّا التسبيح: فيقع منه تعالى ومن خلقه له، ولكن لا يقع من الخلق للخلق، كما يأتي التفصيل.

قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

لهذا الاسم (ربّ) الشريف منزلة عظيمة في الكتب السماوية، لاسيّما القرآن المهيمن علىٰ جميعها، فهو من أُمهات الأسماء المقدّسة كالحيّ، والقيوم، بل هو الأُم وحده؛ لأنّه ينطوي فيه الخالق والعليم، والقدير، والمدبِّر، والحكيم وغيرها، فإنّه غير الخلق، كما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[٥]، أي خلقهنّ.

وقد ذكر بعض المفسِّرين ـ تبعاً لجمع من اللّغويين ـ أنَّ الرّب بمعنى المالك والمَلِك أو الصاحب. لكن التدبُّر في استعمالات هذا اللفظ، يعطي أنّ المَلِك شيء، وربانيّته شيء آخر، قال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[٦].

---

١. سورة الروم، الآية: ١٨.

٢. سورة فاطر، الآية: ١.

٣. سورة الجاثية، الآية: ٣٦.

٤. سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

٥. سورة الأنبياء، الآية: ٥٦.

٦. سورة الزمر، الآية: ٦.

وقال تعالىٰ: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[١].

فإنّ فيه خصوصيّة، ليست هي في المالك والمَلِك والصاحب، وهي الربوبية الحقيقية، الناشئة عن الحكمة الكاملة التي لايتصوّر النقص فيها بوجه، فالتكوين شيءٌ، وتنظيم عالم التكوين بتربيبه على النظام الأحسن شيءٌ آخر، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٢].

ويدلّ علىٰ ذلك ـ مضافاً إلى ما ذكر ـ عدم صحّة استعمال كلّ واحد منها مقام الآخر، في الاستعمالات الصحيحة إلّا بالعناية.

وعلى أيّة حال، فإنّ الرّب مجمعُ جميع أسماء أفعال الله المقدّسة، لأنّ جميع أفعاله تبارك وتعالى متشعبة من جهة تدبيره تعالىٰ، وتربيبه في كلّ موجود بحسبه، فالربّ مظهر الرحمة والخلق والقدرة والتدبير والحكمة، فهو الشامل لما سواه تعالىٰ، فإنّهم المربوبون له تعالىٰ على اختلاف مراتبهم.

فكم فرق بين الربوبية المتعلقة برسوله الأكرم ﷺ، أو سائر الأنبياء العظام، أو الملائكة المقرّبين، وما تعلّق بسائر النّاس؟!

فالربوبية لها مراتب، تختلف باختلاف مراتب المربوب والمتعلّق:

قال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[٤].

وقد ورد في الأثر عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام: «ربّ الملائكة والروح».

---

١. سورة الناس، الآية: ١ ـ ٣.

٢. سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

٣. سورة العلق، الآية: ٣.

٤. سورة الزمر، الآية: ٧٥.

وقد قرن هذا اللفظ في القرآن الكريم، بما يفيد عظمته وجلالته، قال تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[٥].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

ولجلال عظمته، وقع مُقْسَماً به، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[٦].

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٧].

وقال تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾[٨].

ولأجل ما تقدّم ـ من أنّه أُمّ الأسماء، وكونه مظهراً لجملةٍ من أسمائه المقدّسة ـ لم يرد في القرآن الكريم دعاءٌ من عباده إلّا مبدوّاً باسم الربّ:

قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَآ آتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾[٩].

---

١. سورة الصافّات، الآية: ١٨٠.

٢. سورة المؤمنون، الآية: ٨٦.

٣. سورة الصافّات، الآية: ١٢٦.

٤. سورة يٰس، الآية: ١٥٨.

٥. سورة سبأ، الآية: ١٥.

٦. سورة النساء، الآية: ٦٥.

٧. سورة الحجر، الآية: ٩٢.

٨. سورة الذاريات، الآية: ٢٣.

٩. سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[٣].

وغيرها من الآيات المباركة.

ولعلّ السرّ في ذلك، هو إفادة هذا اللفظ حالة الإنقطاع إلى الله تعالى، أكثر من غيره، ولذا وقع من أنبيائه العظام في تلك الحالة، قال تعالى عن لسان نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾[٤].

وقال تعالى عن لسان نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلاً وَنَهَارًا﴾[٥].

فليس في أسمائه المقدّسة، أعمّ نفعاً، وأكمل عنايةً ولطفاً، من اسم (الربّ) بالمعنى الذي ذكرناه، ولعلّ المراد بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٦].

وقوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[٨].

هو الربوبيّة العظمى الإلٰهية، فإنّ التغييرات والتبدّلات اللازمة لعالم الكون والفساد، والإفاضات الحاصلة منه تعالىٰ على العوالم، هي عبارة عن الملكوت

---

١. سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

٢. سورة إبراهيم، الآية: ٣٥.

٣. سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

٤. سورة الفرقان، الآية: ٣٠.

٥. سورة نوح، الآية: ٥.

٦. سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

٧. سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

٨. سورة يس، الآية: ٨٣.

المضافة إليه تعالىٰ.

مع أنّ الثابت في علم الفلسفة، أنّ ما سواه تبارك وتعالى يحتاج إليه تعالى في البقاء، كما يحتاج إليه في أصل الحدوث، ففي كلّ لحظة ـ بل أقلّ منها ـ له رحمة خالقيّة وربوبيّة بالنسبة إلى ما سواه من الموجودات، وهذا هو معنى القيموميّة المطلقة التي لا يمكن إحاطة الإنسان بها، والربوبيّة العظمىٰ، كعدم إمكان الإحاطة بذاته تعالى وتقدّس شأنه.

قوله تعالىٰ: ﴿الْعَالَمِينَ﴾:

جمع عالم، وهو أيضاً جمعٌ لا واحد له من لفظه، كالقوم والرهط والنفر، واشتقاقه من العلامة بمعنى الدلالة، فكلّ ما هو مخلوقٌ علامةٌ وآيةٌ كاشفةٌ عن خالقه، كما أنّ كلّ معلول أو مصنوع علامة للعلّة أو الصانع، والممكن علامة عقلية للواجب بالذات. فكلّ ممكن عالم من عوالمه عزّوجلّ بذاته، وكذا كلّ ما يتعلّق من عوارضه وآثاره وخواصّه من أدنى الموجودات إلى أرقاها، فجميع الموجودات عوالمه، وجميع عوالمه آياته، ويأتي في الأخبار تفسير العالمين بالجماعات من المخلوقات أيضاً.

وعن جمعٍ: أنّ العالم لا يُطلق إلّا علىٰ كل جماعة متمايزة لأفرادها، وصفات تقربها من العقلاء، وإن لم تكن منهم، وذلك لأنّ هذه العوالم هي التي يظهر فيها معنى التربية.

وهو فاسد، لأنّه إن كان المراد به التغليب فله وجه.

وإن كان المراد عدم الصدق الحقيقي علىٰ ما لا يعقل، فهو مخالفٌ لصحّة إطلاق عالم التكوين، فإن إطلاقه يشمل الجمادات أيضاً. وأنّ أثر التربية يظهر

في كلّ ما يسمّى شيئاً، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ﴾[1]. فلا اختصاص للتربية بمن يعقل.

ثمّ إنّ معنى العالم ومدلوله وسيع جداً، وغير محدود بحدّ، بل غير متناه ـ بالمعنى الذي سنبينه إن شاء الله تعالىٰ ـ فمن أقرب العوالم إلى الإنسان، عالم التراب الذي يكون محسوساً له، وهو عظيم لم يتمكن الإنسان من إدراك جميع خصائصه وجهاته. مع أنّه من أجلّ العوالم نفعاً، وكذا بالنسبة إلى عالم الإنسان الذي كلّ من أراد فهمه لا يزداد الا تحيّراً فيه، وهكذا غيرهما من العوالم، فليس للإنسان إلّا الاعتراف بالعجز والقصور أمام جلال عظمته تبارك وتعالىٰ.

والعوالم، تارةً: تكون في نفسها مترتبة منظمة، بأن يكون كلّ سابق مقتضياً للاحقه، فيصحّ أن يقال أوّل ما خلق الله العقل في عالم الروحانيّين والمجرّدات ـ كما في الحديث ـ، وأوّل ما خلق الله تعالى في عالم المادّيات الماء ـ كما عن علي عليه السلام ـ وأوّل ما خلق الله تعالى في عالم الأعراض الحروف ـ كما في بعض الأخبار ـ، إلى غير ذلك مما ورد في أوّليات خلق عوالمه تعالىٰ.

وللفلاسفة من الأقدمين، بل ومن المسلمين، مباحث علمية في بيان العوالم المترتّبة (طولية)، وقد أثبتوا ذلك بالبرهان، وسيأتي تفصيل العوالم في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

وأُخرىٰ: لا ترتّب بينها، بل ينشأ جمع من تلك العوالم عن مبدءٍ واحد في عرض واحد، كما نشاهد ذلك في عالم الطبيعة.

وثالثة: تكون مركبة من القسمين، كما هو المحسوس في عالم النطفة في صلب الرجال، ثمّ مسيرها إلى الرحم، ومجيئها إلى هذا العالم، وكذا كلّ ما هو في مسير الاستكمال والارتقاء، وتسمى هذه العوالم الطولية، وفي عرض ذاك عوالم

---

١. سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

أُخرى إن لوحظت مع نظيرها، كما تقدّم في القسم الثاني.

وهناك عوالم (طولية) أُخرى يمرُّ الإنسان عليها وهي عالم الدُّنيا، وعالم البرزخ، وعالم النشر والحشر، وعالم الخلود، وسيأتي بيانها في الآيات المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

نعم، هنا بحث وهو أنّ العوالم هل هي متعدّدة حقيقة، أو أنّ تعدّدها اعتباري محض؟

عن بعض المحقّقين من المتألِّهين: أنّ العالم واحد، وهو عالم الدُّنيا، وغيره من عوالم البرزخ والحشر والنشر والخلود من تبعاتها وشؤونها، فتكون الدُّنيا كالمادّة للجميع السارية فيها، فيكون العالم واحداً حقيقة.

وسيأتي تفصيل هذا البحث في الآيات المناسبة له.

وكلّ ما تقدّم من العوالم ـ بشؤونها وأصنافها ـ غير متناهية بجميع مراتبها ـ ويأتي شرح ذلك مفصّلاً ـ وأنّها مخلوقة بأحسن خلق وأكمل نظام، كما أنّ جميع تلك الأصناف غير المتناهية، مورد ربوبيّته العظمى، وقيموميّته المطلقة، وله المعيّة (الإحاطة) التدبيرية بكل ما سواه من العالم، ولكن تلك المعيّة في العباد، لاتوجب سلب اختيارهم، لأن الاختيار فيهم ثابت، لفرض وجود التربية التشريعيّة، وهي لا تعقل بدون الاختيار.

وأمّا تربيته التكوينيّة، فهي منحصرة بإرادته واختياره تعالىٰ، كما يأتي تفصيل هذا الإجمال في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ في ذكر (ربّ العالمين) بعد (الحمد)، دلالةٌ علىٰ أنّ من موجبات استحقاقه تعالى للحمد، هو كونه ربُّ العالمين.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾:

تقدَّم تفسيرهما. وإنّما كرَّر سبحانه وتعالىٰ: «الرحمن الرحيم» هنا، بناءً علىٰ جزئيّة البسملة للفاتحة، كما هو الحقّ عند المسلمين؛ لأنّ الرحمن الرحيم، لوحظا في البسملة بالعنوان العام، من كونهما من صفات الذات الأقدس، بلا إضافة إلى شيء، وفي الفاتحة لوحظا باعتبار منشأ استحقاقه تعالى للحمد، فهذه الخصوصيّة توجب الاختلاف في الجملة وبها يرتفع التكرار.

قوله تعالىٰ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾:

هذه المادّة (المالك) بأي هيئة استعملت تكون بمعنى الاستيلاء والإحاطة والاحتواء، سواء أكان بالنسبة إلى الخلق والإيجاد، أو بالنسبة إلى النظم أو الانتظام.

نعم، هي في المخلوق محدودة لفرض محدودية ذاته وصفاته، وفي الخالق لا وجه للتحديد فيه بوجه من الوجوه، وذكر يوم الدِّين من باب ذكر بعض المصاديق لنكتة، لا للانحصار، كما ستعرف.

نعم، مالكيّة يوم الدِّين تستلزم مالكيّته لجميع العوالم السابقة عليه، نحو استلزام النتيجة للمقدّمات، كما أنَّ مالكيّة الدُّنيا ملازمة لمالكيّة يوم الدِّين، كاستلزام المقدّمات للنتيجة المنطوية فيها، مع أن قوله تعالىٰ: **﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾**[1]، وقوله تعالىٰ: **﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾**[2]، وقوله تعالىٰ: **﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾**[3] عامٌ يشمل جميع العوالم، ومالكيّته لها بالدلالة المطابقيّة.

---

١. سورة الملك، الآية: ١.

٢. سورة التغابن، الآية: ١.

٣. سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

ثمّ إنّه وردت هذه المادّة بأغلب مشتقّاتها في القرآن الكريم ، فقد أطلق فيه المَلِك ـ بفتح الميم وكسر اللام ـ بالنسبة إليه تعالىٰ :

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾[1].

وقال تعالىٰ : ﴿فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾[2].

وقال تعالىٰ : ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾[3].

كما ورد المُلك ـ بضمّ الميم وسكون اللام ـ مضافاً إليه تعالى كثيراً.

قال تعالىٰ : ﴿لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[4].

وقال تعالىٰ : ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[5].

وقال تعالىٰ : ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾[6].

وقد ورد المالك ، قال تعالىٰ : ﴿اللَّهُمَّ مَالِكَ الْـمُلْكِ﴾[7]، كما ورد المليك أيضاً ، قال تعالىٰ : ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[8].

ولم يرد المِلك ـ بكسر الميم وسكون اللام ـ لإغناء المُلك ـ بضمّ الميم ـ عن ذلك بالأتمّ والأكمل ، ولعلّ عدم وروده في القرآن، لأنّه غالباً يستعمل في الأمور الزائلة ، وهو تعالى منزّهٌ عن إضافة مثله إليه .

هذا وقُرىء (مَلِك)، لأنّ كلّ مَلِك يستلزم المالك ولا عكس .

---

١. سورة الحشر، الآية: ٢٣.

٢. سورة طه، الآية: ١١٤.

٣. سورة الناس، الآية: ٢.

٤. سورة الحديد، الآية: ٢.

٥. سورة فاطر، الآية: ١٣.

٦. سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

٧. سورة آل عمران، الآية: ٢٦.

٨. سورة القمر، الآية: ٥٥.

والظاهر أنّه لافرق بالنسبة إليه تعالىٰ، لكونه مالكاً في عين ملكيّته تعالى وبالعكس، فكما أنّه تعالى ربّ العالمين بالنسبة إلى جميع الموجودات، كذلك مَلِك ومالك بالنسبة إلى جميعها أيضاً.

وقد يُرجّح قراءة (مالك)، لأنّ المالكيّة تشمل ملكيّة الأجزاء والجزئيات، بخلاف (مَلِك)، فإنّ الملكيّة هي التسيطر على الكلّ. هذا بحسب اللغة.

وأمّا بالنسبة إليه تعالىٰ، فقد قلنا: إنّه لا وجه لذلك، كما تقدّم، وإن كان قراءة (مالك) أوفق بالعرف.

﴿يَوْمِ﴾:

المراد به هو الوقت، وان كان إطلاقه على الزمان الذى لا ظلام فيه بالطبع إطلاقاً شائعاً، ولكن ليس بحسب ذاته ومن مقوّماته، فهو غير محدود بحدٍّ معيّن، بل هو بالنسبة إلى هذا العالم الذي نحن فيه، المقدّر فيه الليل والنهار لأجل دوران الكرة الأرضية، لا بالنسبة إلى جميع العوالم، ولذا لم يذكر اليوم في القرآن في مقابل الليل، وإنّما ذكر النَّهار في مقابله.

وممّا يدل علىٰ عدم التحديد فيه قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾**[١].

وقوله تعالىٰ: **﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾**[٢]، وقوله تعالىٰ: **﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾**[٣].

بناءً علىٰ أنّ اليوم المعهود لدينا، إنّما حَدث بعد خلق السماوات والأرض.

---

١. سورة الحج، الآية: ٤٧.

٢. سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

٣. سورة فصّلت، الآية: ١٢.

ولا وجه لأخذ الحدّ الخاصّ الحاصل من خصوصيّات عالم معيّن في معنى الكلمة، الذي هو عام وشامل لجميع العوالم، إلّا إذا كانت هناك قرائن معتبرة خارجية تدلّ علىٰ خصوصيّة معيّنة وحدٍّ خاصّ.

﴿ٱلدِّين﴾: هو الجزاء، ويوم الدِّين هو يوم الجزاء على الأعمال وحسابها، كما في آيات كثيرة، مثل قوله تعالىٰ:

﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

والمستفاد من مجموع الآيات، أنّ الإنسان من بدء حدوثه إلى خلوده، هو في يومين:

يوم العمل الذي يعبّر عنه بـ(الدُّنيا).

ويوم الجزاء المعبّر عنه بـ(الآخرة)، أو يوم القيامة، أو غير ذلك.

وقد وصف الله تعالى هذا اليوم بأوصاف شتَّى، كالعظيم:

قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[٣].

والمحيط، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾[٤].

وبأنواع الحوادث العظيمة الهائلة، قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم

---

١. سورة غافر، الآية: ١٧.

٢. سورة الجاثية، الآية: ٢٨.

٣. سورة مريم، الآية: ٣٧.

٤. سورة هود، الآية: ٨٤.

﴿بِسُكَارَىٰ﴾[1].

وكلّ ذلك لأجل بيان نهاية عظمة اليوم؛ وقد لخّصها الله تعالى في سورة الإنفطار بأحسن تلخيص، وأكمل بيان، وأتمّ دهشة.

وفي المقام مباحث تأتي في مواضعها المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

وإنّما ذكر الله عزّوجلّ «مالك يوم الدِّين» مع أنّه تعالى مالك لجميع ما سواه، ولم يخرج عن ملكه شيء؛ لأنّ يوم الدّين مظهر ثبوت الوحدانية المطلقة، والربوبية العظمى الإلٰهيّة عند الكلّ، وانقهار الجميع تحت قهاريته، وهو يوم ظهور فساد الشرك الذي توهَّمَه النّاس بزعمهم وخيالهم، فيوم الدِّين يوم يظهر فيه التوحيد الحقيقي والعدل الإلٰهي.

وإنّما ذكر «مالك يوم الدِّين» بعد «الرحمن الرحيم» ترغيباً لعباده، وحناناً عليهم بأن لا تغلبهم دهشة اليوم، فإنّ الرحمن الرحيم معهم في أيّ عالم وردوا عليه، وحاضر فيهم في ما إذا أحاطت بهم الدهشة.

وهذا من لطيف المعاتبة بين المالك الحكيم الغني، والمملوك المحتاج، فيدفع بيد ويجذب بالأُخرىٰ، وقد جمع الله تعالى بين الترغيب والترهيب.

***

---

١. سورة الحجّ، الآية: ١٢.

الآية ٥ ـ ٧

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝﴾.

قوله تعالىٰ: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾**:

لفظ الخطاب (إيّاك) استعمل هنا في مقام الحصر، وقد أطلق عليه تعالى في القرآن بضمير الغيبة وضمير المتكلِّم، مع إفادتهما الحصر أيضاً:

قال تعالىٰ: **﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾**[2].

ويستفاد الحصر في المقام من أمرين:

أحدهما: سياق الآية المباركة، لأنّ مَن كان «رب العالمين» و «الرحمن الرحيم» و «مالك يوم الدِّين» لا وجه لعبادة غيره، فإنّ غيره مطلقاً مملوك له تعالى ومحتاج إليه، ولا وجه أن يدع مَن له تلك الصِّفات في عبادته ويعبد غيره، ومنه يظهر سرُّ قولهم عليهم السلام: «العقل ما عُبد به الرحمٰن، واكتسب به الجنان»، وكثرة إطلاق الجهل على المشركين في الكتاب والسنة.

الثاني: استفادة الحصر من انفصال الضمير وتقديمه، وينحلُّ الحصر الى النفي والإثبات، كأنّه قال: (لا نعبد غيرك ونعبدك)، كما في (لا إله إلّا الله). وسائر موارد الحصر.

---

١. سورة يوسف، الآية: ٤٠.

٢. سورة العنكبوت، الآية: ٥٦.

وفي الآية المباركة التفات من الغيبة إلى الخطاب، لأنّه بعد إقرار العبد بالإلوهيّة، والاعتراف بالربوبية، وأنّه مالك يوم الجزاء، صار لائقاً بالمخاطبة الحضورية معه تعالىٰ، فارتقى العبد من الغيبة إلى الحضور، لارتقاء مقام قلبه عن الغفلة إلى التوجّه والحضور.

وللتوجّه من الغيبة الى الحضور مراتب، بحسب مراتب المعرفة والطاعة في العبد، كما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

﴿نَعْبُدُ﴾:

العبادة، الطاعة، وأصل المادّة تنبئ عن الذلّ والخضوع والاستكانة والانقهار، في أيّ هيئة استعملت، ومنها العبد والمملوك. فالمادّة تشمل العبودية التسخيرية، والعبودية الاختيارية والواقعية، والعبادات الباطلة الاعتقادية، كما في قوله تعالىٰ: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾**[2].

وقوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً﴾**[3].

والعبادة: خضوع خاصّ ناشئ عن الاعتقاد بأنّ للمعبود عظمة، ولا يحيط بها العقل في المعبود الحقيقي، لعدم وصول الإدراك إلى عظمته فضلاً عن ذاته، وإن كان مدركاً بالآثار ـ كما عرفت ـ فإنّه أعلىٰ وأجلّ من أن يرقى إليه إدراك أحد، ولذا لا تصدق العبادة على الخضوع بالنسبة إلى غيره تعالىٰ.

وقد تطابق العقل والنقل علىٰ عدم جوازها لغيره تعالىٰ، لأنّ حقيقتها

---

١. سورة يٰس، الآية: ٦٠.

٢. سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.

٣. سورة العنكبوت، الآية: ١٧.

الخضوع لمن هو في أعلىٰ درجات الكمال، بحيث لا كمال فوقه، وهو منحصر بالله تعالىٰ، وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]، إشارة إلى ذلك، وأنه لا تكون العبادة إلّا للخالق ومفيض الحياة، والإطلاق بالنسبة إلى غيره تعالىٰ، اعتقادي باطل لا واقعي حقيقي.

والعناوين الشائعة ثلاثة: **العبادة، والطاعة، والانقياد**.

والأوّل: عبارة عن إتيان العمل بقصد التقرّب إلى الله تعالى سواء كانت صحّة العمل في حدّ نفسه متوقفة علىٰ قصد القربة، كالصَّلاة والصوم والحجّ وغيرها من سائر العبادات، فإذا أُتي بها من دون قصد القربة، يبطل أصل العمل، أو لم تكن كذلك، كقضاء حوائج الاخوان، وأداء حقوق النّاس، أو مثل النظافة، فإذا كان لله تعالى يُثاب عليه مع حصول الطاعة، وإذا لم يكن له تعالىٰ تحصل الإطاعة دون الثواب، فالإطاعة أعمّ من العبادة، كما أنّ الانقياد أعمّ من كلّ منهما، لإطلاقه عليهما وعلىٰ إتيان ما يحتمل أنّه محبوب لله تعالىٰ، وترك ما يحتمل أنَّه مبغوض له عزَّوجلَّ، وإن لم يكن أمر ونهي منه تعالىٰ، وقد فصَّلنا الكلام في كتابنا «مهذب الاحكام».

وقد وردت الإطاعة في كثير من مشتقّاتها في القرآن الكريم:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ﴾[4].

---

١. سورة الصافات، الآية: ٩٥ ـ ٩٦.

٢. سورة الأحزاب، الآية: ٧١.

٣. سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

٤. سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ﴾[١].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

ثمّ إنّ العبادة هي التوجُّه إلى المعبود، في القيام بما جعله من الوظيفة، وإتيان المطلوب الذي أراده من العبد، وحيث أنّ الله تعالى يطّلع على النوايا كاطّلاعه على الأعمال، فلابدّ أن تكون النوايا القلبية متوجّهة إليه تعالىٰ، ومنحصرة في العبوديّة له تعالىٰ.

وبعبارة أُخرىٰ: كما أنّ العابد حاضر لدى الله تعالىٰ، ولا يخفى منه على الله شيء، وهو عالم السرِّ والخفيّات، بل ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٢]، يعلم خطرات القلوب، وحركات الجوارح ولحظات العيون، فلابدّ وأن يكون توجّه العابد إلى مثل هذا المعبود كاملاً، وكذا في قلبه تامّاً، بحيث لا يخطر في قلبه غيره، فإنَّ ذلك يوجب النقص في العبادة والعبودية، بل قد يوجب الطرد والهجران والإثم والعصيان، وقد قال علي عليه السلام في معنى العبادة: «أن تعبد الله كأنّك تراه، وإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

ويأتي التفصيل في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣].

والدواعي للعبادة كثيرةً حتّىٰ عند شخص واحد، فربما تختلف دواعيه لها في حالة عن حالة أُخرى، وكلّما كانت العبادة مجرّدة عن الدواعي الشخصية والمادّية، كانت العبادة أشد خلوصاً لله تبارك وتعالىٰ، ولذا ورد عن علي عليه السلام:

«إن قوماً عبدوا الله رغبةً فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبةً فتلك عبادة العبيد، وإنَّ قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار».

---

١. سورة النساء، الآية: ٦٤.

٢. سورة الحديد، الآية: ٤.

٣. سورة الأعراف، الآية: ٢٩.

ونسب إليه عليه السلام: «ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك».

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «العُبّاد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزَّوجلَّ خوفاً، فتلك عبادة العبيد. وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب، فتلك عبادة الأُجراء. وقوم عبدوا الله عزَّوجلَّ حُبّاً له، فتلك عبادة الأحرار، وهي أفضل العبادة».

ولا شكّ في أنّ عبادته لحبّه تعالىٰ، كما في هذه الرواية من أفضل أنحاء العبادات، لخلوصها حتّى عن المسألة عنه تعالىٰ، وإضافة شيء إليه عزَّوجلَّ خارجاً عن ذاته، ولكن في بعض الروايات عن علي عليه السلام ـ كما تقدّم ـ: «إنّ قوماً عبدوا الله شكراً، فتلك عبادة الأحرار» وهي من أفضلها أيضاً، ولكن لا تصل إلى مرتبة المحبّة، لأنّ المحبّة قد تصل إلى مرتبة الفناء في المحبوب، فلا يرى شيئاً آخر أبداً وراء أهلية المحبوب، والشّكر هو لحاظ شيء آخر وراء ذات المحبوب، وسيأتي تفصيل هذه المباحث في محالّها إن شاء الله تعالىٰ.

وإذا تحقّقت العبادة الواقعيّة، بحيث لا يشوبها شيء، كانت ثمرتها عظيمة لا يمكن حدّها، وقد ورد في ذلك ما يوجب التحيّر منه.

فعن أبي جعفر عليه السلام: «إنّ الله جلَّ جلاله قال: ما يتقرَّب إليَّ عبدٌ من عبادي بشيءٍ أحبّ إليَّ ممّا افترضت عليه، وإنّه ليتقرّب إليَّ بالنافلة حتّى أُحبّه... الحديث».

فإنّ محبّته تعالى لعبده من أجلّ مراتب الكمال، وتوجب وصوله إلى مقامات عالية، لاستلزام الانقياد والعبودية التامّة من العابد، الإفاضة المطلقة بالنسبة إليه، ويستفاد ذلك من كثير من الروايات، كما يأتي إن شاء الله تعالىٰ.

وعن المحقّق الطوسي أنّ العبادة أقسام ثلاثة: قلبي كالعقائد الحسنة

وبدني كالأعمال الحسنة، واجتماعي كالمعاملات الشرعية، والأخلاق الحسنة مع النّاس.

وسيأتي في الآيات المباركة المناسبة لها تفصيل الكلام.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

الاستعانة طلب العون، والحصر هنا كالحصر في «إيّاك نعبد» لفظي وسياقي وحالي، لأنّ الغني المطلق من كلّ جهة، لابدّ وأن تنحصر الاستعانة به، والاستعانة بما سواه إن رجعت إليه تكون الاستعانة به، وإلّا تكون شركاً من هذه الجهة، فيكون المعنى هنا مشتملاً على النفي والإثبات، أي: لانستعين بغيرك ونستعين بك فقط.

ثمّ إنّ الاستعانة بالله تعالى إمّا اختيارية، أو تكوينية بلسان الحال والاستعداد، والثانية من لوازم الإمكان، لا تنفك عنه في جميع العوالم، فإنّ المخلوق محتاج في حدوثه وبقائه إلى الخالق، ومستعين به، بل كلّ معلول مستعين كذلك من علّته، كما ثبت بالبراهين العقلية والنقلية أنّ مناط الحاجة الإمكان دون الحدوث، فجميع ما سواه مستعين به ذاتاً. وقد تجتمع الاستعانتان كما في المؤمنين بالله تعالىٰ، فإنّ فيهم الاستعانة التكوينية والاختيارية، وكلّما تجلَّت عظمة المستعان في قلوبهم، اشتدّت استعانتهم به، فالاستعانة به تعالى تتفاوت شدةً وضعفاً.

وتأخير العبادة والاستعانة عن «مالك يوم الدِّين»، نحو تأخير المعلول عن العلّة، يعني: مَن كان ربّ العالمين ومالك يوم الدِّين، لابدّ وأن يكون معبوداً ومستعاناً به.

كما أنّ في تقديم العبادة على الاستعانة، اعترافٌ بالمسكنة والخضوع بألطف وجه، في أن يعتني الغني المطلق باستعانته، ومن ثَمَّ قيل: (نِعَم الشيء

الهدية أمام الحاجة)، مع أنّه من قبيل تقديم الغاية علىٰ ذيها، لكثرة أهمّية الغاية، فإنّ غاية الاستعانة بالله إنّما هي استعانته في عبادته، وأنّ ما سواها أُمور زائلة وحقيرة، والعاقل لا يستعين بالله تعالى في أُمور زائلة غير دائمة، إلّا إذا رجعت إلى ما هو دائم يبقى.

بل إن عبادته تعالى والاستعانة منه عزّوجلّ متلازمتان، فعبادته استعانة به، كما أنّ نفس الاستعانة عبادة له، فيكون مثل قول القائل: (أدّيت ديني فقضيت حاجتي)، أو قوله: (قضيت حاجتي أديت ديني). وفي ذلك إشارة إلى أن لا ينسب العبد إلى نفسه شيئاً، فإنّه خلاف أدب العبودية.

وجملة «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» دليلٌ واضح علىٰ إبطال الجبر والتفويض، وإثبات الأمر بين الأمرين، كما ذكره الأئمّة الهداة عليهم السلام، علىٰ ما يأتي بيان هذا المبحث الشريف مفصّلاً في الآيات المناسبة له إن شاء الله تعالىٰ.

وإنّما ذكر «نعبد» و «نستعين» بلفظ الجمع، إمّا باعتبار القارىء ومَن معه من الملائكة الحفظة، أو باعتبار مَن معه في صلاة الجماعة، أو من المصلّين، أو باعتبار مَن معه في الاعتقاد، رجاء أن يكون فيهم مَن يقبل عمله فيقبل منه أيضاً، ولأجل تصغير ما يصدر عنه من العمل، فإذا التفت إلى أن الكلّ يعبدونه ويستعينون به عزّوجلّ، فلا يغترّ به ولا يحسب لنفسه وزناً.

والأولى أن يقال: إنّ لفظ الجمع فيهما للتحريض إلى حفظ وحدة المجتمع الذين يعبدونه تعالى ويستعينون به، فكما أنّهم مجتمعون في وحدة المعبود والعبادة والمستعان، به لابدّ أن يكونوا كذلك في جميع شؤونهم، كما تدلّ عليه آيات كثيرة، وسيأتي التعرض لها إن شاء الله تعالىٰ.

وإنّما كرّر لفظ «إيّاك» لتأكيد الحصر وتشديده في كلّ واحد من العبادة والاستعانة، وإطلاقها وحصرها فيه تعالىٰ، يقتضي الاستعانة به في جميع الأُمور

مطلقاً، وهي عبارة أُخرى عن الاعتقاد بـ«**لا حول ولا قوة الاّ بالله**»، والعمل بمقتضاه في جميع الأحوال.

قوله تعالىٰ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾:

هذا هو ثمرة العبادة، والغرض الأقصى من الاستعانة، وأعلى المقامات الإنسانية. وهي الأمانة التي عُرضت ﴿**عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ**﴾[١].

والهداية: الدلالة، سواء كانت إلى الحقّ أو الباطل، وكثيراً ما تستعمل في القرآن في الأوّل، ومن الثاني قوله تعالىٰ: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[٢]، وقوله تعالىٰ: ﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾[٣].

وللهداية مراتب كثيرة متفاوتة، يصحّ تعلّق الطلب بجميع مراتبها، كما يصحّ تعلّقه بالمراتب الراقية، وإن كان الشخص واجداً لها بالنسبة إلى المراتب السابقة، ففي كلّ مرتبة منها تطلب المرتبة الأرقىٰ منها، فلا وجه للإشكال بأنّ الشخص إذا كان واجداً للهداية، لايصحّ أن يطلبها من الله تعالى ثانياً، لأنّ إبقاء ما يكون واجداً له، وتكميل مراتبه، وطلب ما فوقه، كلّها من الله تعالىٰ.

والهداية من أفعاله تعالىٰ، وهي من صفات الفعل، لا من صفة الذات، وقد اضطربت كلمات الفلاسفة المتألهين في الفرق بين ما هو صفة ذاته تعالىٰ، وما هو صفة فعله، فجعلوا بعض ما هو صفة الفعل صفة لذاته عزّوجلّ، وبذلك عسر الجواب عنه، ولم ينهضوا بدليل يحسم الأشكال.

---

١. سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

٢. سورة البلد، الآية: ١٠.

٣. سورة الصافات، الآية: ٢٣.

لكن المستفاد من الآيات الشريفة ـ علىٰ ما سيأتي بيانها إن شاء الله تعالى ـ والسنّة المقدّسة، قاعدة كلية وهي :

كلّ ما يصحّ توصيف الله تعالى به وبنقيضه أو ضدّه، فهو من صفة الفعل، وكلّ ما لا يصحّ ذلك فيه فهو من صفة الذّات .

والأوّل: كالإرادة ، قال تعالىٰ : **﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾**[١].

وقال تعالىٰ : **﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾**[٢] .

والثاني: كالحياة والبقاء والعلم ، مثل : السميع والبصير والقدير ، وسيأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

ثم إنّ الهداية إمّا تكوينية أو تشريعية :

والأُولى: ما يعمّ جميع ما سواه تعالىٰ، من المجرّدات والمادّيات ، ويدلّ علىٰ ذلك :

قوله تعالىٰ : **﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾**[٣].

فالبلوغ إلى مرتبة الكمال في كلّ موجود، هداية بالنسبة إليه .

والثانية: تخص المؤمن ويطلبها منه عزّوجلّ .

وقد جمعت في الإنسان الهدايتان التكوينية والتشريعية وهو يطلبهما معاً ، أمّا الأُولى بالاستعداد كما في سائر الموجودات ، والثانية بالطلب الذي يختص به .

وأمّا الكافر: فله الهداية التكوينية فقط كالنباتات والحيوانات ، وإنّما ترك

---

١ . سورة البقرة، الآية: ١٨٥.

٢ . سورة المدثر، الآية: ٣١.

٣ . سورة طٰه، الآية: ٥٠.

الهداية التشريعية باختياره، بعدما تمّت الحجّة عليه.

وأمّا الصّراط : فهو الطريق المؤدي إلى المطلوب. والاستقامة هي الاستواء في مقابل الانحراف والاعوجاج. وإنّها تعمُّ الجميع من الاعتقادات والملكات، بل والخواطر النفسانية، وأعمال الجوارح من العبادات والمعاملات والمجاملات، فانّها إن تطابقت مع رضاء الله تبارك وتعالى كانت مستقيمة، وإلّا فهي منحرفة.

قال تعالىٰ: **﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾**[١]، فبيَّن تعالى معنى الهداية والصّراط المستقيم.

بل يتحقّق الصراط المستقيم في الموجودات، فإنّها إن طابقت مع ما جعله الله تعالى لها في النظام الأحسن، كانت على الصراط المستقيم، وإلّا خرجت عنه بعدم بلوغها إلى غاياتها للحوادث الطارئة.

فالهداية إلى الصراط المستقيم، متقوّمة بطرفين:

المفيض وهو الله تعالىٰ.

والمستفيض وهو ما سواه تعالىٰ، لأنّ جميع الموجودات في طريق الاستكمال الذي أعدَّه الحكيم جلَّ شأنه.

ثمّ إنّ الصراط المستقيم كلّي واقعي، له أنواع كثيرة متفاوتة في التجرُّد والتعلُّق بالمادَّة وغير ذلك، ويتّحد مع الجميع اتّحاد الجنس مع أنواعه:

فالمجرّد منه كالعقل الكلي، والمتعلّق بالمادّة منه كنفوس الأنبياء والأوصياء والأولياء، والعرضية منه كالكتب السماوية والتشريعات الإلٰهيّة.

وقد بيَّن الله تعالى معنى الصراط المستقيم، الذي يطلبه الإنسان في عدَّة آيات:

---

١. سورة آل عمران، الآية: ١٠١.

منها: قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً﴾**[١].

فجعل الدِّين هو الصراط المستقيم.

ومنها: قوله تعالىٰ: **﴿وَٱتَّبِعُونِ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾**[٢].

فجعل اتّباع النّبيّ ﷺ هو الصراط المستقيم.

وكذا في قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ﴾**[٣].

ومنها: قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾**[٤].

وجميع هذه الآيات المباركة بيان لأمر واحد، وهو الدِّين أراده الله تعالى لخلقه، وعبّر عنه بالنور في الآيات الكثيرة كما سيأتي بيانها.

والانحراف عن الصراط المستقيم، وقوعٌ في الظلمات التي لها أنواع كثيرة يجمعها قوله تعالىٰ: **﴿ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾** و **﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾**، علىٰ ماسيأتي.

وذكره تعالىٰ (المغضوب عليهم) و(الضالّين) بعنوان الجمع، إشارة إلى التعدّد والاختلاف وعدم الوحدة فيه، بخلاف (الصراط المستقيم)، فإنّه واحد لا تعدُّد فيه بوجه، وهو النور الذي لم يستعمل في القرآن إلّا مفرداً بخلاف الظلمات.

قال تعالىٰ: **﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾**[٥].

---

١. سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

٢. سورة الزخرف، الآية: ٦١.

٣. سورة المؤمنون، الآية: ٧٣ ـ ٧٤.

٤. سورة يس، الآية: ٦١.

٥. سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَآءُ﴾[1].

فالنور والصراط المستقيم لا يعقل التعدّد فيه، لأنّ مبدأه منه تعالىٰ، كما أنّ بقاءه به ومنتهاه إليه، بخلاف الظلمات، فإنّها مختلفة حسب الاعتقادات والأهواء الباطلة.

قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ* ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[2].

نعم، المستفاد من مجموع الآيات والروايات، أنّ الظلم والشرك من الشيطان، فهما حقيقة واحدة، لها مراتب كثيرة، ومظاهر متفاوته، والاختلاف في التعبير دون الحقيقة، وسيأتي تفصيل ذلك.في بيان حقيقة الشيطان إن شاء الله تعالىٰ.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾:

بيان للصراط المستقيم، وإنّما كرّر لفظ «الصراط»، لأهمّية الموضوع، وأنّ المطلوب ليس مجرّد حدوث الهداية فقط، بل بقاؤها وابقاؤها؛ وقد بيّن تعالى الصراط المستقيم بنفسه، لأنّ صراطاً يكون مبدؤه من الله تعالىٰ، ومنتهاه إليه، كيف يمكن وصفه، وبأيّ وجه يتحقّق نعته؟!! فلا يقدر المخلوق أن يصفه، إلّا بما وصفه الخالق بالقول الجامع في قوله: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فمَن يقدر أن يحدّ هذه النِّعمة العظمى التي هي أجلّ مواهب الله تعالى في الدُّنيا والآخرة،

---

١. سورة النور، الآية: ٣٥.

٢. سورة الأعراف، الآية: ١٦ ـ ١٧.

وأعلى الكمالات الإنسانية في ما يرد عليه من العوالم كلّها، وأنّىٰ للممكن المتناهي من كلّ جهة، أن يحيط بحقيقة ما يكون كلّه منه تبارك وتعالى؟!!

وعن جمعٍ من اللّغويين، أنّ استعمال النعمة يختصّ بذوي العقول، فلا يستعمل في غيرهم إلّا بالعناية، وله وجه إن أُريد منه أنّ الغاية من خلق النِّعَم هو الإنسان، كما في قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(١).

وأمّا لو أُريد ملاحظة الوسائط بعضها مع البعض، فلا كلّية له، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾(٢).

وإنّما أطلق لفظ النِّعمة في الآية المباركة، ليفيد التعميم من كلّ جهة تتصوّر، من النّعم الظاهرية والباطنية، قال تعالىٰ: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٣).

كما بيّن تعالى بعض مصاديق نعمه، في الآية المباركة: ﴿وَمَنْ يُطِعْ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾(٤).

فانّهم نِعَم مطلقاً، وأنّ النِّعَم الواردة من المبدأ غير محدودة بحدٍّ خاصّ، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾(٥).

ثمّ إنّ مادّة (نعَم) استعملت في القرآن العظيم بهيئات مختلفة، كلّها تُشعِر بالحنان والرأفة والعطف والرحمة:

---

١. سورة البقرة، الآية: ٢٩.

٢. سورة لقمان، الآية: ٣١.

٣. سورة لقمان، الآية: ٢٠.

٤. سورة النساء، الآية: ٦٩.

٥. سورة إبراهيم، الآية: ٣٤.

قال تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة الدالّة علىٰ ما ذكرنا.

تلخيص ما تقدَّم في أُمور:

الأوّل: لاريب في أنّ تشريع الأديان السماوية، وإنزال الكتب الإلٰهيّة، وتكميل النفوس الإنسانيّة، بل وتنظيم العالمين الدُّنيا والآخرة، متقوّم بهدايته تبارك وتعالىٰ، ولكثرة أهمّية ذلك صارت الهداية من شؤونه المختصّة به:

قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾[٤].

وقال جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٥].

وكما تكون نفس الهداية من فعله تعالىٰ، كذلك تكون مراتبها وأقسامها، لأنّه حكيم عليم بخصوصيّاتها، ولكنّها في الإنسان بتوسّط الاختيار دون غيره من سائر المخلوقات.

ثمّ إنّ هذه الهداية ـ بالمعنى الذي تقدَّم ـ واجبة في النظام عقلاً، لأنّ في تركها إهمالاً للنفوس المستعدّة، وتضييعاً لها، وهما قبيحان عقلاً، وكلّ قبيح

١. سورة الغاشية، الآية: ٨ ـ ٩.

٢. سورة البقرة، الآية: ٤٧.

٣. سورة الدخان، الآية: ٢٧.

٤. سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

٥. سورة القصص، الآية: ٥٦.

ممتنع بالنسبة إليه جلّ شأنه.

وسُبل الهداية بالنسبة إلى الله تعالى كثيرة، فكلّ ما يسوق العبد إليه عزّوجلّ، يكون من مظاهر هدايته ومصاديقها، فالقرآن من هدايته تعالى لعباده:

قال تعالي: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

وقال تعالىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾(٢).

وكذلك سائر الكتب السماوية، قال تعالىٰ: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدىً وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(٣).

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ﴾(٤).

وجعل الكعبة المشرفة أيضاً من مظاهرها، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾(٥). كما أنّ السنة الشريفة أيضاً كذلك، لأنّها أحسن سبيل لتكميل النفوس الإنسانيّة.

الثاني: إنّ هدايته جلّ شأنه لعباده علىٰ أنواع:

الأوّل: عام يشمل الجميع:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾(٦).

---

١. سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

٢. سورة البقرة: الآية ١٨٥.

٣. سورة المائدة: الآية ٤٦.

٤. سورة المائدة: الآية ١٤٤.

٥. سورة آل عمران: الآية ٩٦.

٦. سورة الإنسان: الآية ٣.

وقال تعالىٰ: ﴿وَهَدَيْنَاهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[١].

ولا ريب في شمولها لجميع أفراد الإنسان، كما يستفاد من الآيات المباركة المتقدِّمة.

الثاني: الهداية الخاصّة، وهي تخصّ بجمع بذلوا وسعهم في العمل بالشريعة المقدّسة، فزادهم الله تعالى بذلك أنحاء الهداية، لقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[٤].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

الثالث: ما هو أخصُّ من الثاني، كما ورد في شأن رسوله وحبيبه ﷺ: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٥].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[٦].

وغير ذلك ممّا ورد في شأن أنبيائه الكرام، وهذا مقامٌ عظيمٌ لا يليق لأحدٍ، إلّا لهؤلاء صلوات الله عليهم أجمعين. ولكلّ من هذه الأنواع مراتب كثيرة ايضاً.

الثالث: حيث إنّ منشأ الصراط المستقيم ـ بكلا معنييه ـ من علمه تعالىٰ،

---

١. سورة البلد: الآية ١٠.

٢. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

٣. سورة السجدة: الآية ٢٤.

٤ ـ سورة الأنعام: الآية ٩٠.

٥. سورة الإسراء: الآية ١.

٦. سورة الأنعام: الآية ٧٥.

وإبداع حكمته التامّة، وإحاطته به من جميع الجهات، فهو الأصل في الكمالات، وتنبعث منه سائر الكمالات في المخلوقات، فيكون مبدؤه علمه تعالىٰ، وبقاؤه بديع حكمته جلّ شأنه، ومنتهاه الخلود في جنّته، وفي مثل هذا الأمر ـ الذي لا تدرك عظمته ـ لا يتصور فيه نقص، وتنطوي فيه جميع المعارف الإلٰهيّة، وما يتصوّر فيه من الاشتداد والتضعّف، إنّما هو من ناحية المتعلّق، ويأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

الرابع: تقدّم أن الصراط هو الطريق المؤدي إلى المطلوب، واستعمل في القرآن الكريم موصوفاً بالاستقامة والاستواء غالباً، وقد أُضيف إليه تعالى بأنحاء الإضافة كقوله تعالىٰ: ﴿**وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً**﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿**صِرَاطِ اللهِ**﴾[٢] وقال الله تعالىٰ: ﴿**إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ**﴾[٣].

ولم يضف الصراط إلى غيره تعالى إلّا نادراً، بخلاف السبيل، فإنّه أُضيف إلى غيره تعالى كثيراً، كما أنّه ذكر بلفظ المفرد والجمع:

قال تعالىٰ: ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿**لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[٥].

والسبيل هو الطريق الموصل إلى الصراط، واختلاف السُّبل لا يوجب الاختلاف في أصل الصراط، فَمَثَل الصراط المستقيم والسبل المؤدية إليه، مَثَل

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٢٦.

٢. سورة الشورى: الآية ٥٣.

٣. سورة سبأ: الآية ٦.

٤ ـ سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

٥. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

البحر وما يتفرّع عنه من الجداول، فالبحر يفيض على الكلّ والكلّ مستفيض من البحر، وكلّها موصوفة بالاستقامة والرشاد، وبإزائها الاعوجاج والانحراف، والسبل المنحرفة المتفرّقة هي سُبل الشيطان كما تقدّم.

الخامس: للصراط المستقيم مراتب من الوجود:

الأُولى: مرتبة البيان وإتمام الحجّة، وهي من الله تبارك وتعالى وأنبيائه العظام وأوصيائهم عليهم السلام، ويدخل في ذلك جميع الشرائع الإلٰهيّة، والرسالات السماوية.

الثانية: مرتبة الاعتقاد.

الثالثة: مرتبة العمل، وهما من وظائف العبد، إلّا أنّ الثاني أشقّهما عليه.

الرابعة: مرتبة ظهوره في النشأة الآخرة، ومن هذه المرتبة الصراط في يوم القيامة، الذي لابدّ من العبور عليه للوصول إلى محل الخلود.

فالعبور وضعي لا أن يكون تكليفياً، إذ لا تكليف في يوم القيامة، وإن اختلف زمان العبور وكيفيّته، تبعاً لاختلاف درجات العابرين ومعنوياتهم.

قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

بيان للآية السابقة اهتماماً بصراط المُنْعَمِ عَلَيهم، واعتناءً بشأنهم، وأنه يباين طريق المغضوب عليهم وطريق الضالين، فالجملة الأُولى وقعت في مقام المدح لعباد الرحمن، والأخيرة كأنّها وردت في مقام رجم الشيطان ومن تبعه.

والغضب: هو الشدّة، ورجل غضوب أي: شديد الخُلُق. وغضب الله تعالى عقابه، دنيوياً كان أو أخروياً أو هما معاً، كما أن رضاه ثوابه، وهما من صفات الفعل لا من صفات الذات، وتقدّم بيان الفرق بينهما.

الضلال: بمعنى التحيُّر، ويستلزمه الهلاك والغيبة عن المقصود الحقيقي، والعقاب والهلاك متلازمان، وإنّما ذكرهما معاً بياناً للمبدأ والأثر، فالضلال مبدأ

العقاب ومنشأ استحقاقه، والعقاب مترتّب على الضلال، ترتّب المقتضى ـ بالفتح ـ على المقتضي ـ بالكسر ـ، وإنّما قدَّم الغضب والعقاب على الضلال، إرشاداً للإنسان بأن لا يرتكب ما يوجب غضب الله تعالىٰ.

والغضب استعمل في القرآن مع اللَّعن ومع الرِّجس ومع العذاب، كما في قوله تعالىٰ: **﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**[3].

وقال تعالىٰ: **﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾**[4].

بل ورد في مورد بعض المحرمات أيضاً: **﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾**[5].

ويستفاد من ذلك كلّه، شموله لكلّ من انحرف عن الصراط المستقيم بالكفر، سواءً كان مشركاً أو غيره، من أي ملّة كان.

وأمّا الضلال؛ فهو بمعنى التحير كما عرفت، فيشمل مطلق الكفر أيضاً، وقال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾**[6].

فتفسير الأوّل باليهود، والثاني بالنصارى من باب التطبيق لا التخصيص،

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٠.

٢. سورة الأعراف: الآية ٧١.

٣. سورة النحل: الآية ١٠٦.

٤. سورة الفتح: الآية ٦.

٥. سورة النساء: الآية ٩٣.

٦. سورة النساء: الآية ١٣٦.

حتّى أنّه أُطلق الضلال علىٰ مطلق العصيان أيضاً، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلاً مُّبِينًا﴾[1].

***

١. سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

بحوث المقام

بحث دلالي:

هذه السورة تتضمّن أُموراً:

الأوّل: إثبات وحدة ذاته تعالىٰ، لأنّ لفظ الجلالة (الله) ـ كما تقدّم ـ بمعنى الذات المسلوب عنها جميع النواقص الواقعية والإدراكية، والشريك في الذات نقصٌ بل من أخسِّ أنحائه.

الثاني: إثبات وحدة فعله تعالى بذكر «ربّ العالمين»، لأنّ العالمين بمعنى ما سواه، وهو فاعل الكلّ ومربيه.

الثالث: إثبات وحدة المعبود بذكر «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين».

الرابع: المعاد الذي هو من أهمّ المعارف الآلهية، والاعتقاد به بذكره تعالى «مالك يوم الدِّين».

الخامس: الإشارة إلى النبوّات السّماوية، والشرائع الإلّهية، لذكر «إهدنا الصراط المستقيم».

فهذه السورة على اختصارها مشتملة علىٰ جميع المعارف الإلّهية، والمعتقدات الحقّة المذكورة في الكتب السماوبة، ويدل علىٰ فضل هذه السورة وكمالها ـ مضافاً إلى ذلك ـ أُمور أُخر:

منها: حسن نظمها وجمالها، فإنّها ابتدأت بالبسملة ثمّ الحمد، وبعده ثناء الله عزَّوجلَّ بأتم الصفات، ثمّ إظهار العبودية لله تعالى التي هي أعلىٰ مقامات الإنسانية، فالاستعانة منه جلَّ شأنه لدفع المهالك، وجلب المنافع، ثّم طلب الهداية منه تعالى إلى طريق الصلاح، فقد تجلّى الله سبحانه و تعالى في القرآن

وتجلّى القرآن في الفاتحة، ولأجل ذلك استحقّت السورة أن تسمّى بـ(أُم الكتاب) لاحتوائها ـ على اختصارها ـ عامّة ما يحويه القرآن من المعارف، وهي من أهمّ جوامع الكلم التي فضّل الله تعالى خاتم أنبيائه ﷺ بها، وإن شئت الظفر علىٰ بعض ما قلناه، فانظر إلى ما يقرأه أهل التوراة والانجيل وسائر الأديان في صلواتهم تجد الفرق بينهما كبيراً.

ومنها: أنّها تبيّن أدب العبودية، وتعلّم العبد كيفيّة التكلّم والمخاطبة معه جلّ شأنه، والتلقين منه تبارك وتعالىٰ، دليل على القبول والاستجابة، وقد روى الفريقان عن نبيّنا الأعظم ﷺ أنّه يقول:

«قال الله عزّوجلّ: قَسَمْت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي».

وسيأتي في البحث الروائي.

ثمّ إنّ ابتداء هذه السورة بالحمد، يدلّ علىٰ محبوبيّته له تعالىٰ، وحسنه علىٰ كلّ حال، سواء كان لذاته أو لفعله أو لصفاته. والظاهر من إضافة الحمد إلى الله تعالى أنّ الذات الأقدس ذات محمودة، والذات المحمودة بالذات تستلزم محمودية الصفات ـ التي هي عين الذات ـ، فما تعارف بين العلماء من أنّ الحمد هو الثناء على الجميل الاختياري ـ كما تقدّم ـ، إنّما هو بحسب الغالب المتعارف بين المخلوق، بحسب إدراكهم، والذات الأقدس خارج عن الاختيار، والحمد على الذات الأقدس، هو أعلىٰ مراتب الحمد، وعن النبيّ ﷺ:

«لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت علىٰ نفسك».

نعم، لابدّ وأن ينتهي الحمد إلى الذات الأقدس والا لتسلسل، لأنّ إنشاء الحمد من الحامد نعمة منه تعالىٰ، فهو يحتاج إلى حمد آخر، وهكذا فيتسلسل، وقال عليه السلام في الصحيفة السجادية:

«وكيف لي بتحصيل الشكر وشكري إيّاك يحتاج إلى شكر فكلّما قلت لك

الحمد وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد».

فمن لطائف القرآن ابتداؤه بـ«الحمد لله ربّ العالمين»، وآخر دعوى المخلّدين في الجنَّة «الحمد لله رب العالمين»، قال تعالىٰ:

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

فترجع النهاية إلى البداية، وعليه شواهد من الكتاب والسنّة، تأتي الإشارة إليها إن شاء الله تعالىٰ.

وممّا ذكرنا ظهر السرّ في تكرار هذه السورة في الفرائض وغيرها من الصلوات، وما لها من الفضل، وأنّها نزلت من كنوز العرش مرّتين، لكونها جامعة حتّى في الحمد والثناء علىٰ ذاته الاقدس، ومثل هذه المزية قلّت في سائر السور القرآنية.

بحث روائي:

وردت روايات كثيرة متّفق عليها بين المسلمين في فضل فاتحة الكتاب ـ المسمّاة بـ(السبع المثاني)، و (أُمّ الكتاب) أيضاً، كما في روايات كثيرة ـ ويكشف ذلك عن امتياز هذه السورة عن سائر السور، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«إنّ فاتحة الكتاب أفضل سورة أنزلها الله تعالى في كتابه، وهي شفاء من كلّ داء إلّا الموت».

ويحمل ذلك على الموت الحتمي الذي لا بداء فيه، إلّا فيمكن أن يكون شفاء عن الموت غير الحتمي أيضاً، لقول أبي عبد الله عليه السلام:

«إنّها من كنوز العرش، وأنّها لو قُرئت علىٰ ميّت سبعين مرّة ثمّ ردّت فيه الروح ما كان عجباً».

---

١. سورة يونس: الآية ١٠.

أقول : لا يتصوّر محلّ أرقى من كنوز العرش، الذي نزلت منه هذه السورة المباركة ، وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان العرش، وما يتعلّق به في الآيات المناسبة له .

وعن النبيّ ﷺ : «إنّ فاتحة الكتاب أشرف ما في كنوز العرش» .

وعن علي عليه السلام : «نزلت فاتحة الكتاب بمكّة من كنز تحت العرش» .

وعن النبيّ ﷺ أنّه قال لجابر : «ألا أُعلّمك أفضل سورة أنزلها الله تعالى في كتابه؟

قال : بلىٰ علمنيها ، فعلّمه الحمد لله أُمّ الكتاب ، ثمّ قال : هي شفاء من كلّ داء» .

أقول : الأُمّ هي الأصل في كلّ شيء ، بحيث يتفرّع منها الأشياء ، فأُم الكتاب أي : أصل الكتاب . كما أنّ أُمّ القرى أصلها أيضاً ، بحيث تفرَّعت عنها سائر القرى ، كما ورد في النصوص ، وسيأتي بيانها عند قوله تعالىٰ : ﴿لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[1] ، تكون الفاتحة كذلك ، لاشتمالها علىٰ كثير من معارف القرآن، علىٰ نحو الإجمال ، كما مرّ في البحث الدلالي .

وعن ابن عبّاس في قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي﴾ .

قال: هي أُمّ القرآن تثنّى في كلّ صلاة .

أقول : سمّيت الفاتحة أُمّاً لأصالتها، وتفرع سائر القرآن منها ، كما تقدّم .

وأمّا تسميتها بالسبع المثاني، فلما ورد عن الفريقين أنّه ﷺ قال :

«أُعطيت الطوال مكان التوراة ، وأُعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأُعطيت المثاني مكان الزبور ، وفضّلت بالمفصل سبع وستّين سورة» .

أقول : المراد من الطول من سورة البقرة إلى سورة التوبة ، والمئين هي

---

١ . سورة الشورى : الآية ٧.

السور التي تتضمّن أكثر من مائة آية. والمثاني ـ التي هي جمع مثنى ـ مثل المعاني جمع معنى ـ أي: ما كرّر فيه شيء، وهي السور التي تقصر عن المئين، أي ما كانت علي نحو مائة آية أو أقلّ، وأمّا المفصل فهي السور التي تفصل بينها البسملة كثيراً وتقصر آياتها. وفي ذلك أقوالٌ أُخر:

الأوّل: إنّها سمّيت بـ(المثاني) لتكرّرها في الصَّلاة.

الثاني: إنّما سمّيت بذلك لنزولها مرّتين مرّة بمكّة ـ كما تقدّم عن عليّ عليه السلام ـ وأُخرىٰ بالمدينة، لعظمة شأنها، ونسب ذلك إلى مجاهد، ولكنّ المشهور علىٰ خلافه، ويقتضيه الاعتبار أيضاً.

الثالث: أنّ المثاني جميع القرآن، وفاتحة الكتاب سبعة آيات من أعظم آيات القرآن، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾[1].

ويشهد له ما تقدَّم في تفسير الآية المباركة عن ابن عبّاس.

ويصحّ أن يُقال: إنّ المثاني من الأُمور الإضافية ـ كما عرفت ـ، وإطلاقها علىٰ فاتحة الكتاب بكلّ معنىٰ، يتصوّر بالنسبة إلى عنوان المثاني صحيح؛ فهذه الأقوال من باب تطبيق الكلّي على الفرد.

وقد روى الفريقان عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، قال:

«قال الله عزّوجلَّ: قسّمت فاتحة الكتاب بيني وبين عبدي، فنصفها لي ونصفها لعبدي، ولعبدي ما سأل. إذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم قال الله جلّ جلاله: بدأ عبدي باسمي وحقَّ علَيَّ أن أُتمم لى أُموره، وأُبارك له في أحواله. فإذا قال: الحمد لله ربّ العالمين، قال الله جلّ جلاله: حَمَدني عبدي، وعلم أنّ النِّعم التي له من عندي، وأنّ البلايا التي دفعت عنه بتطوّلي، أُشهدكم أنّي

---

١. سورة الحجر: الآية ٨٧.

أُضيف له إلى نِعَم الدُّنيا نِعَم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدُّنيا. وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله جلّ جلاله: شهد لي عبدي أنّي الرحمن الرحيم، أُشهدكم لأوفّرن من رحمتي حظّه، ولأجزلنَّ من عطائي نصيبه. فإذا قال: مالك يوم الدّين، قال الله تعالىٰ: أُشهدكم كما اعترف بأنّي أنا المالك يوم الدِّين، لأُسهلنَّ يوم الحساب حسابه، ولأتقبلنَّ حسناته، ولأتجاوزنَّ عن سيّئاته. فإذا قال: إيّاك نعبد، قال الله عزَّوجلَّ صَدَقَ عبدي إيّاي يعبد، أُشهِدُكم لأُثيبنَّه علىٰ عبادته ثواباً يغبطه كلُّ مَن خالفه في عبادته لي. فإذا قال: وإيّاك نستعين، قال الله تعالىٰ: بي استعان عبدي وإليّ التجأ، أشهدكم لأعينَنَّه علىٰ أمره، ولأُغيثنَّه في شدائده، ولآخذنَّ بيدِه يوم نوائبه. فإذا قال: إهدنا الصّراط المستقيم إلى آخر السورة، قال الله عزَّوجلَّ: هذا لِعبدي، ولِعبدي ما سأل، وقد استجبتُ لعبدي وأعطيته ما أمَّل، وآمنته ممّا منه وجل».

وقريب منه عن ابن عبّاس عنه صلى الله عليه وآله أيضاً.

أقول: هذه الرواية تكشف عن أهمّية سورة الفاتحة بالنسبة إلى سائر آيات القرآن، فإنّه:

أولاً: جعل عبده شريكاً لنفسه في المخاطبة والمكالمة.

وثانياً: قسّم السورة بين نفسه جلَّ شأنه وبين عبده نصفين.

وثالثاً: جعل علىٰ نفسه الوفاء بما جعله لعبده.

ورابعاً: إنّها أوثق رابطة بين العابد والمعبود، وتوجّه كلّ منهما إلى الآخر.

وخامساً: حنان خاص من المعبود الحقيقي إلى عابديه.

فهذه السورة المباركة ـ التي جعلها الله تعالى في صلاة المسلمين ـ هي كمرآة لجميع معارف القرآن بأخصر البيان.

وعن علي عليه السلام في تفسير الحمد لله:

«إنّ الله عرّف عباده بعض نعمه عليهم جملاً، إذ لا يقدرون علىٰ معرفة جميعها بالتفصيل، لأنّها أكثر من أن تحصى أو تعرف، فقال لهم: قولوا: الحمد لله علىٰ ما أنعم به علينا».

أقول: ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وعنه عليه السلام في تفسير ربّ العالمين:

«مالك الجماعات من كلّ مخلوق من الجمادات والحيوانات، وخالقهم، وسائق أرزاقهم إليهم، من حيث يعلمون، ومن حيث لا يعلمون، يقلّب الحيوانات بقدرته، ويغذوها من رزقه، ويحوطها بكنفه، ويدير كلّا منها بمصلحته، ويمسك الجمادات بقدرته، ويمسك المتّصل منها أن يتهافت، ويمسك المتهافت منها أن يتلاصق، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، والأرض أن تنخسف إلّا بأمره».

أقول: الحديث ظاهرٌ في عموم ربوبيّته تعالى لجميع الموجودات بتمام شؤونها، ويدل علىٰ ذلك ما تقدَّم في معنى الرب.

وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في بيان مالك يوم الدِّين:

«إنّ أكيس الكيّسين من حاسب نفسه، وعمل لما بعد الموت، وإنّ أحمق الحمقاء من أتبع نفسه هواها، وتمنّىٰ على الله الأماني، وأحمق النّاس من باع آخرته بدنياه، وأحمق منه من باع آخرته بدنيا غيره».

وفي معناه ورد كثير من الروايات، وعنه صلى الله عليه وآله:

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، أوزنوها قبل أن توزنوا».

أقول: هذه الروايات المتواترة تدل علىٰ أهمّية المعاد، ووجوب كثرة الاهتمام به، ومراقبة الإنسان لنفسه، والمواظبة على أعماله.

---

١. سورة النحل: الآية ١٨.

وعن علي عليه السلام في بيان إهدنا الصراط المستقيم:

«أدم لنا توفيقك الذي به أطعناك في ما مضى من أيّامنا، حتّىٰ نطيعك كذلك في مستقبل أعمّارنا».

أقول: والمراد من الإدامَة تجدّد مراتب الهداية، بعد تحصيل كلّ سابق، كما تقدّم.

وعن الصادق عليه السلام: «يعني أرشدنا للزوم الطريق المؤدّي إلى محبّتك، والمبلغ إلى جنتك، والمانع من أن نتّبع أهواءنا فنعطب، أو نأخذ بآرائنا فنهلك».

وعنه عليه السلام في الصراط: «هو الطريق الى معرفته عزّوجلّ، وهما صراطان: صراط في الدُّنيا، وصراط في الآخرة. فأمّا الصراط الذي في الدُّنيا فهو الإمام المفترض الطاعة، مَن عرفه في الدُّنيا واقتدى به، مرَّ على الصراط الذي هو جسر جهنم في الآخرة، ومن لم يعرفه في الدُّنيا، زلّت قدمه على الصراط في الآخرة، فتردى في نار جهنم».

وعن الصادق عليه السلام، في قول الله تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾**.

فقال: «فاتحة الكتاب من كنز العرش، فيها بسم الله الرحمن الرحيم الآية التي تقول: **﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾**. و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، دعوى أهل الجنَّة حين شكروا الله حسن الثواب. و﴿مَالِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، قال جبرائيل: ما قالها مسلمٌ قطّ إلّا صدّقه الله وأهل سماواته. (إيّاك نعبد) إخلاص العبادة، (وإيّاك نستعين) أفضل ما طلب به العباد حوائجهم، (إهدنا الصراط المستقيم) صراط الأنبياء، وهم الذين أنعم الله عليهم، (غير المغضوب عليهم) اليهود، (ولا الضالّين) النصارىٰ».

وعنه عليه السلام ـ أيضاً ـ في قوله تعالىٰ: **﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾**.

قال: «صراط محمّد وأهل بيته».

وعن ابن عبّاس كذلك، قال: «قولوا معاشر العباد أرشدنا إلى حبّ محمّد وأهل بيته».

أقول: الأخبار في ذلك كثيرة عن الفريقين، وهو تعبير عن الكلّي بالفرد، وبيان أحد المصاديق، ومثل ذلك كثير في القرآن العظيم والسنة الشريفة.

بحث فقهي:

يظهر من الروايات المستفيضة بين الفريقين، أنّ قوام الصَّلاة بفاتحة الكتاب، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه: «لا صلاة الاّ بفاتحة الكتاب».

وقال: «كلّ صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهي خداج».

إلىٰ غير ذلك من الروايات الكثيرة.

وأمّا التأمين بعد الفاتحة فيبحث فيه:

تارةً: بحسب الثبوت.

وأُخرى: بحسب الإثبات.

أمّا الأوّل: إنّ الهداية إمّا أن تلحظ من حيث إضافتها إلى الله تعالىٰ، فهو الهادي، فحينئذٍ لا رجحان لذكر (آمين) بعدها، كما في جميع صفاته تعالى الفعلية، وإمّا أن تلحظ من حيث إضافتها إلى العبد، أي طلب الهداية منه تعالىٰ، فكذلك أيضاً، لفرض حصول جميع مناشيء الهداية وأسبابها، وموجبات إتمام الحجّة منه عزَّوجلَّ، فقد حصل المطلوب خارجاً، فلا يعقل معنى صحيح للتأمين علىٰ ما وقع وحصل.

وإن كان المراد بها بحسب البقاء لا أصل الحدوث، فإن أُضيف البقاء إليه عزَّوجلَّ فهي باقية، لأنَّ حجته تامَّة وباقية ببقاء الإنسان، ولا وجه للتأمين عليه

أيضاً، وإن أُضيف الى العبد، فهو من فعله، ولا معنى لتأمين الشخص علىٰ فعله.

وإن أُريد به أن يوفّق الله عبده لإدامة الهداية لنفسه في المستقبل، كما وفقه في الماضي، فهو خروج عن ظاهر اللفظ بلا دليل.

وأمّا الثاني: فقد نسب إلى نبيّنا الأعظمﷺ بأسناد غير نقيّة، قول (آمين) بعد تمام الحمد. فالمقام مقام الحمد لله تعالى علىٰ هذه النعمة العظيمة، من وقوف العبد بين يدي الله تعالىٰ، ومخاطبته معه جلَّ شأنه، ويرشد إلىٰ ذلك قوله تعالىٰ: **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾**[1].

وقد ورد عن الصادقعليه السلام «إذا قال الإمام ولا الضالّين، فقولوا: الحمد لله ربّ العالمين».

ثمّ إنّه يجوز قصد الإنشاء بجملة «الحمد لله ربّ العالمين»، و «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين، إهدنا الصّراط المستقيم»، ونحوها من الآيات الكريمة، مع قصد القرآنية أيضاً، لأنَّ المتكلم في مقام إيجاد مفاهيم هذه الألفاظ لفظاً، والبناء على العمل طبقها خارجاً.

وقد أشكل عليه جمع من المفسّرين، بأنّه من استعمال اللفظ في معنيين، وهو غير جائز.

وهو مردود: لأنَّ الاستعمال الممتنع ـ علىٰ فرض امتناعه ـ إنّما هو في ما إذا كان المعنيان فردين مستقلّين في الإرادة الاستعمالية، كلّ منهما في عرض الآخر، لا في ما إذا كان أحدهما استقلالياً والآخر تبعيّاً. وإلّا فهو واقع كثيراً في المحاورات الصحيحة، والمقام من هذا القبيل، فيقصد القاريء القرآنية استقلالاً، والأنشائية تبعاً، والمسألة أُصولية تعرَّضنا لها في «تهذيب الأُصول».

---

١. سورة الأعراف: الآية ٤٣.

بحث فلسفي:

المعروف بين جمعٍ من الفلاسفة، لزوم السنخية بين العلّة والمعلول، فالمباين من كلّ جهة لا يمكن أن يصير علة للمباينة كذلك، كما أنَّ المباين من كلّ جهة، لا يصدر من المباين كذلك، وبنوا عليه مباحث فلسفية وعرفانية.

ولكن ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، وغيره من الآيات المباركة ـ الكثيرة التي يأتي بيانها ـ ينفي ذلك فأنّ موجد العوالم ومربّيها، لا سنخية بينه وبينها، إذ لا سنخية بين الممكن بالذات والفقير المحض، وبين الواجب بالذات والغني المطلق كذلك.

ودعوى: أنّ السنخية في مفهوم الموجودية متحقّقة.

مردودة: بأنّه لا علية ولا معلولية في المفاهيم، وإنّما هما من شؤون الحقائق فما هو مشترك لا يتصوّر العلّية والمعلولية فيه، وما هو علّة ومعلول لايتحقّق الاشتراك فيه، وسيأتي تفصيل هذا البحث في الآيات المناسبة له إن شاء الله.

ولذا ذهب جمعٌ من محقّقي فلاسفة المسلمين إلى أنّ السنخية إنّما تصحّ في العلل الطبيعية، كتوليد النار للحرارة. واما الفاعل المختار القدير، فلاوجه لذلك فيه، كما عرفت.

***

سورة البقرة

مدنيّة، وهي مائتان وست وثمانون آية

الآية ١ـ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الم ۝١ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ ۝٢ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾.

سُمّيت هذه السورة المباركة بـ(البقرة)، لذكر قصّتها في السورة، وهي من أهمّ السور القرآنية، ففيها آيات من ذروة العرش بل من كنوزها، ومن لباب المعارف الإلٰهية أسرارها ورموزها. وفيها أعظم آية في كتاب الله، وأجمع آية للكمالات الإنسانية، وآخر آية نزلت علىٰ صاحب النبوّة، وفيها شُرِّعت جملة من أركان الدِّين، وجُعلت الكعبة المقدّسة قبلة للأنام، ومطافاً لهم يأتونها من كلّ فجٍّ عميق.

وبالجملة؛ كمال السورة إن كان لاشتمالها على المعارف الربوبيّة، فهي في رأسها، وإن كان لأجل اشتمالها على الأحكام التشريعيّة الفرعيّة، فهي في مقدّمتها، وإن كان لأجل اشتمالها على القصص القرآنيّة، فهي في طليعتها، فحقٌّ أن تُسمّى سنام القرآن، وسنام كلّ شيء ذروته وأعلاه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ﴾:

المعروف بين المفسّرين أنّ هذه الحروف المقطَّعة، في أوائل السور القرآنية، من المتشابهات، ولاريب في أنّ العلم بها مختصّ باللّٰه تبارك وتعالىٰ، أو بمن علّمه عزَّوجلَّ، لأنّ هذه الكلمات المقطّعة قد أعيت العلماء علىٰ جهدهم، عن الوصول الى آثارها، فضلاً عن العلم بكيفيّة تركيبها، والإطّلاع علىٰ حقائقها وأسرارها.

والظاهر أنّ ذكر الحروف المقطّعة في القرآن العظيم، يشير إلى أهمّية الحروف الهجائية، وكثرة عناية الله عزَّوجلَّ بها، لأنّها محور الشرائع السماويّة والكتب الإلٰهيّة، بل بها تقوم الحياة الاجتماعية في الإنسان، ولأجل ذلك جعل تعالى البيان ـ أي النطق بها ـ في قِبال خلق الإنسان، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1].

وعلىٰ هذا يمكن أن يكون (ذلك الكتاب) مبتدءاً مؤخّراً، و﴿الٓمٓ﴾ خبراً مقدّماً. يعني: أنّ ذلك الكتاب العظيم هو هذه الحروف الهجائية التي تنطقون بها، ولكنّه بحسب النظم والجمال، والكمال والمعارف، شيء خارج عن مقدوركم، ويكون من عالم الغيب، وقد ظهر إلى عالم الشهادة مقروناً بالتحدّي والتعجيز، وإتماماً للحجّة، فكما أتمَّ الله الحجّة عليهم بمن هو من أنفسهم، أتمّ الحجّة عليهم أيضاً بما هو من ألفاظهم.

ثمّ إنَّ الحروف المقطّعة في أوائل السور، أسماءٌ باتّفاق أئـمّة أهل اللغة وليست بحروف، وهي تقرأ مقطعة بذكر أسمائها، لا مسمّياتها، فيقال: ألف لام

---

١ ـ سورة الرحمٰن: الآية ٣ و ٤.

ميم ، ساكنة الأواخر ، والسور التي فيها هذه الكلمات المقطّعة، تسع وعشرون سورة ، وأصل الحروف الهجائية أيضاً كذلك ، بناءً علىٰ عدِّ الهمزة حرفاً مستقلاً .

وأمّا بناءً علىٰ عدّها مع الألف واحدة، فثمان وعشرون ، وجميع الأحرف المقطّعة بعد حذف المكرّرات نصف الحروف الهجائية ، وإنّما ذكر تبارك وتعالى نصفها استغناءً بذلك عن الجميع ، وهذا من جهات البلاغة أيضاً .

ولا ريب في أنّ هذه الحروف ليست من المهملات، بل هي مستعملة في معان اختلف في فهم المراد منها ، وقد تعدّدت أقوال المفسِّرين في ذلك، ربما تبلغ إلى عشرة أو أكثر :

منها : أنّ المراد بها الإشارة إلى حساب الجُمَل الذي كان متداولاً في العصور القديمة ، فاستخرجوا منها جملةً من الحوادث ، ومنها مدّة حياة هذه الأُمّة ، واستند بعضهم إلى حديث أبي لُبيد المخزومي .

وأصل هذا التفسير باطلٌ لا دليل عليه من عقل أو نقل ، والحديث ضعيف ، ودلالته مخدوشة ، والحساب الواقع فيه غلط علىٰ كلّ تقدير ، فلا يمكن الاعتماد عليه .

ومنها : ما عن جمع من مفسِّري الصوفيّة، تفسيرها بالقطب والولي والأوتاد ، وغاية ما ادّعوه في إثبات ذلك الكشف والشهود .

ولكن التفسير بذلك باطل أيضاً ، ولا دليل عليه، وما ادّعوه من الكشف مردود ، لا مجرى له في القرآن الكريم، والسنّة الشريفة، والأحكام الإلٰهيّة ، ونصوصنا به متواترة .

ومنها : إنّها إشارة إلى إعجاز القرآن ، فإنّ ما يستعمل في التكلّم والتخاطب إنّما هو المركّبات دون المقطّعات ، ومع ذلك فإنّ في هذه المقطّعات لطافة لا تكون في غيرها ، وحلاوة لا توجد في ما سواها ، فإعجازها في الفصاحة

والبلاغة نحو إعجاز خاص.

إلى غير ذلك من الوجوه التي يمكن إرجاعها إلى الحِكَم والفوائد المتصوّرة، كما ستعرف، وإلّا فلا يمكن القول بأنّها معانٍ لها.

والحقّ أنّها بحسب المعنى من المتشابهات التي استأثر الله تعالى علمها لنفسه، كما تقدّم. فلا يلزم على العباد الفحص عن حقيقتها، وبذل الجهد في دركها وفهمها، بل لابدّ من إيكال الأمر إليه تعالىٰ، وقد وردت في ذلك روايات كثيرة عن نبيّنا نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الهُداة عليهم السلام.

نعم، يمكن أن يلتمس لتلك الحروف حِكَم وفوائد:

منها: أنَّ استعمال الرموز بالحروف المقطّعة، كان شائعاً عند العرب، وقد يعدُّ لذلك من علم المتكلّم وحكمته، والقرآن الكريم لم يتعدَّ عن هذا المألوف، فأشار بذكرها إلى أنّ القرآن الكريم هو من هذه الحروف، وجامعٌ لما هو المتعارف لديكم، ومع ذلك فقد أبدع إبداعاً عجزت العقول من جمال لفظه، فضلاً عن كمال معناه.

ومنها: أنّها ذُكرت لأجل جلب استماع المخاطبين، فإنّهم إذا سمعوها تهيأوا لاستماع البقيّة، فهي تشويق وتنبيه لاستعداد تفّهم شيء جديد.

ومنها: إرشاد النّاس إلى أنّ وراء كلّ ظاهر باطن، فلا يكتفى بالجمود على الظاهر، بل لابدّ من التأمّل في بطون الكلمات القرآنية، لأنّ في كلّ كلمة من كلمات القرآن بانفرادها دقيقة، كما أنّ في سائر جهاتها دقائق ولطائف.

ومنها: أنّها تُشير إلى بعض الحقائق، ورموز الى بعض العلوم التي سترها الله تعالى عن العباد؛ لما رآه من المصالح، حتّى يظهر أهلها فيستفيدوا منها، وتكون لغيره من مخفيّات الكنوز، فلها ربط بعلم الحروف.

ومقتضى الأخبار الكثيرة، أنّ عند الأئمّة الهداة شيءٌ كثير منه، وهو ممّا

اختصّهم الله تعالىٰ به، فعلم فواتح السور من الأسرار المـودعة لدى الإمـام عليه السلام، ويرشد إلىٰ ذلك ما يستفاد من مواظبة الأئمّة الهُداة عليهم السلام في حالاتهم الانقطاعية مع الله تعالىٰ، وتوسّلهم إليه عزّوجلّ بفواتح السور، وأنّ لهـا شأنـاً مـن الشأن، ومنزلة عظيمة عند الله تعالىٰ.

وهذه قرينة معتبرة علىٰ سقوط كثير من احتمالات المـفسِّرين، وبـذلك تخرج عن التشابه المطلق، لأنّ ما ذكره الأئمّة الهُداة، إنّما كان مـن الإفـاضات الربوبية عليهم.

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾:

فسّر الأُدباء «ذلك» للإشارة إلى البعيد ـ ذهنياً كان أو خارجياً، حسيّاً كان أو عقليّاً ـ وأنّ موارد استعمالاته في القريب، إنّما تكون بالعناية، كقوله تـعالىٰ: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ﴾[2].

والمراد بالأُولىٰ بُعد جمال يوسف عليه السلام عن كلّ ما يتصوّرون فيه، وبالثانية بُعد حقيقته تعالى عن إحاطة العقول بها مطلقاً.

وفيه: أنّ كلّ ذلك تكلّف مستغنى عنه، فإن أرادوا الحقيقة والمجاز، يعني أنّ استعمال (ذلك) في البعيد حقيقة وفي غيره مجاز، أو أنّه من تـعدّد الوضـع، فالأصل ينفي كلّاً منهما، وإن أرادوا به مجرّد الاستحسان، فهو مخالف للـقاعدة التي أسّسوها من أنّ «اللغة لا تثبت بالاستحسان».

وحينئذٍ فإن قالوا: بأنّ الموضوع له في أسماء الإشارة عام، فهي كأسماء الأجناس لافرق فيها بين القريب والبعيد، والتفرقة بينهما ساقطة.

---

١. سورة يوسف: الآية ٣٢.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٠٢.

وإن قالوا: بأنّه خاصّ، ويكون (هذا) لخصوص القريب، و(ذلك) لخصوص البعيد، ولوحظت هذه الخصوصيّة في الوضع والموضوع له، فأصالة عدم ملاحظة هذه الخصوصيّة مسلّمة عند جميع الأُدباء وغيرهم أيضاً.

وإن أرادوا أن الخصوصيّة حاصلة عند الاستعمال، فهو صحيح في الجملة، لكن محققيهم لا يقولون بصحّة أخذ ما حصل من الاستعمال في الموضوع له.

وقد فصَّلنا القول في الأُصول، فليراجع تأليفنا فيه.

هذا مع أنّ هذا البحث ساقط بالنسبة إلى ما ينزل منه عزّوجلَّ، إذ لا يتصوّر بُعدٌ وقربٌ بالنسبة إليه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[1]، وهو قريبٌ في عين بُعده، وبعيدٌ في عين قربه، وقد استعمل لفظ (هذا) بالنسبة إلى القرآن أيضاً، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾[2]. مع أنّ القرب والبُعد لهما مراتب متفاوتة في القرآن أيضاً، فهو قريب إلى الأذهان من حيث نظمه وأسلوبه الظاهري وقصصه، وبعيدٌ عنها من حيث متشابهاته ودقائقه، فيصحّ استعمال الإشارة القريبة والبعيدة إليه من جهتين.

وعن علي عليه السلام: «إنّ القرآن ذو وجوه».

ثمّ إنّ هذه الجملة المباركة (ذلك الكتاب)، في مقام التعظيم والإجلال للقرآن الكريم، عظمة لا نهاية لها كما ستعرف.

والكتاب، قيل: هو بمعنى الجمع، لأنّه مصدر من كتب يكتب إذا جمع.

وقيل: إنّه بمعنى المكتوب، وهو اسم جنس لما يكتب.

والظاهر أنّ مادّة كتب، بمعنى الثبوت والوجوب. ويمكن إرجاع الأولين إليه

---

١. سورة الحديد: الآية ٤.

٢. سورة الإسراء: الآية ٩.

أيضاً،فإنّ القرآن هو الثابت في جميع العوالم،والجامع لجميع المعارف والكمالات.

وقد أطلق لفظ الكتاب على القرآن الكريم، مقروناً بالتجليل والتعظيم، قال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[١].

قال تعالىٰ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا* قَيِّماً﴾[٣].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وقد ثبت في الفلسفة الإلٰهيّة أن الإنسان من بدء وجوده إلى حين موته، إنّما يسعى ويستهدف في حياته تحصيل غاية وغرض مّا، وهذا الغرض يختلف باختلاف أفراد الإنسان، ويمكن جمع تلك الأغراض المختلفة غير المحدودة في عنوانين كلّيين:

الأغراض الواقعية العقلية.

والخيالية الوهمية.

وليس كل فرد يصل إلى غايته وغرضه، لوجود موانع لا تعدّ، وعوائق لا تحصى، والحياة عبارة عن جلب الملائم ودفع العوائق، وثبت هذا بالفطرة أيضاً.

وفي الآية المباركة إشارة إلى أن الغاية العقلية التي لابدّ من طلبها، والغرض الذي يجتهد في تحصيله ذلك الكتاب، لقوله تعالىٰ: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[٤].

---

١. سورة ص: الآية ٢٩.

٢. سورة إبراهيم: الآية ١.

٣. سورة الكهف: الآية ١ ـ ٢.

٤. سورة النحل: الآية ٨٩.

فهلمّوا إليه، ولا تذهبوا يميناً وشمالاً فتضلّوا السبيل.

ويمكن أن يكون المراد بالكتاب، هو ذلك الكتاب الذي كان الأنبياء عليهم السلام يطلبونه بالفطرة الاستكمالية عندهم، لتكميل النفوس الإنسانيّة، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿لا ريب فيه﴾:

الريب والريبة: هو الشكّ، بل هو أدنىٰ مراتبه، وحذف المتعلّق يفيد العموم، أي أنّ ذلك الكتاب لا شك فيه، من أي جهة يمكن أن يتصوّر فيه الشكّ، فهو مبرّأ من كلّ عيب وشك، لأنّ نفي كلّ طبيعة يقتضي نفي جميع أفرادها المتصوّرة في تحقيقها، فنفي الريب بقول مطلق، يقتضي نفيه في نظمه وبلاغته، وفي علومه ومعارفه وتشريعاته، وجميع الجهات المتصوّرة في كماله ومعارفه.

ولاريب في كونه كذلك، فليس لأحدٍ أن يرتاب فيه بعد الاعتراف بأنّه من الحكيم الخبير، وهذا حكمٌ عقلي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم، كسائر الأحكام العقلية، كقوله تعالىٰ: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[2].

قوله تعالىٰ. ﴿هُدىً للمتّقين﴾:

هدى مصدر، والهداية الدلالة إلى الصراط المستقيم، ولها مراتب كثيرة تختلف باختلاف الاستعدادات، وسائر الجهات اختلافاً كثيراً، وتقدّم ما يتعلّق بها في سورة الفاتحة.

---

١. سورة المائدة: الآية ٤٨.

٢. سورة إبراهيم: الآية ١٠.

والمتّقين : من الاتّقاء ، والاسم التقوى ، ومعناها الحجز والمنع ، وهي من أعلى الصِّفات التي اعتنى بها الله تبارك وتعالىٰ ، كما أنّها من أجلّ المقامات الإنسانية وأرفعها ، والتقوى تدور مدار الإيمان والعمل الصالح .

والقرآن العظيم، كما أنّه مقتضٍ لحدوث التقوى للعاملين به، كذلك مقتضٍ لبقائه فيهم أيضاً ، ولا ريب في أنّ العمل بالقرآن ملازمٌ للتقوىٰ، فكأنّه قال تعالىٰ : هدىً للعاملين به ، وإنّما ذكر المتّقين إشعاراً بعظمة التقوىٰ، وأهمّية مقامها ، وذكر أحد المتلازمين، وإرادة الملازم الآخر، شائع في كلام الفصحاء .

وقد وصف الله تبارك وتعالى الكتاب في آياتٍ أُخر بأنّه هدىً للمتّقين، كقوله تعالىٰ : ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] .

كما وصفه تعالىٰ بأنّه هُدىً للمسلمين ، قال تعالىٰ : ﴿**نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[2] .

وللناس أيضاً، كقوله تعالىٰ : ﴿**أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ**﴾[3] .

فهو هادٍ للمتّقين ، والعلماء العاملين به ، وسواد النّاس ، وذلك لعدم تناهي معارفه، وعدم إمكان الإحاطة بعلومه لغيره عزّوجلّ، فكلّ يستفيض منه بقدر قابليّته .

وليس المراد بالمتّقين، خصوص مَن بلغ المرتبة القصوى في إيمانه وتقواه، لأنّ القرآن نافع وهّاب لجميع المراتب ، بل وجميع النّاس كما عرفت ، ولا تختصّ هداية القرآن بالمتّقين فقط ، لأنّ الوصف لا يدل على المفهوم، خصوصاً مع التصريح بالعموم في آيات كثيرة علىٰ ما تقدّم .

---

١. سورة آل عمران : الآية ١٣٨ .

٢. سورة النحل : الآية ١٠٢ .

٣. سورة البقرة : الآية ١٨٥ .

ثمّ إنّ التقوى استعملت في القرآن الكريم بهيئاتها الكثيرة، وجميعها تشعر بعظمة مقامها، ورفعة شأنها، وأنّها توجب محبّة الله للمتّصفين بها، ومحبّة النّاس لهم، كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[3].

وسيأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وقداستعملت منسوبة إليه عزّوجلّ، في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[5].

وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾[6].

واتّقاؤه: يعني اتّقاء عذابه وعقابه، وإلّا فلا وجه لنسبة الاتّقاء إلى ذاته ولا قدرته تعالىٰ. وعقاب الله إمّا دنيوي أو أخروي أو هما معاً، واتّقاء عقابه إنّما يتحقّق بالايمان الصحيح والعمل الصالح.

وأدنى مرتبة التقوى التي يكون المدار عليها في الكتاب والسنّة، هي إتيان الواجبات وترك المحرّمات، وفوق ذلك مراتب ودرجات، كما وردت في خطبة علي عليه السلام في وصف المتّقين، وهي من جلائل خطبه ونفائسها.

والتقوى فوق الإيمان بدرجة، لقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ

---

١. سورة الدخان: الآية ٥١.

٢. سورة ق: الآية ٣١.

٣. سورة التوبة: الآية ٧.

٤. سورة البقرة: الآية ٤١.

٥. سورة البقرة: الآية ١٩٧.

٦. سورة الحشر: الآية ١٨.

﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[١].

وقد وردت في جملة من الأخبار أيضاً:

فعن الرضاعليه السلام: «الإيمان فوق الإسلام بدرجة، والتقوىٰ فوق الإيمان بدرجة، واليقين فوق التقوى بدرجة، وما قُسِّم في الناس شيء أقلّ من التقوىٰ».

ويعضد ذلك اللغة والعرف أيضاً، فإنّ أهل التقوى عند النّاس، أخصّ من المؤمنين، وقد جُعل الإيمان موضوعاً للتقوى في جملة من الآيات الكريمة، منها قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾[٤].

نعم، قُدّم التقوى على الإيمان في جملة أُخرىٰ من الآيات، كقوله تعالىٰ: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٥].

ويمكن أن يكون هذا التقديم والتأخير، باعتبار المراتب والثبات عليها، لا باعتبار أصل الإيمان، فإنّه موضوع التقوى.

فما عن بعض المفسِّرين من أنّ التقوى في المقام هو الإيمان، وأصرَّ عليه. مردود، ويأتي التفصيل إن شاء الله تعالىٰ.

---

١. سورة الأنفال: الآية ٢٩.

٢. سورة البقرة: الآية ١٠٣.

٣. سورة المائدة: الآية ٨٨.

٤. سورة المائدة: الآية ٣٥.

٥. سورة المائدة: الآية ٩٣.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾[١]:

الإيمان من الأمن، سُمّي به لكونه موجباً لأمن المؤمن من العقاب في الآخرة، قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْساً وَلَا رَهَقاً﴾[٢].

أو لأمان النّاس به في الدُّنيا. وفي الحديث: «لأنّه يؤمن على الله فيجيز أمانه».

وهو ـ كما في جملةٍ من الأخبار ـ الاعتقاد بالجنان، والعمل بالأركان، والإقرار باللسان، فليس الإيمان مجرّد الإقرار، بل العمل بالوظيفة جزؤه، فهو في اللّغة والشرع بمعنى واحد، وهو التصديق الجازم.

ويستعمل لازماً وهو كثير في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾[٣].

ومتعدياً بكلمة (الباء) و (اللّام)، وهو أيضاً كثيرٌ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[٤].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ﴾[٥].

ويكشف من ورود متفرّعات هذه المادّة، في مواضع كثير من القرآن، عن أهمّية الإيمان، وأنّه الأصل في الكمالات الإنسانية مطلقاً، بل جعل تعالى العقل ـ الذي هو من أعظم مواهبه ـ دائراً مداره، فقال عزّوجلّ: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴾[٦].

---

١. سورة البقرة: الآية ٣.

٢. سورة الجنّ: الآية ١٣.

٣. سورة البقرة: الآية ١٣.

٤. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

٥. سورة يونس: الآية ٨٣.

٦. سورة الطلاق: الآية ١٠.

حيث خصَّ أُولي الألباب بالمؤمنين.

وقرن العمل بالصالحات مع الإيمان، في كثير من الآيات، قال تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1].

وفي النصوص الكثيرة أنّ الإيمان مبثوث على الجوارح جميعها، ويدلّ علىٰ ذلك الاعتبار أيضاً، فإنّ مَن التزم بشيء، ولم يعمل بما التزم به، لا يعدّ من أهل ذلك الملتزم به، إلّا بالعناية والمجاز.

نعم، الإيمان أمرٌ تشكيكي، وأنّه كسائر الصفات النفسانيّة التي لها مراتب كثيرة، كمالاً ونقصاً وشدّةً وضعفاً كما سيأتي، ويختلف باختلاف متعلّقه من القلب واللّسان وعمل الجوارح، وأعلىٰ مراتبه ما بيّنه تعالى في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[2].

ومن ذلك يعلم، أنّ الإيمان علىٰ أنحاء أربعة:

الأوّل: الإيمان الانتسابي فقط، بأن يرى الشخص نفسه في بلاد المسلمين منسوباً إليهم، بلا اعتقاد ولا عمل.

الثاني: الإيمان الاعتقادي فقط من دون عمل.

الثالث: العمل الظاهري من دون الاعتقاد.

الرابع: الاعتقاد القلبي والعمل علىٰ طبق ما اعتقد.

وما يصدق عليه الإيمان حقيقة هو الأخير، وهو النافع للنفس الإنساني

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨.

٢. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

في طريق استكماله وعوالمه الأُخروية، وسائر الأقسام إنّما أُطلق عليها الإيمان بالعناية للتسهيل.

نعم، لايطلق عليه الكافر، إلّا إذا انتفى منه الاعتقاد والعمل والإقرار، ومع انتفاء العمل بالأركان فقط، يكون فاسقاً إن لم يكن منكراً لضروري من ضروريات الدِّين، فمن ترك واجباً، وارتكب محرّماً، فهو ليس بمؤمن من هذه الجهة، وإن كان مؤمناً من جهة أُخرىٰ.

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

وعن الصادق عليه السلام: «فأمّا الرشا في الأحكام فهو الكفر بالله العظيم».

ومن ذلك يظهر بطلان إشكال جمع من المفسِّرين وغيرهم، بأنّه إن كان العمل بالشريعة المقدّسة جزءاً من الإيمان، لزم عطف الجزء على الكلّ في الآيات الكثيرة المشتملة علىٰ عطف عمل الصالحات على الإيمان ـ كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[1] ـ أو اشتراط الشيء بنفسه، وكلاهما باطل.

ووجه الدفع: أنّ عطف الجزء على الكلّ، إذا كان لفائدة وخصوصيّة، لابأس به، بل هو من شؤون البلاغة والفصاحة، كما صرّح به أئمّة العربية، وأي فائدة أحسن من كون الإيمان بالشريعة، يدور مدار العمل بها، قال صلى الله عليه وآله:

«لا قول إلّا بالعمل، ولا عمل إلّا بإصابة السنّة».

وليس المقام من اشتراط الشيء بنفسه، بل من اشتراط الشيء بأهمّ شروطه، كما في قوله صلى الله عليه وآله: «لا صلاة إلّا بطهور».

قوله تعالىٰ: ﴿بِالْغَيْبِ﴾:

الغيب، هو خلاف الحضور والشهود، فكلّما لم يكن حاضراً في المدارك

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٧٧.

الجسمانية ومشهوداتها، يكون من الغيب، ولكنّه ثابت في الواقع بتمام معنى الثبوت والتحقّق. والإيمان بالغيب هو الاعتقاد بما غاب عن النّاس من الموجودات والعوالم، كعالم الملائكة، وعالم البرزخ، وعالم الآخرة، وجميع ما أنزله الله تبارك وتعالى من الأحكام، بل نفس القرآن، لأنّه وإن كان مشهوداً للناس، لكنّه من الغيب من حيث معارفه وعلومه.

ويمكن أن يكون مشهوداً من جهة، ومن الغيب من جهةٍ أُخرىٰ، كالصلاة فإنّها عملٌ حاضر ولكنّها ـ من حيث أنّ حافتي الصراط الصلاة وصلة الرحم ـ من الغيب. وكذا الحجر الأسود، فإنّه مستلم الحجيج ظاهراً فهو مشهودٌ، ولكن من حيث كونه يمين الله في الأرض، يصافح بها مع عباده ـ كما في الحديث ـ من الغيب، إلى غير ذلك.

والمراد بالغيب هنا، هو الله تبارك وتعالىٰ، وكلّ ما أوحى إلى نبيّه ﷺ، والدار الآخرة، وما فيها من النشر والحشر، والحساب والثواب والعقاب، وقد أشار عزّوجلّ إلى ذلك في ذيل الآية ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1].

وإنّما حثَّ الله عباده على الإيمان بالغيب، وعدم اقتصارهم على المحسوسات، لأنّه الأصل في الكمالات الإنسانيّة الباقية، وبالإيمان به يسهل على الإنسان كُلفة العمل، فكأنّه يرى فعلاً ثمرة عمله، بخلاف المقتصر على الحسّ، فإنّه وإن بلغ إلى غاية مراده، لكن كماله الظاهري منحصرٌ بالمادّيات فقط.

والغيب يُستعمل في القرآن الكريم بمعان:

الأوّل: ما ذكر في هذه الآية المباركة، وسائر الآيات المرغبة للإيمان.

الثاني: ما أضافه الله تعالى إلىٰ نفسه، مثل عالم الغيب والشهادة:

---

١. سورة البقرة: الآية ٤.

قال تعالىٰ: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢]، و: ﴿أَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة.

والمراد بهذا الغيب جميع ما سوى الله تعالىٰ، من حقائق المجرّدات والمادّيات، والجواهر والأعراض، وخواصّها ومباديها، وما يصير إليها أمرها، وارتباط بعضها مع بعض والمضادّة بينها، وما يتعلّق بالإنسان حدوثه وبقاءه ومصيره، والعوالم التي يرد عليها، إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة.

الثالث: ما ينبغي ستره وحفظه؛ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾[٤].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾[٥].

الرابع: ما حدث ومضى، كقوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾[٦].

مع أنّ قصّة يوسف عليه السلام وقعت في الخارج، ثمّ حكاها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله.

والجامع لتلك المعاني هو الاستتار.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾:

استعملت مادّة (ق و م) في القرآن العظيم، بكثير من هيئآتها المختلفة،

---

١. سورة التغابن: الآية ١٨.

٢. سورة هود: الآية ١٢٣.

٣. سورة التوبة: الآية ٧٨.

٤. سورة النساء: الآية ٢٤.

٥. سورة يوسف: الآية ٥٢.

٦. سورة يوسف: الآية ١٠٢.

بالنسبة إلى الصلاة تعظيماً لها، واهتماماً بشأنها. والإقامة بمعنى الاستواء والاعتدال والجمع. ومعنى إقامة الصلاة إتيانها بحدودها وقيودها، على ما أمر الله تعالى به، والتوجّه بها إلى الله عزّوجلّ.

والصلاة بمعنى الدُّعاء والعطف والرحمة:

قال تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾**(١).

أي يرحمكم ويعطف عليكم.

وقال تعالىٰ: **﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾**(٢).

وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾**(٣).

أي ينزل الرحمة والعناية الخاصّة عليه ﷺ.

واستعمل لفظ (الصلاة) في ما هو المعهود من الأعمال في الشريعة الإسلامية، لوجود الدُّعاء، وطلب الرحمة فيها.

وهذه العبادة الخاصّة، كانت معهودة لدى الأنبياء السابقين، وأتباعهم في الشرائع القديمة، بل كانت توجد عند الحنفاء في الجاهلية، وقد أحكمها الله تعالى في هذه الشريعة في أفضل هيئة، وأتمّ عبادة، وهي أوّل ما علمها الله تعالى لنبيّه الأعظم ﷺ مباشرة من وراء الغيب ليلة المعراج، كما في الحديث. وأوّل ما ينظر إليه الله تعالى من أعمال العباد يوم القيامة: «إن قُبلت قُبل ما سواها وإن ردّت ردَّ ما سواها»، وجعلها النبيّ ﷺ عمود الدِّين، كلّ ذلك لما فيها من الأثر العظيم

١. سورة الأحزاب: الآية ٤٣.

٢. سورة التوبة: الآية ١٠٣.

٣. سورة الأحزاب: الآية ١٥٦.

في تهذيب النفوس، والعروج بها إلى الملكوت. وقد ذكر الله تعالى من عظيم أثرها في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[١].

ولذلك أمر الله تعالى بإقامتها، والمحافظة عليها، والخشوع فيها، وأدائها في أوقاتها.

وليس المراد بإقامتها، مجرّد الإتيان بها صورةً من قيام وركوع وسجود، خالية من روح العبادة، والتوجّه إليه تعالىٰ، وإلّا فهو مضيِّع لها، وقد توعّد الله فاعلها بالويل، فقال جلَّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾[٢].

فهو وإن سُمّي مُصليّاً، لكنّه منعوت بالسهو عن حقيقتها، فتقول الصلاة له: (ضيَّعك الله كما ضيّعتني) كما ورد في الأثر.

ولأجل ذلك لم يستعمل لفظ الإتيان بالصلاة في القرآن العظيم، إلّا مقروناً بالذمّ غالباً، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٣].

قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾:

الرزق: هو العطاء الخاصّ، في مقابل الحرمان، ويشمل المادّيات كالمال والولد، والمعنويات كالعلم والتقوىٰ والجاه.

وبالجملة: كلّ جهة إمكانية تحقّقت بالنسبة إلى الإنسان، وأفاض الله تعالىٰ عليه فهو رزق منه تعالى إليه، قال عزّوجلّ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ

١. سورة العنكبوت: الآية ٤٥.
٢. سورة الماعون: الآية ٤ ـ ٥.
٣. سورة التوبة: الآية ٥٤.

﴿فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[١].

إن قلت : إثبات أنّ الإنسان بجميع جهاته ـ من ذاته ووجوده وعوارضه ـ رزقٌ، ومجعول منه تعالىٰ، منافٍ للنزاع المعروف بين الفلاسفة والمتكلّمين من أنّ الوجود مجعول منه تعالىٰ ، فتكون الماهية ليست كذلك ، أو الماهيّة مجعولة منه تعالىٰ، فالوجود ليس كذلك ، فلا كلّية في ما ادّعيت من أنّ الإنسان مجعول منه تعالىٰ .

قلت : لاريب في أنّ الجميع ـ الوجود والماهية وعوارضها ـ مجعول منه تعالى، إمّا تبعاً أو استقلالاً ، فمن يقول باستقلالية الجعل بأحدهما، يكون الآخر مجعولاً بالتبع، فالكلّ مجعول منه تعالىٰ، ومرزوق منه جلَّ شأنه .

والإنفاق : هو الإخراج من اليد ، والمراد به هو الإعطاء الخاص المرغب إليه شرعاً والممدوح عقلاً . وهذا وصفٌ آخر للمؤمنين بالغيب ، فإنَّ مَن كان مؤمناً بما وراء المادّيات ، ويعتقد بأنّ مرجعها إلى الزوال والفناء ، وأنّ ما يملكه هو رزق من الله تعالىٰ، يجد في نفسه ميلاً إلى بذله ابتغاء رضوان الله، ورحمةً لبني نوعه ، ويكون من المتّقين الذين لهم القابلية لهدى القرآن .

فقوله تعالىٰ : **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**، أجمعُ كلمةٍ نافعة للإنسان، وأعظمُ ما يحفظ به النظام؛ لأنّ جميع مواهب الله تعالى على الإنسان رزقٌ منه ، لابدّ وأن ينفق بنحو ما أذن الله له ، وهذا هو الاستكمال والاستنماء لنفس الموهبة الإلٰهيّة في الدُّنيا والآخرة ، وهو من الإمداد الغيبي الذي يصل منه تعالى إلى المُنفقين ، وفيهم نزل قوله تعالىٰ : **﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾**[٢].

---

١. سورة الإسراء، الآية ٧٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٦١.

كما أنَّ فيهم نزل أيضاً: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١].

وليست الحسنة مختصّة بالمال، بل تشمل كلّ خير يوصل إلى الغير لينتفع به، ويسمّى صدقةً أيضاً، وسيأتي في البحث الروائي ما ينفع المقام.

ثمّ إنّ الإنفاق أقسام:

الأوّل: الإنفاق الواجب، كالزكاة المفروضة، والخمس والكفّارات والنفقات الواجبة، وما أوجب الإنسان علىٰ نفسه بالنذر ونحوه.

ومن الإنفاق أيضاً: إنفاق الواجبات النظامية علىٰ ما فصّل في الفقه.

الثاني: الإنفاق المندوب الذي حثَّ القرآن إليه في آيات كثيرة، كما سيأتي، وكلّ ما اشتدّ حبّ الإنسان لشيء يشتدّ ثواب إنفاقه لله تعالىٰ، قال جلَّ شأنه: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[٢].

الثالث: الإيثار على النفس، الذي هو من أجلّ مقامات الأولياء، وفيهم نزلت الآية المباركة: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٣].

وسيأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة له.

ومن ذلك يعرف، أنّه لا وجه لتخصيص الرزق بالنفقة الواجبة على الأهل والولد، أو الزكاة المفروضة، أو صدقة التطوّع، أو الحقوق الواجبة العارضة في الأموال ـ ما عدا الزكاة ـ، وكذا ليس المراد به خصوص العلم ـ كما يأتي في البحث الروائي ـ، بل هو عامٌ يشمل كلّ إنفاق، ولو كان معنوياً يبتغى فيه سبيل الله تعالىٰ، فإنّه ربما يكون الإنسان مصلّيّاً وصائماً، ولكنّه متى ما عرض عليه ما يقتضي به بذل شيء، شحَّت نفسه، وأمسك عن الإعطاء.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ٩٢.

٣. سورة الحشر: الآية ٩.

ويستفاد من إسناد الرزق إلى الله تعالى، أنّ الإنسان مهما جدَّ في تحصيل ما يتملّكه، كان كلّه من الله جلَّ شأنه ، وأنّه هو الرزاق ، فلا يكترث بما يصيبه ولا يبخل عمّا يطلب منه ، وإنّ الإنفاق بشيء له تعالى، ليس من فقد الشيء عن الباذل ، بل حقيقته تحويل شيء عن معرض الزوال والفناء إلى خزائن الله تعالى التي لايتصوّر فيها الفناء والزوال ، وفي قوله تعالىٰ : **﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾**[1] .

وقوله تعالىٰ : **﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾**[2] .

إشارة إلى ما ذكرناه . وسيأتي التفصيل .

كما أنّه يستفاد من قوله تعالىٰ : **﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾** أنّ المطلوب منه النفقة ببعض ما يملك لا جميعه، كما نبّه عليه في آية أُخرى :

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً﴾[3] .

قوله تعالىٰ : **﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾** :

هذه الآية كالبيان للإيمان بالغيب، جيء بها اهتماماً وتأكيداً .

ويمكن أن يُقال : إنّهم قسمٌ آخر من المتّقين، وأُعيد لفظ (الذين) لتحقيق التمايز بين القسمين ، وهذا القسم أرقى من القسم الأوّل، لأنّ أوصافه تقتضي الأوصاف التي أُجريت على القسم الأوّل مع الزيادة ، فالقرآن يكون لهم هدىً بالأُولى .

---

١ . سورة سبأ : الآية ٣٩.

٢ . سورة الأنفال : الآية ٦٠.

٣ . سورة الإسراء : الآية ٢٩.

والمراد (بما أنزل إليك) القرآن، وسائر ما أُوحي إليه ﷺ، كما أنّ المراد بالإنزال الوحي، وسيأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ، وفي التعبير بالإنزال إشارة الى عفو المنزل من كلّ جهة له تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾:

المراد الكتب السماوية السابقة المنزلة على الأنبياء عليهم السلام.

وفي تقديم القرآن بقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، إشارةٌ إلى فضيلته وجامعيّته وكماله، كما أنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، تفصيل لقوله تعالىٰ: ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾؛ لأنّ الأيمان بما أُنزل إليه ﷺ، مشتملٌ إجمالاً على الأيمان بما أُنزل علىٰ من قبله ﷺ من الأنبياء والمرسلين، فإن الشريعة الإسلاميّة تحتوي علىٰ أُصول جميع الشرائع السماوية، من أُصول الدِّين، وأُمور استكمالية أُخرى، فهذه الآية عبارة أُخرى عن قوله تعالىٰ:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾[1].

كما أنّ في تقديم قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، دلالة أيضاً علىٰ أنّ إيمان أهل الكتاب بموسى وعيسى عليهما السلام وكتبهما، لا أثر له ما لم يؤمنوا بالقرآن، وما أُنزل علىٰ خاتم النبيّين، لأنّه من غير المعقول للإنسان، أن يدع الإيمان بما هو كامل أبدي، ويلتزم بما كان كاملاً في وقته وزمانه، فإنّ الشرائع السماوية تتفاوت في الكمال حسب تفاوت استعداد الإنسان وترقّيه في درجات الاستكمال.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

هذا في غير أُصول الدِّين، وأمّا فيها فالجميع سواء، إذ لم يختلف الأنبياء في دعوة أقوامهم إلى التوحيد، ونبذ الشرك، والإيمان بالآخرة، فهم في هذه الجهة كنبيٍّ واحد، وإنّ جميع الكتب السماوية تجمعها وحدة المبدأ والغرض، فالإيمان بالله وبما أنزله تعالى لا تبعيض فيه، وإلّا فيخرج المؤمن بسببه عن حقيقة الإيمان، ويستفاد ذلك من قوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾[1].

فالناس في زمان ظهور دعوة النبيّ كانوا علىٰ أقسام:

الأوّل: مَن كان مشركاً فأسلم، فهو من المهتدين، ومن أصحاب الجنَّة.

الثاني: مَن بقي علىٰ شركه ولم يسلم، فهو كافر، ومن أصحاب النار.

الثالث: مَن أظهر الإسلام وأبطن الشرك، فهو منافق، ومن أصحاب النار.

الرابع: مَن كان من أهل الكتاب وآمن بالنبي ﷺ، وكان مؤمناً بكتابه غير المنحرف أيضاً، فهو مؤمن، ومن أهل الجنَّة.

الخامس: مَن بقي علىٰ كتابه ولم يؤمن، فهو كافرٌ ومن أهل النّار.

السادس: مَن آمن بخاتم الأنبياء ﷺ والقرآن، وكفر بكتابه السماوي غير المنسوخ في هذه الشريعة، فهو كافر ومن أهل النار، لأنّ الإسلام والقرآن يدعوان إلى الكتب السماوية، وهي تدعو إلى القرآن والإسلام، ولا اختلاف بينهما في الأُصول كما عرفت.

قوله تعالىٰ: **﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾**:

المراد من الآخرة، هو عالم جزاء الأعمال والحساب، والثواب والعقاب،

---

١. سورة النساء: الآية ١٣٦.

وقد يُعبّر عنها بـ(الدار الآخرة) أيضاً في مقابل الدار الدُّنيا.

واليقين: هو مرتبة خاصَّة من العلم، أي الاعتقاد الجازم المطابق للواقع في الشريعة، فإنّ للعلم مراتب منها اليقين، كما قاله تعالىٰ:

﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾(١).

وسيأتي بقيّة مراتبه إن شاء الله تعالىٰ.

واليقين بالآخرة، هو أعلىٰ مراتب كمال النفس الأنسانية، وبه ينتظم حال المؤمن في الدُّنيا والآخرة، ويظهر أثر ذلك في أفعاله وأعماله وأقواله؛ لأنّ اليقين باعث وزاجر.

وإنّما ذكر تعالى الضمير المنفصل (هم)، تثبيتاً لهذه الصفة الخاصّة، لقسم خاص من المؤمنين، إذ ليس كل مؤمن من أهل اليقين بالآخرة.

ويدل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**(٢).

فأكّد سبحانه وتعالىٰ، من حيث تكرار نفس الآية، وتكرار الضمير (هم) فيها، تأكيداً بليغاً كاشفاً عن أهمّية المورد.

قوله تعالىٰ: **﴿أُوْلَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**.

الفلح: الشقّ والقطع. وأصل الفلاح الظفر بالمقصود، والفوز بالمطلوب، بعد الكد والاجتهاد، فكأنّه قد قطع المصاعب حتّى نال مقصوده، ولا يطلق إلّا في الخير، فالمفلحون هم الذين أدركوا وأمنوا ممّا منه فزعوا في الدُّنيا والآخرة، كما هو مقتضى الإطلاق.

والآية في مقام بيان حال المتَّقين، فإنّ اتّصافهم بالصفات المذكورة،

---

١. سورة التكاثر: الآية ٥ ـ ٦.

٢. سورة لقمان: الآية ٤ ـ ٥.

يقتضي فوزهم بالهداية والفلاح ، وكلّ من الهدايتين بتوفيق من الله تعالىٰ ، الأُولى بالنسبة إلى الحدوث ، والثانية بالنسبة إلى البقاء .

أو أنّ الأُولى بالنسبة إلى بعض المراتب ، والأُخرى بالنسبة إلى ما فوقها .

وعليه يكون المشار إليه بـ(أولئك) في الموضعين واحداً، وهم المتّقون .

وقد رتّب الفلاح على التقوىٰ، في آيات كثيرة:

قال تعالىٰ : ﴿**فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**﴾[٣] .

إلى غير ذلك من الآيات المباركة .

وتكرير الإشارة، وذكر ضمير الفصل (هم)، للدلالة إلى رفعة مقام المفلحين، وإعلاناً لعظمة شأنهم .

وذكر حرف الاستعلاء في قوله جلّ شأنه (علىٰ هدى)، إشارة إلى استيلائهم على الهداية، ورسوخها فيهم، وشدّة تمكّنهم منها ، ولا ريب في ذلك، فإنّ المواظبة علىٰ شيء، والقيام به كما هو حقّه، يوجب اتّصاف النفس به، وارتسامه فيها، فيصير طبيعة ثانوية ربما تغلب الطبيعة الأوّلية، كما هو المشاهد في بعض النفوس ، كما أنّ تنكير لفظ (هدى) يفيد العظمة وعدم محدوديّة الهداية بحدّ، لأنّها مفاضة من ربّهم عليهم .

***

١ . سورة المائدة : الآية ١٠٠ .

٢ . آل عمران : الآية ٢٠٠ .

٣ . سورة الأعلىٰ : الآية ١٤ .

بحوث المقام

بحث دلالي:

إنّما ذكر الإيمان بالغيب ابتداءً، لأنّه أصل كلّ إيمان، وأساس كلّ اعتقاد وعمل كما عرفت، ثمّ عقبه تعالى بالصلاة، لأنّها أهمّ أركان الدِّين، وأنّها الرابطة بين العبد ومعبوده، ثمّ ذكر الإنفاق، لأنّه أعظم صلة بين أفراد الإنسان، وبه يحصل التعاون بينهم، وتطهر أموالهم، فالآية باختصارها جمعت بين الأُصول الاعتقادية، وأهمّ الأعمال الجوارحيّة، وأعظم الأُمور الاجتماعيّة، وهذا من إعجاز القرآن.

كما أنّه ذكر تعالى المتّقين في مفتتح القرآن العظيم، إعلاماً بأنّ التقوى هي الأصل الذي تدور عليه الكتب السماوية، خصوصاً القرآن، وما يدعو إليه جميع الأنبياء والمرسلين، لاسيما خاتم النبيين ﷺ، فَذِكْرُ المتّقين من باب ذكر المعلول إجمالاً، وتفصيل علته بعد ذلك، والعلّة إنّما أجملت بقوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾**، وفصلت ثانية في الآيات التالية.

ثمّ إنّه تعالى ذكر **﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾**، مع أنّ الآخرة من أفراد الغيب الذي ذكرفي أوّل الآية، وذلك لأجل التأكيد والأهمّية بالنسبة إلى الآخرة، فإنّ عماد النشأتين ـ الدُّنيا والآخرة ـ هو الإيمان بالمعاد، بعد الإيمان بالله تعالىٰ، وبه تنتظم حياة الإنسان الفردية والاجتماعية.

وأيضاً: إنّ الإيمان بالغيب إجمالاً قد لايكون كافيّاً في حثّ الإنسان على العمل الصالح، وردعه عن عمل المنكر، بخلاف من كان مؤمناً بالآخرة تفصيلاً، فإنّ أثره يظهر علىٰ أعماله فيكون مراقباً لنفسه، ومن ذلك يظهر الوجه في ذكر

اليقين في الآية الأخيرة.

واليقين بالآخرة يحصل:

تارة: بإخبار المعصوم، بعد أن قامت الأدلّة علىٰ عصمته.

وأُخرىٰ: بالنظر الصحيح والتفكير والتدبير في آيات الله تعالىٰ، وخلق الإنسان، وأنّ الدار الدُّنيا التي هي دار الكون والفساد، لايمكن أن تكون دار النعيم للأبرار، أو الجحيم للأشرار، فحينئذٍ يحكم العقل بأنّ وراء هذه الدار الفانية المتغيِّرة، دار أُخرىٰ فيها يُثاب المُحسن ويُعاقب المُسيء. ويسمّى هذا البرهان في الفلسفة الإلٰهيّة بـ(البرهان الانّي).

وثالثة: يحصل من المواظبة علىٰ عبادة الله تعالىٰ، كما هو حقّه، وترك مخالفته، ويشير إليه قوله تعالىٰ: **﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾**.

فإنّ المراد باليقين، إن كان هو اليقين بالآخرة، فيدلّ علىٰ ما ذكرناه بالمطابقة.

وإن كان المراد به الموت، فيدلّ عليه بالملازمة. وسيأتي التفصيل في محلّه.

وأمّا اليقين الحاصل من غير هذه الطرق، فإن طابق المتيقّن به الشريعة الإسلاميّة فصحيح، وإلّا فلا اعتبار به.

بحث فلسفي:

لا ريب أنّ الإنسان مركّب من جزئين، بهما قوامه، وهما الروح والبدن، فلا فعل للروح إلّا بالبدن، كما لا أثر للبدن إلّا بالروح الإنساني. واتّفق جميع الفلاسفة علىٰ أنّ الأوّل من عالم المجرّدات، والثاني من عالم المادّة. وهذا يحتاج إلى تفصيل سيأتي إن شاء الله تعالىٰ.

نعم، قد اختلفوا في خصوصيات هذين التوأمين، حتّى وصل الحدّ بجمع منهم إلى الاعتراف بالقصور عن درك حقيقتهما وخصوصيّاتهما.

وكيف كان، فالروح نزلت من مقام شامخ ـ علىٰ ما يأتي ـ إلى حضيض المادّة، والبدن مستعدّ إلى العروج من مرتبة الحضيض إلى أوج الروح، فصار الإنسان جامعاً للكمالين، ومركّباً من النشأتين، فهو بفطرته لا يمكنه إنكار ما وراء المادّة.

وقد يوجب أُنسه بالمادّة والمادّيات، انتقاله عن ما وراءها، ولذا ترىٰ يرجع إلىٰ فطرته في حين وآخر، فالإيمان بالغيب الذي حثّ الله تعالى إليه، هو إرجاع الإنسان وسوقه الى فطرته، والتوجّه بمقام روحانيّته، بما أودع الله فيه من استعدادٍ لدرك المعارف، واكتساب الكمالات، بعد إتمام الحجّة عليه، وعدم تدنيس ذلك المقام الرفيع باتباع الأهواء المضلّة والآراء الباطلة.

وقد اتّفق الفلاسفة علىٰ أنّ منشأ الإدراكات المعنوية، والعلوم الكلّية في الإنسان هو العقل، ولا ينافي ذلك حصول علوم جزئية من غير طريقه. والعقل حجّة في جميع إدراكاته، بعد تماميّة مقدّمات الإدراك، ومن جملتها الإيمان بالغيب، وجميع التشريعات السماوية، وأن تكون المقدّمات حاصلة ممّا أمر به الله تعالىٰ، الذي هو الجاعل والمشرع، فلابدّ وأن يكون مجعوله ومشروعه تحت سلطنته واختياره. وإلّا لبطل النظام واختلّت الأحكام. فكل إيمان بالغيب لم يحصل من طريق ما أمر الله تعالى به وأذن فيه، فهو باطل لا اعتبار به، بل يمكن أن يعاقب صاحبه، سواء أكان ذلك في كيفيّة الإدراك، أم خصوصيات المُدرَك، ويأتي التفصيل في محلّه.

بحث كلامي:

ذكرنا أنّ الإيمان هو التصديق، واختلفوا في أنّ التصديق بسيط أو مركّب، وكان هذا الاختلاف بين الفلاسفة، ولكنّه سرى إلى غيرهم. وقد أثبتنا في محلّه سقوط أصل النزاع رأساً، لأنّ مثل التصديق الذي هو من الصفات النفسانية، إن لوحظ باعتبار مبادئ، فهو مركّب عندالجميع. وان لوحظ باعتبار نفسه، فهو بسيطكذلك، فالنزاع بينهم لفظي.

لكن في الإيمان نزاع آخر قديم بينهم، وهو أنّ العمل علىٰ طبق الوظيفة الشرعيّة، جزءٌ مقوّم لحقيقة الإيمان، بحيث إنّ مَن لم يعمل بالوظيفة الشرعيّة، لا إيمان له، وإن كان له التصديق القلبي الجازم بأُصول الدِّين.

أو أنّ العمل بالوظيفة الشرعية شيءٌ خارج عن أصل التصديق القلبي، فيكون مَن كان معتقداً بأُصول الدِّين، ولا يعمل بالوظيفة، مؤمناً ولكنّه فاسق.

والمتحصّل من مجموع الآيات المباركة، المشتملة علىٰ جملة: (الذين آمنوا وعملوا الصالحات)، والسنّة المقدّسة المسوقة في هذا السياق، أنّ للإيمان كمالاً ونقصاً، وشدّة وضعفاً، ويختلف متعلّقه ـ كما تقدّم ـ قلباً وعملاً ولساناً، فيكون إيمان كلّ شيءٍ بحسبه، فإيمان القلب بالاعتقاد، وإيمان اللِّسان بالإقرار، وإيمان الجوارح بالعمل، فإذا تحقّق الجميع يثبت الإيمان الكامل، وإذا تحقّق بالنسبة إلى البعض، فهو إيمان ناقصٌ يثبت بالنسبة إلى ما تحقّق، وينتفي بالنسبة إلى ما لم يتحقّق، ويثبت الكفر مكانه.

والكفر له مراتب كمراتب الإيمان، من حيث الشدّة والضعف، ومن حيث الكمال والنقص، ويتحقّق بالنسبة إلى الاعتقاد واللسان، وعمل الجوارح، فيمكن أن يكون شخص مؤمناً اعتقاداً ولساناً، ولكنّه كافر عملاً لا اعتقاداً ولا إقراراً، وهذا معنى الأثر الذي تقدّم من أنّ: (الإيمان اعتقاد بالجنان، وإقرارٌ باللسان).

فإيمان كلّ شخص مبثوث على الجوارح، فالإيمان والكفر كالنور والظلمة، فقد يكون النور في كلّ مورد، وقد يكون في مورد دون آخر، ولا ريب في أنّه متى ما انتفى النور، يحلّ محلّه الظلمة لامحالة ولا واسطة بينهما، وهذا معنى ما تقدّم من الأخبار من قوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن».

إلىٰ غير ذلك ممّا ورد.

فإذا اجتمع الإيمان بالله قلباً، والإقرار باللسان، والعمل بما أمر الله، وترك ما نهىٰ عنه، يكون مؤمناً، وإذا لم يتحقّق الإيمان قلباً، وتحقّق لساناً وعملاً، يكون منافقاً، وإذا تحقّق قلباً ولساناً، ولم يتحقّق عملاً يكون فاسقاً، وهو لاينافي إطلاق الكفر العملي عليه أيضاً، كما في قوله عليه السلام:

«وأمّا الرشا في الأحكام فهو الكفر بالله العظيم».

فكلّ مَن جهل شيئاً من أُمور دينه، ينقص من إيمانه بقدرجهله، وكلّ مَن أنكر ما يجب عليه تصديقه في الشريعة، فله حظ من كفر الجحود، إلى أن يصل إلى الجحود المطلق، وكل من أظهر بلسانه ما لا يعتقده بقلبه بغير عذر شرعي، فله حظّ من النفاق إلى أن يصل إلى النفاق المطلق، وكلّ مَن كتم حقّاً شرعيّاً بعد معرفته، فله حظّ من التهوّد إلى أن يصير كذلك مطلقاً، وكل مَن استبد برأيه ولم يتبع الشريعة، فله حظّ من الضلالة إلى أن تتمّ فيه، وكل مَن ارتكب حراماً، أو ترك واجباً، فله حظ من كفر الاستخفاف، إلى أن يصل إلى الكفر المطلق، إن لم يتدارك ذلك بالتوبة.

ولكن من أسلم وجهه لله تعالىٰ، واتبع الشريعة المقدّسة في جميع ما جاء به، وتدارك ذنبه بالتوبة، فهو المؤمن حقّاً.

هذه خلاصة ما يستفاد من الكتاب والسنّة، بعد رد المجمل إلى المفصل،

والمتشابه إلى المحكم، وسيأتي البحث عن ترتّب الجزاء علىٰ كلّ واحد ممّا ذكر.

بحث روائي:

عن العسكري، أنّه قال: «الذين يؤمنون بالغيب، يعني بما غاب عن حواسهم من الأُمور التي يلزمهم الإيمان بها، كالبعث والنشور والحساب والجنّة والنار وتوحيد الله، وسائر ما لايعرف بالمشاهدة، وإنّما يعرف بدلائل قد نصبها الله تعالى دلائل عليها».

وعن الصادق: «الذين يؤمنون بالغيب يصدقون البعث والنشور، والوعد والوعيد».

وعنه أيضاً: «الذين يؤمنون بالغيب، أي آمن بقيام القائم أنّه حقّ».

أقول: الغيب شاملٌ لكلّ ما لم يكن محسوساً، ويكون داعيّاً إلى الله تعالىٰ، فإيمان المسلمين في هذا الزمان بنبيّنا الأعظم، وسائر أنبياء الله تعالىٰ من الإيمان بالغيب، وكذا كلّ حجّة منه تعالى تدعو إليه، فما ذُكر في الخبر صحيحٌ لاريب فيه، لأنّه من باب أحد المصاديق، ومن باب التطبيق.

وأمّا ما فسّره جمعٌ برجال الغيب أيضاً، وفصّلوا القول فيه، فليس ذلك إلّا من مجرّد الدعوى، ولم يقم دليل علىٰ صحّته لا عقلاً ولانقلاً، كجملة كثيرة من أقوالهم في الركن والولي والمرشد والأوتاد ونحو ذلك.

وعن الصادق: «فطر النّاس جميعاً على التوحيد».

وعنه أيضاً: «فطرهم على المعرفة، قال رسول الله: كل مولود يولد على الفطرة، يعني على المعرفة بأنّ الله تعالى خالقه».

أقول: يستفاد من ذلك أنّ الإيمان بالغيب مودعٌ في الفطرة، ومن مصاديقه

الايمان بالله، كما يأتي في الآيات المباركة.

وعن الصادق عليه السلام «في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي ممّا علّمناهم ينبئون، وما علّمناهم من القرآن يتلون».

أقول: هذا يدلّ علىٰ ما قلناه من أنّ الإنفاق لا يختصّ بالمال، بل يشمل كلّ ما ينفع الغير، ولا اختصاص لقوله عليه السلام بعلم الشريعة، بل يشمل كل علم ينتفع به الغير في دينه أو دنياه ـ مالم يكن منهيّاً عنه شرعاً ـ كعلم الطب وغيره، ممّا يقوم به نظام المجتمع، الذي لاينافي وجوب إنفاقه أخذ الأُجرة عليه، كما بيّناه في الفقه.

وعنه عليه السلام أيضاً، حيث سئل في كم تجب الزكاة؟

فقال له: «الزكاة الظاهرة أم الباطنة تريد؟

فقال: أُريدهما جميعاً.

فقال: أمّا الظاهرة ففي كلّ ألف خمسة وعشرون، وأمّا الباطنة فلا تستأثر علىٰ أخيك بما هو أحوج إليه منك».

أقول: وفي ذلك روايات أُخرى يأتي بيانها في موردها إن شاء الله تعالىٰ.

***

الآية ٦ ـ ٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾.

ما تقدّم كان في بيان حال طائفة من النّاس، وهم المتّقون المؤمنون بالغيب، والمؤمنون بالقرآن، وبما أنزل من قبل، وما يؤول إليه أمرهم من الفوز بالهداية والفلاح.

وفي هاتين الآيتين بيان حال طائفة أُخرىٰ، وهم الكافرون المعاندون، الذين كانوا لعنادهم وجحدهم للحقّ، أنّهم بلغوا أقصى مراتب الغواية والضلال، فلاجدوى للهداية فيهم بالتبشير والإنذار، فكان من نتيجة عملهم أن ختم الله علىٰ قلوبهم، فلا استعداد لها للإيمان، وكان لهم الخزي في الدُّنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**:

الكفر ستر الشيء وتغطيته، ومنه سمّي الليل كافراً، لأنّه يغطي كلّ شيء بسواده، والكفر يستعمل في القرآن في مقابل الشكر، قال تعالىٰ: **﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾**[1].

---

١. سورة لقمان: الآية ١٢.

وفي مقابل الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[١].

والكفر هو ستر الحقّ اعتقاداً أو لساناً أو عملاً، في مقابل الإيمان الذي هو اعتقاد بالجنان وإقرار باللِّسان وعمل بالأركان، كما تقدّم. وعليه يكون للكفر مراتب كمراتب الإيمان، فقد يكون الشخص كافراً بالنسبة إلىٰ مرتبة، وهو مؤمن بالنسبة إلى مرتبة أُخرىٰ.

والمراد بالذين كفروا ـ بقرينة السياق ومقابلتهم لأهل اليقين والإيمان في الآية السابقة ـ مَن ستر الحقّ مطلقاً، وتمكّن منه الكفر واستولى عليه، بحيث لايرجى منه الإيمان، وكان في علم الله من الراسخين في الكفر، سواء كان عن عنادٍ وجحودٍ للحقّ بعد معرفته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾[٢]، أو إعراض عنه للحقّ، إمّا استكباراً عن النظر فيه، أو لأجل مرض في قلوبهم، بسبب انهماكهم في الأُمور الدنيوية فعمي عليهم كلّ سبيل، وسيأتي في البحث الروائي ما ينفع المقام.

فهؤلاء الكفّار لمّا عَلِمَ الله منهم الجحود للحقّ، والاستهزاء به، لم ينفعهم الإنذار والتخويف.

والآية المباركة من قبيل القضايا الطبيعيّة، الشاملة لكلّ كافر كذلك في أوّل الإسلام، ومَن يأتي بعده، ويترتّب علىٰ ذلك ـ قوله تعالىٰ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ـ ترتّب الجزاء على الشرط، الحاصل باختيارهم.

﴿سَوَاءٌ﴾ إسم بمعنى الاستواء. والإنذار هو الإخبار بالشيء، ولايكون إلّا

---

١. سورة الكهف: الآية ٢٩.

٢. سورة النمل: الآية ١٤.

مع تخويف بما يترتّب على الإهمال بالشيء.

فيكون المعنى: إنّ مَن كان الكفر عليه مستولياً، ولم يكن من المستعدّين لقبول الحقّ والهداية، يستوي فيه الإنذار وعدمه، فهم لايؤمنون بعد دعوتهم للحقّ، إذ وظيفة الداعي للحقّ هي الدعوة إليه، بلافرق بين المستعدّ للإيمان وغير المستعدّ، وهذا من الأُمور الفطرية، إذ كيف ينفع الدواء مع مزاولة المريض أسباب الداء؟! كما لا يفيد النور مع إغماض العين حتّى لايراه، ولم يكن ذلك نقصاً في الدواء، ولاعيباً في النور.

قوله تعالىٰ: **﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**.

الختم والطبع بمعنى واحد، وهو تغطية الشيء، والاستيثاق منه لئلّا يدخله غيره. والختم على القلب، كناية عن عدم انتفاعه بالمعارف الربوبيّة، والحقائق الإلهيّة، وما يترتّب عليها في عالم الدُّنيا والآخرة، فالختم والطبع وصيرورة القلب في الأكنّة، كلّها بمعنى واحد، وهو ما ذكره عزّوجلّ في قوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾**(١).

وكذلك قوله تعالىٰ: **﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾**(٢).

والمراد منه أنَّ مَن تمكن منه الكفر، واستحوذ علىٰ قلبه، فلا يبقى فيه استعداد للإيمان والهداية، وعَلِمَ الله تعالى أنّه لايؤمن باختياره، وذلك بسبب ممارسته المعاصي، ومزاولته لارتكاب المحذورات، فتأثّر طبعه ونفسه بها،

---

١. سورة الأنعام: الآية ٢٥.

٢. سورة المطففين: الآية ١٤.

وصارت كالطبيعة الثانية له، فلا يرجىٰ منه خير. وهذا هو المراد من الطبع والختم، فيكون ذلك أمراً طبيعيّاً، فهو سُنّة الله في خلقه، ولذا عبّر عنه بالماضي للدلالة علىٰ أنّه أمر مفروغ منه، وسنّةٌ قائمة في مَن كان كذلك.

وهذه الآية المباركة لا تدلّ علىٰ سلب الاختيار عنهم، وأنّهم مجبورون على الكفر، بل الختم أو الطبع على القلب حاصلٌ من عملهم، وإصرارهم على الكفر، ويدلّ علىٰ ذلك آيات كثيرة:

منها: الآية المتقدِّمة الدالّة علىٰ أن الرين كان بسبب كسبهم المعاصي، حتّىٰ غطّت قلوبهم تلك المعاصي.

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾**[١].

فإنّه يدلّ علىٰ أنّ الختم حصل بسبب اتّخاذه إلٰهه هواه، بحيث أعمىٰ بصره وبصيرته، فلا يفيد معه شيء.

وإنّما أسند الختم الى نفسه تعالى، للدلالة علىٰ ما ذكرناه، ولأنّه من نسبة المقدور والمقضي الى القدر والقضاء، لا نسبة المعلول إلى علّته، أو نسبة المرضي الى الرضا، فإنّ الله تعالى لا يرضى لعباده الكفر والجهالة والضلالة، بل هو يقضي ذلك على الخلق بحسب اختيارهم وإرادتهم، فيكون المقام نظير قوله تعالي: **﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾**[٢].

والحاصل: إنّ الأُمور التكوينية الجارية علىٰ مجاريها الطبيعيّة، لها إضافتان:

---

١. سورة الجاثية: الآية ٢٣.

٢. سورة الأنفال: الآية ٢٣.

إضافة إلى فاعلها المباشري، فتنسب إليه أوّلاً وبالذات .

وإضافة إلى خالقها بواسطة خلقه للفاعل المباشري، فتنسب إليه تعالىٰ .

ولا يستلزم ذلك الفساد نقصاً فيه تبارك وتعالىٰ ، وسيأتي تفصيل البحث إن شاء الله تعالىٰ .

ثمّ إنّه قد ذكر في هذه الآية الختم على القلب، مقدّماً على الختم على السمع ، وفي سورة الجاثية بالعكس كما تقدّم، حيث قال تعالىٰ :

﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.

ولا فرق بينهما من هذه الجهة، لأنّ المدارك الظاهرية طريق إلى حصول العلم بالمقصود، وفهم المعارف الإلٰهيّة ، ولذا ذكر الفلاسفة : (من فقد حسّاً فقد فَقَدَ علماً) ، فمن ختم الله علىٰ قلبه، فقد فَقَدَ الفهم والانتفاع من المعارف الإلٰهيّة، وكان كذلك بالنسبة إلى سمعه ، إذ لا أثر لسماع لايدخل في القلب ، وكذا لو ختم علىٰ سمعه فقد أعرض عن فهم الحقّ، فلا يسمع إلّا صوتاً ، وحينئذٍ يصير السماع لغواً، كما هو المشاهد في بعض الناس ، فهما متلازمان في الجملة سواء عبر بالأصل أم بالعكس .

قوله تعالىٰ : ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ .

الغشاوة : الغطاء والحجاب . والمعنى أنّ أبصارهم لكثرة المعاصي وارتداعهم عن قبول الحقّ، لا تدرك آيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، ودلائل وجوده، فهي في حجاب ، وإنّما لم يسند الغشاوة إلى نفسه من حيث ثباتهم على الكفر، وارتكابهم المعاصي ، وفي سورة الجاثية أسندها إلى نفسه، فقال تعالىٰ : ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾، وذلك لأنّها تنتهي بالآخرة إليه انتهاء المقتضى (بالفتح) الى المقتضي (بالكسر)، مع اختيارهم لذلك، وعدم كونهم مجبورين عليه .

وإنّما ذكر تعالى ﴿عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾، مع تحقيق الطبع بالنسبة إليها أيضاً، لكثرة توغلهم في الجهالات، فكأنّ أبصارهم طبع عليها مرّة بعد أُخرىٰ، فعبّر تعالى عن المرّة الأُولى بـ(الطبع والختم)، كما قال تعالىٰ:
﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

وعن الثانية بـ(الغشاوة)، كما في الآية المباركة، وما قلنا جارٍ في جميع الآيات المسوقة في هذا البيان.

ويمكن أن يفرق بينهما بأن يقال: إنّ الطبع والختم إنّما هو بالنسبة إلى المعنويات مطلقاً، والغشاوة بالنسبة إلى الظواهر من حيث إمكان الانتقال منها إلى المعنويات، فهذه الجهة مسلوبة عنهم أيضاً، كما يستفاد ذلك من الآيات المباركة علىٰ ما سيأتي.

ثمّ إنّه ليس المراد بالقلب والسمع والبصر في المقام، ما هو الموجود في البهائم، إذ ليس ذلك مناط الفضل حتّى يختم عليه، بل المراد منه العقل الذي يُعبد به الرحمٰن، ويكتسب به الجنان ويغلق به أبواب النيران، وقد بيّنه الله تعالى بقوله:
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[2].

وبقوله جلّ شأنه: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[3].

---

١. سورة النحل: الآية ١٠٨.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

٣. سورة الزمر: الآية ٢٢.

ويستفاد من ذلك أنّ الختم على القلب وعلىٰ سائر المدارك، إنّما يكون بالنسبة إلىٰ عالم الغيب والمعارف الإلٰهيّة ، وذلك لا ينافي بقاء إدراكها بالنسبة إلىٰ الجهات المادّية الدنيوية ، بل نبوغها فيها ، لتغاير العالمين وتباين النشأتين ، وعدم ارتباط أحدهما بالآخر ، فكم من نابغةٍ في الدُّنيا، ليس له حظّ في الآخرة ، وكم من عالم بما يتعلّق بالآخرة لا توجّه له بأُمور الدُّنيا .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ :

العذاب بمعنى الحبس والمنع ، ومنه الماء العذب ، أي يمنع عن اختلاط شيء آخر ، أو لأنّه يقمع العطش ويمنعه . وهو في القرآن إسم لما يؤلم ويمنع النفس عن جميع مشتهياتها من الخير .

والعظيم ضدّ الحقير ، ويُراد به العظمة من كلّ جهة كمّاً وكيفاً وزماناً ومكاناً ، وهو يشمل عذاب الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ :

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾[١].

والتنكير لإظهار تعميم العذاب من جميع الجهات التي تتصوَّر فيه ، وحينئذٍ فيكون ذكر العظيم من باب أهمّية عظمته .

وهاتان الآيتان من القضايا الشرطية المركّبة من الشرط والجزاء ، وقد ثبت في علم الميزان أنّ جملة من تلك القضايا تكون قياساتها معها ، أي تصوّرها يُغني عن إقامة البرهان عليها . وسيأتي بيان أنّ للعذاب في الآخرة حياةً وإدراكاً ، مفصّلاً إن شاء الله تعالىٰ .

بحث روائي:

عن عليّ عليه السلام : «سبق في علمه تعالى أنّهم لايؤمنون ، فختم علىٰ قلوبهم

---

١ . سورة الرعد : الآية ١٣٤ .

وسمعهم ليوافق قضاؤه عليهم علمه فيهم، ألا تسمع قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ﴾.

أقول : بيّن عليه السلام أنّ الختم والطبع علىٰ قلوبهم، وقع باختيار منهم، لا أن يكونوا مقهورين في ذلك كما تقدّم. وقوله: «ليوافق علمه فيهم»، ليس هذا العلم من العلّة التامّة للطبع والختم، حتّى يستلزم الجبر كما ذهب إليه جمع، لقوله عليه السلام في صدر الرواية «ليوافق قضاؤه عليهم علمه»، فحكمه عليه السلام بأنّ ذلك من مقتضياته ـ والقضاء بنحو الاقتضاء لا العلّة التامّة ـ يدفع هذا الإشكال.

قال أبو جعفر عليه السلام: «والله إنّ الكفر لأقدم من الشرك وأخبث وأعظم».

أقول : يظهر من هذه الرواية الشريفة أنّ الآيتين المباركتين لا تختصّان بوقت دون وقت، فيكون القِدَم فيها قِدَماً زمانياً؛ لأنّ كفر إبليس أقدم من جميع أنحاء الكفر. ويمكن أن يجعل قِدَما رتبياً، فإنّ كلّ شرك مبدوّ بأوهام تحصل للنفس، وهي بعض مراتب الكفر في الواقع ومبادئ الشرك، فيصير الكفر مبدءاً للشرك بعد ذلك.

وعن الرضا عليه السلام: «الختم هو الطبع علىٰ قلوب الكفّار عقوبةً علىٰ كفرهم».

أقول : وهذا نصّ في أنّ الكفر كان باختيارهم، فطبع الله علىٰ قلوبهم عقوبة عليهم.

وعن الصادق عليه السلام في وجوه الكفر في كتاب الله عزّوجلّ، قال:

«الكفر في كتاب الله علىٰ خمسة أوجه، فمنها كفر الجحود، والجحود علىٰ وجهين، والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر النِّعم».

فأمّا كفر الجحود : فهو الجحود بالربوبية، وهو قول من يقول: لا ربَّ ولاجنّةَ، ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة يُقال لهم الدهرية، وهم الذين يقولون: (وما يهلكنا إلّا الدهر)، وهو دينٌ وضعوه لأنفسهم بالاستحسان منهم

علىٰ غير تثبت منهم ولا تحقيق لشيء ممّا يقولون، قال عزَّوجلَّ:

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أنّ ذلك كما يقولون، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، يعني بتوحيد الله فهذا أحد وجوه الكفر.

وأمّا الوجه الآخر من الجحود علىٰ معرفة: وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقّ قد استقرّ عنده، وقد قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[١].

وقال الله عزَّوجلَّ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[٢].

فهذا تفسير وجهي الجحود.

والوجه الثالث من الكفر: كفر النِّعم، وذلك قوله سبحانه يحكي قول سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٣].

وقال: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٤].

وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٥].

والوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله عزَّوجلَّ به، وهو قول الله عزَّوجلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ * ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ

---

١. سورة النمل: الآية ١٤.

٢. سورة البقرة: الآية ٨٩.

٣. سورة النمل: الآية ٤٠.

٤. سورة إبراهيم: الآية ٧.

٥. سورة البقرة: الآية ١٥٢.

دِيَارِهِمْ تَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[١].

فكفّرهم بترك ما أمر الله عزّوجلّ به، ونسبهم إلى الإيمان، ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده، فقال:

﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

والوجه الخامس من الكفر: كفر البراءة، وذلك قول الله عزّوجلّ يحكي قول إبراهيم:

﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ﴾[٣].

يعني: تبرّأنا منكم.

وقال يذكر إبليس، وتبرّأه من أوليائه من الإنس يوم القيامة: **﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِنْ قَبْلُ﴾**[٤].

وقال: **﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾**[٥].

يعني يتبرّأ بعضكم من بعض.

أقول: يمكن جعل جميع ما في هذه الرواية من التقسيم العقلي، بأن يُقال:

---

١. سورة البقرة: الآية ٨٣ ـ ٨٤.

٢. سورة البقرة: الآية ٨٥.

٣. سورة الممتحنة: الآية ٤.

٤. سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

٥. سورة العنكبوت: الآية ٢٥.

الكافر إمّا لا يعتقد بمبدءٍ أصلاً، وهو الكافر المطلق، ويُطلق عليه الجاحد بالمعنى العام أيضاً.

أو يعتقد به في الجملة ثمّ يجحده، وهو كفرُ الجحود بالمعنى الخاصّ.

أو يعتقد به ولا يجحده، ولكن يكفر بنعمه، وهو كفر النِّعم.

أو يعتقد به لكن يترك ما أمر الله به، وهو كفرُ ترك الطاعة.

ويشمل هذا ترك كلّ واجب شرعي، أو إتيان كل ما نهى الله عنه.

أو يعتقد بذلك كلّه، ولكن لا يبرّأ من عدوّه ولا يتوالى وليّه، وهو كفر البراءة.

ومن هذا الحديث يعرف بيان ما أطلق فيه الكفر علىٰ تارك الصلاة، أو على إتيان بعض المحرّمات، أو التولّي لأعداء الله، أو التبرّي من أولياء الله. فهذا الحديث هو الجامع لجميع أنواع الكفر، ولكن الكفر الاصطلاحي الذي يبحث عنه في الفقه، الموجب لأحكام خاصّة، يختصّ ببعض الأقسام دون الجميع.

***

الآية ٨ ـ ١٠

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾.

ذكر سبحانه أوّلاً المؤمنين حقّاً، وهم الذين أخلصوا دينهم لله، ثمّ ذكر الكافرين حقّاً، وهم الذين محضوا في الكفر. واللّازم منهما أنّ هناك قسمين آخرين هما:

مَن أبطن الكفر وأظهر الإيمان، وهم المنافقون.

ومَن أظهر الكفر وأبطن الإيمان، حيث إنّ للإنسان قلباً ولساناً، فيمكن أن يعتقد بقلبه شيئاً ويُظهر بلسانه خلافه.

ويأتي الثاني عند قوله تعالىٰ: **﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾**[1].

وفي هذه الآيات يذكر حال المنافقين، الذين جعلهم الله تعالى في عرض الكفّار في الدُّنيا، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾**[2].

كما أنّه جمعهم في الآخرة، فقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾**[3].

---

١. سورة النحل: الآية ١٠٦.

٢. سورة التوبة: الآية ٧٣.

٣. سورة النساء: الآية ١٤٠.

وقد عطف هذه الطائفة على الطائفة الثانية، لما بينهما من الصِّلة والترابط في الكفر، بينما قطع الثانية عن الأُولى، لما بينهما من التباين والاختلاف.

وقد وصف سبحانه وتعالى حال الطائفة الثانية في آيتين، وحال المنافقين في ثلاث عشرة آية هنا، لأنّهم أشدّ ضرراً على المسلمين من غيرهم، وأنّهم فرقة من النّاس توجد في كلّ عصر وزمان، ولاتختصّ بالمنافقين في عصر التنزيل، وإن كانت تتناولهم تناولاً أوّليّاً، وقد اعتنى الله سبحانه بذكر أوصافهم وتوبيخهم ليتجنّب المؤمنون عن كيدهم وإغوائهم وتضليلهم وخبثهم، وإلّا فهم من الكافرين لنفي الإيمان عنهم، حيث قال تعالىٰ: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾.

فالتقسيم ثنائي في الواقع: المؤمن، والكافر. وإنّما أهمل سبحانه ذكر أسمائهم، لأنّ من أدب القرآن الستر مهما أمكن، ولأنّ الأمر من قبيل القضيّة الحقيقيّة، شامل لكلّ مَن يكون كذلك.

***

التفسير

ذكر سبحانه جملة من صفات المنافقين في هذه الآيات الشريفة:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾.

فنفى الإيمان عنهم.

وإنّما خصّ سبحانه الإيمان بالله واليوم الآخر بالذكر، ولم يحك عنهم الإيمان بالأنبياء، لاستلزام الإيمان بالمبدأ والمعاد، الإيمان بالأنبياء أيضاً، كما عرفت سابقاً.

وما يُقال: من أنّ للمنافقين أعمالاً حسنة في حدّ نفسها أيضاً، فكيف

يعدّون من الكفّار بقول مطلق؟

مردود : بأنّ الأعمال الحسنة من المنافق، إنّما صدرت لأجل أغراضهم الشرّيرة، فلا وجه لترتّب الأثر الحسن عليها، فنفي حقيقة الإيمان عنهم يجزي عن هذه التكلّفات.

ومنها: قوله تعالىٰ: **﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾**:

الخدع: المكر. وهو إظهار شيء وإخفاء خلافه، وهو من أقبح الرذائل وشر الصفات.

وعن بعض الأدباء: أنّ المخادعة من فعل الطرفين، وجعلوا ذلك هو الأصل في صيغ المفاعلة، وتبعهم جمع من المفسِّرين.

ثمّ قالوا : إنّ المخادعة محالة على الله، وغير لائقة بالمؤمنين، لأنّه من فعل المنافقين.

ولكن ذلك مردود : بأنّ صيغة المفاعلة إنّما تدلّ علىٰ إنهاء الفعل إلى الغير واقعاً أو اعتقاداً، وأمّا أنّ الغير يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الفاعل الأوّل، فهو غير مأخوذ فيها، فقد يكون وقد لا يكون.

نعم، الجزاء على المخادعة مع الله ورسوله شيءٍ، ومخادعة الله ورسوله شيء آخر، لاربط لأحدهما بالآخر، وإنّما ذكرت المخادعة لبيان أنّ هذا العمل يتكرّر عنهم.

وأمّا مخادعتهم مع الله ورسوله، تكون بالنسبة إلى اعتقاد المنافق، لا بالنسبة إلى الواقع، إذ لامعنى لمخادعة مَن هو عالم السرّ والخفيّات، ومع ذلك نسبها سبحانه إلى نفسه إبتداءً تسليةً للمؤمنين، لئلّا يثقل تحمّلها عليهم، لشدّة صفاء قلويهم، فوحدة السياق نحو تلطّف منه تعالى بالمؤمنين، كقوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[1].

وغير ذلك من الآيات المباركة.

وأمّا خداعهم مع المؤمنين، فبإظهار الإيمان وإخفاء الكفر، والعمل رياءً وسمعةً، وذلك لأجل الاطّلاع علىٰ أسرار المؤمنين وإذاعتها لأعدائهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي ضرر عملهم راجع إليهم فهم المخدوعون.

وأصل الشعور هو التوجّه والالتفات والفطنة بالشيء، ولا يقال إلّا في ما دق وخفي، ولذلك لا يوصف به سبحانه لعدم خفاء شيء عليه.

ومعنى الآية المباركة أنّ المنافقين لا شعور لهم في إدراك قبح عملهم، لفرض أنّ بناءهم على النفاق والفساد، وهيم مسخّرون تحت طبيعتهم الشرّيرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2].

ثمّ إنّ مفاد هذه الآية المباركة، يجري في جميع الرذائل النفسانية التي طبعت قي قلوب أهلها، فالمورد وإن كان خاصّاً، ولكن الحكم (وما يشعرون) عام.

قوله تعالىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾:

المراد بالقلب في الآيات المباركة، منشأ الفهم والإدراكات، فينطبق عليه النفس والروح والعقل أيضاً. والمرض هو الخروج عن الاعتدال، سواء كان في الجسم أو في القلب. والمراد بمرضها ضعف إدراكاتها، وعدم تعقّلها للدِّين وأسراره وأحكامه، يجمع ذلك عدم التفقّه لها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ

---

١. سورة الفتح: الآية ١٠.

٢. سورة المنافقون: الآية ٣.

لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[١].

قوله تعالىٰ: **﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾**:

يمكن أن تكون هذه الجملة المباركة دعاءً عليهم، كقوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾**[٢].

ويمكن أن تكون جرياً علىٰ سلسلة الأسباب المنتهية إليه تعالىٰ، فإنّه عزّوجلّ بعث الرسول ﷺ، وأنزل القرآن، وأتمّ الحجّة، فكذّبوا بها، وأبوا أن يتّبعوه حسداً واستكباراً، فزاد ذلك مرضاً علىٰ مرضهم، فنسب المرض بالسبب القريب إلى اختيارهم، وبالسبب البعيد إلى إرسال الرسول والدعوة إلى الإسلام، والكلّ ينتهي إليه تعالى في سلسلة الأسباب.

وفي تنكير المرض، إشارةٌ إلى ثبوت جميع أنواعه حسب مفاسد أخلاقهم، واستقرارها في قلوبهم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾**:

أي كان العذاب لأجل كذبهم، لأنّ المنافق كاذب، ويستلزم ذلك تكذيبهم للرسول ﷺ. فلا فرق في قراءة (يكذبون) بين المجرّد اللازم، والمزيد المتعدّي.

وإنّما ذكر تعالى خصوص هذه الصفة (كذب)، لكونه مصدر كلّ شرّ، وأساس كلّ نفاق.

أليم: صفة للعذاب بمعنى المؤلم، وإطلاقه يشمل كلّ ألم، وفي أي مرتبة كانت من مراتب العظمة، كما يدلّ قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾**[٣]، فيكون عذابهم أشدّ من عذاب الكافرين.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

٢. سورة التوبة: الآية ١٢٧.

٣. سورة النساء: الآية ١٤٥.

بحث فلسفي:

الشعور هو أدنى مرتبة الإحساس والإدراك، وكلّما كان إحساسات الشخص وإدراكاته للدقائق أكثر، كان شعوره بها أشدّ، وكليات أنواع الإحساسات والإدراكات ثلاثة:

عقلية، وخيالية ـ ومنها الإدراكات الحيوانية ـ ونباتية ؟

علىٰ ما أثبتها قدماء الفلاسفة، والعلم الحديث أيضاً، ولكلّ منها مراتب كثيرة غير متناهية، لا يحيط بها إلّا الباري جلَّ شأنه.

وكمال الإنسان لنفسه ولغيره، إنّما هو بالإدراكات العقلية، وفي غيرها لا ثمرة مهمة فيها.

والإدراكات العقلية علىٰ قسمين:

الأوّل: ما يتعلّق بالجهات التشريعية السماوية، فهي محدودة، ولابدَّ فيها من موافقتها للكتاب والسنّة وعدم مخالفتها، والخدعة ـ التي هي النفاق ـ مطلقاً مخالفة لها.

الثاني: ما يتعلّق بغير الجهات التشريعيّة، كسائر العلوم أو الصنائع، فإنّ الإدراك فيها مرسل غير محدودٍ بحدّ، إذ لا حدَّ للعقل ولا منع للشرع، ويأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ صفات النفس علىٰ أقسام:

الأوّل: ما كانت صفة لها لحسب ذاتها، كان هناك غيرها أو لا، كالحياة والجمال. فالجميل جميل كان هناك غير يراه أولا.

الثاني: الصفات التي تُضاف إلى الغير، فلا تحقّق لها بدونه، كالظلم وحُسن الخُلُق والأذىٰ ونحوها، ومنها النفاق.

الثالث : الصفات الإضافية المختلفة باختلاف الجهات، وسيأتي بيان ذلك في الآيات المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

***

الآية ١١ ـ ١٦

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

من صفات المنافقين التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات، الفساد في الأرض، والاستهزاء بالمؤمنين، وتوصيفهم بالسفاهة، وعدم شعورهم بجهالتهم، وتلك الصفات كلّها من أخسّ الصفات وأرذلها التي كانت فيهم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾:

الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، وتغيّره عن سلامة الحال، وضدّه الصلاح. ومادّة الفساد في أي هيئة استعملت، تدلّ على المبغوضية والاشمئزاز، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[1]، ولا سيّما هيئة الإفساد ومتفرّعاتها، فإنّ

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

المتلبّس بها مذموم عند الجميع .

ويقابل ذلك مادّة الصلاح ، فإنّها في أيّ هيئة استعملت تدلّ على المحبوبية والرغبة وميل النفس ، خصوصاً هيئة الإصلاح وما يتفرّع منها ، فإنّها ممدوحة عند الجميع، قال تعالىٰ : ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[1].

وإنّما ذكر تعالى القول بلفظ المجهول ليشمل كلّ ناه عن المنكر ، رسولاً كان أو وليّاً أو كان من غرض النّاس ، كما أنّه سبحانه ذكر الأرض وحدها، لأنّها محلّ إفساد المفسدين، قال تعالىٰ :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[2].

ثمّ إنّ الخروج عن الاعتدال والاستقامة، الذي هو معنى الفساد:

تارة : يكون بالنسبة إلى الشخص نفسه في ما بينه وبين الله تعالىٰ ، كالرياء .

وأُخرىٰ : بالنسبة إلى شخص آخر مثله ، كالغش مثلاً .

وثالثة : بالنسبة إلى المجتمع ، كالخيانة بالنسبة إليهم .

ولهذه الحالات مراتب متفاوتة .

وفي الجميع :

إمّا أن يكون الشخص متوجّهاً الى ما يفعل .

أو لا يكون كذلك، بل يرىٰ فساده صلاحاً وإصلاحاً .

والآية المباركة تبيّن هذا القسم .

ومعنى الفساد في الآية الشريفة، ارتكاب المعاصي، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، ويدخل فيها مذام الأخلاق ، وذلك لأنَّ أفعال الإنسان:

---

١ . سورة النساء : الآية ١٢٨ .

٢ . سورة الروم : الآية ٤١ .

إمّا أن تكون موافقة للشرع .

أو تكون موافقة لموازين الاجتماع ، وإن كانت مخالفة للشرع .

وثالثة : أن تكون موافقة لمعتقدات الشخص ، وإن كانت مخالفة للأولين .

والنفاق أو الفساد في الآية المباركة من أحد الأخيرين ، وقد أكّد تعالى بطلان معتقداتهم في قوله : **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾**، بأن لا صلاح في معتقداتهم، إذ ليس كلّ صلاح اعتقادي صلاحاً واقعيّاً .

قوله تعالىٰ : **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾** :

لظهور آثار الفساد في أفعالهم كتفريق المسلمين، وإلقاء النفاق بينهم، وإفشاء أسرارهم .

قوله تعالىٰ : **﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** :

لأنّ كثرة انهماكهم في الغيّ والضلالة أوجبت أنّهم يرون باطلهم حقّاً ، فنفى الله تبارك وتعالى نسبة الشعور عنهم، بكلمة (لا) الظاهرة في نفي نسبة المدخول في مثل المقام، والدال على الاستمرار ، فالآية الشريفة في مقام توبيخ المنافقين والتشنيع عليهم ، حيث وصفهم بعدم الشعور والإدراك .

ولعلّ نفي الشعور عنهم مرّتين، تارةً : بقوله تعالى **﴿وما يشعرون﴾** ، وأُخرى : بقوله تعالىٰ : **﴿لا يَشْعُرُون﴾**، للإشارة إلى نفي أصل الشعور عنهم أوّلاً ، ونفي أنّهم لايشعرون بذلك، فيكون من إثبات الجهل لعدم الشعور لهم .

قوله تعالىٰ : **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾** :

ذكر تعالى صفة أُخرى من صفات المنافقين، وهي السفاهة ، وهذه الصفة تلازمهم ، ولابدّ وأن يكونوا كذلك لأنّ مَن ليس أهلاً للحقّ، ولا يقبله من أهله،

كان ذلك من الجهل المركّب عنده، ويرى سوء عمله حَسَناً، كما يرى مَن سواه فاسداً هالكاً. وقد أعيت هذه الفرقة جميع أنبياء الله عزَّوجلَّ وأوليائه في كلّ عصر، لو لا أن تداركهم العنايات الخاصّة الإلهيّة جلّ شأنه، ويشهد لما ذكرنا قوله تعالىٰ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[٢].

وإنّما أتى سبحانه وتعالى القول بصيغة المجهول، تنبيهاً إلى عدم اختصاص القائل بشخص مخصوص، بل يشمل كلّ مَن أظهر الحقّ، كما تقدّم في الآية السابقة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾:

الناس والإنسان والبشر ألفاظ مترادفة، معنى لهذا الحيوان الناطق المستوي القامة، الذي يتفاوت أفراده بين أوج الكمال وأدنى مرتبة الحضيض، فالمراد بهم في المقام، مَن دخل في الإسلام، وتقدّم معنى الإيمان.

قوله تعالىٰ: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾:

السفه هو الخفّة وقلّة التمييز بين الخير والشرّ والنفع والضرر، سواء كان في الأُمور الدنيوية أو الأُخروية، فمن لا يعرف نفعه من ضرّه، وخيره من شرّه بالنسبة إلى الجهات الأُخروية، يعدّ سفيهاً بالنسبة إليها، ولو كان رشيداً وملتفتاً إلى الأُمور الدنيوية التفاتاً دقيقاً، كما أنّ كلّ مَن كان متوجّهاً وملتفتاً إلى أُموره الأُخروية، وغير دقيق في أُموره الدنيوية، يعدّ عند الناس سفيهاً. وهذا نزاعٌ قديم بين الفريقين، فأهل الدُّنيا يعدّون أهل الآخرة سفهاء، وأهل الآخرة يعدّون أهل الدُّنيا

---

١. سورة الشعراء: الآية ١١١.

٢. سورة هود: الآية ٢٧.

من السفهاء.

ولا نزاع في الحقيقة، لأنّ المراد من السفيه السفه من جهة لا من كلّ جهة، فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها، لا يعدّ سفيهاً بالنسبة إلى الآخرة، وإن عدّه بعض أهل الدُّنيا سفيهاً بالنسبة إلى بعض جهات الدُّنيا، ومَن أراد الدُّنيا وسعى لها سعيها معرضاً عن الآخرة، يعدّ سفيهاً بالنسبة إلى الآخرة ـ كما في المقام ـ، لأنّه ترك الحياة الدائمة الباقية، لأجل الحياة الزائلة.

ويأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**:

ولاريب في مطابقة ذلك للواقع، لأنّ كل مَن ترك الحياة الدائمة، وأخذ بغيرها سفيه بلا شكّ. وإنّما عبّر بقوله تعالى هنا **﴿لا يَعْلَمُونَ﴾**، وفي الآيات السابقة عبّر تعالى بـ**﴿لايَشْعُرُونَ﴾**، تنبيهاً علىٰ أنّهم متوغّلون في الجهالة، وأنّها من سنخ الجهل المركّب، وتأكيداً لنفي الإدراك عنهم بجميع أنحائه من نفي الشعور، ونفي العلم، ونفي الفقه والعقل كما في قوله تعالىٰ: **﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾**[1].

وقوله تعالىٰ: **﴿فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾**[2].

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾**.

هذه الآية المباركة تبيّن صفة أُخرى للمنافقين، وهي المداهنة بإظهار شيء وإضمار خلافه، ولا تكون هذه إلّا فيمن بلغ في فساد الأخلاق حدّاً بعيداً، فيظهر

---

١. سورة الحشر، الآية ١٤.

٢. سورة المنافقون: الآية ٣.

بوجهين، ويتكلّم بلسانين، يلقى كلّاً بحسب ما تقتضيه المصلحة، وهم يرون ذلك من مصالحهم الفردية والاجتماعية، وهذه الفئة من المنافقين لم تكن تختصّ بعصر التنزيل، بل توجد في كلّ عصر وزمان، ولا ينافي ذلك الحكاية عنها بصيغة الماضي، وتقدّم الكلام في ذلك.

وقد بيَّن تعالى أنّ المنافقين يداهنون في دينهم، فإذا رأوا المؤمنين، قالوا: آمنا بما أنتم به مؤمنون، كذباً وزوراً. وإذا اجتمعوا بشياطينهم، قالوا: إنّا معكم في العقيدة والعمل، وإنّما نحن نستهزئ بالمسلمين ودينهم. وقد فضحهم الله تعالىٰ، وأعدَّ لهم شديد العقاب.

والمراد بالشياطين هم المتمرّدون، من الشطن وهو البُعد والتمرّد، فكلّما بَعُد الإنسان عن الخير والصَّلاح، وقرب الباطل والفساد يقرب من الشيطان. والمقصود بهم رؤوسهم، ومَن يدبّرهم في مذام الأخلاق، وشعب النفاق، سواء أكانوا من الإنس أم الجنّ، كما في قوله تعالىٰ: **﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾**[1].

ويستفاد من الآية الشريفة أن كونهم مع أهل الإيمان، إنّما هو بمجرّد المرور والملاقاة فقط، وأمّا معيّتهم مع الشياطين، فكانت بعنوان التفهيم والاستفادة من نواياهم الفاسدة.

ثمّ إنّ الخلوة مع الشياطين:

تارةً: تكون علىٰ نحو الاستفادة، وأخذ الآراء الفاسدة والعقائد السيّئة.

وأُخرىٰ: تكون لارتكاب الفحشاء والمنكرات.

وثالثة: تكون علىٰ نحو التفكّر في ما لاينفع للدين والدُّنيا، فإنّ الأوهام والخيالات الفاسدة، والأماني الباطلة، من أقوىٰ سُبل الشياطين المستولية علىٰ.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١١٢.

الإنسان، الموجبة لحرمان عقله عن قرب الرحمٰن.

وعن علي عليه السلام: «الأماني بضائع النُوكى» أي الحمقىٰ.

وأمّا الخلوة معهم لأجل هدايتهم إلى الحقّ، فهي ممدوحة بل قد تجب.

قوله تعالىٰ: **﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**.

الاستهزاء هو الاستخفاف والسخرية. والمد هو الزيادة. والطغيان التجاوز عن الحدّ. والعمه: التحيُّر.

والمعنى: إنّ الله سبحانه وتعالى يجازيهم بالعقاب، ويعاملهم معاملة المستهزئ بهم، ويدعهم ويمهلهم في فعلهم، وتسمية ذلك بالاستهزاء من باب التجانس اللفظي فقط، كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾**[١].

قوله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾**[٢].

فإنّ جزاء الظلم ليس بظلم.

واستهزاء الله تعالىٰ بهم لا يختصّ بعالم دون عالم، ولا بأمر دون آخر، فمن ذلك سلب توفيقاته وتأييداته، أو إجراؤه تعالى أحكام الإسلام عليهم في الدُّنيا وليس لهم حظ منها في الآخرة، وكونهم في الدرك الأسفل من النار. وهذا من أشدّ أنحاء الاستهزاء بهم، ويزيدهم في تحيّرهم وعدم اهتدائهم للصواب والحقّ، جزاءً بما كانوا يعملون، وعقوبة لهم على استهزائهم.

وهذه الآية مثل سائر الآيات المباركة التي سيقت مساقها، كقوله تعالىٰ: **﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**[٣].

---

١. سورة الشورى: الآية ٤٠.

٢. سورة البقرة: الآية ١٩٤.

٣. سورة يونس: الآية ١١.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً﴾[1].

وغيرها من الآيات الشريفة الموافقة لقانون الطبيعة، بالنسبة إلى النفوس الشريرة. وتقدّم في خداعة الله تعالى لهم بعض الكلام فراجع.

وهذه الآية في مقام التسلية للنبي ﷺ وسائر أنبيائه، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

والمؤمنين أيضاً، وحيث أنّ الاستهزاء بأنبياء الله يرجع إلى الاستهزاء بالله تعالىٰ،فنسب جزاء المستهزئين بهم إلىٰ نفسه، فقال تعالىٰ: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِءُ بِهِمْ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[4].

فإنّ إحاطة نفاقهم بهم من لوازم فعلهم. والكلّ يرجع إليه سبحانه وتعالى بنحو الاقتضاء كما مرّ، فيصحّ أن يقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِءُ بِهِمْ﴾ جزاءً لأعمالهم، أو ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾:

يطلق الاشتراء على الاستبدال مع رجاء النفع، أي أنّ المنافقين استبدلوا الهداية بالضلالة والعمى، لغرضٍ من الأغراض الفاسدة الدنيوية، فتركوا استعداد فطرتهم، فلم تربح تجارتهم وكانوا من الخاسرين.

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٤.

٢. سورة يٰس: الآية ٣٠.

٣. سورة الشعراء: الآية ٦.

٤. سورة الزمر: الآية ٤٨.

والخسران في هذه المعاملة من الواضحات لكلّ عاقل بعد التأمّل ولو قليلاً، وقد بيّن تعالى ذلك في آية أُخرىٰ بما هو أظهر، فقال سبحانه:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾[1].

وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾**[2].

وفي جملة من الآيات المباركة التعبير بالثمن القليل، قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[3].

وقال تعالىٰ: **﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾**[4].

ويمكن أن يفرق بين التعبيرين، بأنّ استبدال الهداية والإيمان بالضلال والكفر:

تارةً: يكون لأجل الكفر والجحود، والشقاوة المنبعثة عن اقتضاء الذات بمجرد الاقتضاء لا العلّية، وهذا هو استبدال الهداية بالضلالة والإيمان بالكفر، وقد أشار الى ذلك سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5].

وأُخرىٰ: يكون الاستبدال لأجل الأغراض الفاسدة الخياليّة الدنيويّة،

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧٥.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٧٧.

٣. سورة النحل: الآية ٩٥.

٤. سورة آل عمران: الآية ١٨٧.

٥. سورة فصّلت، الآية ١٧.

وهذا هو الاشتراء بالثمن القليل، فإنّ كلّ غرض إذا صدر من الإنسان مع قطع النظر عن إضافته إليه عزّوجلّ، فهو من المعاملة الخاسرة، وإذا صدر منه من جهة إضافته إليه تعالى مع تأييد ذلك بالشرع فهو من المعاملة الرابحة.

والمائز بين الغرضين هو الشرع، أو العقل المقرّر بالشرع، لما سيأتي في محلّه من أنّ نسبة الشرع إلى العقل، نسبة الصورة إلى المادّة، فكما لا أثر للمادّة بدون الصورة، فكذا لا أثر للعقل بدون الشرع، فالعامل بالعقل التارك للشرع يضلّ في هديه، والعامل بالشرع التارك للعقل يبطل سعيه ومسعاه.

ويأتي تفصيل هذا الإجمال إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّه يصحّ أن يكون قوله تعالىٰ: ﴿فَما رَبِحَتْ تِجارتُهم﴾ من باب ذكر اللازم وإرادة نفي أصل الملزوم، فيكون المعنى أنّه لا تجارة لهم أصلاً في الواقع، وإن كانت بحسب الظاهر، لأنّ التجارة ما كان فيها اقتضاء الاسترباح في الجملة، لا ما بنيت على الخسران والضلالة.

وفي الآية المباركة نحو استعارة ومجاز، لإسناد الربح الى التجارة، ومنه يعلم وجه قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، فتصحّ نسبته إلى تجارتهم الخاسرة، أو إلىٰ جميع شؤونهم التي منها تجارتهم.

بحث روائي:

عن الصادق عليه السلام: «سُئل فيما النجاة غداً؟

فقال: «إنّما النجاة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنّه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان ونفسه يخدع لو يشعر.

فقيل له: كيف يخادع الله؟

فقال عليه السلام: يعمل بما أمر الله عزّوجلّ به، ثمّ يريد به غيره، فاتّقوا الله واجتنبوا

الرياء، فإنّه شرك بالله عزَّوجلَّ، إنّ المرائي يُدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له».

أقول : وقريب من هذه الرواية روايات أُخرى كثيرة، الظاهرة في حصر النجاة في يوم القيامة في الخلوص والإخلاص، وترك المخادعة، وهو كذلك لأنّ المخادعة توجب سلب الأُجرة على العمل، لفرض أنّ المخادع يأتي بعمله لغيره تبارك وتعالىٰ، فلا أجر له منه.

وعن الرضا عليه السلام: «في قوله تعالىٰ: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِءُ بِهِمْ﴾.

فقال عليه السلام: إنّ الله لا يستهزيء، ولكن يجازيهم جزاء الاستهزاء».

أقول : تقدّم بيان ذلك.

بحث أخلاقي:

للنفاق سببان:

الأوّل : السبب الفاعلي.

الثاني : السبب الغائي.

أمّا سببه الفاعلي: فالعمدة فيه ترجع إلى عدم العقيدة بالمبدأ والمعاد أصلاً، أو قلّتها وضعفها، فلو اعتقد الإنسان بمبدأ قيّوم مراقب له في جميع جهاته وأفعاله، لا يحصل منه النفاق الذي هو أم مساوئ الأخلاق، وكلّما اشتدّ الاعتقاد بالمبدأ وإحاطته تعالى يضعف النفاق. والسبب القريب فيه يرجع إلى حبّ النفس والجاه، وقد بيّنهما النبيّ صلى الله عليه وآله: «حبُّ الدُّنيا رأس كل خطيئة».

وأمّا سببه الغائي: فلا ريب في أنّه ليس له غاية عقلية، وإنّما تكون له غايات جزئية وهمية خيالية، ربما يستنكر نفس المنافق تلك الغاية، لو فرض

كمال عقله وإيمانه.

وأمّا شُعَبهُ ومراتبه فهي كثيرة منبثّة على الجوانح والجوارح، فالمنافق يمكن أن ينافق بقلبه كالرياء ـ كما تقدّم في البحث الروائي ـ أو بكلّ واحدة من جوارحه أو بجميعها.

والوجوه المتصوّرة في هذه الصفة الشريرة علىٰ أقسام:

الأوّل: كونها من سنخ الطبائع غير القابلة للتغيّر والتبدّل، كسائر الطبائع المودعة في الأشياء كلّها، من جواهرها وأعراضها، التي يصحّ أن يعبّر عنها بالصفة غير القابلة للتخلّف والتغيير.

الثاني: كونها من مجرّد الاقتضاء الذاتي القابلة للتغيّر والتبدّل والاشتداد والتضعيف.

الثالث: كونها من مجرّد الاكتسابيات المحضة، بلا علّية ولا اقتضاء أبداً.

الرابع: كونها في مبدأ الأمر من مجرّد الاقتضاء المحض، وصيرورتها بالممارسة من سنخ الطبيعة واللوازم غير المنفكّة.

وقال بكلّ من ذلك قائل من الفلاسفة والمتكلمين، ويمكن أن يكون جميع ذلك صحيحاً، إن أراد القائل بالأوّل مرتبة خاصّة من الاقتضاء لا العلّية التامّة المنحصرة كسائر الطبايع غير الإرادية الاختيارية، فإنّه لو قيل بها لزم محاذير كثيرة يشكل الجواب عنها، كما يأتي التفصيل في محلّه.

***

الآية ١٧ ـ ٢٠

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٧ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾.

المثل كالشبه وزناً ومعنىً. والمثل هو وصف الشيء وبيان نعوته التي توضّحه.

وكانت الأمثال دائرة بين الأُمم خاصّة عند العرب، بل كان استعمالها يعدُّ من شؤون الفصاحة والبلاغة، وقد نهج القرآن الكريم في استعمال الأمثال لغرض تفهيم المخاطبين، والتكلّم معهم بلسانهم المتعارف بينهم، وجلب قلوبهم، إلىٰ غير ذلك من الحِكَم والفوائد.

وقد اهتمّ القرآن الكريم بها اهتماماً كبيراً، فقال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[2].

---

١. سورة الروم: الآية ٥٨.

٢. سورة إبراهيم، الآية: ٢٥.

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة.

والوجه في ذلك معلوم، لأنّ ذكر المثل يجلي المعاني المعقولة الخفية، ويؤثّر في النفوس المأنوسة بالمحسوسات، والنّاس إلى ما ارتكز في غرائزهم أميل، وإلى ما يكون دائراً في ما بينهم أرغب، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«إنّا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلّم الناس علىٰ قدر عقولهم».

وعلىٰ هذا ضرب الله تعالى مثلاً للمنافقين:

أوّلاً: بمن استوقد ناراً.

وثانياً: بمَثَل آخر لحال المنافقين، فشبّه تعالى الإسلام بالمطر، لأنّه يُحيي الأرض بعد موتها، والإسلام يُحيي القلوب، وجعل تعالى شبهات المنافقين وأباطيلهم كالظلمات، وشبّه ما في الدِّين من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيبهم من أهل الإسلام بالصواعق، وهم في غلوّ واضطراب وخوف من النّاس: **﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾**[١].

فهذا المثل يشرح حال المنافقين، ويبيِّن سوء أعمالهم، وفساد أسرارهم، فقد أتتهم الحكمة من السماء، وفتح الله عليهم أبواب علومه، فاعترضوا ذلك بالشُبَه والآراء الفاسدة، **﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾**[٢]، فحصل بعد هذا العلم الإلٰهي ظلمات حيرة في أنفسهم باتّباع الشهوات، فصاروا في حيرة من أمرهم، متردِّدين هالكين.

***

---

١. سورة المنافقون: الآية ٤.

٢. سورة الجاثية: الآية ١٧.

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾:

المراد باستيقاد النّار، هو إيقادها للاهتداء بنورها، أو الاستضاءة بها، كما كان يفعل ذلك في قديم الزمان.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾:

المراد به الأعمّ من النور الظاهري الذي كان من إيقاد النار، والنور المعنوي الذي هو الإسلام، كما قال تعالىٰ:

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾[١].

فإنّ المنافق لتماديه في الغيّ والضلالة، ومزاولته للأعمال الشرّيرة، حصلت له طبيعة ثانية أوجبت إطفاء نور الفطرة، والإعراض عن الإيمان، فأوكله الله الى نفسه وذهب بنوره، ويدلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾[٢].

ولهذا النور مقام عظيم سيأتي البحث عنه في الآيات المناسبة له.

قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾:

أي صيَّرهم في الظلمات لا يبصرون شيئاً، ويستفاد من حذف المتعلَّق، وسياق الآية الشريفة، أنّ الله تعالى أذهب جميع مراتب النور عنهم في الدُّنيا والآخرة، بل سلب عنهم جميع الكمالات الإنسانيّة؛ فلايُرجى منهم خير.

---

١. سورة الزمر: الآية ٢٢.

٢. سورة الحديد: الآية ١٣.

وإنّما قال تعالىٰ: ﴿ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ﴾، ولم يقل أذهب الله نورهم، لفرض أنّهم باختيارهم اختاروا الظلمة والعمى، فنسب تبارك وتعالى إذهاب النور إلى نفسه، لأنّ الجميع منتسب إليه تعالى بواسطة الأسباب الحاصلة باختيارهم.

قوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾:

أي لايرجعون عن الضلالة الى الهداية، لأنّه طبع علىٰ حواسّهم، وختم علىٰ قلوبهم، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾[1].

والمراد من هذا المثل، أنّ المنافقين لم يشعروا بما يفعلون فهم بمنزلة الأعمى الأصم الأبكم، لأنّهم تمادوا في الغيِّ والضلالة.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾:

الصيِّب اسم من أسماء المطر، ويمكن أن يراد به السحاب، لأنّه يصيب الفضاء.

والرعد هو صوت السحاب، والبرق: هو الضوء اللّامع في السحاب.
والصاعقة هي النّار العظيمة النازلة من السماء، فتصعق ما تنزل به.

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة أربعة من كائنات الجوّ، وهي: الصيِّب، والرعد، والبرق، والصاعقة، وتقدّم معانيها.

وأمّا حقيقتها وأسباب حدوثها، فقد اختلف فيها:

فنسب الفريقان إلى نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله أسباباً لها، ذكروها في الكتب الموضوعة لنقل أحاديثه صلى الله عليه وآله.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٩.

وذكر قدماء الفلاسفة الطبيعيين لها أسباباً خاصّة، مذكورة في الكتب الفلسفية.

وأمّا علماء الطبيعيات في العصر الحديث، فقد ذكروا أُموراً تغاير ما ذكره القدماء.

ويظهر من بعض الآيات والأحاديث ـ علىٰ ما سيأتي في محلّه ـ أنّ لها حياة وشعوراً وإدراكاً خاصّة.

والظاهر أنّ ذلك لم يكن من الاختلاف في الحقيقة، وإن قصرت عبارات بعض، فإنّ لكل شيء من موجودات هذا العالم أسباباً ومعدّاتٍ، ومقتضياتٍ وشروطاً، قد أدرك العقل بعضها، ولم يدرك الآخر بعد، وأنبياء الله تعالى وأولياؤه، حيث إنّهم يرون أنّ جميع الحوادث تستند إليه عزّوجلّ، والملائكة المدبّرين لأمره، ينسبون ذلك إليه تعالىٰ، وهو الحقّ الذي لا محيص عنه، وأما غيرهم فلا يدركون إلّا ما وصل إليه فكرهم، مع أنّه يمكن أن تكون في الواقع أسباب أُخرى غفلوا عنها، وتشبه ذلك حالة المريض الذي اختلفت أنظار النّاس في مرضه؛ فالعالم الروحاني يرى أنّ مرضه نشأ من ناحية دعاء المظلوم الذي ظلمه هذا الشخص مثلاً، والطبيب يقول إنّ مرضه من إلتهاب بعض أعضاء جسمه مثلاً، والنفساني يرى كدورة نفسه هي السبب، وأهل المريض يرون أنّه كان محموماً فشرب الخل مثلاً. ولمّا عاده وليّ من أولياء الله، قال إنّ ممرضك هو يشفيك، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1]، والجميع صادقون في أقوالهم وآرائهم، فإنّ كل واحد ذكر مقتضياً من مقتضيات المرض، وسبباً من أسبابه، لا أن يذكر العلّة التامّة، وبهذا يمكن أن يجمع بين آراء العلماء في العلوم. وربما ننتفع به في غيرالمقام كما سيأتي.

---

١. سورة الشعراء: الآية ٨٠.

وحيث إنّ المنافقين من الخائنين، والخوف مسلّط على الخائن مطلقاً، فتكون هذه الجملة: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ توبيخاً آخر لهم بالملازمة، فهم يخافون من موتهم بالصاعقة والرعد، فيجعلون أصابعهم في آذانهم، ليتحفّظوا بذلك بكلّ ما أمكنهم من أنحاء التحفّظ بزعمهم منها.

وللصاعقة والرعد والبرق مراتب، فيمكن أن يكون بعض مراتبها موجباً للموت بحسب قرب الوصول إلى الأجزاء الرئيسية من البدن.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾:

الإحاطة هي الإحداق بالشيء، والمراد الإحاطة من جميع الجهات، علماً وقدرة، وعذاباً في الدُّنيا وعقاباً في الآخرة، ومن حيث الاستدلال والبراهين، ومن حيث الدُّنيا وجميع العوالم، بل هو محيط بما سواه بكل معنى الإحاطة، كما أنّ المعنى عام في جميع العصور، من عصر التنزيل إلى يوم القيامة، ولجميع أصناف الكفر وأفراده، وفيه دلالة واضحة على أنّه بعد إحاطته تعالىٰ بهم ليس وراء الكفر والنفاق، إلّا الخزي والضلال والهلاك ومع ذلك يمهلهم.

وإحاطته تعالى بما سواه:

تارة: إحاطة وجوديّة.

وأُخرىٰ: علميّة.

وثالثة: فعليّة.

فمن الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾[1].

ومفهوم الإحاطة والمحاط متقوّم بالاثنينية لغةً وعقلاً. فتوهّم وحدة الوجود من مثل هذه التعبيرات في الآيات المباركة ـ كما زعم جمع من الفلاسفة

---

١. سورة النساء: الآية ١٢٦.

والعرفاء ـ باطل، فضلاً عن وحدة الوجود والموجود، كما زعم جمع من خواص العرفاء والفلاسفة.

وسيأتي تفصيل هذه المذاهب وفسادها في محالّها إن شاء الله تعالىٰ.

ومن **الثاني**: قوله تعالىٰ: ﴿**أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾[1].

وقوله تعالىٰ: ﴿**عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[2].

وهذان القسمان من إحاطته، يعمّان جميع ما سواه من أنحاء الممكنات.

وأمّا إحاطته الفعلية: كقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[3].

فإن كان المراد بالفعل الخلق والتقدير، فهي تعمّ جميع ممّا سواه أيضاً.

وإن كان المراد بها رضاه وسخطه، فالأوّل للمؤمنين، والأخير للكافرين والمنافقين، ومآلهما واحد، لأنّ علمه الأقدس عين ذاته المقدّسة، علىٰ تفصيل يأتي في مباحث العلم إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**﴾:

الخطف هو الأخذ والاذهاب بسرعة. والمراد أنّ القرآن والآيات البيّنة، والحجج القيّمة، تشتمل علىٰ أدلّة قويمة، وبراهين قاطعة، فيظهر لهم الحقّ، ويلمع في نفوسهم نور الإيمان؛ كالبرق الخاطف يخطف قلوبهم، فيزمعون على اتباعه، ولكن الشبهات والآراء الفاسدة تعترضهم، فيكونون علىٰ حيرة من أمرهم.

---

١. سورة الطلاق: الآية ١٢.

٢. سورة سبأ: الآية ٣.

٣. سورة العنكبوت: الآية ٥٤.

قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا فِيهِ﴾:

لأنّ القرآن والشريعة يشتملان علىٰ بيان المصالح النوعية، والترغيب إلى الخيرات، والتأكيد في دفع المضار، وأمثال ذلك، وهذا هو الذي يُضيء لهم فيمشون فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾:

القيام كناية عن التحيّر، لأنّ القرآن وأحكام الدِّين تزجرهم عن ما يخالف مشتهياتهم النفسانية، فيظلم عليهم، فيتحيّرون في أمرهم.

والآية الشريفة باختصارها تبيّن أنّ في الدِّين ما يصلح للنّاس دنياهم، وإرشاد لهم، إلى أنّ فيه زجراً لهم عمّا يفسد حالهم، فلا تختصّ هذه الآيات بالمنافقين، بل تشمل كل مشكّك في الأُمور الشرعية النوعية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾:

أي لوشاء الله لجعلهم غير مدركين لشيء. وإنّما خصّ عزّوجلّ السمع والبصر بالذكر، لأنّ غالب الإدراكات في نوع النّاس إنّما ترجع إليهما، كما في قوله تعالىٰ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾[1].

ويمكن أن يراد بالسمع والبصر الظاهران، فيكون تتمّة للمثل نفسه، وبالآية الأُخرى عدم الإدراك بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

لا يعجز عن شيء، لأنّ كلّ شيء حادث، وكل حادث فهو مخلوق

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨.

٢. سورة البقرة: الآية ١٧١.

ومعلول له تعالىٰ، فله التوحيد في المعبودية، وفي الذات، وفي الفعل، وقد تقدَّم ما يتعلّق بالأوّل في سورة الفاتحة، وأشرنا إلى الثاني في ما سبق، وسيأتي القول في الثالث إن شاء الله تعالىٰ.

بحث روائي:

عن الرضاﷺ في قوله تعالىٰ: **﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾**، فقال: «إنّ الله لا يوصف بالترك كما يوصف خلقه، ولكنّه متى علم أنّهم لا يرجعون عن الكفر والضلالة، فمنعهم المعاونة واللطف، وخلّى بينهم وبين اختيارهم».

أقول: لابدّ وأن يرجع الترك ـ المنفي عن الله سبحانه وتعالى، المستلزم لعدم القدرة الذي هو المحال بالنسبة إليه تعالى، لفرض عموم قدرته ـ إلى فعله سبحانه وتعالىٰ، كما أرجعهﷺ إلىٰ ذلك، وهو التخلية بينهم وبين فعلهم، والإمهال لهم في أعمالهم، وعدم تعجيل العقاب عليهم، فيكون كالصبر المنسوب إليه تعالىٰ فإنّه أيضاً يرجع إلى عدم تعجيل العقاب، لا الصبر الاصطلاحي عندنا.

***

الآية ٢١ ـ ٢٢

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه في ما تقدّم أصناف خلقه، وهم المؤمنون المهتدون الفائزون، والكافرون الذين اختاروا الكفر، فطبع بذلك علىٰ قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، والمنافقون الذين هم الأخسرون أعمالاً، الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً. فكما أنّ الدُّنيا مجمعهم بالوجود الجمعي والتدريجي في سلسلة الزمان، كذلك الآخرة مجمعهم بالوجود الجمعي في الزمان والمكان.

دعا سبحانه وتعالى في هذه الآيات إلى التوحيد والعبادة، حتّىٰ تستعدّ نفوسهم إلى التقوى. ثمّ عدّد جلائل نعمه في السماء والأرض، ليرغّبهم إلى التفكر ونبذ الأنداد، فلا يستعينوا بغيره عزّوجلّ، كلّ ذلك في عبارات يتدفّق منها الحنان، والعطوفة، وقد أظهر اهتمامه بهم بقوله تعالىٰ: ﴿خلقكم﴾، ثمّ ذكر خلق السابقين ليعرف أنّ الجميع خلقه، وهو الخالق والمستحقّ للعبادة دون غيره، وإنّما كان الخلق السابق كالمقدّمة لخلق المسلمين، ثمّ بيّن الغاية القصوى للخلق وهي التقوى، ثم عدّد بعض النِّعم النوعية التي تكون من خصائص الربوبية.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾:

تقدّم في سورة الفاتحة معنى العبادة والرب، وفي الآية أمر سبحانه النّاس بالعبادة، وهي الغاية لخلق الإنس والجنّ، كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وقد ورد عن الأئمّة الهداة عليهم السلام: «خلقهم ليأمرهم بالعبادة».

ولم يبعث الله الرُّسل إلّا لدعوة أقوامهم إلى العبادة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[2].

وإنّما اختار من أسمائه المقدّسة لفظ (الربّ)، لاشتمال الربوبية المطلقة علىٰ جميع الكمالات الإلٰهيّة، وفيه إشعارٌ بالحنان والرأفة بخلقه. وإنّما أمر بالعبادة لأنّها تقتضي الاعتقاد بالتوحيد الذاتي أيضاً.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

ذكر تعالىٰ خلق الذين من قبلهم، لأنّهم كانوا يفتخرون بآبائهم، بل بعضهم يعبدونهم، فقال تعالىٰ إنّهم مخلوقون له، كما أنتم مخلوقون له، فنفىٰ تعالىٰ جهة الشرك بهذه الكلمة، كما بيّن غاية العبادة وهي التقوىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾:

الفراش والبساط والمهاد لها جامع واحد، وهو سهولة الأرض للانتفاع بها بكل معنى يتصوّر الانتفاع، وإنّما تفترق هذه الألفاظ بخصوصيّات خاصّة، تأتي الإشارة إليها في محالّها.

---

١. سورة الذاريات: الآية ٥٦.

٢. سورة النحل: الآية ٣٦.

والتعبير بالفراش كما في هذه الآية الشريفة ، والمهاد كما في قوله تعالىٰ: **﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً﴾**[١]، والبساط كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً﴾**[٢]، دلالة على أنّها خُلقت كذلك، لأجل ملائمتها لطباع النّاس وإلفتهم بها، كما يألفون إلى الفراش والبساط والمهاد.

والسماء تطلق علىٰ كلّ ما علا وأظل، وعلىٰ مجموع ما فوقنا، وللعلوّ درجات ومراتب، ولذا يتصوّر فيها الجمع، وقد ورد في القرآن لفظ (السماوات) كثيراً، لأنّ جهات البُعد كثيرة جدّاً، ولاسيما بناءً علىٰ أن البُعد غير متناه. والبناء وضع شيء علىٰ شيء مع التماسك بينهما.

والمراد به أنّه تعالىٰ جعل السماء سقفاً متماسكاً، لئلّا تقع على الأرض، ويدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾**[٣].

ويمكن أن يُراد بالبناء العمران في مقابل الخراب، وليس المراد بالعمران والخراب، ما ندركه بأبصارنا الظاهرية فقط، بل لها معان أُخرى لا يحيط بها إلّا الله تعالىٰ، وقد روى الفريقان عن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«أطت السماء وحقّ لها أن تئط، فإنّ ما بها موضع شبر إلّا وملك واضع جبهته عليه عظمةً لله تعالىٰ».

وقد ورد التأكيد عن أئمّة الدِّين في ردّ مَن زعم أنّها خراب لا عمران فيها، وعلىٰ هذا يصحّ ترتيب نزول الماء من السماء، سواء كان البناء بمعنى السقف، أو بمعنى العمران، كما لا يخفىٰ على أهله.

---

١. سورة النبأ: الآية ٦.

٢. سورة نوح: الآية ١٩.

٣. سورة الأنبياء: الآية ٣٢.

وقد خلق السماء بأحسن نظام وأجمل صورة، وجعل فيها أجراماً غير متناهية متماسكة، من غير أن يصطدم بعضها ببعض، وقد كشف العلم الحديث لهذا السقف آثاراً وفوائد، كلّ ذلك يدل علىٰ تمام قدرته وعنايته تبارك وتعالىٰ.

وإنّما قدَّم سبحانه وتعالى الأرض، لأنّها من أنفع الكرات وأعظمها فائدة للإنسان، ولأنّ فيها قيام حياة النبات والحيوان والإنسان، والذي زاد في فضلها أنّها مهبط وحي السماء، ومحلّ نشوء الأنبياء، ومعبد الأولياء، ومسجد أهل الإيمان، ومحلّ تكميل نفوس العقلاء، بل لم يخلق سبحانه وتعالى في العالم خلقاً أجلّ نفعاً وأعظم فائدة من هذه الكرة الأرضية، ولذا كان اهتمامه تعالى بها أكثر، واعتناؤه أشدّ، من أي كرة أُخرىٰ، فإنّه سبحانه أعلم بأسرارها ورموزها وكنوزها.

وما يتوهّم من أنّ الأرض كما أنّها مجمع المنافع، فيها شرور أيضاً، من أهمّها أنّها محلّ إضلال الشياطين وإغوائهم.

غير صحيح، بما ثبت في علم الفلسفة من أنّ الشر القليل، لا يمنع عن الخير الكثير الموجود فيها.

ولم يذكر الأرض بلفظ الجمع في القرآن العظيم، وإن وردت جمعاً في الدعوات المأثورة المعتبرة، وقد ذكر السماء مفرداً وجمعاً في القرآن.

نعم، ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[1]، ويأتي ما يتعلّق بذلك.

ولكن ثبت في الفلسفة القديمة بالبراهين القويمة، أنّ جميع الكرات من النوع المنحصر في الفرد، بلا فرق بين الأرض وغيرها، ولو فرض تعدّد فإنّما هو بحسب النوع لا بحسب الأفراد الداخلة تحت نوع واحد، وعلىٰ هذا فإفراد لفظ الأرض في القرآن، كإفراد لفظيّ الشمس والقمر، يكون بحسب الدليل، وسيأتي

---

١. سورة الطلاق: الآية ١٢.

تتمّة البحث، وأمّا إفراد السماء وجمعها فقد تقدّم بعض الكلام فيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾:

الماء معروف، وهو منشأ الحياة في كلّ ذي روح، سواء كان إنسانيّاً أو حيوانياً، أو نباتياً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[١].

والماء أصل حدوثه يكون في العالم العلوي، وفي الأرض أمكنة مجعولة إلٰهية لإبقاء هذه النِّعمة الكبرىٰ، تسهيلاً على المنتفعين به، فأصل الحدوث من السماء، والعلّة المبقية في الأرض، وسيأتي مزيد بيان لهذا البحث في الآيات المناسبة.

ولاريب في تقوّم الإنسان بل كل حيوان برزق مخصوص، والرزق متقوّم بالثمرات، وهي ما يحصل من النبات، وكلّ نبات متقوّم بالماء وهو من السماء، وبالآخرة يرجع الرزق إليه تبارك وتعالىٰ، وقد أشار سبحانه وتعالى الى ذلك بقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٢].

وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات من أُصول نعمه، نعمة الإيجاد والخلق لنا ولأسلافنا، ونعمة العيش والحياة، ونعمة الغذاء. فعرفنا ذاته المقدّسة بآثار رحمته، وعظيم نعمه، وسعة فضله، وغاية قدرته وعظمته.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا للهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾:

تقريع ونوبيخ للمخاطب العاقل في صورة النهي، يعني أنّه مع علمكم بألطافه تعالىٰ، وعناياته عليكم، كيف تجعلون له شريكاً ومثلاً.

والند: هو المِثل والكُفؤ والشريك. «وأنتم تعلمون» أنّه لا ندَّ له، لكونهم

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

٢. سورة الذاريات: الآية ٢٢.

معترفين بأنّ الله خالقهم ورازقهم، والمنعم عليهم، والمدبِّر لأُمورهم، فـلا يـقول خلاف علمكم وعقيدتكم. ويجري معنى الآية في كل مَـن يـقول بأنّ مـجاري الطبيعة مسخّرة تحت إرادته تعالىٰ، ومع ذلك يعتقد بـخلاف ذلك، فـلا يـختصّ بزمان دون زمان.

***

الآية ٢٣ ـ ٢٤

﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝﴾.

بعد أن ذكر سبحانه أقسام الناس بالنسبة إلى الإيمان والكفر، كما تقدّم أمر سبحانه الناس بعبادته، لعلّهم يصلون إلى الغاية المرجوّة لهم وهي التقوىٰ، والتي تستكمل نفوسهم بها، لأنّه المُنعم عليهم بأنواع نعمه.

وبما كان له من الربوبية العظمىٰ في خلقه، شرع في إثبات النبوّة لعبده، وبيان ما أنزله عليه، وإزالة الشكّ بأنّ ما جاء به محمّد ﷺ كان من عند نفسه، فتحدّاهم بأن يأتوا بسورة من مثله.

فالآية من أدلّة إثبات النبوّة، ويصحّ جعلها من أدلّة إثبات إعجاز القرآن، كما يصحّ جعلها لهما معاً، لمكان تلازمهما في جميع مراحل الوجود.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾**:

يعني إذا حصل لكم الشكّ في أمر القرآن، وزعمتم أنّه من كلام البشر، فأتوا بسورة من مثله، وقد ذكر سبحانه وتعالى المنزل عليه بأحسن لفظ تشريفي،

يتدفّق منه الحنان والعطوفة ، فالسياق سياق العناية بالنسبة إلى كلّ من المنزل والمنزل عليه ، وهما متلازمان في جميع مراحل الوجود ، فيسقط بذلك ما أطاله جمع من المفسّرين في مرجع ضمير (مثله) ، وأنّه يرجع الى العبد أو الى القرآن، المعبّر عنه بقوله ﴿ممّا أنزلنا﴾ ، وذلك لأنّ مقام النبوّة التي هي من أجلّ المقامات الممكنة في البشر، إنّما تتحقّق بنزول القرآن عليه ، ونزول القرآن لايكون إلّا بالنسبة إليه ، فالحقيقة واحدة والفرق اعتباري .

نعم ، لمّا كان للكتاب الاستقلال المحض ، وليست النبوّة إلّا الدعوة إليه، فتكون نسبة الداعي إلى المدعو، نسبة اللفظ إلى المعنى ، ولا أثر في اللّفظ بدون المعنى ، فلابدَّ وأن يرجع الضمير إلى القرآن ، ويشهد لذلك ما ورد في سائر آيات التحدّي، قال تعالىٰ : **﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾**[1] .

وقال جلَّ شأنه : **﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾**[2] .

وقال تعالىٰ : **﴿لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**[3] .

وقد ثبت في العلوم الأدبية، أنّ الجملة الشرطية تجتمع مع إمكان الشرط وتحقّقه خارجاً ، بل ومع امتناعه فعلاً أيضاً ، ولا إشكال في تحقيق الريب بالنسبة إلى بعضهم، وإمكانه بالنسبة إلى بعضهم الآخر ، فيصحّ استعمال الجملة علىٰ أي تقدير .

ولفظ (كان) في نظائر المقام، منسلخ عن الزمان ، بل أثبتنا في محلّه عدم دلالة الفعل على الزمان أصلاً ، وإنّما الزمان مستفادٌ من السِّياق إن لم تكن قرينة

---

١ . سورة الطور : الآية ٣٤.

٢ . سورة يونس : الآية ٣٨.

٣ . سورة الإسراء : الآية ٨٨ .

على الخلاف.

والريب : هو الشكّ كما تقدّم في أوّل السورة.

وكلمة (من) للتبيين، لكثرة وضوح المطلب، وأنّ شأن هذا القرآن ممّا لا يرتاب فيه، وأن معارضة الناس هنا معه، كمعارضة سَحَرة فرعون مع عصا موسى، ومعارضة نمرود مع إبراهيم الخليل، وأنّه لا معنى معقول لمعارضة المقهور تحت الطبيعة، مع مَن هو قاهر عليها، فالتحديات القرآنية إنّما وقعت لإتمام الحجّة على المعاندين، لا أن تكون تحدّياً حقيقيّاً واقعيّاً.

ومنه يظهر أنّ جميع ما ذكروه في التحدّي في الكتب الكلامية والتفاسير بالنسبة إلى المعجزات، وخوارق العادة غير صحيح، إلّا بالنسبة إلى إتمام الحجّة.

والسورة : هي بعض الشيء، وطائفة منه قلَّ أو كثر.

والتحدّي بها يقتضي التحدّي بأقصر سورة في القرآن، بل إذا كان (بـ) للتبعيض، يشمل الآية الواحدة أيضاً.

ثمّ إنّه ورد التحدّي بالقرآن في ثلاثة مواضع، غير هذا الموضع :

قال تعالىٰ : **﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾**[١].

وثانيها : قوله تعالىٰ : **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**[٢].

وثالثها: قوله جلَّ شأنه : **﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾**[٣].

نعم، ذكر تعالى الحديث أيضاً، فقال سبحانه : **﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا**

---

١. سورة الإسراء: الآية ٨٨.

٢. سورة هود: الآية ١٣.

٣. سورة يونس: الآية ٣٨.

صَادِقِينَ﴾[1]، ولكن المراد هو القرآن فيرجع إلى القسم الأوّل.

ولعلّ الوجه في اختلاف التحدّي بالقرآن، تارةً بمثله، وأُخرى بعشر سور من مثله، وثالثة بسورة من مثله، اختلاف أشخاصهم، فبعض ادّعى الإتيان بالمثل، وبعض ادّعى الإتيان بعشر سور مثله، وبعضهم ادّعى الإتيان بسورة مثله.

أو لأجل اختلاف الأزمنة، ففي أوائل البعثة اتّفقوا على الإتيان بالمثل، وبعد ظهور العجز في الجملة، ادّعوا الإتيان بعشر سور مثله، وبعد استقرار العجز تحدّوا بإتيان سورة من مثله.

وما يقال: من أن المتحدِّي ـ بالكسر ـ هو الله تعالى في جميع معجزات الأنبياء خصوصاً معجزة خاتم الأنبياء الدائمة الأبدية، أو أنّه النبيّ من قبل الله تعالىٰ، فيرجع إليه سبحانه أيضاً، والمتحدّىٰ به في المقام إمّا هو القرآن أو النبيّ الصادر منه المعجزة، والمتحدّى منه هو عامّة الخلق، ولابدّ من السنخيّة في الجملة بين المتحدِّي ـ بالكسر ـ والمتحدَّى منه، فالمَلِكُ الجليل العاقل لا يتحدّى مع سواد الناس في شيء، وكذا لابدّ منها بين المتحدِّي ـ بالكسر ـ والمتحدَّى به، فمن كانت لديه جوهرة نفيسة منحصرة بالفرد في العالم كلّه، ليس له أن يتحدّىٰ في ذلك من في عرض النّاس، فلا موضوع للتحدّي الذي أُطيل القول فيه من المتكلِّمين، وتبعهم جمع من المفسِّرين.

مردودٌ أوّلاً: بأنّ أصل التحدّي إنّما هو لإتمام الحجّة على الأُمّة، لئلا يكون للناس على الله حجّة، وكلّ ما تحقّقت هذه الجهة يصحّ التحدّي، ومع عدمه فلا موضوع له.

ثانياً: بأنّه لطف وعناية منه جلَّ شأنه مع الخلق، ومماشاة معهم، وإظهار لضعفهم ممّا يتوهّمون لذلك.

---

١. سورة الطور: الآية ٣٤.

قوله تعالىٰ: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

الدُّعاء النداء والاستعانة.

والشهداء: جمع شهيد، وهو مَن يعتدّ بحضوره، ممّن له اعتبار في القول أو الحل والعقد.

وبعبارة أُخرى: أهل الخبرة بالشيء.

وممّا دون الله، أي ما سوى الله.

والمراد أنّه إذا كنتم صادقين في دعواكم، فأتوا بسورة من هذا القرآن، ولو كان بمعونة ما سوى الله، فإذا عجزوا عن ذلك، يكون ذلك حجّة قاطعة علىٰ ثبوت أصل الدعوى، وهي كون القرآن معجزة إلٰهية، أنزله لإتمام الحجّة عليهم.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾:

بيان لثبوت عجزهم، وعدم استطاعتهم لما يدعونه.

والجملة الأُولى إشارة لإيكال الموضوع إلى اختيارهم، والثانية إخبارٌ واقعي عن الواقع المحقّق في علم الله، وما هو المتحقّق في نظام الطبيعة، من عدم ارتباط المحدود المقيَّد بها، بمَن هو قاهر عليها، إلّا بإرادته تعالىٰ، فالنفي الأبدي إنّما هو لأجل أنّ المدعو به يستلزم الخلف، وهو محال ذاتي.

قوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾:

الوقود ـ بفتح الواو ـ ما توقد به النار.

والنّاس هم الكافرون والعُصاة.

والحجارة هي حجر الكبريت، أو سائر المعادن الحجرية التي تستعمل للوقود.

بل يمكن أن يُراد بها نفس النّاس الكفرة بعضهم بالنسبة إلىٰ بعضهم، وهو ما

يقتضيه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[١]، فيصير الموقود والوقود شيئاً واحداً، فكلّ مَن ازداد طغيانه وتبعه قومٌ، يكون حجارةً بالنسبة إلى تابعيه، مع وجود الحياة في المتبوع أيضاً.

ثمّ إنّه في المقام بحثان:

الأوّل: إنَّ التكليف بالشيء يدور مدار القدرة عقلاً وشرعاً، فلا يصحّ التكليف بغير المقدور كذلك، وفي هذه الآية المباركة أخبر سبحانه بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أنّه من التكليف بغير المقدور الذي هو باطل.

والجواب عن ذلك: بأنّ التكليف إن كان للامتحان ـ كما عرفت ـ أو إتماماً للحجّة عليهم، وأخذاً بإنكارهم للنبوّة والمعجزة، يصحّ ولو مع العلم بعدم إمكان الامتثال.

الثاني: إنّ العقاب مترتّب علىٰ مخالفة الله عزّوجلّ، وفي المقام لم تتحقّق منهم مخالفة حتّى يتعلّق بهم العقاب.

والجواب: يظهر من الجواب السابق، فإذا تمّت الحجّة عليهم بالنبوّة، وإعجاز القرآن، لابدَّ لهم من التصديق والاعتقاد بهما، وحينئذٍ الريب والشكّ الحاصل باختيارهم مخالفةٌ توجب استحقاق العقاب.

قوله تعالىٰ: **﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾:**

ذكر الله تعالى إعداد النّار أو العذاب للكافرين من جملة في الآيات، وإعداد الجنّة للمتّقين كذلك، قال سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٢].

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٩٨.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٣١.

كما قال جلَّ شأنه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

إلىٰ غير ذلك من الآيات.

فيستفاد من الآية أُمور:

الأوّل: أنّ أصل خلق النّار كان لأجل الكافرين، فإذا أطلق في القرآن أنّ النّار للفاسقين أو المجرمين، لابدَّ من حملهم على الكفر بقرينة ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أو أنّ نارهم غير ما أُعدّت للكافرين، بحسب المرتبة والدرجة.

الثاني: أنّها أُعدّت، فيستفاد من لفظ الإعداد سبق الوجود، إذ لا يطلق هذا اللفظ على المقارنة الوجودية، أو التأخير الوجودي إلّا بالعناية.

الثالث: سنخ هذه الآيات نحو بشارة للمؤمنين، بأنّ النّار لم تُعدّ لهم ـ كما يدلّ عليها بعض الأخبار علىٰ ما يأتي ـ وإن دخلوها لبعض معاصيهم، وبينهما فرق واضح. وفي المقام جزاءً لإنكارهم للمعجزة الأبدية التي هي القرآن باختيارهم، يدخلون النّار التي أُعدّت لهم.

ثمّ إنّ الإعداد من الأُمور الإضافية، وله مراتب متفاوتة كثيرة، يقول القائل: (أعددتُ هذه الحنطة لطعامي مثلاً)، أو (هذا القماش للباسي)، أو (هذه الأرض لمسكني)، إلىٰ غير ذلك من الأمثلة. ومقتضى ما ورد من الآيات المباركة، والأخبار المستفيضة من الطرفين ـ علىٰ ما يأتي في محلّه ـ أنّ الإعداد حاصل من الأعمال والأفعال، كقوله ﷺ: «الدُّنيا مزرعة الآخرة»، لا أنّ الله تعالى أعدَّ ذلك بذاته الأقدس أوّلاً وبالذات، بلا فرق بين درجات المتّقين، ودركات الكافرين والمنافقين، فترجع موجبات الإعداد إلى نفس الطائفتين، فالمعِد ـ بالكسر ـ إنّما هو نفس المكلّف، والإعداد يحصل من عمله.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٣٣.

وسيأتي في الآيات المناسبة تفصيل الكلام إن شاء الله تعالىٰ.

وحيث إنَّ هذه الآية مفتتح آيات التحدّي إلى المعجزة، لابدَّ وأن نشير إليها في الجملة.

حقيقة الإعجاز:

الأفعال الاختيارية الصادرة عن الإنسان علىٰ أقسام:

الأوّل: أن لا يستند إلى سبب وهو محال، لما ثبت بالأدلّة العقليّة من أنّ حدوث الفعل الاختياري، بلا سبب فاعلي، محالٌ.

الثاني: أن يسستند إلى سبب من الأسباب الطبيعيّة الشائعة، وهذا القسم معلوم لكلّ أحد.

الثالث: أن يكون سببه من الأسباب الطبيعيّة النادرة، بحيث لو أمكن الاجتهاد في تحصيلها لظفر بها، بلا دخالة خصوصيّة شخص فيها، بل كل مَن تعلّم الأسباب وأحاط بها، أمكن صدور تلك الأفعال منه، جرياً لقانون السببية والمسببية الجاري في جميع الممكنات. وجميع الأفعال النادرة، والفنون العجيبة. بل السحر والشعبذة ونحوهما، من هذا القبيل.

نعم، يختصُّ السحر ونحوه بأنّ لإيحاء بعض النفوس الشريرة دخلاً في تحقّقه في الجملة، وعلىٰ ما يأتي تفصيله في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾**[1].

الرابع: أن يكون سببه من الأسباب الغيبية الإلٰهيّة، فكما أنّ نظم طبيعي العالم بمجرّداته وأعراضه، وجميع مادّياته، لابدّ وأن يكون مورد إرادته المطلقة، وتحت قيوميّته التامّة، كذلك تكون تلك الإفاضات المُفاضة على الحيوانات ـ

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٢١.

التي لا تحصى أنواعها فضلاً عن أفرادها ـ بجلب منافعها، ودفع مضارّها، وتوليد المثل، بل صدور بعض الأفعال الجميلة، كما قال تعالىٰ:

﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنْ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنْ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[1].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة علىٰ ذلك، وكذا في النباتات من إيحاء جلب المنفعة، ودفع المضرّة، وإيجاد المثل.

والإعجاز بنفسه أيضاً يكون من هذا القسم، فهو من فعله تعالى في أفراد خاصّة من الإنسان، إقامة للحجّة على الجميع، وارتباطاً لعالم الشهادة بعالم الغيب، فكما أنّ الله تعالى إذا أراد شيئاً يقول له: **﴿كُن فَيَكُون﴾**، بلا سبب في البين أصلاً، إلّا الإرادة التامّة المقدّسة، جعل سبحانه لأنبيائه المعجزات، ولأوليائه خوارق العادات بهذا المعنى لمصالح كثيرة.

والفرق بين ما أراده لنفسه، وما جعله لغيره من جهات:

الأولىٰ: أنّ الأوّل لنفسه من نفسه، والثاني من غيره لغيره.

الثانية: أنّ الأوّل غير محدود بحدّ خاصّ أبداً، والثاني محدود بخصوص الحدّ المفاض إليه فقط.

الثالثة: الأوّل واجبٌ نظامي صدر عن الواجب بالذات، والثاني واجبٌ نظامي صدر عن الممكن بالذات فعلاً وذاتاً.

وحينئذٍ يكون قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾**[2]، لا يختصّ بخصوص الرمي فقط، بل هو جارٍ في جميع معجزات الأنبياء، وخوارق عادات الأولياء، لأنّ إبراز المعجزة وخارق العادة علىٰ أيديهم، له دخل في نظام

---

١. سورة النحل: الآية ٦٨.

٢. سورة الأنفال: الآية ١٧.

التكوين ، كما أنّ التشريع كذلك، بل هو غاية نظام التكوين .

وربما يتوهّم من أنّ ما ذُكر صحيح لا إشكال فيه .

ولكنّه مخالفٌ للقاعدة التي تسالموا عليها في الفلسفة، من أنّه لابدّ وأن تكون علّة الطبيعي طبيعيّة، والمعجزة وخارق العادة في عالم الطبيعة ومنها ، فلابدَّ وأن تحصل بالعلّة الطبيعيّة . ولهذا التجأ بعض المفسِّرين إلى القول بأنّ علّتها طبيعيّة، لكن لا يعرفها إلّا مَن جرت علىٰ يده .

نقول : إنّ أصل القاعدة موردها العلل الطبيعيّة، لا الفاعل المختار الذي هو محيط بكلّ شيء، ويفعل ما يشاء ، مع أنّ جعل المعجزة وخارق العادة من عالم الطبيعة ممنوع ، بل هما من عالم آخر، تظهران في ظلمات الأرض ، ولم يقم دليل علىٰ أنّ كل ما يظهر في عالم الطبيعة ـ من العالم الآخر ـ لابدّ أن يكون من الطبيعة ، بل الدليل علىٰ خلافه، كما يأتي إن شاء الله تعالىٰ .

وليس ما ذكرناه في معنى المعجزة مبنيّاً على الحلول، ولا علىٰ وحدة الوجود والموجود ، لما سيأتي من إثبات بطلان ذلك كلّه إن شاء الله تعالىٰ ، بل المعجزة وخارق العادة، من إيجاد الله تعالى القدرة الخلّاقية في الجملة، في من شاء من عباده، لمصالح كثيرة تقتضي ذلك . ولا فرق بين المعجزة وخارق العادة من هذة الجهة، إلّا أنّ الأولى لابدَّ وأن تقترن بالتحدّي، أي الدعوة إلى المبارزة والمنازعة في الإتيان بمثلها في الناس ، بخلاف الثاني فإنّه يصدر عن عبد خمول في فلاة من الأرض، لا يعرف ولا يعرفه أحد كالخضر .

فحقيقة الإعجاز، قدرة النفس الإنسانيّة علىٰ إيجاد ما يخرق بـه الطـبيعة والعادة، والتصرّف في هذا العالم، بما هو خارج عنه، كلّ ذلك بإقدار من الله تعالى عليه، لمصالح متعدّدة تقتضيها الظروف .

هذه خلاصة ما ينبغي أن يُقال في المعجزة ، وللقوم فيها تفاصيلٌ في كتب الكلام والتفسير .

التحدّي ومعناه:

التحدّي هو نداء الناس جميعاً، إمّا للإتيان بمثل ما يدَّعيه المدَّعي، أو الاعتراف بالعجز والقصور، فتثبت أصل الدعوى لا محالة باعتراف الخصم، وهو من أحسن الطرق لإثبات المطلوب، وإقامة الحجّة عليه. وهو شائع في المحاورات والمخاصمات العرفية من قديم الأعصار، خصوصاً في الجاهلية، وتشهد لذلك معلّقاتهم علىٰ باب الكعبة، فإنّها كانت للتحدّي لإظهار ما يفتخرون به في الفصاحة والبلاغة، فجاء القرآن وأبطل ذلك، وأتمّ الحجّة عليهم بما كان شائعاً لديهم.

فمعنى التحدّي، دعوة الخصم إلى الإتيان بما أتى به المدّعي، وبعد ثبوت عجزه باعترافه ثبتت دعوى المدّعي لا محالة.

فما نسب إلى بعض: من أنّ الله تعالى أعجزهم عن ذلك، وصَرَفهم عن التأمّل حوله.

مردود: بما عرفت سابقاً.

ولاريب في عجز ما سواه تعالىٰ عن الإتيان بالقرآن، وإنّما جيء بالجمل الشرطية لاظهار العجز والتوبيخ، وإتمام الحجّة، وغير ذلك من الدواعي.

إعجاز القرآن:

وجوه إعجاز القرآن كثيرة ومتعدّدة، بل هو من جميع الجهات، لأنّ قوله تعالىٰ: ﴿**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً**﴾[1]، خطابٌ عام لجميع أفراد الإنس والجنّ، بما فيهم من العلماء وأرباب علوم شتّى وفنون كثيرة، فلابدّ وأن يعمّ الجميع بما

---

١. سورة الإسراء: الآية ٨٨.

هم كاملون ومخترعون فيه .

وبعبارة أُخرىٰ : أنّ دعوة المبارزة والتحدّي بالإتيان بالمثل، دعوة إلى العقل الإمكاني من حيث هو كذلك، وقد ثبت عجزه عن الإتيان بمثله .

وأمّا الإشكال : بأنّه لا وجه للتحدّي بهذا التعميم ، ثمّ لا وجه للتحدّي من كلّ شيء .

فهو مردود : بأنّ في القرآن آيات كثيرة دالّة علىٰ كماله من جميع الجهات قال تعالىٰ : ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾[١] .

وقال تعالىٰ : ﴿**وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[٢] .

ثمّ قال تعالىٰ : ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ**﴾[٣] ، فلابدّ وأن يكون التحدّي عامّاً من جميع الجهات، ومن كلّ جهة يشمل المتحدّي به على الدعوة من تلك الجهة، وإلّا لما تمت الحجّة كما هو معلوم، فكلّ شيء فيه جهة حسن وكمال للفرد أو المجتمع، في الدُّنيا أو النشآت الأُخرىٰ، يكون القرآن معجزة فيه ، من حيث بيانه والاستكمال فيه ، فهو معجزةٌ للفصيح البليغ في فصاحته وبلاغته ، وللعالم في علمه ، وللفلسفي في فلسفته إلى غير ذلك ، فإذا كانت وجوه الإعجاز كثيرة، فنحن نشير إلى المهمّ منها علىٰ سبيل الاختصار إن شاء الله تعالىٰ .

حياة القرآن:

ليس المراد من الحياة فى القرآن هي الحياة المعروفة في الحيوان ـ التي هي عبارة عن الحركة الإرادية، التي تكون في معرض الزوال والفناء ـ بل المراد

---

١ . سورة النحل : الآية ٨٩ .

٢ . سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

٣ . سورة سبأ : الآية ٢٨ .

منها هي الحياة الحقيقة الواقـعية ، لأنّ قـوام حـياة الفـرد والمـجتمع، إنّـما هـو بالكمالات المعنوية الحاصلة لهـما ، والقـرآن هـو الذي يـفيد الكـمال الفـردي والاجتماعي، سواء أكان في هذا العالم أم في عالم آخر .

وبعبارة أُخرىٰ : هو الكمال للكلّ بكلّ معنى الكمال، وهذا هو معنى الحياة التي وردت في قوله تعالىٰ :

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾(١) .

وقوله تعالىٰ : **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾**(٢) .

وقوله تعالىٰ : **﴿اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾**(٣) .

وقال جلَّ شأنه : **﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾**(٤).

فإذا كان القرآن روحاً بذاته، وكان من عالم الآمر، يكون منشأ حياة الغير لا محالة ، كما سيأتي تفصيل ذلك .

والحياة لها أقسام :

حياة العقول المجرّدة علىٰ ما أثبتها جمع من الفلاسفة .

حياة الملائكة ـ كما هو المنساق من الكتاب والسنّة، وسائر الأدلّة علىٰ ما يأتي تفصيلها ـ علىٰ أنواعهم التي لا يحيط بها إلّا الله تعالىٰ:

منها: سادات الملائكة، مثل: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل .

ومنها: حملة العرش الكروبيون .

---

١ . سورة الأنعام : الآية ١٢٢ .

٢ . سورة النحل : الآية ٩٧ .

٣ . سورة الأنفال : الآية ٢٤ .

٤ . سورة الشورىٰ : الآية ١٥٢ .

ومنها: روح القدس، الذي يظهر من الأخبار أنّه غير جبرائيل.

وحياة القرآن المقدّس أفضل، لأنّ جميع ما تقدّم له حياة من جهة، وللقرآن حياة من جميع الجهات، ويأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة له إن شاء الله تعالىٰ.

إعجاز القرآن في المعارف الإلٰهيّة:

يشتمل القرآن علىٰ كثير من العقائد الدينيّة، والعلوم الإلٰهيّة، والمعارف الربوبية، فهو السابق في جميع هذه العلوم، وقد شهد بذلك جميع الأئمّة الهداة الذين هم أحد الثقلين، وجميع علماء المسلمين، بل وغيرهم، فقد تحدّى الناس في التوحيد الفعلي، قال تعالىٰ: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[2].

وقال جلَّ شأنه: ﴿**هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[4].

إلىٰ غيرذلك من الآيات المباركة، التي يستدلّ بها من المجعول لإثبات الجاعل، وليس في البراهين التي أقامها الفلاسفة أظهر وأبين وأتمّ من هذا البرهان، المسمّى عندهم بـ(البرهان اللمّي)، أي العلم من المعلول بالعلّة، فهو

---

١. سورة فصّلت: الآية ٥٣.

٢. سورة إبراهيم: الآية ١٠.

٣. سورة الحشر: الآية ٥٩.

٤. سورة الزمر: الآية ٦٢.

معجزة في إثبات التوحيد الفعلي.

كما أنّه معجزة في التوحيد الذاتي، الذي هو من أهمّ مقاصد الفلاسفة، وقد كتبوا في ذلك كتباً، وصنّفوا رسائل، ولم يأتوا في ذلك شيئاً جديداً، وما ذكروه إنّما أخذوه من القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[٢].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

وأمّا توحيد صفاته، فقد تعرّض الفلاسفة والعرفاء له أيضاً، وجميعهم اقتبسوا من نور هذا الكتاب العظيم، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[٣].

بناءً علىٰ ما ثبت في محلّه، من أنّ الذات ذاتٌ جامع لجميع صفات الكمال، فنفي إلوهيّة عمّا سواه، إثباتٌ لحصر جميع صفات الكمال بالنسبة إليه، وسيأتي البحث عنه في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وأمّا المعاد وخصوصيّات الحشر والنشر، فيغنيك مراجعة الآيات المباركة الواردة فيهما، عن تفصيل البيان في ذلك.

وأمّا النبوءات السماوية، فقد ذكرت فيه بجميع جوانبها، من معجزاتهم وقصصهم، وكيفيّة معاشرة أُممهم معهم.

إلى غير ذلك من المعارف التي تأتي الإشارة إليها، ولا مجال للتعرّض لجميعها في المقام.

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

٢. سورة الحجّ: الآية ٢١.

٣. سورة يوسف: الآية ٣٠.

إعجاز القرآن في تشريع الأحكام:

ممّا تحدّىٰ به القرآن الكريم، هو تشريعه للأحكام المدنية النظامية الفردية والاجتماعية، التي لم تكن أفهام البشر تصل الى ما وصل إليه القرآن في ذلك، وإن طال عليه الزمن. وتأتي أهمّية هذه القوانين المجعولة، وفاؤها لجميع حاجات الإنسان، وشمولها لكلّ جوانب الحياة، وعدم تغييرها وتبديلها.

والقول: بأنّ حاجات الإنسان تختلف باختلاف الأعصار والأمصار، فلابدّ أن تكون القوانين المجعولة التشريعية تختلف وتتغيّر، فلا موضوع للتحدّي في ما يتغيّر ويتبدّل.

مردود: بأنَّ التغيُّر والتبدّل ليس في الكلّيات وأصل القوانين، كوجوب عبادة الله تعالىٰ، وحرمة أكل مال الغير، ووجوب رد الأمانة، وحرمة الخيانة وغير ذلك من أُصول القوانين التشريعية التي ضبطها الفقهاء في الكتب الفقهية، ولكن الجزئيات قد تختلف حسب اختلاف الحالات والخصوصيّات، وهي ممّا لابدَّ منه في جعل القوانين، فأصل القوانين التشريعية المجعولة من الله تعالىٰ، يكون مثل القوانين المُسلّمة كحُسن الإحسان، وقبح الظلم، ونظائر ذلك ممّا لا يتغيّر ولايتبدّل.

إعجاز القرآن و العلوم:

يشتمل القرآن الكريم علىٰ كثير من العلوم، التي تكون في طريق استكمال الإنسان ـ الفردية والنوعية ـ قال تعالى:

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً

وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: **﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾**[٢].

فهو يحتوي من المعارف أجلاها وأرقاها، ومن العلوم العملية أتقنها وأسناها، ومن تشريع القوانين أرفعها وأدقّها، سواء أكان في العلوم الاجتماعية أم الاقتصادية والإنسانيّة، ومطلق العلوم التكاملية.

وكيف لا يكون كذلك، فإنّ علم القرآن بجميع جهاته، ينتهي إلى علمه تعالىٰ، وهو راجع الى ذاته الأقدس غير المتناهية من كلّ جهة، فمَن تصوّر القرآن بهذا النحو من التصوّر، يجزي نفس تصوره عن التحدّي بالنسبة إليه، فهذا الموضوع من الموضوعات التي يكفي الالتفات في الجملة لمقام ثبوته، عن إقامة الدليل علىٰ إثباته.

وسيأتي تفصيل المقال في مبحث علمه تعالى إن شاء الله تعالىٰ.

إن قلت: إنّ جملة كثيرة من العلوم والاكتشافات العصرية، ممّا لم يُشر إليها في القرآن العظيم، مع أنّها من أهم مفاخر الإنسان.

فإنّه يقال: إن الذكر والإشارة أعمّ من أن يكون علىٰ نحو الكليّة والإجمال، أو الجزئية والتفصيل، وجميع ذلك ممّا اكتشف مذكور في القرآن بنحو الكليّة، وإن لم يلتفت إليها إلّا بعد مدّة، وإن كان العلم بها مخزوناً عند أهله.

فتستفاد الحركة الجوهرية ـ التي اكتشفوها ـ من قوله تعالىٰ: **﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾**[٣].

كما أنّهم اكتشفوا التلقيح بالرياح، ويستفاد ذلك من قوله تعالىٰ: **﴿وَأَرْسَلْنَا**

---

١. سورة النحل: الآية ٨٩.

٢. سورة الأنعام: الآية ٥٩.

٣. سورة النمل: الآية ٨٨.

الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(١).

واكتشاف حركة الأرض، من قوله تعالىٰ: ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً﴾(٢).

ووجود موجودات في السماء، من قوله تعالىٰ : ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾(٣).

إلى غير ذلك من العلوم ممّا لا يسع المقام ذكرها .

إعجاز القرآن في العلم بالغيب :

يحتوي القرآن الكريم علىٰ كثير من علوم الغيب ، فهو المُخبر عمّا جرى على الأُمم الماضية في عالم الفناء بأصدق بيان ، قال تعالىٰ :

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾(٤).

كما أخبر عن أُمور لم تكن في عصر التنزيل وما يحدث في عالم الدُّنيا ، ويخبر أيضاً عمّا يجري ويحدث في عالم البقاء ، لأنّه من مظاهر علمه تعالىٰ، الذي لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات والأرض . فالقرآن من الغيب ، لأنّه من الله عزّوجلَّ العالم غيب السماوات . وللغيب ، لأنّه يدعو النّاس إلى الغيب . وفي الغيب ، لأنّ حقائقه غائبة عن الإدراكات، وإن أحاطت بظواهرها عقولهم .

وسيأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة أيضاً إن شاء الله تعالىٰ .

إعجاز القرآن ببلاغته وفصاحته :

قد ثبت أنّ العرب في عصر نزول القرآن، ولاسيما في مهبط الوحي، كانوا

---

١ . سورة الحجر : الآية ٢٢.

٢ . سورة طه : الآية ٥٣.

٣ . سورة البقرة : الآية ٢٢.

٤ . سورة يوسف : الآية ١٠٢.

أفصح النّاس، بحيث لا يدانيهم في ذلك قوم، ولا يقربهم في هذه الخصلة رهط، وكان ذلك من أهمّ مفاخرهم، وأشرف مآثرهم، وكانت محافلهم تعجّ بالخطباء والشعراء، وتعقد الأسواق لذلك، وقد ضبطت الكتب فروع كلماتهم، ودقائق جملاتهم، ومع ذلك لم ينقل إلينا إلّا شيء قليل، وكلّ من تأمّل في هذه اللغة، ورأى فيها من الأسرار والدقائق، وما عليها من الجمال والبهاء، يعترف بالعجز والتحيّر، وحينئذٍ لابدّ وأن تكون هذه الصفة ـ أي صفة البلاغة والفصاحة التي كانت شائعة في مهبط التنزيل ـ أقصى هدف سيّد الأنبياء ﷺ في إعجاز ما ينزل من الله تعالىٰ، إذ لم يكن تحدّي كلّ نبي إلّا بما تميّز به قومه، فنزل القرآن متحدّياً لهم ببلاغته وفصاحته، وأمرهم بالإتيان بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا عن ذلك، واعترفوا بالقصور. وقد نقل أنّهم لمّا سمعوا قوله تعالىٰ:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

أخذتهم الدهشة والتحيّر، وأمروا بإنزال ما عُلّق على الكعبة المشرّفة من القصائد والأشعار.

وربما يقال: إنّ البلاغة والفصاحة كالجمال والملاحة، من الغرائز الطبيعيّة، فهو خارجة في الجملة عن الاختيار، فلا وجه للتحدّي بما هو خارج عنه.

ولكنّه فاسد، أولاً: بأنّه يصحّ التحدّي بالنسبة إلى مَن كانت الفصاحة والبلاغة من غريزته، ومع ذلك إذا اعترف بالعجز، كان بالنسبة إلى المطلوب أتم وأعظم.

وثانياً: إنّها وإن كانت من الغرائز في الجملة، ولكن للاختيار في أصلها

---

١. سورة هود: الآية ٤٤.

وسائر جهاتها دخل بالوجدان، كما هو واضح لا يحتاج الى البيان.

إعجاز القرآن بعدم الاختلاف فيه:

قال تعالىٰ: **﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافاً كثيراً﴾**[1]، وفي سياقه آيات كثيرة، تدلُّ علىٰ أنّه محفوظ، وأنّه في كتاب مكنون.

لم يَسْلم كتابٌ من وجود الاختلاف فيه؛ فريما بكون واضحاً، وقد يكون خفيّاً لا يدركه إلّا من كان له حظٌ من العلم، إلّا أنّ القرآن الكريم سلم من وجود الاختلاف فيه، والآيات الشريفة تشير إلى برهان قويم، وهو أنّه قد ثبت بالأدلّة العقلية والنقلية، أنَّ الله تعالى واحدٌ ذاتاً وصفةً وفعلاً، فالوحدة الحقّة الحقيقيّة تامّة بالنسبة إليه عزَّوجلَّ، وكلامه واحدٌ من عند واحد، لأنّ عالم المعنى والحقيقية لاتكثّر فيه، والتكثّر إنّما يكون في المضاف إليه دون المضاف، بل لا تكثّر في ذات الإضافة أيضاً، وقد يُقرب ذلك بالتمثيل بالشمس في مرتبة الإشراق والإشعاع، فيكون المستشرق متعدِّداً، لا الإشراق الفعلي الإضافي.

فالاختلاف في عالم الحقيقة ـ ولاسيّما الحقيقة الحقّة الواقعية ـ خلف، لفرض الوحدة في جميع جهاته، وكلامه عزَّوجلَّ من فعله، وفعله واحد كوحدة ذاته، إذ لا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم، كما أثبتوا ذلك بالبراهين العقلية.

هذا مضافاً إلى أنّ كلامه نزل على الفطرة المستقيمة، والفطرة واحدة، فالقرآن واحد لا اختلاف فيه، هذا بالنسبة إليه عزَّوجلَّ.

وأمّا بالنسبة إلى غيره فليس فيه إلّا مثار الكثرة، ومنشأ التغيّر والاختلاف، فيكون فرض الوحدة فيه خُلفاً.

---

١. سورة النساء: الآية ٨٢.

ثمّ إنّه قد يعترض أحد بأنّ النسخ الواقع في القرآن، وما أخذه جمعٌ من متناقضات القرآن، هو من الاختلاف فيه.

ولكن نجيب عنه : بأنّ النسخ ليس من الاختلاف بشيء، بل هو من شؤون جعل القانون وحدوده، لأنّ جعل القانون وتشريع الأحكام، إنّما يكون علىٰ طبق المصالح والمقتضيات، وهي تختلف في نشأة الكون والفساد، وليس النسخ إلّا هذا، علىٰ ما يأتي تفصيله.

وأمّا أخذ المتناقضات، فلأنّها إنّما كانت حسب وهم نفس الآخذين لها، وإدراكهم الناقص، وليس من النقض الواقعي على القرآن، كما هو واضح، فإذا راجعنا ما ذكروه، نرى أنّ ما يتخيّلونه نقضاً، إمّا أن يكون بين عام وخاصّ، أو مطلق ومقيّد، أو بين أمرين مختلفين زماناً أو مكاناً، وغير ذلك ممّا لا يعدّ من التناقض والاختلاف.

هذا بعض ما يتعلّق بالتحدّي، ولو أردنا بيان التمام لطال الكلام، ويأتي جملة ما يتعلّق به في الآيات المباركة المناسبة لها.

***

الآية ٢٥

﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

من سنته تعالى أنّه في كتابه الكريم، يقرن بين الترهيب والترغيب، فكلّما يذكر شيئاً من مظاهر غضبه، يعقبه بشيء من موجبات رحمته، إتماماً للحجّة، ولئلّا ييأس من رحمته أحدٌ، وكلّما يذكر شيئاً من جهات رحمته، قفّاه بشيء من موجبات غضبه، لئلا يتّكل علىٰ عمله أحدٌ، ولذا بعد أن ذكر الكفّار والمنافقين، وما أعدَّ لهم من العقاب، أردفه ببشارة المؤمنين وما وعد لهم من النعيم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**:

البشارة هي الإخبار بما يوجب ظهور آثار السرور في بشرة المخبر، وقد تستعمل في الإخبار بالشرّ أيضاً توبيخاً وتعييراً، كما في قوله تعالىٰ: **﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾**[1].

وتقدّم معنى الإيمان في أوّل هذه السورة.

---

١. سورة آل عمران: الآية ٢١.

والعمل الصالح من الواضحات عند الناس مفهوماً ومصداقاً، وهو كلّ ما يحبّه الله ويرتضيه، وقد ذكر سبحانه جملة من مصاديقه، في قوله تعالىٰ: ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

مادّة (ج ن ن) تأتي بمعنى الستر. والجنّات جمع جنّة، وهي البستان الملتفّ بالأشجار التي فيها أنواع الفواكه والثمار المستترة بالأشجار، والمراد بها في القرآن الكريم، نعيم الآخرة من باب إطلاق الخاص على العام، إمّا لكماله من جميع الجهات، أو لعدم الاعتناء بالفاني مع التوجّه إلى الباقي.

وما عن بعض اللّغويين، من أنّ البستان إذا كان فيه الكَرْم يسمّى بالفردوس، وإن كان فيه النخيل يسمّى جنّة.

فإن أراد أنّه مجرّد اصطلاح طائفةٍ خاصّة في عصر مخصوص فلابأس به.

وإن أراد التخصيص في أصل المعنى والذات، فلا دليل عليه، مع أنّه ورد في القرآن الكريم ما يخالفه، قال تعالىٰ: ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾[٢].

والسياق في الجميع واحد.

ثم إنّه ورد لفظ الجنَّة والجنّات كثيراً في القرآن الكريم، بأنحاء الاستعمالات المشعرة باعتنائه تعالى بها اعتناء بليغاً، ولابدّ أن يكون كذلك، لأنّها نعيم أبدي لايزول، وأنّها دار الأبرار والمتّقين، وهي عوض ما اشتراه الله تعالى من المؤمنين، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[٣].

---

١. سورة الأنعام: الآية ٩٩.

٢. سورة الكهف: الآية ١٠٧.

٣. سورة التوبة: الآية ١١١.

وكلّما كان المعوض أعلىٰ وأغلىٰ، يكون للعوض المكانة العليا.

قوله تعالىٰ: ﴿**تَجري من تَحتِها الأنهارُ**﴾:

تستعمل هذه الجملة في القرآن الكريم مع لفظ الجنّات غالباً، وتشمل جميع الأقسام التي يمكن تصويرها في جريان الماء ونبوعه، تحت أظلال الأشجار، المطابق للأذواق الحسنة المتعارفة بين الناس، التي يمتدحونها ويهتمون بها في تزيين جناتهم الدنيوية. وقد نظم ذلك الشعراء بوجوه من النظم في مدح تلك الجنان، ولم يبيّن سبحانه خصوصيات الجريان، تعميما لجميع مراتب الحُسن والكمال.

قوله تعالىٰ: ﴿**كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً**﴾.

يحتمل أن يجعل الظرف الأخير في الآخرة، أي كلّما انتفعوا من ثمارها قالوا هذا ما رُزقنا قبل ذلك من ثمار الآخرة، فإنّها تكون بحيث كلّما يقتطف منها ثمرة يعود مكانها مثلها.

ويحتمل أن يجعل الظروف في الدُّنيا، فإنّ ثمار الدارين متّحدتان اسماً وجنساً، ولكنّهما مختلفتان في اللطافة والذوق والالتذاذ ونحوها.

ويُحتمل أن يراد من الرزق الثاني، هو نفس الأعمال الصالحة التي هي بمنزلة البذور لثمار الجنّة، فيكون المراد إن ثمار الجنة لنا من جزاء أعمالنا، ومنه يظهر وجه قوله تعالىٰ: ﴿**وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً**﴾، لوجود التشابه بين ما ينتفعون به فعلاً، وبين جميع الاحتمالات التي تعرّضنا لها في الجملة.

فالمراد بالتشابه المعنى الأعمّ الشامل.

ويشهد للتشابه في الجملة، قول الصادق عليه السلام:

«كلّ ما في الدُّنيا فسماعه أعظم من عيانه، وكلّ ما في الآخرة فعيانه أعظم من سماعه».

حيث أثبت عليه السلام الاتحاد من جهة، والاختلاف من أُخرىٰ.

ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالىٰ: **﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**[1].

فإنّ من المُشتهيات ما اشتهوه في الدُّنيا وتلذّذوا به، وكذا ظاهر كثير من الآيات التي تعد نِعَم الجنَّة بالأسماء المستعملة المأنوسة.

وأمّا ما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ الله قال: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذنٌ سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر».

وغيره ممّا في سياق ذلك. فلا ينفي ما ذكر في سائر الآيات والروايات، لأنّها نِعَمٌ أُخرى، إمّا جسمانية ليس في الدُّنيا لا إسم ولا رسم، أو من النِعَم المعنوية التي لا موضوع لها في الدُّنيا.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾**:

الأزواج جمع زوج بمعنى القرين، ويطلق علىٰ كلّ واحد من الذكر والأنثى، وقد يطلق على الأخيرة الزوجة، والمعنى أنّ لهم أزواجاً مطهّرات غاية التطهير، لأنّ حذف المتعلّق يفيد العموم، فهنَّ مطهّرات من جميع الأقذار الخَلْقية كالحيض والنفاس، والخُلُقية كالمكر وسائر مساوئ الأخلاق، ومستكملات بكلّ المحامد الجسمانية والنفسانية.

وما ورد في بعض الأخبار، أنهنَّ مطهّرات من الحيض والنفاس، إنّما هو بيان لبعض المصاديق.

---

١. سورة الزخرف: الآية ٧١.

قوله تعالىٰ: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

سياتي معنى الخلود في قوله تعالىٰ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾[1].

بحث دلالي:

ذكر سبحانه في هذه الآية الارتزاق الفردي أوّلاً، ثمّ أوكل معرفة ذلك الرزق إلى نفس المنتفعين منه ثانيّاً، في قوله تعالىٰ: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾، ثم ذكر الأزواج والاجتماع الجنسي ثالثاً، وإنّما أخّره عن الرزق، لتقدّمه على الاجتماع الجنسي تكويناً. وحصر موارد الارتزاق في الثمرات رابعاً، لجريان نظام التكوين عليها في النشأتين.

فهو سبحانه قد بيّن كما أنّ بقاء الإنسان في هذا العالم بالارتزاق، كذلك له دخلٌ في تلك النشأة أيضاً، ولكن لايعلم أنّه دخل بقائي-كما في هذا العالم- أو دخل تلذّذي، والبقاء مستند إلىٰ شيء آخر.

إلّا أن يقال: إنّه لا وجه لاستناد البقاء في الآخرة إلى الارتزاق، لأنّ الارتزاق من الثمرات في الدُّنيا، إنّما هو لأجل الحركة وتحلّل قوى الإنسان، وليس الأمر كذلك في الآخرة.

ولكن يمكن الجواب عنه: بأنّه لا وجه لنفي الحركة عن أهل الجنّة والنار، لأنّ بعض لوازم الجسم لاتتغيّر في جميع النشآت، والمفروض أنّ المعاد جسماني كما يأتي، وحينئذٍ يثبت التحلّل لهم، لأنّه من لوازم الحركة.

نعم، ليس لهم فضلات الجسم كالعرق والبول ونحوهما. بل ليس كلّ تغذية تكون لأجل التحلّل، كتغذية الجنين في الرحم.

---

١. سورة هود: الآية ١٠٨.

ثم إنّه تعالىٰ ذكر الجنّات بلفظ الجميع، ويُحتمل فيه وجهان:

الأوّل: أن يكون لكلّ واحد منهم جنّات.

الثاني: أن يكون لكلّ واحد منهم جنّة، فيصير المجموع جنّات.

وسياق الآيات والعنايه الإلٰهيّة تقتضي الأوّل، ويأتي التفصيل إن شاء الله تعالىٰ.

بحث روائي:

عن الصادق عليه السلام في قوله عزّوجلّ: **﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾**:

«الأزواج المطهّرة اللّاتي لايحضن ولا يُحدثن».

أقول: تقدّم أنّه من باب التطبيق.

كما أنّ ما ورد عن ابن عبّاس، أنّ قوله تعالىٰ: **﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾** إلى آخر الاية المباركة، نزل في علي عليه السلام، وحمزة، وجعفر، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، من باب التطبيق لا التخصيص، كما تقدّم منّا مكرراً.

***

الآية ٢٦ ـ ٢٧

﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

بعد أن فرغ سبحانه وتعالىٰ من ذكر بعض أحوال المؤمنين والكفّار والمنافقين، وبيان المثل للأخير، ذكر تعالى وجه ضرب المثل لنفسه، وبيان الحكمة في ضرب الأمثال، وأكّد ذلك اهتماماً منه تعالى للأمثال، لكونها أوقع في النفوس كما مرّ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾**.

الحياء: هو انقباض النفس عن الشيء وانزجارها عنه خوفاً من اللّوم، ويلازمه ترك ذلك الشيء، هذا في الإنسان.

وأمّا إذا أطلق عليه سبحانه، فالمراد به نفس الغاية وهي الترك.

فقوله تعالىٰ: **﴿لا يستحيي﴾**، أي لايترك ولا يدع، وكذا الكلام في جميع الصفات التي يلزم من إطلاقها عليه تبارك وتعالى النقص. فيكون استعماله في المعنى الحقيقي لكن بداعي الترك، ولا محذور من جعل الاختلاف في الداعي،

لا في ذات المعنى المستعمل فيه اللفظ.

ويفترق الحياء عن الخجل، بأنّ الثاني من عوارض الجسم الإنساني، بخلاف الأوّل فإنّه من صفات الروح، ولذا عدَّ الحياء من جنود العقل في جملة من الأخبار، وهناك فروق أُخرى مذكورة في علم الأخلاق.

والضرب: يستعمل في معان كثيرة. والمراد به هنا التوصيف والتبيين، فضرب الأمثال توصيفها وبيانها.

و(ما) للإبهام والتنكير، وما فوق البعوضة، هو ما دونها في الصغر والحقارة.

ويُقال: إنّ البعوضة أصغر الحيوانات، وحياتها في جوعها، فإذا شبعت ماتت، ولكن قد أثبت العلم الحديث أصغر منها.

والمعنىٰ: إنَّ الله تعالى لا يترك ولا يرى النقص من ضرب المثل بالبعوضة فما فوقها، وإنّما لا يستحيي عن ذلك، للأدلّة العقلية الدالّة علىٰ أنّ كلام الحكيم موافق للحكمة، سواء أكان كلامه في الشيء الجليل العظيم، أم الحقير اليسير، أم في ما هو خارج عن عالم الممكنات، وحيث إنّ القرآن نزل ليستفيد منه عامّة النّاس، فلابدّ وأن يقترن بالأمثال جرياً علىٰ طريقتهم لتأنس بها النفس، وتتمّ بها الحجّة عليهم. وقد تقدّم بعض الكلام في قوله تعالىٰ: **﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾**[1].

قوله تعالىٰ: **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾**:

هذا من باب ذكر العلّة والمعلول، مشعراً بالمدح والثناء، لأنّ علّة قولهم (إنّه الحقّ من ربّهم) إنّما هو إيمانهم الذي معهم، واعتقادهم بكلامه تعالىٰ، وأنّه

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧.

الحقّ من ربّهم، ولم يضرب الأمثال إلّا لحكمٍ ومصالح، فلا ينظرون إلى المثل والممثّل به في الصغر والكبر، والضعف والقوّة، بل ينظرون إلى الممثِّل (بالكسر) نظرة الحقّ والعظمة والجلال، وأنّ كلّ مثال صغيراً أو كبيراً هو مثال الحقّ في الحكمة والموعظة، فلا يمكن أن يكون صغيراً أو حقيراً، وإن كان الممثل به كذلك في بعض الجهات.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾:

لأنّهم نظروا إلى نفس الممثّل به، ولا يلتفتون إلى عظمة الممثل (بالكسر)، ولا إلى أهمّية ما مُثِّل لأجله، لجهلهم وعنادهم، فأعرضوا عن الحجّة، كما هو الحال في اختيارهم أصل الكفر والضلال.

قوله تعالىٰ: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾:

يصحّ أن تكون هذه الجملة مقولةً من الكفّار، تعييراً وتوبيخاً للمثال، كما يصحّ أن يكون من قول الله عزّوجلّ أجاب به عن سؤالهم.

وعلىٰ أيّ تقدير، فالسبب في هذا القول هم الكفّار، لأنّهم بإنكارهم للإيمان، وجهلهم للحقائق، حصل لهم الريب بكلّ ما أنزل الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾:

الفسق بمعنى الخروج، وتختلف مشتقّاته باختلاف موارد استعمالاته، وفسق الإنسان خروجه عن طاعة الله تعالى اعتقاداً، أو عملاً لكبيرة أو صغيرة، فهو يشمل الجميع بجامع الخروج عن الطاعة.

وعن بعض اللّغويين: أنّه لم يستعمل الفاسق وصفاً في كلام العرب، إلّا في القرآن الكريم. وفيه بحثٌ، هذا بحسب اللغة.

وأمّا في اصطلاخ الكتاب والسنة فيستعمل الفاسق في مقابل العادل.

والمعنىٰ: أنّ علّة إضلالهم هي الخروج عن طاعة الله تعالىٰ، وصولاً من مرتبة الاقتضاء إلى مرتبة الفعلية، بما يعرض على الإنسان، فيظهر منه الغيّ والضلال أو الحقّ والسداد، ومنه يظهر الوجه في التعبير بقوله تعالىٰ: ﴿يضلُّ﴾، ليبيّن أنّ ذلك أمرٌ مركوز فيهم، وراسخ في نفوسهم.

ثمّ إنّ هذه الآية تشتمل علىٰ أُمور:

الأوّل: إنّما قدّم سبحانه الضلالة على الهداية، مع تقدّم الثانية على الأُولى بكلّ جهات التقدّم، لأنّ سببها متقدّم، وهو اقتضاء ذاتهم، وكلّ من تقتضي ذاته شيئاً يبادر به بين الأنام، ويظهر أثره في الكلام، فجيء بالأمثال لإخراجهم من ظلمات الضلال، إلىٰ نور الهداية والإيمان.

الثاني: قد ذكر سبحانه لفظ الكثرة في الفريقين، مشعراً بأنّ المهتدين كالضالّين في الكثرة، مع أنّ الطائفة الأُولى هم الأقلّون عدداً. والوجه في ذلك أنّ القلّة والكثرة إضافية، فتصحّ الكثرة بالنسبة إلى ملاحظة شيء، والقلّة بالنسبة إلى شيءٍ آخر، فالمهتدون وإنْ قلّوا عدداً، لكنّهم أكثر نفعاً وأجلّ فائدة.

الثالث: أثبتت الآية المباركة، أنّ وراء الضلال والهداية الاقتضائية في الذات، هداية وضلالة تحدثان بحدوث ما يطرأ من الأسباب، وتتجدّدان بذلك، ولذا قالوا إنّ الضلال والهداية تتجدّدان بتجدّد الأسباب والزمان.

بحث كلامي:

هذه الآية الشريفة مفتتح آيات الكتاب العزيز في الجبر والتفويض، فلابدّ من البحث فيهما، ليمكن إرجاع سائر المواطن إليه.

فنقول ومن الله الاستعانة والاستمداد:

إنّ شبهة الجبر والتفويض لم تكن حادثة في الإسلام، وإنّما هي قديمة بقدم الإنسان، وترجع الى أوائل الخلقة، كما يظهر من مخاصمة إبليس مع الله تعالىٰ، فكلّ من يعتقد بمبدءٍ غيبي مؤثّر في العالم، يمكن أن تتولّد فيه هذه الشبهة، وقد قال علي عليه السلام: «عرفت الله بفسخ العزائم ونقض الهمم».

وفسخ العزيمة، إنّما وقع من عهد أبينا آدم عليه السلام، فأصل الشبهة من ذلك الحين، وإنّما تطوّرت بمرور الزمن، فدخلت آراء وشبهات أُخرى، وبلغت حدّاً بعيداً من البحث، حتّى أفردت لها كتب ورسائل.

وكيف كان، فالأفعال الاختيارية الصادرة من الإنسان، يحتمل فيها وجوه:

الأوّل: أنّها صادرة بإرادة الله تعالى واختياره فقط، وأنّ العبد بمنزلة الآلة الجمادية، وأنّ الإنسان وفعله مخلوقان لله تعالىٰ. وهذا هو الجبر.

الثاني: أنّها صادرة من العبد وباختياره فقط، ولا دخل فيها لله تبارك وتعالىٰ. وهذا هو التفويض.

الثالث: الأمر بين الأمرين، والمنزلة بين المنزلتين، فيكون لكلّ واحد منهما دخل بنحو الاقتضاء لا العلّية التامّة.

وهذا هو الحقّ الذي أسّسه الأئمّة الهداة عليهم السلام، ردّاً على المذهبين السابقين، فإنّ الأوّل منهما خلاف الأدلّة العقلية والنقلية بل الوجدان، والثاني يلزم منه التعطيل، كما ستعرف ذلك فيما سيأتي من التفصيل.

والبحث تارةً: يقع في الجبر والتفويض.

وأُخرىٰ: في الأمر بين الأمرين:

الجبر:

مذاهب الجبر ثلاثة:

منها: مذهب الأشاعرة، وهو نفي الإرادة عن العبد مطلقاً وانحصارها في

الله تعالىٰ ، وأنّ العبد بالنسبة إليه كالقلم في يد الكاتب، فيكون نسبة الفعل إلى الله بالحقيقة، وإلي العبد بالمجاز.

ومنها : ما ذهب إليه جمعٌ من القول بوحدة الوجود ، بل الوحدة المطلقة، فلا إثنينية بين الخالق والعبد، حتّىٰ تكون فيه الإرادة والاختيار.

وسيأتي بطلان القول بوحدة الوجود ، بل الوحدة المطلقة ، بل الالتزام بلوازمه يوجب الكفر.

ومنها : ما ذهب إليه بعضٌ من أنّ علم الله تعالى علّة تامّة لحصول معلوماته ، وفعلُ العبد معلومٌ له تعالىٰ، فلا أثر لاختيار العبد وإرادته في فعله أصلاً.

وقد استدلّ القائلون بأنّ الأفعال مخلوقة لله تعالىٰ، بالأدلّة العقلية والنقلية.

أمّا الأدلّة العقلية، فاستدلّوا بأُمور :

الأوّل : إنّ فعل العبد مقدور لله تعالىٰ ، لأنّه من جملة الممكنات التي هي منه تعالىٰ ، وحينئذٍ لو وقع بقدرة العبد وحده، لزم تعطيل قدرته تعالىٰ ، وإن وقع بقدرتهما معاً، لزم اجتماع قدرتين مؤثّرتين علىٰ مقدور واحد.

والجواب : أنّ ليس كلّ مقدور له تعالى هو من فعله المباشري ، فمجرّد كون فعل العبد مقدوراً له تعالىٰ، لايستلزم أن يكون من فعله أيضاً.

الثاني : إنّ جميع ما سواه مورد إرادته تعالى الأزلية الأبدية ،، وإنّ إرادته عين ذاته ، وهي العلّة التامّة لتحقّق المعلول ، فلا أثر لإرادة العبد في فعله.

والجواب : إنّ ذلك مبنيّ علىٰ جعل الإرادة من صفات الذات ، لكن الحقّ أنّها من صفات الفعل، فتكون حادثة بحدوثه ، بل إرادته عين فعله ، كما في الروايات. وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

الثالث : أنّ العلم الإلٰهي متعلّق بجميع ما سواه من الممكنات، ومنها أفعال العباد ، سواء منها في الدُّنيا أم في الآخرة، الذي لا انتهاء لأفعاله ، وعلمه سبب تامّ لحصول المعلوم .

والجـواب : إنّ العـلم مـن مـقدّمات حـصول الإرادة، المـتقدّمة عـلى الفعل، وليس سبباً تاماً لحصول المعلوم بوجه مـن الوجـوه ، بـل عـلمه تـعالىٰ تعلّق بأفعال العباد، من حيث أنّـها مـختارة، لا أن يـتعلّق العـلم بأحـد طـرفي الاختيار فقط .

ثمّ إنّ أسباب الفعل، هي :

العلم ، والمشيئة ، والإرادة ، والقدرة، والقضاء، والإمضاء ونحوها .

وهي جارية في كلّ فعل صادر من كلّ عالم قادر، سواء أكان هو الله تعالى أم العبد .

والفرق بين المشيئة والإرادة، بالكلّية والجزئيّة، وكلّ ذلك من المقتضيات وليست من العلّة التامَّة في شيء .

وهذه كلّها في العبد، تكون:

تارةً: التفاتية تفصيليّة .

وأُخرىٰ: علىٰ نحو الإجمال والارتكاز، وهو الغالب.

وسيأتي تفصيل هذا في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

أمّا الأدلّة النقلية: فقد استدلّوا بظواهر من الآيات المباركة، تؤيّد مذهبهم:

منها: قوله تعالىٰ : ﴿**وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[1] .

وقوله تعالىٰ : ﴿**فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾[2] .

---

١ . سورة الصافات : الآية ٩٦ .

٢ . سورة إبراهيم : الآية ٤ .

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[1].

وأمثال ذلك من الآيات.

ويناقش فيها بوجهين:

الأوّل: أنّها معارضة بآيات أُخرى، أكثر عدداً، وأصرح دلالة على اختيار الإنسان في أفعاله، كما ستعرف.

الثاني: أنّ سياق تلك الآيات والقرائن المحيطة بها، تدلّ على أنّ المراد منها غير ما ذهبوا إليه، فنفي الرمي عن النبيّ ﷺ في الآية السابقة مثلاً، إنّما هو بالنسبة إلى الأثر الخارق للعادة، لا بالنسبة إلى الفعل المباشري الصادر منه ﷺ.

وسيأتي في البحث الرواثي ما يفيد المقام.

ومجمل القول في الجبر ومذاهبه: أنّه لم يصادم العقل والنقل فقط، بل هو مستلزم لنفي الحسن والقبح العقلي المتّفق عليهما بين العقلاء، كما أنّه يلزم منه نفي الثواب والعقاب الثابتين في جميع الشرائع الإلٰهيّة، بل يلزم منه تجويز الظلم والجور على الله تعالىٰ، إلىٰ غير ذلك من المفاسد.

ولولا ظهور بعض كلمات القوم في التعميم، لأمكن حمل بعضها علىٰ ما لا دخل للاختيار فيه ـ كالعزّة والذلّة، والغنى والفقر. ولأمكن حمل الجبر في قولهم على الجبر الاقتضائي، يعني أنّ مقتضى الإرادة القاهرة الأزلية الإلٰهيّة، أن تكون في البين إرادة غيرها، ولكنّه تبارك وتعالىٰ جعل للإنسان بل لمطلق الحيوان إرادة في الجملة لمصالح كثيرة، فالجبر الاقتضائي لا ينافي الاختيار الفعلي من العبد.

---

١. سورة الأنفال: الآية ١٧.

التفويض:

قد عرفت أنّ المراد من التفويض المنسوب إلى المعتزلة، هو كون الأفعال مختارة باختيار العباد، بلا دخل لاختياره تعالىٰ، وأنّها تنسب إلى العباد بالحقيقة، وإلى الله تعالى بالمجاز، وأنّه لا تكون أفعال العباد مورد إرادة الله تعالىٰ.

واستدلّوا علىٰ ذلك: بأنّه إذا لم يكن الإنسان موجداً لأفعاله، لا يصحّ تكليف العباد، ولا المدح والذم، ولبطل الثواب والعقاب، وللزم منه الجبر، مع أنّه لا يصحّ أن تكون السيّئات والأفعال القبيحة مورداً لإرادته تعالىٰ.

والجواب عن ذلك: يظهر من بيان الأمر بين الأمرين.

وقد احتجّوا ببعض الآيات الكريمة:

فإنّ قسماً منها: تدلّ علىٰ كون الإنسان هو الفاعل لأعماله، كقوله تعالىٰ: **﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾**[1].

وقسماً منها: تدلّ علىٰ أنّ المطيع يُثاب علىٰ أعماله الحسنة، والمسيء يُعاقب بمعاصيه، قال تعالىٰ: **﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾**[2].

وقوله تعالىٰ: **﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾**[3].

وقوله تعالىٰ: **﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾**[4].

وقسماً منها: تدلّ علىٰ أنّه مختار في أفعاله، قال تعالىٰ: **﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ**

---

١. سورة الطور: الآية ٢١.

٢. سورة غافر: الآية ١٧.

٣. سورة الجاثية: الآية ٢٨.

٤. سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

﴿وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾(١).

وقسماً منها: تدلّ على اعتراف الإنسان بصدور المعاصي منه في الآخرة، قال تعالىٰ: **﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾**(٢).

إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالّة منطوقاً أو مفهوماً، علىٰ أنّ الإنسان خالق لأفعاله، وأنّه المسؤول عنها.

والجواب عن ذلك: أنّ أقصى ما يستفاد منها، أنّ الإنسان هو الفاعل، وعنه تصدر جميع أعماله، وأمّا أنّه ليس لإرادته تعالى وقدره وقضائه دخلٌ فيها، فلا يستفاد منها، فهي من هذه الجهة معارضة بالآيات الدالّة علىٰ أنّها من الله عزّوجلّ:

قال تعالىٰ: **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾**(٣).

والآيات الدالّة علىٰ طلب الاستعانة منه تعالىٰ، نحو قوله تعالىٰ: **﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**(٤).

ولما ورد عن المعصومين عليهم السلام من قول: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله».

فإنّ الجميع ظاهر في حصّة نسبة أعمال العباد إلى الله تعالىٰ، إمّا بنحو القضاء كما في السيّئات، أو هو والرضاء معاً. كما في الحسنات. وقضاؤه ورضاه ليسا من العلّة التامّة.

---

١. سورة الكهف: الآية ٢٩.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٢٢.

٣. سورة النساء: الآية ٧٨.

٤. سورة الحمد: الآية ٤.

وبالجملة : إنّ الآيات والروايات لايمكن أن يستفاد منها التفويض الكلّي للعباد المقابل للجبر .

ويمكن حمل كلامهم على التفويض الاقتضائي، بأن يقال :

إنّ نهاية استغنائه تعالىٰ عن خلقه، يقتضي إيكال الإرادة إلى العباد، بعد بيان طريق الحقّ والباطل ، وإتمام الحجّة عليهم ، ولكنّه لم يفعل لمصالح كثيرة، بل جعل إرادته مسيطرة علىٰ إرادة عباده، لا علىٰ نحو يلزم منه الجبر ، وهذا هو ما يظهر من بيان الأمر بين الأمرين ، كما سيأتي .

الأمر بين الأمرين :

ممّا تفرّدت به الإمامية عن سائر الفرق، القول بالأمر بين الأمرين، والمنزلة بين المنزلتين، فقد ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام أنّه: «**لا جبر ولاتفويض ، بل أمرٌ بين أمرين**» ، وهو الحقّ المطابق للوجدان والبرهان .

والمراد بـ(الأمر بين الأمرين)، أنّ الله تبارك وتعالى أودع القدرة في عباده وبها ـ بعد وجود الدواعي ـ يصدر الفعل من الفاعل ، وينسب الفعل إليه مباشرة ، فهو غير مجبور ، لتعلّق قدرته بطرفي الفعل معاً . هذا هو المعنى المستفاد من الأخبار الواردة في الأمر بين الأمرين ، ولابدّ من توضيح ذلك بشيء من التفصيل .

بيان ذلك : إنّ أفعال العباد منحصرة في ثلاثة أقسام :

فهي إمّا من الحسنات ، أو من السيّئات ، أو من المباحات .

ولا ريب في أنّ الأمر بين الأمرين متقوّمٌ بالانتساب إليه تعالى وإلى العباد ، انتساباً يحكم بصحّته العقلاء ، ومن رضائه تعالىٰ بالحسنات، وترغيبه إليها، والتأكيد في إتيانها ، والثواب عليها، أو العقاب على الترك في بعضها، يصحّ

الانتساب إليه تعالىٰ، ويسمّىٰ ذلك بالانتساب الاقتضائي، لا يبلغ حدّ الإلجاء والاضطرار. ومن إذنه تعالى في المباحات وترخيصه لها، صحّ انتسابه إليه تعالى اقتضاءً، كما هو الحال في الحسنات، فتحقّق بالنسبة إلى الحسنات والمباحات رضاؤه وقضاؤه تعالى إليها.

ومن خلقه تعالى للنفس الأمّارة والشيطان، صحّ نسبة السيّئات إليه تعالىٰ، لا بمعنى رضائه بها وترغيبه إليها، فيصحّ نسبة الخلق التسبيبي إليه تعالى في السيّئات، ويجري هذا الوجه في الحسنات والمباحات، فإنّ هذه النسبة توجد في الجميع.

وأمّا نسبة الفعل إلى الفاعل، فإنّ الله تعالى خلق الذات المختارة القادرة على السيّئات مثلاً، مع نهيه تعالى وإظهار سخطه وتوعيده عليها، وقد فعلها العبد بسوء اختياره، فينسب إليه الفعل مباشرة، كما أنّ منشأ النسبة إليه تعالى أنّه خلق الذات القادرة المختارة، مع إبلاغ النهي والتوعيد، وقد علم بها وقضاها علىٰ نحو الاقتضاء، لا قضاء الحتم، ولا منقصة في هذا القسم من النسبة أبداً، ولعلّ هذا أحد معاني قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾**[1].

وبعبارة أُخرىٰ: إنّ في الحسنات والمباحات تتعدّد جهة الانتساب إليه تعالى من الرضاء والقضاء، والإذن والترغيب، أو خلق الذات القادرة المختارة، وفي السيّئات منحصرة بخصوص الأخيرة، والقضاء الاقتضائي مع النهي والتوعيد، كلّ ذلك موافقٌ لقانون العقل والعدل. ومن ذلك يعلم أنّ الهداية والضلالة، بل السعادة والشقاوة ليستا من ذاتيّات العبد، بحيث لا اختيار له فيها، ولا من لوازم الذات كلزوم الزوجية للأربعة، وإلّا لما كانت قابلة للتغيير والتبديل،

---

١. سورة النساء: الآية ٧٨.

ولبطل التكليف والثواب والعقاب، ونحو ذلك من المحاذير، بل هو من قبيل الأعراض الخارجية القابلة للزوال والتغيير، والتي للاختيار فيها دخلٌ مع توفيق وهداية منه تبارك وتعالىٰ.

وممّا ذكرناه يجاب عن شبهات القوم، ويرفع التعارض بين الآيات والروايات.

ولعلماء الإماميّة في تفسير الأمر بين الأمرين وجوه أُخرى، لا تخلو بعضها من المناقشة فراجع، وسيأتي في البحث الآتي المختصّ بالمقام مزيد بيان.

بحث روائي:

عن الباقر والصادق عليهما السلام قالا:

«إنّ الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب، ثمّ يعذّبهم عليها، والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون».

وسُئلا عليهما السلام: «هل بين الجبر والقدر منزلة ثالثة؟

قالا: نعم، أوسع ممّا بين السماء والأرض».

وعن الوشّاء، قال: سألت الرضا عليه السلام: «الله فوّض الأمر إلى العباد؟

قال عليه السلام: الله أعزّ من ذلك.

قلت: فجبرهم على المعاصي؟

قال: الله أعدل وأحكم من ذلك.

ثمّ قال عليه السلام: قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم أنا أولىٰ بحسناتك منك، وأنت أولىٰ بسيّئاتك منّي، عملت المعاصي بقوّتي التي جعلتها فيك».

أقول: هذه الجملة الأخيرة صريحة في ما ذكرناه آنفاً.

وعن الصادق عليه السلام: «قال له رجلٌ: جُعلت فداك، أجبر الله تعالى العباد على المعاصي؟

قال عليه السلام: الله أعدل من أن يجبرهم على المعاصي، ثمّ يعذّبهم عليها.

فقال له: جُعلت فداك، ففوّض الله إلى العباد؟

قال عليه السلام: لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي.

فقال له: جعلت فداك، فبينهما منزلة؟

قال: نعم، أوسع ما بين السماء والأرض».

أقول: (لم يحصرهم) أي لم يوقعهم في حصر التكليف، فيكون نفس تصوّر التكليف بما هو، وبيان الجزاء عليه كافياً في نفي الجبر والتفويض وإثبات الأمر بين الأمرين. وهذه عادتهم عليهم السلام في إثبات هذا المدّعى بأدلّة التكليف والجزاء.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام القائل في جواب مَن سأله عن التوحيد والعدل: «التوحيد أن لاتتوهّمه، والعدل أن لاتتّهمه. فالقائل بأنّه خالق للأفعال فقد اتّهمه بالظلم، والقائل بأنّه يكلّف العباد ما لايطيقون فقد نسب إليه القبيح، والقائل بأنّه لايقدر على أعمال عباده، وأنّ كلّ أعمالهم بإرادتهم، ولا شأن له فيها، قد اتّهمه بالعجز».

أقول: الأوّل عبارة عن الجبر، والثاني من لوازم التفويض، وترتّب اللازمين عليهما واضح.

وعن الرضا عليه السلام: «ألا أعطيكم في ذلك أصلاً لا تختلفون فيه، ولاتخاصمون عليه أحداً إلّا كسرتموه؟

إنّ الله عزّوجلّ لم يطع باكراه، ولم يعص بغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، فهو المالك لما ملكهم، والقادر علىٰ ما أقدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعته، لم يكن عنها صادراً، لا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحُول بينهم وبين ذلك فعل، وإن لم يحل وفعلوا، فليس هو الذي أدخلهم فيه».

أقول : المراد أنّ إرادة الصرف عن مراد العبد من الله تعالى هو محسوسٌ لكلّ أحد ، فكم من مريدٍ لشيء يصرف عن إرادته، وكم غير مريد يصادفه ما يشتهيه، وهذه هي المنزلة بين المنزلتين .

وعن الصادق عليه السلام : «لا جبر ولا تفويض، ولكن أمرٌ بين الأمرين» .

أقول : تقدّم ما يتعلّق بكلّ واحد منها .

وعن الرضا عليه السلام : «القائل بالجبر كافر ، والقائل بالتفويض مشرك ، والمراد من الأمر بين الأمرين، هو وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا ، وترك ما نهوا عنه ، والإرادة والمشيئة من الله تعالى في ذلك بالنسبة إلى الطاعات، الأمر بها، والرضا لها ، وبالنسبة إلى المعاصي النهي عنها ، والسخط لها والخذلان عليها ، وما من فعل يفعله العباد من خير ، أو شرّ إلّا ولله فيه قضاء ، والقضاء هو الحكم عليهم بما يستحقّونه من الثواب والعقاب، في الدُّنيا والآخرة» .

أقول : أمّا أنّ القائل بالجبر كافر، فلأنّه نسب إلى الله تعالى الظلم ، ومع ذلك يعاقب العبد عليه .

وأمّا أنّ القائل بالتفويض مشرك، فلأنّه أثبت إرادة مستقلّة في مقابل إرادة الله تعالىٰ .

وأمّا ما ذكره عليه السلام في تفسير المنزلة بين المنزلتين، فهو من باب المثال ، وإلّا فهو عامّ لجميع الأفعال .

قوله تعالىٰ : ﴿**الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ**﴾:

النقض هو الفت والفكّ والفسخ ، ولا يستعمل غالباً إلّا فيما فيه القوّة واستعداد البقاء ، قال تعالىٰ : ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ**﴾[١] .

---

١ . سورة النحل : الآية ٩٢ .

ويتعلّق بالميثاق أيضاً، لأجل كونه محكماً يعسر نقضه، قال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ﴾[١].

والعـهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، وهذه المادّة في أيّة هيئة استعملت تفيد الالتزام، والثبات، والعزيمة.

والمراد بالميثاق: ما يوثق به الشيء، كالميقات لما يتحقّق به الوقت، ويجوز أن يُضاف الميثاق إلى الله تعالىٰ، إذ لا يتصوّر عهد أوثق ممّا عاهد به الله تعالى عباده، كما يجوز أن يضاف إلى العباد، وهم الذين قبلوا عهد الله تعالى ظاهراً ثم نقضوه، فيكون المراد من بعدما أوثقوه. ويصحّ الحمل على العموم الشامل لجميع ذلك.

والمعنىٰ: إنّه لمّا وصف الضالّين بالفسق، أراد سبحانه وتعالىٰ بيان حال هؤلاء الفاسقين الضالّين، فذكر لهم أوصافاً ثلاثة هي:

نقض العهد، وقطع ما يجب أن يوصل، والإفساد في الأرض.

والمراد بالعهد ما عاهد تعالىٰ به علىٰ أنبيائه من المعارف والشرائع، الراجعة إلى تربية العباد، وهو من أعظم العهود الموثقة من قبله تعالى بالحجج والبراهين.

ويصحّ أن يرأد به الأعمّ من ذلك، ومن العهد الفطري الموثق بالعقل، الذي هو أعظم حجج الله تعالىٰ، فالمراد بنقض العهد عدم الوفاء به قولاً، أو عملاً، أو اعتقاداً كما هو وجداني.

قوله تعالىٰ: **﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾**:

صلة كلّ شيء بحسبه. والمراد بالأمر، الأعمّ من التكويني والتشريعي.

---

١. سورة المائدة: الآية ١٣.

فصلة العقيدة بالله ورسله، جَعْلها راسخة في النفس.

وصلة الأحكام الإلٰهيّة التكليفيّة، العمل بها والمواظبة علىٰ إتيانها.

وصلة النبيّ الأعظم ﷺ هو الاهتداء بهديه، والعمل بما جاء به من ربِّه.

وصلة الرحم التآلف والتودّد معه، وكذلك صلة المؤمنين بعضهم مع بعض.

وصلة الأُمور التكوينيّة معرفة منافعها ومضارها، ونتائجها المترتّبة عليها.

وتشمل الآية الشريفة جميع ذلك والتفرقة ـ ولو في الجملة ـ نقضٌ لعهد الله تعالى وميثاقه، وقطع للصلة، فمن أنكر الله أو صفاته، فقد قطع ما أمر به أن يوصل، ومن أنكر النبوّة وما جاء به الأنبياء، فقد قطع ما أمر به أن يوصل من هذه الجهة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾:

الفساد خلاف الصلاح، وهو أعمّ من الفردي والاجتماعي، وذكر الأرض قرينة للحمل على الأخير. والإفساد في الأرض هو إضلال الناس، مثل الظلم، والغيبة.

وسياتي بيان ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

نتيجة واضحة للمقدّمات المذكورة، فإنّ من اتّصف بهذه الصفات، فقد استحقّ الخزي في الدُّنيا، وعذاب الآخرة، وهذا هو الخسران المبين، إذ لا معنى لنقض العهد، أو قطع ما أمر الله به أن يوصل، أو الفساد إلّا الخسران المبين.

بحث روائي:

عن ابن عبّاس: «لمّا ضرب الله سبحانه هذين المثلين للمنافقين، يعني

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ وقوله تعالىٰ: **﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾**، قالوا: إنّ الله أجلّ وأعلىٰ من أن يضرب الأمثال. فأنزل الله تعالى هذه الآية».

وفي رواية أُخرىٰ عنه أيضاً: «إنّه لما ذكر الله تعالى آلهة المشركين، فقال: **﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنقِذُوهُ﴾**[1]، وذكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت.

قالوا: أرأيت حيثُ ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن علىٰ محمّد أي شيء يصنع؟

وضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله؟ فأنزل الله هذه الآية».

أقول: قد تقدّم أنّ ذلك من باب التطبيق.

***

١. سورة الحجّ: الآية ٧٣.

الآية ٢٨ ـ ٢٩

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩) ﴾.

ذكر سبحانه وتعالىٰ في هاتين الآيتين حال الإنسان من مبدأ خلقه إلى ما يؤول إليه أمره، وأنّ جميع ما في الأرض مخلوق لأجله، ومُعدٌّ له ليتمتّع بما فيها، وإنّما قدم التوبيخ والملامة على التفضّل والعناية، لبيان أنّ كلّ ما يكون للإنسان من المراتب والأطوار، إنّما هو من تفضّله تعالىٰ، لا من اقتضاء ذاته، ثم عقّب ذلك خلق السماوات ليذكرنا تمام قدرته وحكمته. وربط هاتين الآيتين بالآيات السابقة ظاهر.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾:

تعيير وتوبيخ؛ يعني أنّه لاينبغي لكم أن تكفروا بالله، والحال أنّ موتكم وحياتكم تحت قدرته وإرادته. وإنّما ذكرهما، لأنّهما من الوجدانيّات، وإنكار خالقهما يرجع إلى إنكار الوجدان، والجمع بين النقيضين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ﴾.

ذكر المفسِّرون في الموت والحياة أقوالاً:

منها: أنّ المراد بالموت هنا العدم السابق على الوجود، أي كنتم معدومين فأوجدكم، وظاهر القرآن ينفي هذا الاحتمال.

ومنها: عدم الحياة عما من شأنه الحياة، كالنطفة، والعلقة، والمضغة، ونحوها من الأطوار التي تعرض على الإنسان في بدء خلقه، حتّىٰ يصير خلقاً جديداً.

ومنها: أنّ المراد بها الموت الحكمي، لا الحقيقي، إذ الإنسان حين ولادته لا اسم له، ولا شهرة له عند النّاس، ثم يصير مشهوراً عندهم.

ولم يأت كلّ منهم في ما ذكروه بدليل يدلّ عليه.

والأولى الحمل على الجميع، فإنّ للحياة بمراتبها المختلفة من النباتيّة والحيوانيّة والإنسانيّة، جامعاً قريباً وهو الحركة والحس، وللموت أيضاً بمراتبه الكثيرة جامعاً قريباً، وهو الوقف والسكون، والله تعالى هو القادر علىٰ إيجاد أصلهما، وسائر جهاتهما وخصوصياتهما، فإنّ الإنسان من بدء خلقه إلى نشوره ووقوفه بين يدي ربّ العالمين، وفي جميع أطواره وحالاته، بل جميع شؤونه وتبدّلاته، مورد علمه وقدرته وإرادته، وهذا هو معنى الربوبية العظمى التي أشرنا إليها في قوله تعالىٰ: ﴿**ربِّ العَالَمِينَ**﴾[1]، وإذا كان هذا شأنه معكم، وكان لكم التفاتٌ إلى هذه الجهة ولو إجمالاً، كيف تكفرون بالله؟!

فتكون هذه الآية الشريفة مثل قوله تعالىٰ: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلهِ أَندَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[2].

قوله تعالىٰ: ﴿**ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾:

---

١. سورة الحمد: الآية ١.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٢.

أي يميتكم بقبض الأرواح حين انقضاء الآجال، ثمّ يحييكم حياة ثانية ثم إليه ترجعون لأخذ جزاء أعمالكم، هذا بحسب كلّيات الموت والحياة والرجوع إليه تعالىٰ.

وأمّا بحسب الخصوصيّات ـ كالزمان الفاصل بينهما ـ فلا يعلمها إلّا الله تعالىٰ.

والفرق بين الحياة الأُولىٰ والحياة الثانية، بعد اتّحاد المبدأ والمرجع فيهما، وعدم الفرق بينهما من هذه الجهة:

أنّ الحياة الأُولىٰ مؤقتة، والثانية أبدية دائميّة، وأنّ التبدّل في الصورة، فالأعمال في الدُّنيا ـ خيراً كانت أو شرّاً ـ عرض قائم بالغير، وفي الآخرة جوهرٌ قائم بالذات، فالعامل والعمل فيهما واحد، والاختلاف إنّما هو في صورة العمل. وأنّ الحياة الأُخرى أكمل من الأولى للإنسان إن عمل صالحاً في الدُّنيا، وأدون إن كان شرّاً.

وستأتي تتمّة الكلام في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وبعد أن بيّن سبحانه بعض آياته في الأنفس، فتفضّل على الإنسان بنعمة الإيجاد، ثمّ بنعمة الموت، ثمّ الحياة، ثمّ الرجوع إليه، ليصل كلّ واحد إلى ما أعدّه لنفسه من الأعمال، ذكر سبحانه بعض نعمه في الآفاق.

قوله تعالىٰ: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**﴾:

بيان لما مرّ من قوله تعالىٰ: ﴿**جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً**﴾[1]؛ لأنّ من لوازم جعل الأرض فراشاً للإنسان، أن يكون جميع ما في الفراش مهيّئاً للانتفاع به، وكذا قوله تعالىٰ: ﴿**سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ**﴾[2].

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٤.

٢. سورة الحجّ: الآية ٦٥.

والخلق بمعنى التقدير المستقيم، ويستعمل في الإبداع أيضاً، كقوله تعالىٰ: ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١]، بقرينة قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[٢].

وفي إيجاد شيءٍ من شيء، كقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾[٣].

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[٤].

وجميع هذه الاستعمالات من المشترك المعنوي، لوجود الجامع القريب فيها، وهو التقدير المستقيم.

والمراد بالخلق هنا التقدير أي قدَّر الله تعالى أن يكون ما في الأرض لأجل انتفاع الإنسان، والتقدير مقدّم عن الإيجاد، وكل موجود مقدّر، وليس كلّ مقدر موجوداً، لجريان البداء في مرتبة التقدير والقضاء، كما يأتي.

وخَلَق ما في الأرض، إمّا لأجل الانتفاع به انتفاعاً ماديّاً صحيحاً بكلّ وجه يتصوّر، أو عقليّاً كالنظر والاعتبار، كما قال علي عليه السلام:

«خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتعتبروا به، وتتوصلوا به الى رضوانه، وتتوقّوا به من عذاب نيرانه».

ثمّ إنّه يستفاد من هذه الآية المباركة، وغيرها من الآيات، كثرة عناية الله تعالى بالإنسان، وقد افتخر به علىٰ سائر خلقه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[٥]، بل جعله غاية خلق الموجودات، وجعل الطبيعة مسخّرة

---

١. سورة الفرقان: الآية ٥٩.

٢. سورة البقرة، الآية: ١١٧.

٣. سورة النحل: الآية ٤.

٤. سورة العلق: الآية ٢.

٥. سورة المؤمنون: الآية ١٤.

بين يديه، وأفاض عليه من علومها وأسرارها لأن ينتفع بها، ويستفاد من جميع ما يمكن الاستفادة منه.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾:

مادّة (س وى) تدلّ على المساواة والمعادلة، وتختلف الخصوصيّات باختلاف الاستعمالات:

فإذا عُدِّيت بـ(علىٰ) أفادت معنى الاستيلاء عن عدلٍ وحكمةٍ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[١] أي استيلاء علم وحكمة وتدبير وإتقان، فيكون ما سواه من صنع الله الذي أتقن كل شيء.

وإذا عدِّيت بـ(إلى) اقتضى القصد والشروع، والأخذ المشتمل علىٰ أتمِّ أنحاء التدبير، قال عليّ عليه السلام: «أخذ في خلقها وإتقانها».

وقد استعملت هذه المادّة بهيئاتها المختلفة في القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾[٣].

والخلق أعمّ من التسوية.

والمعنىٰ: أنّه قصد خلق السماء، وأراد ذلك بأتمّ أنحاء التدبير، وأحسن جهات التنظيم، فجعلهنَّ سبع سماوات متقنات.

وسيأتي بيان عدد السبع في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ خلق الأرض قبل خلق السماء. ولكن عرفت أنّ الخلق غير التسوية، فإنّ في الأرض جهات كثيرة، وفي السماء أيضاً كذلك،

---

١. سورة طه: الآية ٥.

٢. سورة الأعلىٰ: الآية ٢.

٣. سورة ص: الآية ٧٢.

فكلّ منهما من الأمور الإضافية، ويصير خلق تلك الجهات أيضاً كذلك. وحينئذٍ لا منافاة بين ذلك، وقوله تعالىٰ: **﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا* رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا* وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾**[١]، فإنّ خلق السماء في هذه الآية المباركة مقدَّم من حيث الاستواء والإتمام. وخلق الأرض مؤخّر من حيث فعلية نظمها، وجري أنهارها ودحوها ونحو ذلك.

وفي الآية السابقة أنّ خلق الأرض مقدّم من حيث أصل التقدير، فلا تضادّ بينهما.

قوله تعالىٰ: **﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾**:

الشيء من ألفاظ العموم، بل لا أعمّ منه.

وعن بعض اللّغويين: إنّ لفظ عليم للمبالغة، وليس لمجرّد الوصف الثابت. وقد عُدِّي بلفظ (باء)، مع أنّه متعدٍّ بنفسه، لقوله تعالىٰ: **﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾**[٢]، لإظهار الزيادة في العلم والمعلوم.

وفي القرآن آيات كثيرة دالّة علىٰ إحاطته بما سواه علماً وقدرة، ومن سائر الجهات، ولعلّ أبلغ هذه التعبيرات بالنسبة إلى المخاطبين، قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً﴾**[٣]، إذ الشهود والعيان أخصّ عندهم من العلم، وإن كان لافرق بينهما بالنسبة إليه تعالىٰ.

بحث فقهي:

استدلّ الفقهاء بقوله تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾**

---

١. سورة النازعات: الآية ٢٧ ـ ٣١.

٢. سورة الممتحنة: الآية ١٠.

٣. سورة النساء: الآية ٣٣.

لإثبات الإباحة المطلقة في جميع الأشياء، إلّا ما دلّ دليل بالخصوص علىٰ تحريمه، وتمسّكوا بغيرها من الآيات المباركة أيضاً علىٰ ما سيأتي، وبالروايات، بل والعقل، وبيّنوا في علم الأُصول ما يتعلّق بذلك.

بحث روائي:

عن علي عليه السلام: «في قول الله عزّ وجلّ: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾**، الآية.

قال: هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً لتعتبروا به، ولتتوصّلوا به إلى رضوانه، وتتوقّوا به من عذاب نيرانه. ثمّ استوى إلى السماء، أخذ في خلقها إتقانها فسواهنّ سبع سماوات، وهو بكلّ شيء عليم، ولعلمه بكلّ شيء علم المصالح، فخلق وشرع ما في الأرض لمصالحكم يابني آدم».

أقول: ما ورد في هذا الحديث في مقام بيان غاية الخلق، وهو المنساق من جملة من الآيات القرآنية علىٰ ما تقدّم.

وعن أبي جعفر عليه السلام: «خُلق الأرض قبل السماء».

أقول: تقدّم إجمال بيانه، ويأتي التفصيل في الآيات المناسبة، إن شاء الله تعالىٰ.

***

الآية ٣٠

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

شروع في بيان قصة خلق آدم، والغاية من خلقه وعصيانه، وهبوطه إلى الأرض، وقد تكرّرت هذه القصّة في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، بل وردت في جميع الكتب السماوية، فتظهر أهمّيتها لما فيها من الحِكَم والأسرار، واعتنائه تبارك وتعالىٰ بالإنسان، الذي يمتاز عن غيره من المخلوقات؛ لأنّه المستعدّ لبلوغ أقصى درجات الكمال، ولذلك كان جديراً بالخلافة.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾:

المراد بالقول هنا الإلقاء في النفي، سواء أكان بسبب من الأسباب الظاهرية، أم الخفيّة. وليس المراد من القول المنسوب إليه تعالىٰ في جميع القرآن، هو المعنى المعروف، أي الحركات المعتمدة علىٰ محارج الحروف، وسيأتي شرح ذلك في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

والملائكة: قيل من ألك وهي الرسالة، إمّا لأنّ جميعهم رسل الله إلى ما يرسلهم إليه من تدبير الأمور، أو تغليباً لاسم عظمائهم وساداتهم ـ وهم جبرائيل

وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل ـ عليهم ، ولا بأس به لفرض تسخير البقيّة تحت إراده العظماء منهم بأمره تعالىٰ .

ولا ريب في وجود الملائكة، وقد تكرّر ذكرهم في القرآن الكريم، وسائر الكتب السماوية، مع شيءٍ من بيان أعمالهم ، وفي الروايات الواردة عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الهُداة عليهم السلام شرح لبعض خصائصهم وأحوالهم .

وقد استدلّ الحكماء والفلاسفة بأدلّة عقلية علىٰ وجود الملائكة، منها قاعدة (إمكان الأشرف) المذكورة في الكتب الفلسفية ، ويُغنينا عن ذلك ظهورهم لأنبياء الله عليهم السلام ، لاسيما أُولي العزم منهم؛ وظهور جبرائيل في صورة دحية الكلبي مروي في كتب الفريقين .

وأمّا الخلاف في أنّهم ذوات مجرّدة، تظهر بأشكال مختلفة، كما عليه الفلاسفة ، أو أجسام لطيفة كذلك، كما عن غيرهم ، فلا ثمرة في ذلك والنزاع بينهم لفظيّ .

والملائكة مختلفون في الأشكال والهيئات ، وهم علىٰ طوائف متعدِّدة مختلفة محدودة، قال تعالىٰ : ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[2] .

ويدلّ علىٰ ذلك بعض الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام .

وهم يتكاثرون بواسطة بعض الأعمال الصالحة الصادرة من العباد ، كما هو مذكور في كتب الأحاديث ، ومن قطرات النهر المكنون تحت العرش، كما في بعض الروايات علىٰ ما يأتي .

ثمّ إنّه يستفاد من قوله تعالىٰ : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ أمران :

---

١ . سورة الأنبياء : الآية ٢٠ .

٢ . سورة الصافات : الآية ١٦٥ ـ ١٦٦ .

الأوّل: إنّما وجّه الخطاب إلى النبيّ الأعظم ﷺ، ليُعلم الناس أنّ الغرض الأصلي من خلق آدم إنّما هو سيّد الأنبياء والرسالة التي جاء بها، وذلك لأنّ العلّة الغائية مقدمة في العلم، وإن كانت متأخِّرة في الخارج، كما ثبت بالأدلّة العقليّة، ويدلّ عليه بعض الأدلّة النقلية، فأصل الدعوة هي دعوته ﷺ، وإن تعدّدت الدُّعاة إليها، وتفرّقوا في سلسلة الزمان، ويأتي شرح ذلك عند قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾**[1].

وفيه تسلية له ﷺ بما رأى من الحوادث الواردة علىٰ أبيه آدم، ليصبر علىٰ ما يراه من كيد المشركين.

الثاني: إنّما قال سبحانه ذلك للملائكة، ثمّ بيّنه للناس لجهات:

منها: إظهار فضل آدم للملائكة، وتعريفه لهم، وإعلامهم بمقامه بأنّ له الخلافة في الأرض.

ومنها: إظهار ما هو المكنون في نفوس الملائكة علىٰ أنفسهم، ليعترفوا بذلك بالعجز والقصور.

ومنها: الإعلام بأنّ صنع هذا المخلوق الجديد كان بمباشرته عزَّوجلَّ، بلا مداخلة أحد غيره فيه.

ومنها: بيان أن ليس للإنسان معرفة حقائق الأشياء، وأسرار الخليقة وحكمها، فإنّ الملائكة مع رفعة شأنهم، قد عجزوا عن ذلك.

ومنها: أنّ هذه المحاورة كانت تلطّفاً منه عزَّوجلَّ، وجبراً لما انكسر من نفوسهم، حيث صنع الله الخليفة من الطين الذي هو دونهم بمراتب.

ومنها: إرشاد النّاس إلى المشاورة بينهم في أُمورهم، وأنّ المشاورة لاتنقص الفرد، وإن عظم شأنه، كما قال تعالى مخاطباً لنبيّه ﷺ: **﴿وَشَاوِرْهُمْ**

---

١. سورة المائدة: الآية ٤٨.

فِي الْأَمْرِ﴾[١].

كما أنّه أعلمنا بأنّه قد رضي لخلقه أن يسألوه عمّا خفي عنهم.

قوله تعالىٰ: **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**:

الجعل هو الفعل والإحداث.

والخلافة: هي النيابة عن الغير إمّا لقصوره، أو زواله، أو للتشريف والتشريع والإبلاع، وخلافة أنبياء الله تعالىٰ وحججه من القسم الأخير.

وللعلماء في جعل الخلافة في الأرض قولان:

الأوّل: إنّ الله تعالى جعل آدم خليفة عن نوع آخر كان في الأرض، ذهب الله تعالى بهم بعد أن أفسدوا، وسفكوا الدماء، واستدلّوا بقوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾**[٢]، ومن سؤال الملائكة قياساً علىٰ ما مضى.

الثاني: إنّ الله جعل آدم خليفته في الأرض، كما يشهد له قوله تعالىٰ: **﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾**[٣].

والحقّ أن يقال: إنّ المستخلف عنه في المقام، الأعمّ ممّا ذكروه، فإنّ الإنسان فيه جهتان: جهة البدن والجسم، وجهة الروح، وهو مزيجٌ منهما، فقد تعلّق جعله تعالى بآدم من جهتين:

الجسمانية: حيث باشر تعالى بنفسه في خلقه، ونفخ فيه من روحه، فيكون من هذه الجهه خليفة عن غيره تكويناً.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢. سورة يونس: الآية ١٤.

٣. سورة ص: الآية ٢٦.

وأمّا الجهة المعنوية: فقد تعلّقت الإرادة الإلٰهيّة بجعله خليفة، كما تعلّقت بجعل دواد خليفة في الأرض، ويشهد لذلك ما استفاض عن الأئمّة الهداة عليهم السلام: «إنّ أوّل مخلوق علىٰ وجه الأرض هو الحجّة، وآخر من يموت هو الحجّة».

فتكون الخلافة لآدم عليه السلام من حيث نبوّته، وكونه حجّة الله خلافة شخصية، ومن حيث كونه آدم أبا البشر نوعية، كما يدلّ عليه قوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾** إذ لكلّ طبقة لاحقة، خلافة تكوينية بالنسبة إلى الطبقة السابقة، في دار الكون والفساد، فتكون الخلافتان متلازمتان.

قوله تعالىٰ: **﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾**:

المراد من الفساد، المعنى الأعمّ الشامل للفساد الشخصي والنوعي، ومن الأُولى ارتكاب المناهي الإلٰهيّة، ومن الثاني النفاق.

وسفك الدماء: إراقتها بغير حقّ.

والتسبيح: التنزيه عن صفات الممكنات.

ومعنىٰ نسبّح بحمدك، أي ننزّهك عن النقائص، مقروناً بالثناء عليك، فاجتمع في هذا التعبير صفات الجلال والجمال. والتقديس بمعنى التنزيه ـ كما عن جمع من اللغويين والمفسّرين ـ والتطهير المعنوي عن النقائض، وقد استعمل في القرآن كلّ منهما بالنسبة إليه تعالى؛ قال جلّ شأنه: **﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾**[1].

ويمكن التفريق بينهما، بجعل الأوّل بالنسبة إلى الذات الأقدس، فهو تعالى منزّه عن كلّ نقص، والثاني بالنسبة إلى الفعل، ففعله منزّه عن كلّ نقص، لكونه

---

١. سورة الحشر: الآية ٢٤.

صادراً عن الحكمة البالغة .

ويمكن أن يُقال : إنّ معنىٰ نقدِّس لك، أي نطهِّر أرضك من الفساد والمعاصي .

والمعنىٰ : أتستخلف في الأرض مَن هو علىٰ هذه الصفات من الإفساد وسفك الدماء ، ونحن المعصومون نسبِّح بحمدك ونقدِّس لك ، فالغاية المتوخّاة من جعل الخليفة موجودة فينا دون غيرنا، فزعموا أنّ التسبيح والتقديس فقط هو المقصد الأصلي من المخلوق، وليس فيهم سبب الفساد ، لأنّهم متّحدوا القوى وليست لهم قوى متخالفة .

ثمّ إنّه يمكن أن يكون منشأ سؤال الملائكة هذا أحد أُمور :

الأوّل : علمهم بأنّ الدار دار الكون والفساد ، والإنسان مركّب من قوى متضادّة متخالفة من الشهوة والغضب ، والقوّة والضعف ، ونحو ذلك ، ومَن كان هذا حاله، وهو في دار الكون والفساد والمادّة، يلازمه سفك الدماء والإفساد، فيكون قولهم من باب كشف الملزوم عن اللازم، وهو صحيح .

الثاني : حصول ذلك من حمل المستقبل على الماضي، الذين أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء ، فحصل لهم العلم بذلك من التجربة .

الثالث : إنّ حبّ النفس فطري في كل ذي حياة ، فحبّهم لنفسهم أوقعهم في هذا القول .

ولكن هذا الوجه ينافي مقام عصمتهم .

الرابع : أنّه بعد إخبارهم بأنّه سيجعل في الأرض خليفة ، عجبوا كيف يمكن أن يكون المصنوع من التراب خليفة ربّ الأرباب ، مع أنّ الله تعالى أخبرهم أن في ذريته من يفسد ويُسفك الدماء ـ كما في بعض الأخبار ـ وغفلوا عن الحكمة .

ومن ذلك يظهر أنّ سؤال الملائكة ليس من الاعتراض عليه تعالىٰ، بل كان من مجرّد الاستفهام لما خطر في نفوسهم، وكان همّهم معرفة الحكمة والسرّ في استخلاف هذا المخلوق، ولذا سكتوا حين أعلمهم بذلك، فقال تعالىٰ: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾. فأعلمهم بأنّه لانسبة بين العلم الحاصل من الأسباب الظاهرية، مع العلم بحقائق الأشياء وأسرارها، فإنّ في هذا المستخلف أسراراً لم تكن في غيره، وكأنّهم غفلوا عن أنّ الخير الكثير لا يمنعه الشرّ القليل، فيكون قوله تعالىٰ: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾، أي أعلم أنّ الشر القليل ـ لو فرض ـ لا يمنع عن الخير الكثير، نظير مَن يريد أن يصنع سفينة تجري في البحار وتنفع الناس، فلا يهتمّ بالحوادث والآفات التي تجري عليها في عالم الكون والفساد.

وفي تقديم آية ﴿**خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً**﴾ علىٰ قصة آدم، تفضّلٌ منه تعالىٰ حيث أعدَّ لبني آدم جميع ما في الأرض ثمّ خلقهم، كما أعدَّ الجنّة للمتّقين قبل ورودهم لها.

***

الآية ٣١ ـ ٣٣

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلّق بخلق الخليفة في الأرض شرع في هذه الآيات بيان فضله، لأنّه ملازم لخلقه وحياته، وإنّما ابتدأ بالتعليم له لتلازم الحياة مع العلم كما سيأتي في البحث الدلالي.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾:

وردت هذه الهيئة من مادّة العلم في موارد كثيرة من القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾[1].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾[2].

وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾[3].

---

١. سورة الكهف: الآية ٦٥.

٢. سورة النساء: الآية ١١٣.

٣. سورة البقرة: الآية ١٥١.

وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللهُ﴾[١].

والمستفاد من الجميع، هو إلقاء المعلم حقيقة ما يريده من العلم إلى الطرف، بنحو الإلهام أو الإشراق ـ كما يُحكى عن الفلاسفة الإشراقيين ـ دفعةً واحدة أو بالتدريج، بلا فرق في ذلك بين أن لايكون سبب ظاهري، أو كان ذلك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾[٢].

وظاهر الآية المباركة، أنّ التعليم كان مباشرياً من الله تعالىٰ، بلا واسطة مَلَك. وكيف لايكون كذلك، وقد اقتضت العناية الإلٰهيّة الاهتمام بأوّل خليقته، والمصنوع بيمينه ـ وكلتا يديه يمينٌ كما في الأحاديث ـ والنفخ فيه من روحه، كلّ ذلك ينبئ عن السرّ العظيم، والحكمة التامّة في هذا الإنسان، فميزه عن سائر خلقه بهذا المقام الخطير، بأن علّمه ما لم يعلم، وجعل في نسله هذه القوّة العلمية، فكان في ذرّيته الأولياء الذين أشرقوا العالم بأنوار المعارف الإلٰهيّة، وتفرع عن هذا الأصل جميع العلماء والعقلاء الذين سخّروا العالم بعلمهم، ودبّروا البلاد بعقلهم.

ولم يكن هذا العلم مقتصراً علىٰ ألفاظ ومسمّيات خاصَّة، وهو في هذا المقام العظيم والمنصب الرفيع، فقد تعلَّم كلّ المعارف الإلٰهيّة، وما له دخل في استكمال الإنسان في النشأتين، كما أنّ التعليم شمل أسرار القضاء والقدر وخواصّ الأشياء، ومنها خواص النبات، وعرف موجبات الفرح والسرور، وأسباب الحزن والكدر، فإنّ آدم وسائر حجج الله سفراؤه في الأرض، ولابدّ وأن يكون السفير مطّلعاً علىٰ دار سفارته، ولعلّ منها ماحكاه الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[٣]، فأخبره تعالى

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٢.

٢. سورة المائدة: الآية ٣١.

٣. سورة طه: الآية ١١٥.

بوقوع هذا الحادثة العجيبة منه، لكثرة أهمّيتها في النشأة الدنيوية ، وسيأتي في البحث الروائي وغيره مزيد بيان .

ولفظ «آدم» سواء كان لفظاً عربيّاً ـ من الأدمة بمعنى السمرة ، أو من أديم الأرض وهي ظاهرها ـ أو غير عربي ، سهل في النطق ، وذلك يكشف عن وجود الأنس بين ذريته ، ولعلّه لذلك سُمّي إنساناً، لأنّ الأُنس من طبعه وفي جبلّته ، أو لكونه وسطاً بين الإفراط والتفريط، كما أنّ السمرة وسطٌ بين السواد المحض والبياض كذلك .

والظاهر أنّ إطلاق هذا الاسم عليه، كان من الله تعالى من حين الخلقة ، لا حين نزوله الى الأرض ، فهو باسمه وجسمه وروحه مضاف إلى الله تعالى إضافة خاصّة .

قوله تعالىٰ : ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ :

الأسماء جمع اسم وله معان :

الأوّل : اللفظ الخاص المعروف في مقابل الفعل والحرف ، مثل سماء وأرض ، وبحر ، ونهر إلى غير ذلك ممّا هو في ازدياد علىٰ مرّ العصور ، فيكون التعلّم من مجرّد اللفظ فقط، بلا توجّه من المتعلّم الى المعنى أبداً ، لا فعلاً ولا بعد ذلك ، وهذا يعدّ من اللّغو في المحاورات المتعارفة بين الناس ، فيكون قبيحاً بالنسبة إليه تعالىٰ، وهو محالٌ ، لاستحالة كلّ قبيح عليه عزّوجلّ .

الثاني : الأسماء من حيث كونها آلة للتعرّف علىٰ المسمّيات والمعاني فتتحقّق الإفادة والاستفادة ، كما هو شأن تعلّم اللغة التي بها امتاز الإنسان علىٰ سائر الخلق ، قال تعالىٰ : ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[1] .

---

١ . سورة الرحمٰن : الآية ١ ـ ٤ .

الثالث : المراد من الأسماء ذوات المسمّيات ، وحقائق الأشياء لوجود خاصّية الاسم فيها ، لأنّ الاسم ما انبأ عن المسمّى ، وجميع تلك الحقائق تُنبئ عن آيات الله وجلاله وجماله . أو للترابط الوثيق بين الدال والمدلول، بحيث إذا أطلق أحدهما إنتقل الذهن إلى الآخر ، كما تقدّم .

والظاهر هو المعنى الأخير ، ويتحقّق المعنى الثاني لا محالة ، فإنّ المناسب من تعليم الله تعالى آدم الأسماء، من حيث كشفها عن حقائق المسمّيات وجواهرها ، وأعراضها ، ومجرّداتها ، ومعرفة ذواتها وخواصها وصفاتها ، فكما أنّ آدم أبا البشر في مقام الأُبوّة والبنوّة الإضافية، صار أصلاً لهم في ما يتعلّق بشوؤنهم الفردية والاجتماعية، ومن أهمّ ذلك معرفة الحقائق وأسمائها ، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ : ﴿**ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ**﴾، فإنّه لو كان المراد هو مجرّد الألفاظ فقط، لما كان لهذا القول معنى إلّا بالتكلف .

ولافرق في ذلك بين أن يكون التعليم دفعيّاً وفي آن واحد ، أو كان بالتدريج، علىٰ حسب مجرى الطبيعة، التي هي مسخرة تحت إرادته تعالىٰ .

ولا بأس بالقول بكلّ منهما، فيكون بالنسبة إلى البعض دفعيّاً وبالنسبة إلى البعض الآخر تدريجياً ، وفي جميع الحالات يكون التعليم منسوباً إليه عزَّوجلَّ .

ثمّ إنّه لا وجه لصرف الآية عن التعميم ، والقول بأنّ التعليم يختص بتلك الأسماء التي كانت مورد حاجة آدم في حياته ، وتعليم غيرها يكون من اللغو، أو لزوم ما لا يلزم، والله تعالى منزّه عن ذلك .

إذ يرد علىٰ هذا القول : بأنّ الآية ظاهرة في التعيم ، مع أنّ الإحاطة العلمية خصوصاً بمثل هذه الإحاطة العلمية الغيبية كمالٌ للنفس، وأي كمال أفضل منه، بل يعدّ هذا من معجزات آدم عليه‌السلام .

ويحتمل أن يكون المراد بعالم الأسماء، عالم المثال الذي أثبته بعض

الفلاسفة، ويسمّى بعالم الخيال المنفصل أيضاً، الذي فيه صور جميع الموجودات بأشكالها الخاصّة، وهيئاتها المختلفة المحدودة بحدودها المعنية، كما في الصور الخيالية التي تكون بين التجرّد المحض والمادّية المحضة، واستدلّوا عليه بالأدلّة العقلية، وبما ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام :

«أنّ في العرش صور جميع الموجودات» .

وقد ورد في شرح دعاء (يا من أظهر الجميل وستر القبيح):

«أنّ العبد إذا فعل قبيحاً ستر الله تلك الصورة بستار لئلا يطلع عليها الملائكة» .

والمراد بهؤلاء الملائكة بعض حَمَلَة العرش، ويأتي للمقام شواهد عقلية ونقلية .

وعلىٰ هذا يكون إتيان لفظ مَن يعقل، في قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِسْمِاءِ هَـٰؤُلَاءِ﴾ من باب ذكر الأهمّ، لأنّه المقصود الأصلي من خلق الجميع .

بل يمكن أن يقال : إنّ المقصود الأصلي من الأسماء، إنّما هو مقام الخلافة الإلٰهيّة، وأسماء الخلفاء، ليكون آدم علىٰ بصيرة من أمره، من أنّ الأرض أرضه والبشر نسله، والخلفاء من ذرّيته، ولاسيما سيّدهم صلى الله عليه وآله .

وهذا ممّا لاريب فيه، فقد روى الفريقان عنه صلى الله عليه وآله :

«كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين».

فهو صلى الله عليه وآله مقدَّم علىٰ آدم علماً، وإن كان مؤخّراً خارجاً .

قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾.

العرض هو الإظهار على الغير لغرض فيه، قال تعالىٰ : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ

عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا﴾[٢].

فإذا عدّي بالهمزة، يكون بمعنى الإدبار والتولّي، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[٤].

والمراد بالعرض على الملائكة توجيه نفوسهم، والاطّلاع علىٰ تلك الأشياء، إمّا أعيانها إن كانت موجودة، أو أمثالها المحدثة بإرادة منه عزّوجلّ، إن لم توجد في الخارج.

وذكر خصوص مَن يعقل:

من باب التغليب، أو الأفضل كما تقدّم.

أو لأجل بيان أنّ المراد الأصلي إنّما هو ذوو العقول، ولاسيما الكاملين منهم.

أو لأجل أنّ جميع موجودات هذا العالم من جماده ونباته وحيوانات، له عقلٌ وشعورٌ في عالم الغيب، وإن خفي ذلك علينا، ويشيرإليه قوله تعالىٰ:

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٥].

وهذا العالم يسمّى بعالم الروحانيين، وعالم الأشباح والأظلة، وبالملكوت الأسفل، فيكون معنى عرضهم على الملائكة، رفع بعض حُجُب

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٧٢.

٢. سورة الكهف: الآية ٤٨.

٣. سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

٤. سورة السجدة: الآية ٣٠.

٥. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الغيب عنهم.

وفي هذا العالم تكون خزائن الله التي يقول جلَّ شأنه فيها: **﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾**[1].

وبالجملة: حجب الغيب كثيرة، وتحت كلّ حجاب عالم من العوالم لا يعلمها إلّا الله عزّ وجلّ.

وعن جمعٍ من الفلاسفة: «أن كلّما هناك حيّ ناطق ولجمال الله دواماً عاشق».

قوله تعالىٰ: **﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**. الأمر للتعجيز وإظهار عجزهم علىٰ أنفسهم وعلىٰ غيرهم، فلا وجه لإشكال جمع من المفسّرين، من أنّ أمر العاجز عن الشيء قبيح، فيكون محالاً عليه تعالى؛ لأنّ ذلك في ما إذا كان الداعي من الأمر هو الإيجاب، وأمّا إذا كان الداعي شيئاً آخر من تعجيز ونحوه، فلا محذور، وهو في القرآن كثير، وتأتي الإشارة إليه.

والإنباء: هو الإخبار، يتعدّى إلى المفعول الثاني بنفسه تارةً، وبواسطة الحرف أُخرى، كما عن جمع من اللغويين.

والمراد بالأسماء هنا نفس الألفاظ فقط، وهو تعجيز شديد، يعني أنّكم إذا لم تقدروا على الإخبار عن مجرّد اللفظ، فأولى أن تكونوا عاجزين عن معرفة أسرار الأشياء وحقائقها **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** في أنّ ما خطر في نفوسكم أنّكم أفضل من آدم، وما أظهرتموه من الدهشة في اختيار الخليفة من الإنسان. وليس ذلك من الحسد المبغوض، بل هو من حبّ الكمال الذي هو من الفطريات لكلّ ذي إدراك، ولم يسلم من ذلك حتّى أنبياء الله تعالىٰ، كما تشهد به قصّة موسى عليه السلام

---

١. سورة الحجر: الآية ٢١.

مع الخضر، وسيأتي تفصيلها في سورة الكهف.

ومن ذلك يعلم أنّ الحكمة في التعليم والعرض هي إظهار فضل آدمعليه السلام على الملائكة، وأنّ الخلافة لاتكون إلّا لمن استجمعت فيه مراتب الاستعداد، ولا يعلم بها أحد إلّا الله تعالىٰ.

هذا كلّه إذا كان المراد بقول الملائكة، الاستفهام الحقيقي، وكان الاستعمال بداعي ذلك أيضاً.

وأمّا إذا كان الاستعمال بداعي التنفّر والاشمئزاز من المفسدين، وسفكة الدماء فهو صحيح، ويصحّ انتسابه إلى جميع الملائكة حتّى عظمائهم، وحملة العرش كما لايخفى

فيكون قوله تعالىٰ ناظراً إلىٰ عدم إحاطتهم بمراتب الغيوب، ومقدّمة لأمرهم بالسجود لآدم، لما ظهر لهم من فضله بما أفاض الله تعالى عليه علم الأسماء، وجعله خليفته في الأرض.

وأمّا ذكر (هؤلاء) بعنوان الإشارة إلى الحاضرين، فيمكن أن يكون لبيان رفعة مقام المسمّيات بخصوص هذه الأسماء دون غيرها فكأنّهم حاضرون في جميع العوالم، وقد عبّرعن خصوص هذه المسمّيات جمع من الفلاسفة بـ(أرباب الأنواع)، وجمع آخر بـ(المُثُل الافلاطونية).

قوله تعالىٰ: **﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾**.

كلمة (سبحانك) تُقال في مقام التوبة، كما في قوله تعالىٰ: **﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾**[1].

وقوله تعالى: **﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾**[2].

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ اعترافٌ منهم بالعجز والقصور، وأنّ علمهم لايحيط بجميع المسمّيات، وفيه ثناء على الله تعالى، لأنّهم أثبتوا العلم له عزّوجلّ، ونفوه عن غيره، وأنّه المفيض عليهم بالعلم علىٰ قدر القابليات والاستعدادات.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾:

تأكيد منهم علىٰ حصر العلم بالنسبة إلى ذاته، وللحكمة بالنسبة إلى فضله، ومادّة (ح ك م) في أيّة هيئة استُعملت تفيد الإتقان والإحكام والإتمام. وأصل الحكمة منه تعالى معرفة الأشياء، وإيجادها بالإحكام والإتقان الواقعي، وهي منبعثة عن العلم بالحقائق. وإذا أُطلقت بالنسبة إلى الإنسان.

ففي اصطلاح الفلاسفة: هي العلم بحقائق الأشياء علىٰ حسب الطاقة البشرية.

وفي اصطلاح المفسِّرين: معرفة الأشياء وفعل الخير، وقالوا منه قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾[١].

ويأتي في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[٢]، بعض الكلام.

وإذا أُضيفت إلى القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾[٣]، فإنّما يُراد بها الاشتمال على الآيات والقوانين المحكمة.

---

١. سورة لقمان: الآية ١٢.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٦٩.

٣. سورة القمر: الآية ٥.

ويطلق الحكم على الحكمة أيضاً، كما نُسب إلى النبيّ الأعظم ﷺ: «الصمت حكم، وقليل فاعله».

ومن هذا الجواب يستفاد أنّ سؤالهم لم يكن من الخصومة والجدال، بل كان سؤال مستفسر مستوضح، ولذا رجعوا إلى ما كان قد غفلوا عنه، وفوّضوا الأمر إليه تعالى بعدما تبيّن لهم الحال.

وفي هذه الآية المباركة جملة من الآداب بين السائل والمُجيب:

ففيها إيماءً إلى أنّ الإنسان يجب أن لا يغفل عن كونه مخلوقاً ناقصاً، مهما بلغ من الكمال.

وأن لا يأنف من الاعتراف بالجهل إذا كان لا يعلم.

وأن لا يكتم العلم إذا كان يعلم.

ويجب عليه أن يحفظ مقام معلّمه في تواضع وأدب.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾:

أي أعلمهم بالأسماء التي عجزوا عن علمها، وإيكال تعليم الملائكة إلى آدمعليه السلام يدلّ علىٰ أفضلية مرتبة الخلافة عنهم.

وقد نادى الله سبحانه جملة من أنبيائه في القرآن العظيم بأسمائهم العَلَمي، فقال تعالىٰ: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾[3].

---

١. سورة هود: الآية ٤٨.

٢. سورة الصافات: الآية ١٠٤ و ١٠٥.

٣. سورة القصص: الآية ٣١.

وقال تعالىٰ: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[1].

وأمّا سيّد الأنبياء، فلم يخاطبه عزّوجلّ إلّا بأوصافه، فقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾[2]، أو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾[3]، و﴿طٰه﴾ و ﴿يٰس﴾.

فيكون له سبحانه وتعالىٰ معه ﷺ أدب. وللرسول معه عزّ وجلّ حالات خاصّة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾. يدلُّ علىٰ أنّ استكمال الملائكة بالعلم إنّما يكون بواسطة أنبياء الله وحججه، ولا محذور فيه بل الأدلّة العقلية والنقلية تؤيد ذلك.

ولعلّ من أسرار نزول الملائكة في ليلة القدر ـ أو مشايعتهم لبعض السور حين نزولها على النبيّ الأعظم ﷺ ـ هو الاستفادة ممّا ينزل على النبيّ، أو وليّ الأمر، وعلىٰ هذا يكون بين الملائكة اختلاف في الفضل، حسب كثرة حشرهم ومخالطتهم مع الأنبياء والحُجج وقلّته، وللكلام تتمة تأتي في المحلّ المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

أي قلت لكم إنّي أعلم ما غاب عن أنظاركم وعلومكم، فاحتجّ عليهم بإثبات علم الغيب له تعالىٰ، ونفيه عنهم، فلن أخلق خلقاً عبثاً.

وإنّما ذكر تعالى غيب السماوات والأرض فقط، ولم يذكر عالم الشهادة

---

١. سورة المائدة: الآية ١١٦.

٢. سورة الأنفال: الآية ٦٤.

٣. سورة المائدة: الآية ٤١.

لشمول الأوّل له بالأولى، مع أن جميع العوالم شهادة بالنسبة إليه تعالىٰ، والتقدّم والتأخّر بالنسبة إلى الزمان وهو محيط بالزمان والزمانيات.

ثمّ احتجّ عليهم بأنّه عالم بما يُبدون وما يكتمون، لأنّهم ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أضمروا في نفوسهم أحقّيتهم للخلافة، لكونهم يعبدون ربّهم ويقدّسونه فلم يخلق خلقاً أكرم عليه منّا.

والظاهر ـ كما يدلّ عليه بعض الأخبار، ويأتي في البحث الروائي نقلها ـ أنّ المراد هم جميع الملائكة، ويحتمل أن يكون المراد هو خصوص الشيطان، من جهة كونه داخلاً في عموم الخطاب، لأنّه كان داخلاً فيهم صورة، فيكون من باب إطلاق الجمع وإرادة الفرد منه، وهو صحيحٌ واقع في القرآن الكريم والمحاورات.

بحوث المقام

بحث دلالي:

لاريب في دلالة الآيات المباركة علىٰ فضل العلم، وأنّه الغرض الأقصىٰ من خلق الإنسان وجعل الخليفة، إذ لا معنى للخلافة الإلٰهيّة، بل مطلقها، إلّا علم الخليفة في ما يستخلف فيه، وتدبيره الحاصل بالعلم إيضاً، فيكون العلم هو العلّة الغائية لخلق الموجودات كلّها، كما أنّه العلّة لايجادها، ففي مثله تجتمع العلّة الغائية والفاعلية.

كما يستفاد منها فضل الإنسان، لأنّه لا فضل إلّا بالعلم، ولا علم يستعمل في دقائق الكون، وأسرار التكوين ورموزها إلّا في الإنسان، وقد سخّر الكون بعلمه، ولم يخلق الله تعالى العالم إلّا له، كما يأتي ذلك في الآيات الكثيرة. فمبدأ الخلق إنّما هو من العلم وغايته للعلم، وتدبيره إنّما هو بالعلم. فالجهل والجهلاء بمعزل عن مبدأ الخلق وغايته وتدبيره، ويكون كالجزء الفاسد من العالم.

ويأتي شرح هذا العلم وتفصيله في الآيات المستقبلة إن شاء الله تعالىٰ.

ومن هذه الآيات المباركة، يستفاد فضل آدمعليه السلام علىٰ الملائكة، لأنّ الله تعالى جعله معلِّماً للملائكة، وفضل المعلم على المتعلّم واضح.

وتعليم الأسماء لآدمعليه السلام بمنزلة كتاب سماوي أنزله الله تعالى علىٰ آدمعليه السلام، وبه تحدّى الملائكة فأظهروا العجز والقصور، كما جعل الكلام العربي معجزةً لنبيّنا الأعظم محمّدصلى الله عليه وآله، ويأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

ويمكن أن يستفاد من الآيات الشريفة، أنّ هذه المحاورة إنّما كانت بين الله تعالى وبين ملائكة الأرض الذين وكِّلوا في شؤونها، وكان قد خفي عليهم وجه

الحكمة في خلق آدم عليه السلام ، دون غيرهم من ملائكة السماء وعظمائها كالكروبيّين وحملة العرش ، وإن كان الإطلاق يقتضي ذلك، إلّا أنّ الاعتبار يقتضي الأوّل ، كما سيأتي في البحث الروائي ، فإنّ المراجعة إنّما كانت في الأرض لا في السماء ، وإنّ آدم عليه السلام خليفة الله خلق من الأرض، لأنّه من طين ومن حمإٍ مسنون ، وفي الأرض، لأنّه خليفة الله في الأرض وللأرض، كما هو شأن جميع الأنبياء والرسل ، فلا وجه لتوهّم كون الخلق في السماء، إلّا قوله تعالىٰ : **﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً﴾** وبعض الأخبار ، وسيأتي ما يتعلّق بذلك .

بحث اجتماعي:

من أعظم ما أنعم الله تعالى على الإنسان نعمة البيان والنطق، فقال عزّوجلّ في مقام الامتنان عليه : **﴿الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ الْقُرْآنَ* خَلَقَ الْإِنسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾**[1] .

فلولا اللغة والبيان، لم يتحقّق للإنسان اجتماع، ولاختلّ أساس التشريع ، وبالأخرة لم يقم له نظام الدّنيا والآخرة؛ فلا يمكن تحديد هذه النعمة بحدّ ، ويكفي في ذلك قوله تعالىٰ : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ﴾**[2] .

حيث جعل اختلاف الألسنة من الآيات .

والكلام في اللغة يكون من جهات متعدّدة، ففيها التاريخية ، والأدبية والعلمية ، والاجتماعية وغير ذلك ، وقد وضع العلماء لكلّ واحدة من تلك الجهات كتباً كثيرة .

والذي يهمّنا في المقام، هو ما يستفاد من قوله تعالىٰ : **﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ**

---

١ . سورة الرحمٰن : الآية ١ ـ ٤ .

٢ . سورة الروم : الآية ٢٢ .

والذي يهمّنا في المقام، هو ما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ في نشأة اللغة عند الإنسان، بعد معلومية انتهائها إلى الله عزّوجلّ، فإنّه المفيض عليهم هذه النعمة ـ كما في سائر نعمه عزّ وجلّ ـ بإلهام منه تعالى مباشرةً، أو بالتعليم.

والوجوه المحتملة كثيرة، وقال بكلّ منها جمعٌ، وهي:

الأوّل: أنّها كانت من مجرّد أصوات ذات دلالات وضعية فقط، فتعدّت عن تلك المرتبة بالتكرار، حتّى وصلت إلى مرتبة الدلالة الاستعمالية، فصارت ألفاظاً خاصّة كاشفة عن معان مخصوصة.

الثاني: أنّها كانت من ألفاظ ذات دلالات وضعيّة، منشؤها الفطرة الإنسانيّة، كالألفاظ التي يستعملها الصبي غير المميز، أو تستعمل له، فتعدّت بكثرة الاستعمال عن تلك المرتبة إلى المرتبة الكاملة، كما هو مقتضى السير التكاملي في كلّ شيء.

ولا يخفى بُعد هذين الوجهين عن الآية الكريمة، مضافاً إلى ما فيها من التعسّف.

الثالث: أنّها مركّبة من الوجهين في بدو الأمر؛ فحصل التكامل بما يحصل التكامل في سائر الأشياء.

ويرد عليه ما أورد على الوجهين السابقين.

الرابع: أنّها حصلت أُصولها بتعليم الله تعالىٰ، والبقية بنحو ما مرّ.

الخامس: أنّها حصلت جميعها بتعليم الله عزّوجلّ لآدم فانتشرت في ذرّيته بحسب مقتضيات الأزمنة والأمكنة.

والوجه الأخير وإن كان يلائم المستفاد من الآية الكريمة، وبعض الأخبار التي تأتي ذكرها في البحث الروائي. فإنّ الجمع المحلّى باللّام المفيد للعموم في

(الأسماء) وتأكيده بلفظ (كلّ) الواقعين في الآية الكريمة، يشملان جميع الأسماء الواقعة في سلسلة الزمان إلى انقراض العالم، وفي جميع اللغات واللهجات، وقد أحاط بها آدم عليه السلام إحاطة فعلية.

وهو وإن لم يكن من قدرة الله تعالى ببعيد، ولكنّه مشكلٌ جدّاً، وبعيد من الأذهان، ولو كان الأمر كذلك، لكانت معجزه آدم عليه السلام أجلى وأرفع من معجزات جميع الأنبياء.

فالحقّ أن يُقال: إنّ المراد من الجمع والتأكيد الإضافي منهما، أي ما كان في عصر خلق آدم عليه السلام، وما كان مورد احتياجه في مدّة حياته، ثمّ بعد ذلك استحدثت لغات ولهجات وألفاظ بالجعل والوضع تخصيصاً أو تخصّصاً، وهذا هو الذي يمكن استفادته من مجموع الروايات، بعد ردّ بعضها إلى بعض، وهو قريبٌ من الأذهان، وبه يمكن الجمع بين بعض الوجوه المتقدِّمة.

بحث روائي:

في تفسير العياشي، عن الصادق عليه السلام:

«ما عِلْمُ الملائكة بقولهم: (أتجعل فيها من يفسد فيها ويُسفك الدماء)، لولا أنّهم قد كانوا رأوا مَن يفسد فيها ويُسفك الدماء».

أقول: يستفاد من هذه الأخبار أنّ علم الملائكة ليس من علم الغيب، بل حاصل من المدارك الجزئية الخارجية، وأمّا أنّ مداركهم الجزئية كعين مداركنا الجسمانية، ففيه تفصيل، يأتي بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

وفي التفسير عن الصادق عليه السلام:

«في قوله الله عزّوجلّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾. ما هي؟

قال عليه السلام: أسماء الأودية والنبات والشجر والجبال من الأرض».

وفيه عنه عليه السلام أيضاً:

«في قوله الله عزّوجلّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ماذا علّمه؟

قال: الأرضين والجبال، والشعاب والأودية.

ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال: وهذا البساط ممّا علّمه».

وفي التفسير أيضاً، عن داود بن سرحان، قال:

«كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغدينا، ثمّ دعا بالطشت والدستشان.

فقلت: جعلت فداك قوله تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ الطشت والدستشان منه؟

فقال عليه السلام: الفجاج والأودية، وأهوى بيده كذا وكذا».

وفي «تفسير العسكري» عن السجاد عليه السلام: «علّمه أسماء كلّ شيء».

أقول: الأمثلة التي ذكرها عليه السلام من باب المثال لما كان موجوداً في زمان آدم عليه السلام، لا الحصر.

وفي «المعاني» عن الصادق عليه السلام:

«إنّ الله عزّوجلّ علّم آدم عليه السلام أسماء حججه عليهم السلام كلّها، ثمّ عرضهم وهم أرواح على الملائكة».

أقول: يظهر من هذا الحديث كجملة من الأحاديث المستفيضة، أنّ الأرواح سابقة على الأجسام؛ وفي الحديث المعروف بين الفريقين، عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام».

ومن ذهب الى أرباب الأنواع، أو المُثُل الإفلاطونية، فإن أراد بقوله مثل ما ذكره عليه السلام في هذا الحديث، فلا بأس به، وإن أراد به غير ذلك، فلابدّ في إثباته من الرجوع إلى أدلّتهم المذكورة في الفلسفة الإلٰهيّة، والتأمّل فيها.

وفي «تفسير العياشي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«لمّا أن خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنّا نظنّ أنّ الله خلق خلقاً أكرم عليه منّا، فنحن جيرانه، ونحن أقرب الخلق إليه.

فقال الله: ﴿**أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾. فيما أبدوا من أمر الجان، وكتموا ما في أنفسهم، فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش».

ومثله عن عليّ بن الحسين عليهما السلام، وزاد فيه:

«فلمّا عرفت الملائكة أنّها وقعت في خطيئة لاذوا بالعرش، وأنّها كانت من عصابة من الملائكة ـ وهم الذين كانوا حول العرش لم يكن جميع الملائكة ـ إلى أن قال عليه السلام: فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة».

أقول: تقدّم في البحث الدلالي ما يدلّ علىٰ ذلك.

وفي العلل عن الصادق عليه السلام: «أنّه سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله أخبرني عن آدم لِمَ سُمِّي آدم؟ قال: لأنّه من طين الأرض وأديمها».

أقول: تقدّم ما يدلّ علىٰ ذلك.

ثمّ إنّ في المقام بحثين آخرين:

أحدهما: بحث خلقة آدم عليه السلام، وقد بيّنه تعالى في جميع الكتب السماوية خصوصاً القرآن بياناً وافياً لهذا الخلق العجيب، ثمّ شرحته السنّة المقدّسة شرحاً وافياً، وطريق العلم به منحصر بهما، لقصور ما سواهما مطلقاً عن درك ذلك، لأنّه من الغيب المختصّ علمه به تعالىٰ، وإظهاره يكون بإخباره عزّوجلّ.

ثانيهما: بحث الطينة والميثاق، وتعرّض له المفسّرون والمحدّثون من العامّة والخاصّة، عند قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[١].

والأخبار في ذلك كثيرة من الفريقين، وهو أيضاً من الغيب المختصّ به عزّوجلّ، ولابدّ أن يكون العلم به من ناحيته تعالى بلا واسطة، أو بواسطة انبيائه وأوليائه تعالىٰ، وقد وردت الأخبار في ذلك عن النبيّ ﷺ والأئمّة الهُداة عليهم السلام.

والطينة الواردة في السنّة الشريفة علىٰ قسمين:

الأوّل: ما كانت علّة تامّة منحصرة، لكون مآلها إلى الجنّة، بلا دخل للتكليف والاختيار فيها أصلاً، أو كون مآلها إلى النار كذلك.

الثاني: ما كانت مقتضية لذلك مع دخل شرائط أُخرىٰ في كلّ منهما، حتّى تصير إلى الجنّة أو النار. ولابدّ من حمل جميع ما ورد في الطينة من الأخبار على القسم الثاني، دون الأوّل، لظواهر الكتاب ـ علىٰ ما يأتي ـ والسُنّة، وأدلّة عقلية نشير إليها في محالّها إن شاء الله تعالىٰ.

***

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

الآية ٣٤

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

بعد أن جعل الله تعالى آدم عليه السلام خليفه له، وبين فضله بما علّمه، وجعله معلّماً لملائكته أمرهم بالسجود له، وهذه فضيلة أُخرى لآدم.

***

التفسير

السجود هو التذلل والخضوع، وفي الشريعة وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله تعالىٰ، وبينه وبين المعنى اللّغوي جامعٌ قريب في التذلّل، وهو:

تارةً: اختياري تعبّدي، على الوجه المعروف لدى المسلمين، يوجب الثواب على الموافقة، والعقاب على المخالفة، كقوله تعالىٰ: **﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾**[1].

وأُخرىٰ: تسخيري تكويني. كسجود المخلوقات، كما في قوله تعالىٰ: **﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾**[2].

ومادّة (بلس) سواء أكانت عربية أم معرّبةً تدلّ على الحزن العارض من

---

١. سورة النجم: الآية ٦٢.

٢. سورة الرعد: الآية ١٥.

شدّة اليأس، ويلازمه اليأس من الروح والراحة.

قال تعالىٰ: ﴿أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[1].

ولعلّ حزن إبليس الدائم. ويأسه الأبدي، حصل من قوله تعالىٰ: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ* وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[2].

فإنّ الرجم واللعن الأبدي من منبع الجود والرحمة، من المبغوضات لكلّ ذي شعور.

والإباء: شدّة، إذ كل إباء امتناع، دون العكس، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «كلّكم في الجنّة إلّا مَن أبىٰ».

والكِبر والاستكبار والتكبُّر هو الإعجاب بالنفس، وهو علىٰ قسمين:

مذموم: كأن يُظهر الشخص من نفسه ما ليس له، ويكون من أقبح القبائح إذا كان على الله تعالىٰ.

وممدوح: وهو ما إذا جهد الشخص أن يصير كبيراً في ما أذن الله تعالى فيه ورضي به. وكلا القسمين وردا في القرآن.

فمن الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾[4].

إلىٰ غير ذلك من الآيات.

ومن الثاني: مفهوم قوله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي

---

١. سورة الأنعام: الآية ٤٤.

٢. سورة الحجر: الآية ٣٤ ـ ٣٥.

٣. سورة الأعراف: الآية ٤٠.

٤. سورة النساء: الآية ١٧٣.

الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[1].

ومثله قوله تعالىٰ: **﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾**[2].

ويشهد له قوله تعالىٰ: **﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾**[3].

فالمراد منه أنه تعالى فوق ما سواه من كلّ جهة، فيكون تكبّره جلّ شأنه كعزّته وجماله، وحينئذٍ يكون من قبيل صيغ المبالغة، أي أنّه تعالى في غاية الكبرياء والعظمة، بحيث لا يدرك ذلك، فيكون إطلاق المتكبّر عليه وصفيّاً انطباقيّاً.

ومن السنّة فكثير، منها:

قولهم عليهم السلام: «إنّ الله أذِن للمؤمن في كلّ شيء ولم يأذن له أن يذلّ نفسه».

وغير ذلك من الروايات.

ثمّ إنّ سجود الملائكة لآدم عليه السلام يتصوّر علىٰ وجوه:

الأوّل: أن يكون السجود شكراً لله تعالى لهذه النعمة العظمىٰ، بعد أن عرفوا منزلة آدم عليه السلام، فينطبق عليه التهنئة لآدم عليه السلام قهراً.

الثاني: أن يكون السجود الشكر لله تعالى مع قصد التهنئة تبعاً لشكره تعالىٰ.

الثالث: السجود لله محضاً وجعل آدم عليه السلام قبلة، كما نسجد شكراً لله تعالى إلى القبلة.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٦.

٢. سورة الأحقاف: الآية ٢٠.

٣. سورة الحشر: الآية ٢٣.

الرابع : السجود الحقيقي لآدم في مقابل السجود لله تعالىٰ .

الخامس : السجود لله تعالى فقط، وجعل ذلك من الضميمة الخارجية الراجحة، كالصّلاة في المسجد مثلاً .

هذه هي الاحتمالات الثبوتية .

وأمّا في مقام الإثبات: فقد دلَّ الدليل العقلي والنقلي علىٰ أنّ السجود غاية التذلّل والخشوع ، ولا يكون إلّا لمن هو في غاية العظمة والجلال ، وبناءً علىٰ هذا يتعيّن الوجه الأخير .

ويمكن أن يقال : إنّه بعد أمره تعالى بالسجود لآدمعليه السلام، تسقط جميع تلك الاحتمالات ، إلّا الوجه الرابع ، لظهور الآية المباركة فيه .

ولكن يُجاب عنه: بأن ظهور الآية في ذلك الوجه ممنوع، بعد وجود تلك الاحتمالات ، خصوصاً بعد ورود الرواية علىٰ أنّه كان من سجدة الشكر لله تعالىٰ .

ومن ذلك يظهر أنّه لا وجه لما يقال من أنّ السجود عبادة ذاتية فلا يصلح إلّا لمن هو معبود بالذات .

فإنّه يرد عليه أوّلاً : إنّه لا وجه لكونه عبادة ذاتية، وإلّا لما أضرَّ به الرياء، لأنّ الذاتي لا يختلف ولا يتخلّف ، مع اتّفاق فقهاء المسلمين وظهور نصوصهم، في أنّ كلّ عبادة أُتي بها رياءً تكون باطلة ، بل يأثم فاعلها، وهو شامل للسجدة رياءً .

نعم ، لا ريب في أنّه يغاير سائر العبادات في اعتبار قصد القربة، شرطاً زائداً علىٰ قصد أصل ذاتها؛ وله نظائر كثيرة ـ كقراءة القرآن والدُّعاء ونحو ذلك ـ وقد أثبتنا ذلك في الفقه، فيكون قصد الرياء مانعاً عن تحقق العبادة ، لا أن يكون قصد القربة شرطاً لتحقّقها ، لأنّ العمل بذاته مقتضٍ لذلّ العبودية، ما لم يكن مانع في البين .

وثانياً: بعد أن أذن الله تعالى وأمر بالسجود، لا فرق بين كونه عبادة ذاتية أو قصدية، لأنّ الذاتية ـ على فرضها ـ اقتضائية لا منطقية غير قابلة للتخلّف، هذا بحسب الاحتمال.

وأمّا الروايات فهي مختلفة وسيأتي نقلها في البحث الروائي.

هذا، ويمكن أن نقول بأنّ سجود الملائكة لآدمعليه السلام يكون كاشفاً عن تسخير الله تعالى أشرف مخلوقاته له، وهم الملائكة الذين جعلهم الله تعالى حفظة للإنسان، ووكّلهم في شؤون الأرض، فيكون تسخير غيرهم لآدمعليه السلام بالأولى.

وسيأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾**:

المراد بالملائكة هنا جميعهم، لوجود القرينة على التعميم، في قوله تعالى: **﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾**[1].

وهذه الآية كسابقتها تبيّن فضل آدمعليه السلام على غيره، فإنّ السجود ـ سواء كان حقيقيّاً أو لم يكن كذلك ـ يستلزم أفضلية المسجود له من الساجد.

ثمّ إنّ للعلماء والمفسّرين كلاماً في حقيقة إبليس.

فعن جمعٍ: إنّه لم يكن من الملائكة، بل كان من الجنّ، اتّصف ببعض صفات الملائكة. واستدلّوا بقوله تعالى: **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾**[2].

وأنّه تعالى بيَّن حقيقته في ما حكاه الله تعالى عنه: **﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾**[3].

---

١. سورة الحجر: الآية ٣٠.

٢. سورة الكهف: الآية ٥٠.

٣. سورة الأعراف: الآية ١٢.

وحينئذ يكون الاستثناء منقطعاً.

وعن جمع آخرين: أنّه كان من الملائكة، وتمسّكوا بظاهر الآية، فإنّه كان مشمولاً لأمره تعالى للملائكة بالسجود، فيكون الاستثناء متصلاً.

والصحيح أن يقال: إنّه لاريب في مباينة إبليس مع الملائكة، وشموله للأمر لا يستدعي كونه منهم، فإنّه ذاتٌ خبيث مفسد لا حدَّ لفساده، دلَّس على الملائكة الروحانيين حتّى ظنّوا أنّه منهم.

وقد اقتضت الحكمة الإلٰهيّة في خلقه، لمصالح ليس في وسع البشر دركها، كما في سائر ما خلقه الله تعالىٰ، ولعلّه منها:

أنّه أحد طرفي الاختيار في الإنسان، فإنّ الله يدعو إلى الجنَّة والمغفرة، وهو يدعو إلى النار، والإنسان بينهما، فإن شاء لبّىٰ دعوة الله، وإن شاء لبّىٰ دعوة الشيطان، وهذا هو الأمر بين الأمرين الذي أسّسه الأئمّة الهداة عليهم السلام في مقابل الجبر والتفويض، كما تقدّم.

ومنها: أنّه بمنزلة الكلب الحاجب، يمنع عن وصول غير الأهل إلى الحرم الربوبي.

ومن ذلك يعرف أنّ كفر إبليس لم يكن حادثاً بعد الامتناع عمّا أمره الله تعالىٰ، وتركه للسجود، فإنّ ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿**كَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ**﴾، والمستفاد من كيفيّة مخاطبته مع الله تعالى، أنّه كان كافراً أظهر الإيمان للملائكة فاعتبروه منهم، إذ كان مدّةً من عمره من المتعبّدين الساجدين، كما شرحه أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه في «نهج البلاغة».

وعليه، هل يكون كفره كفر جحود، أو كفر عصيان؟

ظاهر قوله تعالىٰ: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]، فإنّه أعجب بنفسه وأظهر كبره.

وظاهر حلفه في قوله تعالىٰ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، أنّ كفره كفر عصيان، لا جحود.

إلّا أن يقال: إنّه لا اعتبار بقوله من كان ذاته الكذب والخديعة، وسيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك كلّه.

ثمّ إنّ الأمر بالسجود في هذه الآية المباركة مطلق، وفي آية أُخرى معلّق على النفخ، كما قال تعالىٰ:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[3].

والمستفاد من مجموع الآيات والرويات، أنّه لابدّ من حمل المطلق على المقيّد، كما هو الشأن في جميع المحاورات، فلا يكون هنا أمران أحدهما قبل النفخ، والآخر بعده، ويأتي في البحث الروائي ما يناسب ذلك.

وهل كان سجودهم في السماوات أو في الأرض؟

يظهر من قول علي عليه السلام أنّه كان في الأرض، فإنّه قال: «أوّل بقعة عُبد الله عليها ظهر الكوفة، لمّا أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجدوا علىٰ ظهر الكوفة».

وذلك لا ينافي كون موضع الكعبة مطاف الملائكة من بدء خلقها، لأنّ الكلام في خصوص السجود.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٢.

٢. سورة ص: الآية ٨٢.

٣. سورة ص: الآية ٧٢.

بحث روائي:

في قصص الأنبياء عن أبي بصير، قال:

«قلت لأبي عبد الله عليه السلام: سجدت الملائكة ووضعوا جباههم على الأرض؟

قال: نعم، تكرمة من الله تعالى».

أقول: هذا يختصّ بملائكة الأرض، وأمّا ملائكة السماء وحملة العرش فلا يعلم كيفيّة سجودهم، ولا يستفاد من هذا الحديث ذلك.

وفي «تحف العقول»، عن الصادق عليه السلام قال:

«إنّ السجود من الملائكة لآدم إنّما كان ذلك طاعةً لله، ومحبّة منهم لآدم».

أقول: تقدّم وجه ذلك.

وفي «الاحتجاج»، عن موسىٰ بن جعفر، عن آبائه عليهم السلام:

«أنّ يهوديّاً سأل أمير المؤمنين عليه السلام، عن معجزات النبيّ صلى الله عليه وآله في مقابلة معجزات الأنبياء عليهم السلام.

فقال: هذا آدم أسجد الله له الملائكة، فهل فعل بمحمّد شيئاً من هذا؟

فقال علي عليه السلام: لقد كان ذلك، ولكن أسجد الله لآدم الملائكة، فإنّ سجودهم لم يكن سجود طاعة، أنّهم عبدوا آدم من دون الله عزّوجلّ، ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة، ورحمةً من الله له».

أقول: هذه الرواية ظاهرة في أنّ السجود كان لله تعالىٰ، ومحبّة لآدم عليه السلام كسابقه، فقوله عليه السلام: «أنّهم عبدوا آدم» مدخول النفي، أي لم يكونوا كذلك.

العياشي، عن جميل بن دراج، قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن إبليس أكان من الملائكة، أو كان يلي شيئاً من أمر السماء؟

فقال عليه السلام: لم يكن من الملائكة، وكانت الملائكة ترى أنّه منها، وكان الله

يعلم أنّه ليس منها، ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء، ولا كرامَة.

فأتيت الطيار فأخبرته بما سمعت، فأنكر، وقال: كيف لا يكون من الملائكة؟ والله يقول للملائكة: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، فدخل عليه الطيّار فسأله، وأنا عنده، فقال له:

جعلت فداك قول الله عزّوجلّ: (يا أيُّها الذين آمنوا) في غير مكان في مخاطبة المؤمنين، أيدخل في هذه المنافقون؟

فقال عليه السلام: نعم، يدخلون في هذه المنافقون والضُلاّل، وكلّ من أقرّ بالدعوة الظاهرة».

أقول: تقدَّم ما يتعلَّق به، وهذا الحديث شاهد للجمع بين ما يظهر منه أن إبليس كان من الملائكة، وما يكون ظاهراً أنّه ليس منهم.

وفيه أيضاً، عن جميل بن دراج، عن الصادق عليه السلام، قال:

«سألته عن إبليس أكان من الملائكة أو هل كان يلي شيئاً من أمر السماء؟

قال عليه السلام: لم يكن من الملائكة، ولم يكن يلي شيئاً من أمر السماء، وكان مع الملائكة وكانت الملائكة ترى أنّه منها، وكان الله يعلم أنّه ليس منها، فلمّا أُمر بالسجود كان منه الذي كان».

وفي «تفسير القمّي»، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، فقيل له:

«كيف وقع الأمر علىٰ إبليس، وإنّما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

فقال عليه السلام: كان إبليس منهم بالولاء، ولم يكن من جنس الملائكة، وذلك أنّ الله خلق خلقاً قبل آدم، وكان إبليس فيهم حاكما في الأرض، فعتوا وأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله الملائكة فقتلوهم، وأسروا إبليس ورفعوه إلى السماء وكان مع الملائكة يعبد الله إلى أن خلق الله تبارك وتعالى آدم».

وفي «الكافي»: «سُئل أبو عبد الله عليه السلام عن الكفر والشرك أيُّهما أقدم؟

فقال عليه السلام: الكفر أقدم، وذلك أنّ إبليس أوّل من كفر، وكان كفره غير شرك؛ لأنّه لم يدع إلى عبادة غير الله، وإنّما دعا إلى ذلك بعدُ فأشرك».

وفيه أيضاً، عن موسى بن بكر الواسطي، قال:

«سألت أبا الحسن موسى عليه السلام عن الكفر والشرك أيُّهما أقدم؟

فقال عليه السلام: ما عهدي بك تخاصم الناس؟!

قلت: أمرني هِشام بن الحكم أن أسألك عن ذلك.

فقال لي: الكفر أقدم وهو الجحود، قال الله تعالى لإبليس: أبى واستكبر وكان من الكافرين».

أقول: تقدّم ما يصلح لشرح ذلك، والمراد من قوله: «وهو الجحود»، لابدّ وأن يحمل علىٰ جحود الطاعة، لا جحود أصل الذات.

وفيه أيضاً، عن أبي بصير، قال أبو عبد الله عليه السلام:

«إنّ أوّل مَن كفر بالله حيث خلق الله آدم كفر إبليس، حيث ردّ على الله أمره، الحديث».

أقول: هذا شاهد لما قلناه آنفاً.

القمّي: «خلق الله آدم فبقي سنة مصوراً، وكان يمرّ به إبليس اللعين، فيقول: لأمرٍ مّا خُلِقتَ.

فقال العالم عليه السلام: فقال إبليس: لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته.

إلى أن قال: ثمّ قال تعالى للملائكة: اسجدوا لآدم فسجدوا، فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد».

أقول: هذا ظاهر في أمرين:

أحدهما: أنّه كان بانياً علىٰ معصية الله في هذا الموضوع.

الثاني: أنّ السجود لآدم عليه السلام كان كالمغروس في أذهانهم قبل خلقه في الجملة.

وعنه أيضاً، عن الصادق عليه السلام:

«الاستكبار هو أوّل معصية عصي الله بها.

قال عليه السلام: فقال إبليس: ربِّ اعفني من السجود لآدم، وأنا أعبدك عبادة لم يعبدكها ملكٌ مقرّب، ولا نبيٌّ مرسل.

فقال جلَّ جلاله: لا حاجة لي في عبادتك، إنّما عبادتي من حيث أريد لا من حيث تريد».

أقول: قد دلّت الأدلّة العقلية والنقلية علىٰ أن عبادة المعبود لابدّ وأن تكون من حيث ما أراده المعبود، دون ما يريده العابد، فالعبادة هي فعل ما عيّنه المعبود فقط. وأمّا ما يخترعه العابد من عند نفسه، أو لا يعلم أنّها مجعولة من قبل المعبود، فمقتضى القاعدة العقلية ـ وهي قاعدة وجوب دفع الضرر، خصوصاً إذا كان عقاباً ـ هو بطلان العبادة، وعدم صحّة نسبة العبادة المشكوكة إليه. فما ذكره إبليس في الحديث باطلٌ من حيث حكم العقل أيضاً كسائر خطواته.

في «المعاني» عن أبي الحسن الرضا عليه السلام:

«كان اسمه الحارث سمّي إبليس، لأنّه أبلس من رحمة الله».

أقول: تقدّم ما يدل علىٰ ذلك.

في «الكافي»، عن أبي الحسن عليه السلام، في حديث:

«إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله فزعه أمرٌ فأنزل الله تعالى قرآناً يتأسّى به **﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾**، ثمّ أوحى الله يا محمّد إنّي أمرتُ فلم أُطع، فلا تجزع أنت أَمرت فلم تُطع».

أقول: هذا من الحِكَم في خلق إبليس، وقد تقدّم بعض ما يتعلّق بذلك.

***

الآية ٣٥ ـ ٣٩

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

بعد أن فرغ الله تبارك وتعالىٰ عن بيان بعض الجهات النوعية لخلق الإنسان، حيث جعل الخلافة الإلهيّة فيهم، وعلَّم الخليفة الأسماء كلّها، وجعله معلماً لملائكته، شرع عزّوجلَّ في بيان بعض الجهات الشخصية لآدم عليه السلام، فأسكنه الجنَّة إجلالاً له وراحة، وامتحنه ببعض التكاليف.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾**:

السكون مقابل الحركة. وهو من الأُمور الإضافية:

فتارةً: سكونٌ عن مطلق الحركة، ولو في محلّ نفس الشيء، فيُقال سكن الماء

عن الجريان، وسكنت النفس عن الحركة، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾[١].

وأُخرىٰ : في مقابل الحركة عن محلّ إلى آخر، ومنه المسكن، فإنّ الساكن له الحركة في مسكنه والتردّد في حوائجه، فيطلق علىٰ محلّه المسكن والإسكان.

وثالثة : يراد ترك حركات خاصّة، من التكبّر، والتجبّر، والترف ونحوها، ومنه قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«اللّهمَّ احيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني في زمرة المساكين».

فذات المعنى في الجميع واحدة، والاختلاف يحصل من أطوار الاستعمالات، وقد استعملت في القرآن ويأتي نقلها إن شاء الله تعالىٰ.

والمستفاد من هذه الآية، وسائر الآيات المتضمّنة لهذه القصّة أن خلق زوجة آدم عليه السلام كان قبل دخول الجنَّة، فدخلاها معاً إتماماً للنعمة التي منها الأُنس والاستئناس، لاسيما في الجنَّة التي أُعدّت للترفّه بكلّ لذّة.

ثمّ إنّ في المقام بحثين :

الأوّل : قد فُصّل خلق آدم عليه السلام في الكتاب والسُنّة بما لا مزيد عليه، وأوضح في الجملة أيضاً بما لا يبقى معه محلّ للارتياب، ولكن لم يرد في الكتاب العزيز ما يستفاد منه كيفيّة خلق زوجته حواء، إلّا قوله تعالىٰ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٢].

وقوله تعالىٰ: **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**

---

١. سورة الأنعام: الآية ٩٦.

٢. سورة النساء: الآية ١.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[١].

ولعلّ السرّ في ذلك أنّ من أدب القرآن الستر في النساء، مع أنّه يكفي بيان خلق آدم عن ذلك.

وكيف كان، فالآيات المتقدّمة مجملة لا يعلم المراد منها.

نعم، ورد في بعض الأخبار أنّها خُلقت من ضلع آدمعليه السلام، وقد ورد في الحديث:

«استوصوا بالنساء خيراً، فإنّهن خُلقن من ضلع أعوج».

وسيأتي نقل الأخبار في البحث الروائي.

والوجوه المتصوّرة في هذه الأخبار ثلاثة:

الأوّل: قطع عضو من آدمعليه السلام، وهو الضلع الأيسر بعد إتمام خلقته، ونفخ الروح فيه، وخلق زوجته من هذا العضو المقتطع.

الثاني: نفس الوجه السابق قبل نفخ الروح فيه، فإنّه بعد تمامية الهيئة والمادّة، قُطع العضو وخلق منه زوجته.

وهذان الوجهان بعيدان جدّاً، وفيهما من القبح ما لا يخفى.

الثالث: إنّه بعد خلق آدمعليه السلام من الطينة، فُضلَ منها شيء بحيث لو استعملت في آدمعليه السلام لكان استعمالها في ضلعه الأيسر، فكان خلق زوجته من هذه الفضالة، فالطينة واحدة فيهما والتبعيّة متحقّقة.

والوجه الأخير هو المتحصّل ممّا وصل إلينا من الأخبار في تفسير الآيات الشريفة، وهو الموافق للذوق السليم، والعقل المستقيم. ويمكن أن يراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[٢]، ذلك، ولا ينافي ما اخترناه في الآيتين

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٨٩.

٢. سورة النساء: الآية ١.

المتقدّمتين، لأنّ المستفاد مطلق المشابهة الجنسية بعد ملاحظة جميع الآيات، فإنّ قوله تعالىٰ:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ* وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾[1].

قرينة لما ذكرناه، وسيأتي في البحث الروائي ما ينفع في المقام.

البحث الثاني: في جنّة آدمعليه السلام وقد اختلف آراء العلماء والمفسّرون فيها، وعمدة الأقوال ثلاثة:

القول الأوّل: إنّها جنّة الخلد التي أعدّها الله للمؤمنين في الآخرة، واستدلّوا بأنّها ذكرت في الآيات السابقة، وظواهر بعض الأخبار.

وهذا القول ممتنع؛ لأنّه من قبيل تقديم المعلول على العلّة، لأنّ نعيم الجنّة، وعذاب الجحيم إنّما يحصلان بالعمل، كما هو ظاهر الآيات والأحاديث، بل إن الجنّة والنار قيعان محض، وإنّما تعمران بالأعمال كما في الحديث، ولم يصدر من آدمعليه السلام وحواء عملٌ بعد حتّىٰ تكون لهما جنّة الآخرة. مع أنّ مجرّد الإطلاق لا يكفي في الانطباق علىٰ جنّة الخلد، ما لم تكن قرينة على الخلاف، إلّا إذا أرادوا من جنّة الخلد ما يأتي بيانه.

القول الثاني: إنّها من جنان البرزخ، وادّعي الكشف لإثباته، بل عن بعض مَن يدّعيه أنّه دخلها ولم يزل يدخلها.

وهذا باطلٌ، لما ثبت في محلّه من أنّ دعوى الكشف لا تستقيم إلّا بأمرين:

الأوّل: كون من يدّعيه كاملاً من حيث العلم بالفلسفة الإلٰهيّة، والعمل بالأحكام الشرعية.

---

١. سورة الروم: الآية ٢١.

الثاني : ورود تقرير من الشرع لما كشف .

وكلّ ذلك ممنوعٌ في من يدّعي الكشف في المقام .

نعم ، لا ريب في وجود أصل عالم البرزخ بنصوص متواترة، يأتي نقلها في الموضع المناسب، إن شاء الله تعالىٰ .

القول الثالث : إنّها جنّة من جنان الدُّنيا، خلقها الله تعالى لإسكان آدمﷺ وحواء . وهذا هو المتعيّن بل منصوص عليه في الجملة ، كما يأتي في البحث الروائي .

وقد أُيّد هذا القول بأُمور :

أحدها : أنّها لو كانت جنّة الخلد لما وقع فيها تكليف ، لأنّها دار النعيم والراحة لا دار التكليف .

الثاني : أنّها لو كانت جنّة الخلد لما خرج منها آدمﷺ وحواء، لفرض أنّها دار الخلد .

الثالث : أنّ الجنَّة الموعود بها لا يدخلها إلّا المؤمنون المتّقون ، فكيف يدخلها إبليس؟!

الرابع : انها لو كانت جنّة الخلد، كيف يقول الشيطان لآدمﷺ : ﴿**هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى**﴾[1] ، فإنّه ليس له أن يقول ذلك .

ولكن يمكن المناقشة في هذه الأُمور :

بأنّ ذلك كلّه صحيحٌ إذا كان المراد من جنّة الخلد، هي التي أُعدّت للمتّقين بعد الحشر والنشر والفراغ من الحساب . وأمّا قبل وقوع ذلك، وكون المورد من مادّة الجنَّة فقط، فلا دليل على امتناع ما ذكروه من عقل أو نقل ، فيكون نظير ما رواه الفريقان، عن نبيّنا الأعظم ﷺ :

---

١ . سورة طه : الآية ١٢٠ .

«ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنَّة».

وقوله ﷺ: «منبري على تُرعة من ترع الجنَّة».

مع أنّه يحضر في تلك الروضة المقدّسة البرّ والفاجر.

وكيف كان، فالجنّة هي من جنان الدُّنيا أعدّها الله تعالى لآدم عليه السلام وحواء إجلالاً لهما، ولاحتياجهما إلى الغذاء والراحة، ويرشد إلى ذلك ما ذكرناه سابقاً، من أنّ آدم عليه السلام خُلق من الأرض وفي الأرض وللأرض، وقد سخّر الله تعالى له الأرض والسماء بعد تعليمه الأسماء كلّها، وجعله خليفةً فيها.

نعم، وقع الكلام في محلّ هذه الجنَّة، ويأتي بعد ذلك بيانه إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن يكون المراد من جنّة الخُلد ما ذكرناه، ومن جنّة البرزخ ما ذكره الفلاسفة من أنّ لجميع الموجودات نحو وجودٍ برزخي، في مقابل سائر أنحاء وجوده، قد يظهر ذلك لأهله، كما يظهر جملة من الموجودات في عالم النوم للنائم.

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾:

الأكل معروف، ويعبّر عنه بمطلق الصرف والإنفاق أيضاً، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾[1].

ويمكن تأييد هذا ببعض الأخبار الواردة في المقام.

والرغد: الطيّب الواسع الهنيء، ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ تأكيداً لمعنى الرغد، إذا لوحظ الرغد بالمعنى الأعمّ من السعة في المكان والزمان، وسائر الخصوصيّات والجهات، فتدلّ على الإباحة المطلقة إلّا الشجرة

---

١. سورة النساء، الآية: ٢٩.

الخاصّة، وأنّ ذلك هو معنى رغد العيش لغةً، فيستفاد منه التوسعة في جميع وسائل النعمة والراحة لهما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَاتَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾:

القرب المنهي عنه في المقام، كناية عن كثرة الاهتمام بترك المنهي عنه، فكأنّه تعالىٰ نهىٰ عن الاقتراب منه فضلاً عن ارتكابه، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم، والمحاورات الصحيحة، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾(٣).

فيكون محصّل المعنى التأكيد والمبالغة في ترك الأكل من الشجرة، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ﴾(٤).

ويمكن أن يكون للنهي عن نفس القرب موضوعية خاصّة، لأنّ مَن يقترب إلى المبغوض يوشك أن يقع فيه، كما قال عليّ عليه السلام:

«المعاصي حمى الله، ومَن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيها».

ولم يبيّن سبحانه الشجرة التي نهى آدم عليه السلام عنها، وقد اختلفت الروايات في تعيينها، وتفاوتت أقوال المفسّرين فيها بين الإفراط والتفريط:

فعن بعض: أنّها شجرة الكافور.

وعن آخر: أنّها السنبلة.

وعن ثالث: أنّ البحث عنها لغوٌ لا فائدة فيه.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥١.

٢. سورة الإسراء: الآية ٣٢.

٣. سورة الإسراء: الآية ٣٤.

٤. سورة الأعراف: الآية ٢٢.

كان مستند هذه الأقوال الروايات الواردة في المقام، فهي قاصرة سنداً، ولم يحرز كونها لبيان الواقع، وإن كان غيرها فلم يعلم حجيّته.

نعم، في بعض الأخبار أنّها من شجرة الخلد، وهو مخالفٌ لما في أخبار أُخرى تدلّ علىٰ أنّ الجنَّة من جنات الدُّنيا، تطلع فيها الشمس والقمر ـ كما سيأتي ـ وتقدّم شرح ذلك.

ويمكن أن يقال: إنّها كانت مثالاً لحقيقة الدُّنيا، فإنّها تظهر لأنبياء الله تعالى وأوليائه بأشكال مختلفة:

فتارةً: في صورة الإمرأة، كما ظهرت لنبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في ليلة المعراج، وظهرت لعلي عليه السلام.

وأُخرىٰ: ظهرت لآدم عليه السلام وحواء في صورة الشجرة، وقد نهى الله عن قربها، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾[1]، أي تقع في تعب الدُّنيا.

كما أنّ التأمّل في مجموع الآيات والروايات الواصلة إلينا في قصة آدم عليه السلام، تدلّ علىٰ أنّ النهي عن الدنوّ إلى الدُّنيا والاقتراب منها لذلك، لاسيّما لمن اتّصف بالخلافة الإلٰهيّة، وسيأتي في البحث الروائي تتمّة الكلام.

وكيف كان، فإنّ النهي كان لمصالح كثيرة:

منها: الإشارة إلى أن الإنسان لم يخلق للبقاء في تلك الجنّة، بل خلق للأرض، وفي الأرض.

ومنها: كما عرفت.

فلابدّ وأن تقع هذه المخالفة، وكم كانت لها فوائد وآثار لآدم عليه السلام وذرّيته فلولاها لما حظي بمقام الاصطفاء، ولما ظهرت آثارحكمته البالغة في خلق الإنسان، وغير ذلك من الحِكَم والمصالح.

١. سورة طه: الآية ١١٧.

قوله تعالىٰ: ﴿فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾:

الظلم هو عدم النور، وللظلمة مراتب كثيرة فهي تتحقّق بإتيان الكبيرة، أو الصغيرة، أو ترك الأولى، وربما تتحقّق في الغفلة عن الله تعالىٰ.

والمراد به في المقام الظلم على النفس، لأنّ ارتكاب ما لا يرتضيه المعبود، ولو علىٰ نحو التنزه بالنسبة إلىٰ بعض، لا يناسب العبودية المحضة، فيستفاد من ذلك أنّ النهي كان من مجرّد الإشارة إلى ما يترتّب على ارتكابه من آثار، كما هي مذكورة في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى* وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[١].

فيكون المعنى إنّك إن خرجت منها تمنع نفسك من الكرامة والنِّعم، وتلقىٰ هذه المصاعب، وهي عبارة أُخرى عن الشقاء والتعب الملازم لدار الدُّنيا، كما قاله تعالى في آية أُخرى، فلا يكون الارتكاب موجباً لترتّب العقاب الأخروي.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾:

مادّة (ز ل ل) تدلّ على الاسترسال في الشيء بلا تعمّد وقصد، ولو كان بسبب الترغيب من الغير مكراً وخديعة، كما في المقام، فإنّ الشيطان حملهما على الأكل من الشجرة، بما وسوس لهما في قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[٢].

وقوله: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ﴾[٣].

---

١. سورة طه: الآية ١١٨ ـ ١١٩.

٢. سورة طه: الآية ١٢٠.

٣. سورة الأعراف: الآية ٢٠.

وقسمه لهما: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾[١].

ثمّ إنّ الآيات الواردة في المقام ثلاث:

الأُولى: هذه الآية وهي لا تدل علىٰ وقوع مكروه منهما عن عمد واختيار، حتّىٰ يبحث عن أنّه كبيرة أو صغيرة، أو من مجرّد ترك الأولى. فهي إرشادٌ محض إلى ترتّب أثر الارتكاب عليه ترتّب اللازم على الملزوم. وأمّا أنّ هذا اللازم مكروه له تعالى أو غيره، فلا يستفاد ذلك منها.

الثانية: قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[٢]، وهي أصرح في عدم صحّة نسبة العمد إليه، فيكون نظير قصة ذي الشمالين مع النبيّ ﷺ، التي رواها الفريقان الدالّة علىٰ نسيان النبيّ ﷺ في الصلاة المحمولة على الإنساء، لمصالح كثيرة.

الثالثة: قوله تعالىٰ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[٣].

والحقّ أنّ لنفس استعمال هذه العناوين موضوعية خاصّة في آدم، لمصالح كثيرة، منها أن لا يخطر في قلب آدم الكبر، لأنّه خليفة الله تعالىٰ، وأنّه خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه الأسماء، وأسجد الملائكة له.

فيكون استعمال العناوين المتقدِّمة في الآيات المباركة من الله تعالى في آدم عليه السلام نحو إصلاح تربوي ومعنوي له، لا أن يكون المراد الواقعي منها، بقرينة سائر الآيات والروايات.

---

١. سورة الأعراف: الآية ٢١.

٢. سورة طه: الآية ١١٥.

٣. سورة طه: الآية ١٢١ـ ١٢٢.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾:

أي من النِّعَم التي شرحها الله عزَّوجلَّ في قوله تعالىٰ: ﴿وكلا منها رغداً حيث شئتما﴾.

وتدلّ الآية المباركة علىٰ أنّه لم يخرج عمّا أعدّه الله تعالى له من مقام خلافته، وتعليم الأسماء، وهذه قرينة أُخرى علىٰ أنّ الصادر منهما لم يكن معصية. ثمّ إنّ الآية المباركة مترتّبة علىٰ سابقتها، ترتّب المسبِّب على السبب.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾:

الهبوط النزول من العلوّ إلى ما دونه، والمراد به هنا النزول من المحل الذي لا عناء فيه إلى دار التعب والفناء، والكدورة والشقاء، ولا اختصاص لذلك بآدم عليه السلام وحواء، بل هو جار في مطلق الإنسان، وقد أثبت ذلك علماء الأخلاق والفلسفة والعرفان.

وربما يتوهّم: أنّ الآية تدلّ علىٰ أنّ الخلق كان في السماء، فنزل آدم عليه السلام منها إلى الأرض.

ولكنّه مردود: بأنّ الهبوط أعمّ من ذلك، فإنّ معناه النزول من محلّ مرتفع مطلقاً، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾[٢].

وأمّا الأخبار فيأتي ما يتعلّق بها عند نقلها.

والأمر بالهبوط هنا تكويني، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٣].

---

١. سورة هود: الآية ٤٨.

٢. سورة البقرة: الآية ٦١.

٣. سورة الأنبياء: الآية ٦٩.

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٢].

إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

ويصحّ أن يكون تشريعيّاً لوجوب الهجرة عقلاً وشرعاً لإعلاء كلمة الله تعالىٰ، كما كان شأن جميع الأنبياء والرسل والأولياء، فكما أنّ للهبوط دخلاً في نظام التكوبن، تكون للهجرة دخلٌ في نظام التشريع، فهذا الأمر تكويني من جهة، وتشريعي من جهة أُخرى.

ومورد الخطاب إمّا آدم عليه السلام وإبليس، وإتيان الاثنين بلفظ الجمع شائع، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا﴾[٣].

أو هما مع حواء، أو الذرية، وقد وردت بالنسبة إلى بعضها روايات، ولا فائدة في البحث عن ذلك بعد تحقّق المقصود، وهو الهبوط بالنسبة إلى الجميع والمعاداة بينهم.

وهذه العداوة تكوينية اقتضائية، حاصلة من التنافي والتباين بين الأنواع المختلفة، والصفات المتغائرة، وما الدُّنيا إلّا جمع المتخالفات، وتفريق المجتمعات، وهي دار الكون والفساد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾:

هذا بيان حكمة إرشاد آدم عليه السلام إلى ترك الأكل، وهناك حكم أُخرىٰ تأتي في الآيات المناسبة لها.

---

١. سورة هود: الآية ٤٤.

٢. سورة النحل: الآية ٤٠.

٣. سورة طه: الآية ١٢٣.

والمستفاد من هذه الآية المباركة، أنّ الأرض هي الغاية من حياة الإنسان فقط، فقد خلق آدمﷺ للأرض وللتمتّع بخيراتها والبقاء فيها إلى وقت محدود. وأنّها دار الأضداد والعداوة والشقاء تكويناً، لكونها دار الكون والفساد، وهداية خلفاء الله تعالىٰ، وإغواء الشياطين.

كما أنّ هذه الآيات وغيرها ممّا ورد في قصّة آدمﷺ، تدلّ علىٰ أنّ هؤلاء الثلاثة كان يرى أحدهم الآخر قبل الهبوط، قال تعالىٰ: **﴿إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ﴾**[2].

وقال تعالىٰ: **﴿قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾**[3].

وغير ذلك من الآيات والروايات.

وأمّا بعد الهبوط فلا يراه إلّا بعض أنبياء الله تعالى وأوليائه.

قوله تعالىٰ: **﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾**:

التلقّي القبول والأخذ بعد البيان والذكر. والمراد بالكلمات هنا كلّ ما يكون له أثر في رفع الحزازة الحاصلة من المخالفة، فهي راجعة إلى إظهار توبته، وندامته، واستغفاره، ويمكن تطبيقها على الدعوات التي ألهمها الله تعالى لآدمﷺ، كقوله عزّوجلّ: **﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾**[4].

وغير ذلك ممّا يأتي في الروايات، فإنّه يكون من باب التطبيق أيضاً.

---

١. سورة طه: الآية ١١٧.

٢. سورة الأعراف: الآية ٢١.

٣. سورة طه: الآية ١٢٠.

٤. سورة الأعراف: الآية ٢٣.

قوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

التوب: هو الرجوع. فإذا وصف به الله، يكون إمّا بمعنى إلهام التوبة إلى العبد وتوفيقه لها، أو بمعنى رجوع الله وإقباله على العبد بعد مخالفته وعصيانه. وإذا وصف به العبد يكون بمعنى الندم عما فعل، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «كفى بالندم توبة».

ولا يلزم أن تكون التوبة من الذنب، بل تصحّ عن التوجّه إلىٰ غير الله تعالىٰ، ولو كان مباحاً، فإن «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

وكل توبة من العبد تلازم أُموراً ثلاثة:

الأوّل: توفيق الله عبده للتوبة برجوعه تعالى عليه بعد العصيان، قال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[١].

الثاني: توبة العبد وندمه عن المعصية.

الثالث: قبوله تعالى توبة العبد.

ويأتي تفصيل ذلك في الآيات المباركة المناسبة لها.

والتوّاب إمّا بمعنى قبول التوبة عن عباده كثيراً بحسب كثرة التائبين.

أو أنّه عزَّوجلَّ يقبل توبة العبد الواحد، وإن صدر الذنب عنه متعدِّداً.

أو يكون بمعنى كلّ منهما.

وجميع ذلك صحيح.

والجمع بين التوّاب والرحيم، فيه إيماء إلى أنّه تعالى يتفضّل على التائب، مضافاً إلى العفو والمغفره بالإحسان إليه.

وفي مثل هذه الآية المباركة دلالة واضحة علىٰ أن الله تعالى هو الذي يلهم عباده التوبة ويقبلها، وأنّ بابها مفتوح من حين هبوط آدمﷺ إلى انقراض العالم،

---

١. سورة التوبة: الآية ١١٨.

بل التوبة من أهمّ ما انتفع به الإنسان من الهبوط إلى الأرض، فإنّه تعالى جعل من حكمته التوبة والعصيان قريني الإنسان كفرسي الرهان، فهذه الآية المباركة في مقام بعض حِكم الهبوط، وفي الآية التالية البعض الآخر.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً﴾:

قد ذكر سبحانه وتعالى الهبوط مرّتين:

الأولى: لبيان أصل الهبوط من الجنَّة إلى دار الشقاء والعناء والعداء، كما عرفت.

والثانية: لبيان الغاية من هذا الهبوط، وهي ظهور سعادة السعداء، وشقاوة الأشقياء.

فالآية تبيّن الغرض من الخلق، وأنّه كان في الأرض، والخطاب هنا ظاهر في الجميع أي آدم عليه السلام وذرّيته.

ويمكن أن يقال: إنّ الهبوط الأوّل من حيث الجهات المادّية الجسمانية أي الدنيوية. والهبوط الثاني من حيث الاستكمالات المعنوية في سلسلة الصعود إلى المقامات العالية الإنسانيّة، ولذا ذكره تعالى بعد التوبة والرجوع إلى الله عزّوجلّ، وأنّه الغاية القصوى من الهبوط، وذكر قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بعنوان مستقلّ، لئلّا يتوهّم أحد أنّه غاية الهبوط أيضاً، بل هو أمر اختياري حاصل لمن اختار ذلك بعمده واختياره.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

جملة خبرية في مقام الإنشاء، يعني أنَّ من اتبع هدى الله تعالىٰ، ينبغي أن لا يخاف من غيره، ولا يحزن لما فات عنه، لأنّ متابعة العبد لهداية الله تعالىٰ، توجب انقطاعه إليه، وهو يستلزم نفي الحزن والخوف عنه في الدارين، ويشهد

لذلك قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[١].

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**[٢].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة، هذا من جهة المتابعة.

وأمّا من جهة العبودية، فيعرضه الحزن، لأنّه ما بين الخوف والرجاء، كما في كثير من الروايات.

والمراد بالهداية في هذه الآية المباركة، جميع الشرائع السماوية، كلٌّ بحسب زمانه وعصره. والمراد من المتابعة هنا الالتزام بها عملاً واعتقاداً.

قوله تعالىٰ: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**.

مادّة (كفر) في مطلق استعمالاتها، تدلّ على الستر ـ كما تقدَّم ـ سواء أكان متعلّقه أصل الإيمان أم الطاعة، فيساوق الفسق من هذه الناحية، أم عن الشكر فيساوق الكفران.

والتكذيب خلاف التصديق، وكلّ منهما أعمّ من القول والفعل. وآيات الله علاماته كتوحيده وعبادته ومعاده، من حيث الثواب والعقاب، فيثبت بتكذيب كل واحد منها كفر الجحود. وإنّما ذكر تعالى الكفر الخاص أي التكذيب بعد العام أي المطلق الكفر، لينبّه على الجحود الذي هو موجب للخلود في النار.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٧٧.

٢. سورة الأنعام: الآية ٤٨.

ثمّ إنّه يستفاد من مجموع الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام هنا، وفي سورة الأعراف، وسورة طه أنّ له مراحل عشرة، ولا تخلو ذرّيته عنها أيضاً.

الأولى: مرحلة ما قبل نفخ الروح، وهي بمنزلة الجنين في سائر افراد الإنسان.

الثانية: مرحلة نفخ الروح، وهي بمنزلة تكريم المولود، وهي حالة اعتناء الله تعالى بآدم عليه السلام وتعظيمه، وأمره بسجود الملائكة له.

الثالثة: مرحلة القُربية، وهي تعليم الله تعالى الأسماء كلّها لآدم عليه السلام، وهي بمنزلة تعليم الوالدين وتربيتهما للولد.

الرابعة: مرحلة بيان الفضل، وهي مرحلة السجود لآدم عليه السلام، وإظهار فضل المسجود له على الساجد، وهذه المرحلة توجد في ذرّيته، وهي حياة التفاضل والتفاخر.

الخامسة: مرحلة التمتّع واللّعب، وهي مرحلة إسكان آدم عليه السلام الجنة.

السادسة: مرحلة تزاحم الأهواء والأفكار والآمال، وهي مرحلة إرشاد آدم عليه السلام إلى ترك الأكل من الشجرة التي قلنا إنها بمنزلة الوجود المثالي للدنيا، لئلا يقع في متاعبها ومشاقّها، وهي مرحلة التميّز في أفراد الإنسان.

السابعة: مرحلة التمايل الجنسي وتوليد المثل، وهي مرحلة ظهور السوأة **﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾**[1]، وهي ظاهرة في أفراد الإنسان.

الثامنة: مرحلة العيش والبقاء الدائمي، المستفاد من تعليق قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾**[2]، علىٰ ترك الأكل من الشجرة، والعيش والبقاء غير الدائمي، المستفاد من قوله تعالىٰ: **﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ**

---

١. سورة طه: الآية ١٢١.

٢. سورة طه: الآية ١١٨.

إِلَى حِينٍ﴾[١].

التاسعة : مرحلة التكليف والعمل، إمّا في طريق الهداية والإيمان، أو الكفر والخسران.

العاشرة : مرحلة النتائج إمّا الثواب، أو العقاب.

هذه هي المراحل التي يمرّ بها الإنسان، كما مرّت على آدم عليه السلام أوّل خليقته، ويمكن إرجاعها إلى ثلاث مراحل:

مرحلة الأجنّة، مرحلة الطفولة، مرحلة الرُّشد والكمال.

وتنطوي في كلّ مرحلة سائر الحالات المتقدِّمة، وتجري هذه المراحل في النوع البشري، وأُصول المجتمعات أيضاً.

***

١. سورة البقرة: الآية ٣٩.

بحوث المقام

بحث روائي:

في «الكافي» و«العلل»، عن أبي عبد الله عليه السلام:

سألته عن جنّة آدم؟

فقال: من جنّات الدُّنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنّات الآخرة ما خرج منها أبداً».

أقول: لا يستفاد من هذه الرواية مكانها، وإنّما يستفاد أنّها كانت من جنّات الدُّنيا، ولابدّ من التأمّل في ذيل هذه الرواية: «ولو كانت من جنّات الآخرة ما خرج منها أبداً»، لأنّ جنات الآخرة لا يخرج أهلها منها بعد عملهم وعمرانهم لها، وأمّا أنّ الحكم كذلك قبل العمل، وقبل كلّ شيء، ففيه بحث وتفصيل.

في تفسير «القمّي»:

«سُئل الصادق عليه السلام عن جنّة آدم، من جنّات الدُّنيا أم من جنات الآخرة؟

فقال: كانت من جنات الدُّنيا، تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الآخرة ما أخرج منها أبداً».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بها في سابقها.

العياشي، عن أبي جعفر عليه السلام: «ولا تقربا هذه الشجرة، يعني: لا تأكلا منها».

أقول: قد مرَّ أنّه يمكن إرادة نفس القرب أيضاً، اهتماماً بالنهي، فيكون ذكر الأكل من باب ذكر النتيجة.

«تفسير العسكري»، في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾**:

«شجرة العلم، شجرة علم محمّد وآل محمّد ﷺ، الذين آثرهم الله عزّوجلّ به دون سائر خلقه، فقال تعالىٰ: لا تقربا هذه الشجرة؛ شجرة العلم، فإنّها لمحمّدٍ وآله خاصّة، دون غيرهم ولا يتناول منها بأمر الله إلّا هم.

ثمّ قال عليه السلام: وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البرُّ، والعنب والتين، والعنّاب، وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة. فلذلك اختلف الحاكمون لذكر الشجرة، فقال بعضهم: هي برة، وقال آخرون: هي عنب، وقال آخرون: هي تينة، وقال آخرون: هي عنابة».

أقول: أمّا ذيل الحديث فيؤيد ما قلناه من أنّ الشجرة كانت مثالاً للدنيا وما فيها، بحسب الوجود المثالي. وأمّا صدره فيمكن حمله علىٰ أنّ لبعض تلك الأشجار نحو أثر خاصّ، لم يظهر ذلك إلّا لبعض أولياء الله تعالىٰ، كما يدلّ عليه ما ورد في بعض أخبار الطينات.

في «العيون»، عن عبد السلام بن صالح الهروي:

«قلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله ﷺ أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها، فمنهم مَن يروي انها الحنطة، ومنهم مَن يروي أنّها العنب، ومنهم مَن يروي أنّها شجرة الحسد؟

فقال عليه السلام: كلّ ذلك حقّ.

قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟

فقال: يابن الصلت، إنّ شجرة الجنَّة تحمل أنواعاً، وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدُّنيا».

أقول: لا ريب في أنّ تلك الجنَّة ولو كانت في الدُّنيا لها خصوصيّة، ليست تلك الخصوصيّة في جميع جنات الدُّنيا، ومن جهة قلة التزاحم والتنافي في تلك الجنَّة أو عدمهما، فيصحّ أن تحمل شجرة منها أنواعاً من الثمار، فلا تنافي بين

هذه الرواية، وبين ما قلناه سابقاً، وقد دلّت روايات أُخرى متعدّدة علىٰ أنّها شجرة الحنطة، ولا تنافي ما تقدّم.

في «الكافي» عن أبي الحسن عليه السلام:

«إنّ لله إرادتين ومشيتين: إرادة حتم وإرادة عزم، ينهى وهو يشاء، ويأمر وهو لا يشاء. أوَمَا رأيت أنّه نهى آدم وزوجته أن ياكلا من الشجرة وشاء ذلك، ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلب مشيتهما مشية الله، وأمر إبراهيم أن يذبح إسماعيل، ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيّة إبراهيم مشيّة الله».

وفيه أيضاً، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«أمر الله ولم يشأ، وشاء ولم يأمر. أمر إبليس أن يسجد لآدم وشاء أن لايسجد، ونهى آدم عن أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها، ولو لم يشأ لم يأكل».

أقول: بيان مثل هذه الأخبار يحتاج إلىٰ شيء من الشرح والتفصيل، موكول إلى محلّه.

المعروف بين العلماء أنّ الإرادة إنّما هي الشوق المؤكّد الحاصل بعد التصوّر والتصديق، وهذا في إرادة المخلوق واضحٌ لاريب فيه؛ وحيث إنّ هذا المعنى في الذات الأقدس الربوبي، يستلزم كون الذات محلّ الحوادث وهو ممتنعٌ، ولذا جعل الأئمّة الهداة عليهم السلام الإرادة بجميع مقدّماتها من صفات الفعل لا الذات، وصرّحوا بأنّ المشيّة والإرادة محدثة، وبذلك تنحلّ جميع الإشكالات الواردة علىٰ إرادته تعالى، التي وقع الفلاسفة في اضطراب عظيم في الجواب عنها، لأنّهم ذهبوا إلى أنّ الإرادة في مرتبة ذاته الأقدس، والاختلاف بين الصفات إنّما يكون في المفهوم دون المصداق. ولعلّنا نتعرّض لمذهبهم والجواب عنه في الموضع المناسب.

وعن جمع من أكابر المحقّقين، إرجاع الإرادة فيه عزّ وجلّ إلى الرضاء

وابتهاج الذات بالذات، وفصل القول في ذلك.

وهذا القول وإن كان حسناً ثبوتاً، ولكن لاربط له بالارادة، ويحتاج إلى تكليف وعناية.

ثم إنّ الإرادة: إمّا تكوينية أو تشريعية.

فإن تعلّقت بفعل ذات المريد، فهي تكوينية.

وإن تعلّقت بفعل الغير، وكانت كإيجاد الداعي لأن يفعل الغير ذلك الفعل، بحيث لو لا هذا الداعي لا يفعله، تكون تشريعية.

فتكون إرادته تعالى بالنسبة إلى النظام الأتمّ الأكمل من الأُولىٰ، وبالنسبة إلى إنزال الكتب وإرسال الرسل من الثانية، هذا بحسب الظاهر.

وأمّا بحسب الواقع والحقيقة، فالثانية ترجع إلى الأُولى، فإنّ من أحسن النظام وأتمّه وأكمله في عالم التكوين، إنزال الكتب وإرسال الرسل.

وأمّا قوله عليه السلام: «أمر الله ولم يشأ»، فالمراد بالأمر الأمر التشريعي الظاهري، والمراد بمشيئة العدم، المشيئة التكوينية الاقتضائية.

كما أنّ المراد بنهي آدم عليه السلام النهي الإرشادي الظاهري، والمراد بمشيئة الأكل المشيئة التكوينية الاقتضائية، وفي كلّ ذلك مصالح لا تعدّ ولا تحصى.

وعليه يحمل ما في الرواية الأُخرى: «إنّ لله إرادتين ومشيئتين».

وهذه الروايات صريحة في أنّ ما صدر من آدم عليه السلام، لم يكن من المعصية، كما عرفت.

والمراد من قوله: «ونهى آدم عن أكل الشجرة»، أي القرب منها، كما تقدّم، وسيأتي في بعض الروايات التصريح بذلك.

وفي «العلل»، عن الباقر عليه السلام:

«والله لقد خلق الله آدم للدُّنيا، وأسكنه الجنَّة ليعصيه فيرده إلى ما خلقه».

أقول : هذه الرواية نحو شرح وبيان لجميع الأخبار الواردة في المقام، وهي دليل علىٰ ماقلناه مراراً من أنّ آدم عليه السلام من الأرض وللأرض.

في «إكمال الدِّين»، عن الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«إنّ الله عزّوجلّ عهد إلى آدم أن لايقرب الشجرة، فلما بلغ الوقت الذي كان في علم الله أن يأكل منها نسي فأكل منها، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً**﴾».

أقول : يصحّ أن يُراد بالنسيان الانساء، يعني أنساه الله تعالى لتجري مقاديره الأزلية، كما مرَّ في حديث ذي الشمالين في صلاة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله.

العياشي في تفسيره، عن أحدهما عليهما السلام:

«وقد سُئل كيف أخذ الله آدم بالنسيان؟

فقال: إنّه لم ينس، وكيف ينسى وهو يذكره، ويقول له إبليس: (ما نهاكما ربّكما عن هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين)».

أقول : هذا الحديث قرينة واضحة ـ لما تقدّم من الأخبار ـ، علىٰ أنّ المراد بالنسيان الانساء.

في «العيون»، عن عليّ بن محمّد بن الجهم، قال:

«حضرتُ مجلس المأمون، وعنده علي بن موسى عليه السلام.

فقال له المأمون: يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أليس من قولك إنّ الأنبياء معصومون؟

فقال: بلى.

قال: فما معنى قول الله تعالىٰ: ﴿**فعصىٰ آدم ربّه فغوىٰ**﴾؟

قال: إنّ الله تعالى قال لآدم: ﴿**اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ**﴾، وأشار لهما إلى شجرة الحنطة، فتكونا من

الظالمين، ولم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجرة، ولا ممّا كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة، ولم يأكلا منها، وإنّما أكلا من غيرها، لمّا أن وسوس الشيطان إليهما، وقال: (ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة)، وإنّما نهاكما أن تقربا غيرها، ولم ينهكما أن تاكلا منها، إلّا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، ولم يكن آدم وحواء شاهدين قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً، فدلّاهما بغرور، فأكلا منها ثقةً بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوّة، ولم يكن ذلك بذنب كبير استحقّ به دخول النار، وإنّما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي إليهم، فلمّا اجتباه الله وجعله نبيّاً كان معصوماً لا يذنب صغيرة ولا كبيرة، قال الله عزّوجلّ: **﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾**، وقال عزّوجلّ: **﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**».

أقول: مثل هذه الروايات الواردة عن الأئمّة الهداة عليهم السلام، خصوصاً مولانا الرضا عليه السلام في الجواب عن الإشكالات التي أُوردت على عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم، لا يختصّ بأن يجيب بها الإمام عليه السلام، بل يمكن أن يجاب بكلّ وجه صحيح يجمع به بين الأدلّة الدالّة على العصمة، ومثل هذه الآيات الموهمة للتنافي بينها وبين العصمة.

ولنا أن نُجيب عن الإشكال في هذا المجال بكلّ ما يقبله الطبع السليم والذهن المستقيم. ولكن في رواية ابن الجهم جهات من البحث:

الأُولى: في سند الحديث علي بن محمّد بن الجهم، وقد ضعّفه كلّ مَن تعرّض له، فلا اعتبار بمثل هذا الحديث، وسياق المتن يدل على أنّه ليس من الإمام عليه السلام، خصوصاً من مثل مولانا الرضا عليه السلام، بل هو من المفتعلات عليه.

الثانية: قوله: «إنّما أكلا من غيرها»، مخالفٌ لصريح الآية المباركة الدالّة

علىٰ أنّ الأكل كان من نفس الشجرة المنهي عنها، كما تقدّم.

الثالثة : قوله : «وكان ذلك قبل النبوّة»، مخالفٌ لإجماع أهل البيت والإمامية من عصمة الأنبياء مطلقاً، كما سيأتي في البحث الكلامي فلابدّ من طرح الحديث.

وعن أبي الصلت الهروي، في «الأمالي»، قال :

«لمّا جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليه السلام أهل المقالات، من أهل الإسلام والديانات، من اليهود والنصارى، والمجوس، والصابئين، وسائر أهل المقالات، فلم يقم أحد حتّى ألزم حجّته، كأنّه أُلقم حجراً، فقام إليه علي بن محمّد بن الجهم، فقال له : يا ابن رسول الله صلى الله عليه وآله أتقول بعصمة الأنبياء؟

قال : بلى.

قال : فما تعمل بقول الله عزّوجلّ : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾....

إلى أن قال: فقال مولانا الرضا عليه السلام : ويحك يا علي إتّق الله، ولا تنسب إلى أنبياء الله الفواحش، ولا تتأوّل كتاب الله عزّوجلّ برأيك، فإنّ الله عر وجل يقول : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1]. أمّا قوله عزّوجلّ في آدم : ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، فإنّ الله عزّوجلّ خلق آدم في أرضه، وخليفته في بلاده، لم يخلقه للجنّة، وكانت المعصية من آدم في الجنّة لا في الأرض، لتتمّ مقادير أمر الله عزّوجلّ، فلما أهبط إلى الأرض، وجعل حجّة وخليفة عُصم بقوله عزّوجلّ : ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾».

أقول : هذا الحديث شاهدٌ لما قلنا في الحديث السابق، وقوله : «فإنّ الله عزّوجلّ خلق آدم في أرضه، وخليفته في بلاده» ظاهرٌ بل ناصّ في عدم صدور المعصية منه، من حين نفخ الروح فيه، كما تدلّ عليه نصوص مستفيضة، أنّ أوّل ما

---

١. سورة آل عمران : الآية ٧.

خلقه الله عزّوجلّ هو الحجّة، وآخر مَن يذهب من الدُّنيا هو الحجّة.

وأمّا قوله: «وكانت المعصية من آدم في الجنّة لا في الأرض».

تقدّم ما يتعلّق به من أنّه ليس من النهي الموجب للمعصية الاصطلاحيّة، وإنّما هو إرشاد إلى عدم وقوعه في متاعب الدُّنيا ومشاقّها، كما مرّ.

عليّ بن إبراهيم، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«أنّ موسى سأل ربّه أن يجمع بينه وبين آدم عليه السلام، فجمع، فقال له موسى عليه السلام: يا أبت ألم يخلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك الملائكة، وأمرك أن لا تأكل من الشجرة، فلِمَ عصيته؟

فقال: ياموسى بكم وجدت خطيئتي قبل خلقي؟

قال: بثلاثين ألف سنة.

فقال: هو ذاك.

قال الصادق عليه السلام: فحجّ آدم موسىٰ».

أقول: رواه الفريقان، كما في «كنز العمال» عن النبيّ صلى الله عليه وآله، ومعنى الرواية احتجّ آدم علىٰ موسىٰ وغلب عليه، والمراد بوجدان خطيئة آدم قبل خلقه التقدير الاقتضائي لله تبارك وتعالى باختيار آدم عليه السلام.

وفي «تفسير العياشي»، عن عبد الله بن سنان، قال:

«سئل أبو عبد الله عليه السلام ـ وأنا حاضر ـ: كم لبث آدم وزوجته في الجنَّة حتى أخرجهما منها خطيئتهما؟

فقال: إنّ الله تبارك وتعالى نفخ في آدم روحه بعد زوال الشمس من يوم الجمعة، ثم برأ زوجته من أسفل اضلاعه، ثمّ أسجد له ملائكته، وأسكنه جنته من يومه ذلك، فوالله ما استقرّ فيها إلّا ستّ ساعات من يومه ذلك حتّى عصى الله تعالىٰ، فأخرجهما الله منها بعد غروب الشمس، وصيّرا بفناء الجنَّة حتّى أصبحا،

فبدت لهما سوآتهما وناداهما ربهما (ألم أنهكما عن تلكما الشجرة)، فاستحى آدم فخضع، وقال: ربنا ظلمنا أنفسنا واعترفنا بذنوبنا فاغفر لنا، قال الله لهما: اهبطا من سماواتي إلى الأرض، فإنّه لا يجاورني في جنّتي عاصٍ ولا في سماواتي».

أقول: تقدّم كيفيّة خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام.

وقوله: «وصيّرا بفناء الجنّة»، يستفاد من هذه الجملة أمران:

الأوّل: تكرّر الهبوط ـ كما في غيرها من الروايات ـ الأوّل إلى فناء الجنّة، والثاني منها إلى الأرض.

الثاني: يمكن أن يستفاد منه أنّ الشيطان لم يدخل الجنَّة بعد ترك السجود، بل كان في فناء الجنّة، فحصلت مكالمة بينه وبين آدم في هذا المكان.

روى الصدوق، عن أبي جعفر، عن آبائه، عن علي عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّما كان لبث آدم وحواء في الجنَّة حتّى أخرجا منها سبع ساعات من أيّام الدُّنيا حتى أهبطهما الله من يومهما».

أقول: تقدّم في الحديث السابق أنّ زمان الاستقرار في الجنَّة كان ست ساعات، ولا تنافي بينهما، إذ الحصر ليس حقيقيّاً حتى يحصل التنافي، بل هو إضافي وتقريبي.

في «تفسير العسكري»:

«كان إبليس بين لحيي الحيّة أدخلته الجنَّة، وكان آدم يظنّ أنّ الحيّة هي التي تخاطبه، ولم يعلم أنّ إبليس قد اختفى بين لحييها، فردّ آدم على الحية أيّتها الحيّة هذا من غرور إبليس، الحديث».

أقول: وفي رواية أُخرى الطاووس.

وكيف كان، فقد ذكر الثعبان من حيوانات جنّة آدم في التوراة في قضية

الهبوط ، ولعل هذا الحديث وأمثاله مع هذا التعبير مأخوذ منها . وقد ذكرنا سابقاً أنّ إبليس كان يرى آدم ويتكلّمان مشافهة، فلا معنى للاختفاء والاستتار .

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ : ﴿اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾:

«فهبط آدم على الصفا ، وإنّما سمّيت الصفا ، لأنّ صفوة الله نزل عليها، ونزلت حواء على المروة ، وإنّما سميت المروة لأنّ المرأة نزلت عليها» .

أقول : الروايات محتلفة في محلّ هبوط آدم وحواء، ولا ريب ولا إشكال في أنّ بعد الهبوط الأوّل كانت منازل متعدّدة ، فيمكن الجمع بين تلك الروايات بجعل كلّ منزلٍ مهبطاً له، فيكون الهبوط طولياً لا عرضياً .

وفي «الاحتجاج» في احتجاج عليّ عليه السلام مع الشامي:

«حين سأله عن أكرم وادٍ علىٰ وجه الأرض؟

فقال : وادٍ يُقال له سرنديب، سقط فيه آدم عليه السلام من السماء» .

أقول : ظهر وجهه ممّا تقدّم في الحديث السابق .

في «الكافي» عن أحدهما عليهما السلام:

«في قول الله عزّوجلّ : ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

قال : لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهمَّ وبحمدك، عملتُ سوءً وظلمت نفسي فاغفر لي وأنت خير الغافرين ، لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهمَّ وبحمدك عملتُ سوءً وظلمت نفسي فاغفر لي وارحمني وأنت خير الراحمين ، لا إله إلّا أنت سبحانك اللّهمَّ وبحمدك عملتُ سوءً وظلمت نفسي فاغفر لي، وتُب عليَّ، وأنت التوّاب الرحيم» .

أقول : وفي مثل هذا المعنى روايات أُخرى مستفيضة عن الخاصّة والعامّة ، وجميع ذلك من باب التطبيق للآية المباركة ، ولقوله تعالىٰ : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ .

وروى الصدوق في قول الله عزّوجلّ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾.

«قال: سأله بحقّ محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين».

أقول: ونحو ذلك أخبار أُخرى كثيرة، وتقدّم أنّه من باب التطبيق علىٰ كلّ مايمكن أن يتقرّب به إلى الله تعالىٰ. ومن أهمّ مايتقرّب اليه تعالى الخمسة الطاهرين.

وعن ابن عبّاس، في رواية سعيد بن جبير، قال:

«سألت النبيّ ﷺ عن الكلمات التي تلّقاها آدم من ربّه فتاب عليه.

قال: سأله بحقّ محمّد وعلي وفاطمة والحسن والحسين إلّا تبت عليَّ، فتاب عليه».

وفي «الدرّ المنثور»، عن النبيّ ﷺ، قال:

«لمّا أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه الى السماء، فقال: أسألك بحقّ محمّد إلّا غفرت لي، فأوحى الله إليه ومَن محمّد؟

قال: تبارك أسمك، لمّا خلقتني رفعتُ رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فعلمتُ أنّه ليس أحد عندك أعظم قدراً ممن جعلت اسمه مع إسمك.

فأوحى الله اليه: يا آدم إنّه آخر النبيّين من ذرّيتك ولولاه ما خلقتك».

أقول: ذيل الحديث منقولٌ من الفريقين، ومرّ في روايات كثيرة كما تقدّم بعضها.

بحث كلامي:

أجمع المسلمون علىٰ عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام من الكفر مطلقاً، ولكنّهم اختلفوا في بعض الصغريات. وعمدة الأقوال ثلاثة:

الأوّل : القول بالعصمة مطلقاً من جميع الذنوب ، وفي جميع الحالات، وهذا هو مذهب الإمامية .

الثاني : القول بالعصمة من الكبائر مطلقاً ، وأمّا الصغائر فإنّها جائزة عليهم سهواً ، وهذا هو مذهب المعتزلة .

الثالث : القول بالعصمة عن الكبائر عمداً ، ولكنّها جائزة عليهم سهواً، وهذا هو مذهب الأشاعرة .

وهناك أقوال أُخرىٰ نادرة أجمع المسلمون علىٰ بطلانها .

ولم يستدلّ أصحاب هذين القولين بدليل يصحّ الاعتماد عليه، إلّا ما ورد في القرآن الكريم، ممّا يوهم ظاهره نسبة الظلم والمعصية إلى بعض الأنبياء عليهم السلام ، وسيأتي أنّه ليس علىٰ ظاهره ولا بد من تأويله .

والرأي المناسب لمقام النبوّة والرسالة، هو القول بعصمتهم مطلقاً ـ كما ذهب إليه الإمامية ـ من جميع الذنوب كبائرها وصغائرها ، عمداً وسهواً قبل البعثة وبعدها .

وقبل أن نذكر الأدلّة، لابدّ من بيان معنى العصمة علىٰ سبيل الإيجاز ، والتفصيل موكول الى محلّه .

العصمة : بمعنى المنع والإمساك، يقال عصم عن الشيء أي منعه وأمسكه . ومنه قوله تعالى حكاية عن ابن نوح : **﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾**[1] ، أي يمنعني منه .

والمعصوم هو الممنوع عن فعل المعصية، بلا إلجاء واضطرار حتّى ينافي الاختيار ، وإلّا كان العادل أحسن من المعصوم .

---

١ . سورة هود: الآية ٤٣.

وبعبارة أُخرىٰ : إنّها عناية خاصّة، وتوفيق من الله تعالى لبعض عباده، لعلمه الأزلي بصفاء طينتهم وجوهرهم، من دون أن يكون ذلك من العلّة التامّة كسائر عناياته وتوفيقاته عزَّوجلَّ بالنسبة إلى عباده، فقد يوفّق عبداً لصلاة الليل مثلاً، أو فعل الخيرات، وقضاء الحاجات أو الاتّصاف بالأخلاق الفاضلة ونحو ذلك، لا علىٰ وجه القهر والإلجاء والضرورة، بل علىٰ نحو إيجاد الداعي إليها.

ثمّ إنّهم استدلّوا بأدلّة كثيرة علىٰ عصمتهم مطلقاً، لا يخلو بعضها عن المناقشة، أو رجوع بعضها إلى الآخر. وأحسن تلك الأدلّة أمران:

الأوّل : أنّ حجّية القول والفعل والتقرير ـ كما هو المفروض ـ تنافي ارتكاب المنهي عنه عند الله تعالى وعند العباد، فيكون ذلك خُلفاً باطلاً بالضرورة.

بيان ذلك : إنّ العبد إذا كان يرى نفسه حاضراً بين يدي المولى، ويحسّ بشهوده ظاهراً وباطناً، كيف تصدر عنه المعصية، وهو في هذه الحالة في غيبة منه؟! ورسل الله تعالى يدركون بصفاء طينتهم، أنّهم دائما في حضرة القدس، يرون مظاهر جماله وجلاله، وآثار حكمته ورحمته، فلا يخطر في بالهم حالة أنّهم في غيبة عن الله تعالى فيها. وهذا معنى ما ورد في أحاديثنا:

«إنّ المعصوم مع القرآن والقرآن معه».

فإنّ المراد بالمعيّة، هي المعية الحضورية الالتفاتية العملية. كما أنّ المراد بالقرآن جميع الشرائع الإلٰهيّة بالنسبة إلى الأنبياء السابقين.

هذا مضافاً إلى أنّ صدور المعصية، يوجب تنفّر الطباع منهم، ويصغر شأنهم في أعين الناس، ويسهل اعتراضهم عليهم، ممّا ينافي حكمة بعث الأنبياء والرسل عليهم السلام، بلا فرق بين صدور المعصية قبل البعثة أو بعدها، كما هو المشاهد في من وصل إلى مرتبة من العدالة.

الثاني : الآيات القرآنية الدالّة علىٰ طُهرهم وقداستهم وتأييدهم بروح القدس ، واتّصافهم بجميع الأخلاق الفاضلة، ممّا يجعلهم القدوة الحسنة، والمَثل الأعلىٰ لجميع الناس :

قال تعالىٰ : ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾[١].

وقال تعالىٰ : ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[٢].

وقال تعالىٰ : ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً**﴾[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة .

وبناء علىٰ ما تقدَّم، لابدّ من تأويل ما ورد في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، ممّا يوهم ظاهره خلاف العصمة ، وسيأتي ذلك في مواضعه .

فقد ذكرنا أنّ ما ورد في آدم عليه السلام، كقوله تعالىٰ : ﴿**فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**﴾ لا يدلّ علىٰ صدور المعصية منه ، كما أنّ قوله تعالىٰ : ﴿**فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ ظاهره الظلم علىٰ نفسه بوقوعه في مشقّة الدُّنيا، لا الدخول في النار .

وأمّا قوله تعالىٰ : ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾[٤]، فإنّه ليس المراد منه صدور العصيان والغواية منه عليه السلام ، بل إنّ لنفس استعمال هذه الألفاظ موضوعية خاصّة ، فإنّ مقام آدم عليه السلام الذي خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلّمه الأسماء،

---

١ . سورة الأنعام : الآية ٩٠.

٢ . سورة الأنبياء : الآية ٧٢.

٣ . سورة الأنبياء : الآية ٩٠.

٤ . سورة طه : الآية ١٢١.

وأسجد له الملائكة، وأسكنه الجنَّة ربما يوجب في نفسه بعض الخطرات المنافية لمقامه عليه السلام فعَصَمه الله تعالىٰ بذلك. وقد يوجب ذلك كلّه غلوّ ذرّيته فيه فيعبدونه، فأذهب الله تعالى عنهم ذلك الغلو بما تقدّم من الألفاظ.

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾**[١]، فإنّ عهود الله تعالىٰ ومواثيقه على الأنبياء والمرسلين علىٰ قسمين:

عهدٌ عامّ: بالنسبة إلى جميع الأنبياء والمرسلين، قال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾[٢].

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾**[٣].

وعهد خاص: بكلّ نبيّ حسب الظروف والخصوصيّات الزمانية والمكانية التي تحيط بذلك النبيّ.

والمائز بين القسمين، هو القرائن، وما يستفاد من السنّة المعتبرة الواردة في حالات الأنبياء عليهم السلام.

والظاهر في المقام هو الثاني، لأنّ ترك العزم بالنسبة إلى الميثاق العام لايعقل، فإنّه خلف مع فرض النبوّة. نعم، هومعقول بالنسبة إلى العهود الخاصّة الظاهرة في الإرشاد، كما في المقام.

---

١. سورة طٰه: الآية ١١٥.

٢. سورة آل عمران: الآية ٨١.

٣. سورة الأحزاب: الآية ٧.

بحث فلسفي:

صريح الكتب السماوية، وفي مقدّمتها القرآن العظيم، وجميع الفلاسفة الإلهيّين، من المسلمين وغيرهم، علىٰ بديع صنع الله في الإنسان، وأنّه مخلوق حادث خلقه الله تعالى من الطين بهذه الهيئة المتميّزة عن سائر المخلوقات استقلالاً، من دون أن يكون مرتقيّاً من مخلوق آخر ـ نباتاً أو حيواناً ـ وتقتضي ذلك قاعدة «إمكان الأشرف»، التي أسّسها الفلاسفة في سلسلة الخليقة، فإنّ أقرب الموجودات إليه تعالىٰ، وأشرفها لديه، لابدّ وأن يقع في سلسلة الفيوضات الإلهيّة، الأوّل فالأوّل عند نزول الفيض منه عزَّوجلَّ، حتّىٰ يصل المستفيض إلى أدنى مرتبة الحضيض، إذ لا ريب في أنّه تعالى كامل بذاته وصفاته وفعله، فلا يتصوّر نقص في جهة من جهاته عزَّوجلَّ.

وما يتوهّم من النقص في الأفعال يرجع إلى أمرين:

أحدهما: عام للجميع، وهو الإمكان والاحتياج، فإنّ ما سواه ممكن محتاج إليه عزَّوجلَّ.

والثاني: من خصوصيات أفراد الممكنات، ومقتضى تماميّة فعله تعالى أن يكون أوّل مخلوقاته أشرفها، ثمّ بعد ذلك الأشرف فالأشرف في سلسلة الأنواع الكلّية، التي يكون نوعها منحصراً في الفرد، حتّى يصل الخلق إلى المادّيات التي هي منشأ التكثّر والانتشار.

إن قلت: نعم، قاعدة «إمكان الأشرف» متفقٌ عليها بين الفلاسفة ـ المسلمين منهم واليونانيّين ـ وتقتضيها جملة من الأدلّة النقلية أيضاً، ولكنّها مخالفة لظاهر الآية المباركة ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1]، وظاهر جميع الكتب السماوية من خلق الدُّنيا ـ والمسمّيات ـ في الجملة، قبل خلق آدم عليه السلام، كما

---

١. سورة البقرة: الآية ٣١.

عرفت في البحث الروائي السابق.

قلت: مورد القاعدة إنّما هو فيما إذا كانت السلسلة واحدة، ففي سلسلة المجرّدات والروحانيّين أوّل ما خلق الله العقل، ثمّ الأشرف فالأشرف، حتّىٰ يصل إلى آدم عليه السلام، وفي سلسلة المادّيات والأعراض، يكون الأشرف فالأشرف أشياء أُخرىٰ، تقدَّم بعضها في تفسير سورة الحمد، في قوله تعالىٰ: ﴿**ربِّ العَالَمِينَ**﴾. ويمكن أن تكون السلسلة الأخيرة متقدِّمة من بعض الجهات علىٰ بعض أفراد السلسلة الأُولى، إذ لا تنافي في ذلك.

وتوهم: أنّ أصل القاعدة إنّما يتمّ بناءً علىٰ لزوم السنخية بينه جلّ شأنه وبين خلقه، وقد أبطلتها الشرائع المقدّسة، فلا موضوع لقاعدة «إمكان الأشرف» أصلاً.

غير صحيح؛ لأنّه لا ربط للسنخية بهذه القاعدة أبداً، لما أثبتناه في الفلسفه الإلٰهيّة، من أنّ السنخية علىٰ فرض اعتبارها، إنّما هي في الفاعل الموجب لا في الفاعل المختار، والأئمّة الهداة عليهم السلام جعلوا إرادته تعالى عين فعله، حتّى لا يلزم توهّم هذه المحاذير.

فاحتمال تطوّر الإنسان عن ذي حياة آخر، فاسدٌ كما عرفت.

هذا كلّه في فعل الله عزّ وجلّ.

وأمّا فعل المخلوق، أي سلسلة استكمال المفاض عليه، يكون الأمر بالعكس، فيتعلّق الخلق بالداني أوّلاً، ثمّ يترقّى إلى مرتبة الكمال، لفرض أنّه مستكملٌ بغيره مطلقاً، قال تعالىٰ:

﴿**ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا**

الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١].

وللبحث تتميم يأتي في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

ولكن ذكر بعض الفلاسفة الطبيعيّين، استناداً إلى قانون العلّية في الأُمور الطبيعية، وأنّ كلّ حادث طبيعي لابدّ أن يستند إلى سبب طبيعي كذلك، وقد تفرّع عن هذا القانون الأصل المنسوب إلى داروين القائل بالنشوء والارتقاء والتكامل وبقاء الأصلح، فقد ذكر أنّ الإنسان لم يصل إلى هذه المرحلة الفعلية من الكمال إلّا بانتقاله من المراتب الدانية، وأنّ في مسيره هذا قد رأى من التحوّلات والتبدّلات الكثيرة التي نتج منها القضاء على الفرد الضعيف، وبقاء الفرد المستعدّ للكمال.

والمسلمون بل جميع المليّين في غنى عن هذا القول، بعد تصريح كتبهم المقدّسة باستقلالية خلق الإنسان، بل إنّ الطبيعة من جميع جهاتها مقهورة تحت إرادته، وهو بديع السماوات والأرض.

مع أنّ هؤلاء الفلاسفة اثبتوا للطبيعة اتّفاقيات ونوادر، فليكن هذا الخلق منها، ولا محذور فيه كما في سائر الاتفاقيات.

كما أنّ داروين وأنصاره لم يبيّنوا لنا متىٰ حصل هذا التحوّل في الإنسان، وما هي الحلقة التي انتقل منها إلى الفرد الكامل.

مع أنّ لنا أن نتسائل منهم، هل أنّ ذلك كان بحسب نظام الطبيعة فقط، مع قطع النظر عن المدبِّر الحكيم والخالق العليم؟

وهذا محال؛ لأنّ انقلاب نوع بعد تعيّنه النوعي ـ روحاً وجسماً ـ إلىٰ نوع آخر مستحيلٌ، إلّا بالاستحالة ـ ولا يقولون بها ـ أو بالتناسخ الذي أثبت الكلّ بطلانه.

---

١. سورة المؤمنون: الآية ١٤.

إن قيل : إنّ مسألة النشوء والارتقاء لا تخرج عن مسألة الحركة الجوهرية التي أثبتها بعض أكابر محقّقي الفلاسفة .

يُقال : بين المسألتين فرق كبير، لا ربط لإحداهما بالأُخرىٰ، كما يظهر بالتأمّل، وسيأتي شرح الأخيرة في مستقبل الكلام إن شاء تعالىٰ .

إن قلت : إنّهم يدّعون العثور علىٰ جماجم وعظام مضىٰ عليها أكثر من مائة ألف سنة ، الدالّة على التطوّر في بعضها ، وهذا لا يناسب ما ضبطه أهل التواريخ والسير، من جميع الفرق، من المدّة القليلة الماضية علىٰ هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض .

أقول : إنّه لابدّ وأن يتأمّل في أصل الدعوى؛ وعلىٰ فرض الصحّة يمكن أن يكون ما عثروا عليه من تلك الجماجم والعظام من الآدميين ما قبل خلق آدم عليه السلام، فإنّه آخر الآدميين في العوالم الدنيوية، وقبله آدم إلىٰ سبعين آدم، كما في الحديث ، ولا يعلم مقدار تلك الأزمنة، ولا مقدار الفاصل بين الآدميّين، ولا كيفيّتهم إلّا الله تعالىٰ .

***

الآية ٤٠ ـ ٤٣

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه خلق الإنسان، وحالاته وأطواره، خاطب طائفة خاصّة ـ وهم اليهود ـ وبدأ بذكرهم، لأنّهم أقدم الطوائف التي أرسل فيهم الأنبياء والرسل، وأنزل فيهم الكتب، وهم أوّل طائفة من الاُمم هبطوا من ذروة المقام الإنساني، إلىٰ درك حضيض البهيميّة، وهم السابقون في نقض عهد الله مصرّين علىٰ ذلك، وملتزمين بغيّهم وجحودهم، لا يرتدعون برادعٍ أرضيّ أو سماويّ، أتعبوا أنبياء الله بغيِّهم ولجاجهم، وشقّ علىٰ سيِّد المرسلين فسادهم وإفسادهم، وهم أشدّ الناس عداة للمؤمنين، ومن سُنّة الله تعالى المداراة مع العُصاة بكلّ ما أمكن ـ كما سيأتي في الآيات الشريفة ـ فقد تكرّر ذكرهم في القرآن لعلّهم يرشدون.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾:

إسرئيل مركّبٌ من كلمتين إسراء، بمعنى العبد، أو الصفوة، أو القوّة ـ علىٰ

ما يأتي في البحث الروائي ـ وائيل بمعنى الله تعالىٰ، ومعناه عبد الله أو صفيّ الله.

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن مكرراً. وإنّما ذكرهم سبحانه بهذا التعبير تحريضاً لهم بالتحلّي بمكارم الأخلاق، ونبذ مساويها؛ لأنّهم يرون أنفسهم من أهل صفوة الله والعبودية له عزَّوجلَّ، فلا ينبغي لهم هذا النحو من اللجاج والعناد والفساد، كما في قوله تعالىٰ: **﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ﴾**[1].

والذكر بمعنى الاستحضار، سواء كان باللسان أو القلب أو هما معاً:

فمن الأوّل: قوله تعالىٰ: **﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ﴾**[2].

ومن الثاني: قوله تعالىٰ: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾**[3].

ومن الأخير: قوله تعالىٰ: **﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾**[4].

وكذا قوله تعالىٰ: **﴿فَاذْكُرُوا اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾**[5].

وفي الحديث: «كانت الأنبياء إذا حزنهم أمر فزعوا إلى الذِّكر»، وفي بعض الأخبار (الصلاة) بدل (الذكر)، ويشهد له قوله تعالىٰ: **﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾**[6].

والآية لم تعيّن هذه النِّعمة التي اختصّهم الله تعالى بها، ولكنّه عزَّوجلَّ كرّم بني إسرائيل بأعظم أنحاء النِّعم، كما قال تعالىٰ:

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

٣. سورة البقرة: الآية ١٥٢.

٤. سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

٥. سورة النساء: الآية ١٠٣.

٦. سورة البقرة: الآية ٤٥.

﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١].

فجعلهم من أولاد الأنبياء، ووسمهم بالوسام الجليل، حيث جعلهم من ذرّية إبراهيم الخليل، وفضّلهم على الأُمم.

قال تعالىٰ: **﴿يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ﴾**[٢].

واصطفاهم بالنبوّة زمناً طويلاً، وفيهم من أنبياء أُولي العزم موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وأنزل فيهم التوراة التي هي أقدم الكتب السماوية وأعظمها بعد القرآن الكريم، قال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٣].

وبالجملة: فقد أعطاهم الله تعالىٰ من كلّ ما سألوه، فلابدّ أن يذكروا هذه النِّعم التي اختصّوا بها، ولكنّهم قابلوا ذلك بالكفران والإساءة، وأعرضوا عمّا أُمروا به، فكفروا بالنبي صلى الله عليه وآله بعدما جاءتهم البيّنات.

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾**:

الوفاء ضدّ الغدر، وهو الحفظ والإتمام وعدم النقض، وكثيراً ما يُستعمل في القرآن متعدياً من باب الافعال، كما في المقام، وقوله تعالىٰ: **﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾**[٤].

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١١.

٢. سورة المائدة: الآية ٢٠.

٣. سورة الجاثية: الآية ١٦.

٤. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

ويستعمل من باب التفغيل أيضاً، وقال تعالى في شأن خليله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[1]، أي بذل غاية جهده في جميع ما طولب به من الله تعالىٰ، وهو من أجلّ مقامات الخلّة.

والعهد: حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال، والاهتمام به، وهو من الصفات الإضافية، له تعلّق بالعاهد والمعهود اليه والمعهود به، إلّا أنّ في الأوّل يكون من الإضافة الى الفاعل، وفي الثاني كذلك إذا كان مع العوض، كما يكون من الإضافة إلى المفعول أيضاً.

والفرق بين العهد والميثاق: هو أنّ الثاني أخصّ من الأوّل، لأنّه العهد المؤكد بأنحاء التأكيدات والتوثيقات، سواءً أكان بين الله تعالىٰ وبين خلقه، أم بين خلقه بعضهم مع بعض، ومادّة (و ث ق) تدلّ علىٰ كمال التثبت.

والمعنى: أوفوا بعهدي الذي أبلغته اليكم بواسطة الأنبياء والرُّسل، من المواثيق والطاعات والعبودية.

وهي كثيرة، يأتي في الآيات التالية تعداد أُصولها، ومن جملة ما عهد إليهم، الإيمان بشريعة خاتم المرسلين، كما يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾.

والوفاء بالعهد مطلقاً، سواءً أكان من النّاس أم من الله تعالىٰ، يرجع إلى مصلحة الناس أنفسهم.

وإنّما سمّى سبحانه ذلك عهداً، وأوجب وفاءه علىٰ نفسه، تحنّناً منه وترغيباً لعباده إلى الطاعة، حيث يكون لهم حقّ مطالبة الجزاء مع الشرط، فيصير المقام نظير آية الاشتراء:

---

١. سورة النجم: الآية ٣٧.

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[١].

مع أنّ السلعة والمشتري، وقدرته وإرادته من الله تعالىٰ، ولذلك نظائر كثيرة يأتي التعرّض لها.

ويمكن أن يكون الترتيب، في قوله تعالىٰ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ من قبيل ترتّب المعلول على العلّة، لا من ترتّب وفاء أحد المتعاوضين علىٰ وفاء الآخر.

قوله تعالىٰ: ﴿وإيّاي فارهبون﴾:

الرهب هو الخوف المشوب بالاضطراب. وتقديم الضمير المنفصل يفيد الحصر، أي لابدَّ أن يكون الخوف من الله تعالى الذي هو علىٰ كلّ شيء قدير، والمطّلع عل الضمائر والظواهر، فإنّ الرهبة:

إن كانت لأجل عظمة المرهوب منه وجلاله، فلا نهاية لهما فيه عزَّوجلَّ.

وإن كانت لأجل علمه بموجبات السخط والعقاب فلا يعزب عن علمه شيء في السماوات والأرض.

وإن كانت لأجل قهّاريته التامّة فهي من أخصّ صفاته، وعهوده هبات منه عزَّوجلَّ فيكون نقضها عظيماً.

ثمّ إنّه شرع في بيان جملة من عهوده المباركة علىٰ بني إسرائيل، وهي:

الإيمان بالله تعالىٰ والقرآن، المشتمل علىٰ تصديق سائر الكتب السماوية، وعدم الكفر، والمحافظة على آيات الله تعالىٰ، وعدم تبديلها، وتقوى الله، وعدم كتمان الحقّ، وعدم خلطه بالباطل.

---

١. سورة التوبة: الآية ١١١.

وهذه هي من أهمّ العهود الإلٰهيّة وأُصولها علىٰ عباده، ولا اختصاص لها بطائفة دون أُخرىٰ، إن كانت تختصّ ببعض الأحكام الفرعيّة.

والعهود الإلٰهيّة، وإن كانت تعدّ من الأُمور التشريعيّة، لكن كلّ تشريع له دخل في نظام التكوين، لأنّ جميع جهات التشريع ترجع إلى تربية الإنسان الذي هو المقصد الأقصى من نظام التكوين فيرجع بالتشريع إليه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾:

تفصيلٌ بعد إجمال، فإنّ قوله تعالىٰ: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ يشمل الإيمان بالنبي ﷺ، إلّا أنّه تعالى ذكره بالخصوص تنبيهاً لهم وتعظيما لأمره.

وهذه الآية المباركة تدلّ بالدلالة الالتزامية العادية علىٰ إخبار موسى عليه السلام بشريعة خاتم الأنبياء ﷺ، لأنّ كلّ شريعة سابقة لابدّ أن تُخبر بالشريعة اللّاحقة، كما أخبر تعالى عن الشرائع السابقة في القرآن.

وقوله تعالىٰ: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ﴾ يدلّ علىٰ تصديق هذه الشريعة لما تقدّم من الشرائع، وقد ذكرنا في ما سبق، أنّ الشرائع الإلٰهيّة وإن تعدّدت بحسب الظاهر، إلّا أنّها متّحدة في أُصول العقائد والأحكام، التي ترجع إلى تربية الإنسان وسعادته في الدارين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾:

لأنّكم أعرف بحقيقة هذا الدِّين، بعد أن كان الإيمان بالنبيّ ﷺ مذكوراً في التوراة ـ كما سيأتي ـ، وأنّ هذا القرآن مصدّق لما معكم، فمن بادر منكم إلى الكفر يكون أشدّ خزياً ومنقصة، ويكون من أئمّة الكفر في ملّته، كما أنّ مَن بادر من أهل الكتاب الى الإيمان بالله والرسول، يكون أوّل مؤمن به.

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ :

المراد بالاشتراء هنا مطلق المبادلة ، والثمن القليل هو الدُّنيا وما فيها ، لأنّها تنفد، وآيات الله تعالى لا تنفد، وكلّ مَن قدَّم هوى نفسه علىٰ رضاء الله تعالىٰ، فقد اشترى بآيات الله ثمناً قليلاً، لأنّه خسر رضوان الله تعالىٰ .

وعن الأئمّة الهُداة عليهم السلام : «مَن أصغى إلىٰ ناطقٍ فقد عبده ، فإن كان الناطق نطق عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق نطق عن الشيطان فقد عَبدَه».

وتشمل مثل هذه الأخبار تبديل آيات الله بجميع الأغراض الدنيوية ، والمراد بآيات الله تعالىٰ، مطلق تشريعاته في معارف الدِّين وأحكامه .

قوله تعالىٰ : ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ :

بوفاء العهد، واتّباع الهدىٰ، وترك الركون إلى الدُّنيا . وهو يدل علىٰ وجوب التقوى وانحصارها بالنسبة إليه تعالى، المستفاد من تقديم الضمير المنفصل .

وقوله تعالىٰ : ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ :

اللبس هو الخلط والتغطية ، أي لا تخلطوا الحقّ الذي أنزلناه، بالباطل الذي تفعلونه . ولبس الحقّ بالباطل يستلزم كتمان الحقّ لا محالة ، وقد أفرده تعالى بالذكر اهتماماً به وتبييناً لكل واحد من المتلازمين بالذكر ، ولا تكتموا الحقّ بعدم بيانه مع الحاجة إلى البيان ، وذلك يتصوّر علىٰ وجوه :

إظهار الحقّ في صورة الباطل وبالعكس .

كتمان الحقّ مع الحاجة إلىٰ بيانه .

الافتراء على الله تعالىٰ .

والجميعُ من القبائح ومن شعب النفاق ، مع أنّكم تعلمون الحقّ ، وما

تعلمون من لبس الحقّ بالباطل وكتمانه والافتراء على الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾:

بعد أن أمرهم الله تعالىٰ بالإيمان، أمرهم بأهمّ وظائف العبودية، وهي الصلاة علىٰ ما قرّرتها الشريعة، ثمّ أمرهم بأهمّ الوظائف الاجتماعية، وهي الزكاة بما قرّرتها الشريعة، من بذل المال والسعي في الحوائج، بل زكاة الجاه. ثمّ أمرهم بالركوع مع الراكعين، لأنّ العبادة الاجتماعية أهمّ من العبادة الفردية، لما فيها من المصالح الكثيرة.

والمراد بالركوع إمّا الركعة، ويكنّى به عن الصلاة، لأنّه أهمّ أركانها، أو لأجل أنّ الركوع كان أشقّ عليهم من السجود، فذكرهم تبارك وتعالى بالخصوص، أو للإشارة إلى نبذ عبادتهم والإتيان بهذه العبادة الجديدة.

بحث روائي:

عن ابن بابويه في «العلل»، عن أبي عبد الله عليه السلام:

«ويعقوب إسرائيل، ومعنى إسرائيل عبد الله؛ لأنّ إسراء هو عبد، وائيل هو الله عزّوجلّ».

وروى في خبر آخر:

«إنّ إسراء هو القوّة، وإيل هو الله، فمعنى اسرائيل قوة الله عزّوجلّ».

أقول: قد ورد في التوراة الوجه الأخير، والمراد بالقوّة هنا قوّة يعقوب من حيث اعتماده علىٰ ربّه، فيرجع إلى المعنى الأوّل، لأنّ عبودية الأنبياء عليهم السلام تكون عن اعتمادهم من كلّ جهة على الله تبارك وتعالى مطلقاً، وذلك يستلزم لهم القوّة.

وعن القمّي، عن جميل، عن الصادق عليه السلام:

«قال له رجلٌ: جعلت فداك إن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، وإنّا ندعو فلا يُستجاب لنا؟

قال عليه السلام: لأنّكم لا توفون بعهد الله، ولو وفيتم لله لوفى الله لكم».

أقول: يظهر منها ومن سائر الروايات المتواترة، أنّ لاستجابة الدُّعاء شروطاً كثيرة، سيأتي بيانها في قوله تعالىٰ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[١].

وعن العياشي، عن إسحاق بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«سألته عن قول الله عزّوجلّ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾؟

قال: هي الفطرة التي افترض الله على المؤمنين».

أقول: قريب منه روايات أُخرى، وهذا كلّه من باب التطبيق.

وعن ابن عبّاس، في قول الله تعالىٰ: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾:

«قال: نزل في رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي بن ابي طالب عليه السلام، وهما أوّل من صلّى وركع».

أقول: في ذلك روايات أُخرى مستفيضة من الفريقين.

***

---

١. سورة المؤمن: الآية ٦٠.

الآية ٤٤ـ٤٦

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

ذكر سبحانه في هذه الآيات من أفعال اليهود وفسادها، أنّهم كانوا يدعون الى الإيمان وتلاوة الكتاب، وقد وصفوا أنفسهم بالعدل، وخالفوا إلى غيره، ووبّخهم علىٰ هذا الفعل توبيخاً شديداً، والخطاب وإن كان موجّهاً إلى بني إسرائيل، لكنّه عامّ إلى جميع مَن يأمر بالحقّ ولا يعمل به، وهو من أعظم القبائح النظامية في الاجتماع. ثمّ أمرهم سبحانه بالرجوع إليه، والاستعانة بالصبر والصلاة، ونبذ ذلك العمل الشنيع.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾:

البر: هو سعة الخير، ويطلق علىٰ كلّ خير من الإحسان.

والنسيان غيبة الشيء عن النفس بعد حضوره فيها، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[1]، إذ لا يعقل النسيان ممّن كان ما سواه حاضراً لديه.

ويستعمل بمعنى مطلق الترك أيضاً، قال تعالىٰ: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ

---

١. سورة مريم: الآية ٦٤.

أَنْفُسَهُمْ﴾[١]. وهو أخصّ من السهو والغفلة.

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**:

التلاوة: القراءة، لكن لوحظ في الأُولىٰ معنى المتابعة، لأنّ الحروف المقروءة تتتابع بعضها بعضاً، وفي الثانية لوحظ معنى الجمع، لأنّ القراءة تستلزم جمع الحروف.

والعقل من العقال، لأنّه يربط صاحبه عن ارتكاب القبائح، ويحرّضه علىٰ إتيان المحاسن، وهو ضدّ الجهل، وله إطلاقات كثيرة في السنّة، بل واصطلاح الفلاسفة، ويأتي شرح ذلك في الآيات المناسبة.

ومفهوم العقل من أبده الأشياء، ولكن كنهه في غاية الخفاء، فهل هو:

جوهر مجرّد روحاني متعدِّد الأفراد، حسب تعدد أفراد العقلاء يقبل الشدّة والضعف.

أو أنّه عرض قائم بالغير.

أو أنّه من مراتب وجود النفس الإنساني.

أو أن له وجوداً واحداً فرديّاً كالشمس، إلّا أنّ له إشراقات على النفوس.

أو أنّه إشراقٌ حاصلٌ للنفس من عالم آخر غير عالم الجواهر والأعراض.

أو أنّ جميع ذلك صحيح بحسب اختلاف النفوس ومراتبها.

أو أنّ الكلّ باطل ولا يحيط به الناس، بل العلم به منحصر بالله تعالى؟

وغاية ما يدرك أنّه القوّة المميّزة بين الحُسْن والقبح، ولم يزل الموضوع مورد البحث منذ وجود العاقل علىٰ وجه البسيطة، ولا يزال كذلك، والقدر

---

١. سورة الحشر: الآية ١٩.

المسلّم به أنه موجود ومتعقل خارجي، وقع مورد جعل الله تبارك وتعالى وإرادته وخطابه، كما ستعرف إن شاء الله تعالىٰ.

والخطاب وإن كان موجّهاً إلى بني إسرائيل، لكنّه عام يشمل الجميع، وأشدّ معاتبة الآمرون بالمعروف التاركون له، والناهون عن المنكر الفاعلون له، حتّىٰ نفى الله تعالى عنهم العقل بلسان التوبيخ والتأنيب، وهوكذلك لأنّ من أوّل مرتبة العقل والكمال العقلي هو مطابقة القول للفعل، بل يعدّ ذلك من الأُمور النظامية الاجتماعية، فإنّ نظام المجتمع يقوم بالقانون والعمل به، وبدونه يكون خرقاً للنظام وإشاعة للفساد.

كما أنّ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، أحقّ باتّباع ما يأمرونه والانتهاء عمّا ينهون عنه، لأنّ الحجّة عليهم أتمّ، فإن من لم ينسلخ عن شهوة نفسه، كيف يتمكّن من إزالة الشهوة عن غيره، ولذا ورد التأكيد عن الأئمّة الهداة عليهم السلام بقولهم: «كونوا دعاة إلى الله بغير ألسنتكم».

وقد ثبت في الفلسفة، وفي الأحاديث الكثيرة، على أنّ للحركات القلبية والجذبات النفسية آثاراً خاصّة في النفوس، بل قد يكون الشخص في عين أنّه ينهى بلسانه مثلاً، تكون تأثيراته النفسية أقوىٰ من النهي اللّساني على النفوس.

وهذه الآيات تتضمّن قاعدة محاورية، من صحّة خطاب الأبناء بما يفعل الآباء، أو خطاب الآباء بما يفعل الأبناء، أو خطاب الجميع بما يفعل البعض.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى

الْخَاشِعِينَ﴾:

بعد أن ذكر سبحانه من سوء أفعالهم، ونفى العقل عنهم، فلم تنفعهم تلاوة الكتاب، أرشدهم إلى استكمال أنفسهم بالكمالات الظاهرية والواقعية، بالاستعانة بالصبر والصلاة، وحيث إنّ بني إسرائيل كانوا مسبوقين بالصبر على المتاعب والشدائد، وظهر لهم أثر صبرهم في الأستيلاء علىٰ عدوّهم ـ فرعون وقومه ـ، قال تعالىٰ: **﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾**[1].

وكذا في الصلاة التي اعتادوا عليها، فظهر لهم بعض آثارهم، قال تعالىٰ:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّأَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

فحثّهم الله تعالى علىٰ ما وجدوا أثره بأنفسهم من إدمان الاستعانة بالصبر والصلاة.

وقال تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾**[3].

والاستعانة: طلب العون كما تقدّم في سورة الحمد **﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾**.

والمراد هنا جعل الصبر والصلاة وسيلة لإفاضة الله تعالى عليهم ما يهمّهم من المقاصد، وتدلّ الآية المبارك علىٰ أنّ الاستعانة بهما، توصل إلىٰ كلّ خير، نوعيّاً كان أو شخصيّاً كليّاً أو جزئيّاً.

والصبر: هو كفّ النفس عن الهوىٰ، مع مراعاة تكليف المولىٰ.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

٢. سورة يونس، الآية: ٨٧.

٣. سورة البقرة: الآية ١٥٣.

وهو من أهمّ مكارم الأخلاق، بل لا فضيلة إلّا وللصبر فيها دخل.

ثمّ إنّ استعانة الإنسان، إمّا:

أن تكون من نفسه بنفسه.

أو من نفسه بغيره.

والأوّل هو الصبر، ومن الثاني الصلاة.

والاستعانة بالصبر هي فعل الطاعات وترك المحرّمات، وقد يُراد منه الصوم، لأنّه الإمساك وكفّ النفس عن المفطرات، فيكون من صغريات المعنى اللغوي، ففي الحديث:

«إن النبيّ ﷺ كان إذا حزنه أمر استعان بالصوم والصّلاة».

وعن الصادق عليه السلام: «الصبر الصيام، وإذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة فليصم، فإن الله تعالى يقول: واستعينوا بالصَّبر والصّلاة».

والاستعانة بالصلاة، استعانة بالله تعالىٰ، لأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأنّها من أقوى الأسباب وأشدّها تأثيراً في قضاء الحوائج وتيسير الأُمور. وإنّما قدَّم تعالى الصبر على الصلاة، لأنّها لاتقبل إلّا بالتقوى، وهي لا تحصل إلّا بالصبر علىٰ ترك المحرمات، فيكون من تقديم المقتضي (بالكسر) على المقتضى (بالفتح).

والآية المباركة على اختصارها تشتمل علىٰ جميع الكمالات الإنسانيّة الفردية والاجتماعية، والعامل بها حائز لجميعها، ولكثرة عظمة الأمر واحتوائه على المشاقّ، قال تعالىٰ: ﴿**وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾.

والضمير يرجع إلى الصلاة، فإنّها شاقّة وكبيرة عظيمة، لأنّ الوقوف بين يدي الله تعالىٰ، مع الالتفات إليه صعب جدّاً، إلّا على الخاشعين المخبتين لله الذين نبذوا جميع ما سواه وراء ظهورهم، وأنّهم في مقام الأُنس بربّهم فلهم به أشواق،

ومنه تعالى لهم جذبات، فهانت عليهم متاعب الدُّنيا وصعابها.

والخشوع والخضوع: هما التواضع والتذلّل والمسكنة في مقابل الاستكبار، وهما من الكمالات النفسانية، منبعثان من القلب على الجوارح. ويفترق الأوّل عن الثاني في إطلاقه على الصوت والبصر، قال تعالىٰ:

﴿وَخَشَعَتْ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾[1].

وقال تعالىٰ: **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾**[2].

ويحصلان على القلب إمّا من الإخبات إليه تعالى والخشية منه، أو من تصوّر عظمة الله تعالىٰ والمداومة عليه.

قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾**:

وصف سبحانه الخاشعين بما يبيّن كثرة خوفهم ووجلهم منه عزّوجلّ، بحيث لا تستقرّ لهم حالة.

الملاقاة هي وصول أحد الطرفين إلى الآخر، والمراد بها هو:

لقاء أهوال يوم القيامة وشدائدها.

أو لقاء جزاء أعمالهم يوم الحساب.

أو الفوز بلقاء عظمة الله وجلاله الذي هو أجلّ المقامات، التي هي دون حدّ الوجوب وفوق الممكنات.

وغير ذلك ممّا يمكن أن يقع مورد التلاقي، المختلف باختلاف مراتب الكمالات المعنوية. وفيه تحبيب منه تعالى بالنسبة إلى المؤمنين الخاشعين، وإنذارٌ للعاصين المذنبين. وأنّهم إليه راجعون لتوفية جزاء اعمالهم بما قدّموه من

---

١. سورة طه: الآية ١٠٨.

٢. سورة القلم: الآية ٤٣.

صالح الأعمال.والتعبير بالرجوع من حيث كونه تعالىٰ مبدأ الكلّ فيكون منتهاه أيضاً.

والظنّ : مرتبة من الاعتقاد ، وهو ممّا يضعف ويشتد ، ويعبرعن الثانية بـ(اليقين)، والمائز بينهما القرائن الخارجية أو الداخلية ، قال تعالىٰ : ﴿**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ**﴾[١] ، أي حصل لهم اليقين بذلك، وكذا في المقام فإنّ مقام الخشوع لا يناسب إلّا مع اليقين، فلا تنافي بينه وبين قوله تعالىٰ : ﴿**وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ**﴾[٢] .

ولعلّ في التعبير بالظنّ إشارة إلى أنّ الخاشعين اكتفوا بالظنّ، فاشتدّ خوفهم منه، وهانت عليهم مشاقّ الدُّنيا، فكيف بمن تيقّن بالملاقاة ، وتوبيخ منه بالنسبة إلى هؤلاء الآمرين بالبرّ، الذين ينسون أنفسهم، بأنّهم لم يتمكّنوا من تحصيل الظنّ من تلاوة الكتاب، ليحملهم على العمل الصالح .

أو لأنّ لشدّة كونهم في مقام الخوف والرجاء، لا يعتمدون علىٰ يقينهم لما يرد عليهم ، فعبّر تعالى بالظنّ سوقاً للكلام علىٰ مراد المخاطب ، ويشهد لذلك قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله :

«لايزال المؤمن خائفاً من سوء العاقبة، ولا يتيقّن الوصول إلىٰ رضوان الله تعالى حتّى يكون وقت نزع روحه ... الحديث .»» .

ويصحّ أن يُراد بكلام واحد وجوه متعدّدة باعتبارات مختلفة .

إن قيل : اللقاء والملاقاة من صفات الأجسام الخارجيّة، وهو تعالىٰ منزّه عنها ، فلا يناسب الإطلاق عليه عزّوجلّ .

يُقال : إنّ اختصاص اللقاء بالأجسام أوّل الكلام ، فقد ورد في قوله تعالىٰ :

---

١ . سورة الحشر : الآية ٢ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٤ .

﴿حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾[١]، مع أنّ اليوم ليس بجسم، ومع ورود التنصيص بذلك في الكتاب الكريم، فلا وجه لهذا الإشكال.

وإنّما حصل الإشكال من كثرة الأُنس بالمادّيات، وإلّا فالتلاقي في عالم الرؤيا وعالم البرزخ واقع حقيقة، قال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ﴾[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

والأولى الحمل على العموم بحسب مراتب الإيمان ودرجاته، فالتلاقي تلاصق اثنين، سواء كانا من الجواهر أو الأعراض أو المجرّدات، مع سبق البُعد ظاهريّاً أو معنوياً، أو منهما معاً، وسواء كان البُعد من جهة أو من جهات والتلاصق كذلك.

بحث روائي:

القمّي في الآية: «نزلت في القصّاص والخُطّاب، وهو قول أمير المؤمنين عليه السلام: وعلىٰ كلّ منبر منهم خطيب مصقع يكذب عَلى الله، وعلىٰ رسوله وعلىٰ كتابه».

أقول: هذا من باب التطبيق علىٰ أحد الموارد لا التخصيص.

وفي «مصباح الشريعة» عن الصادق عليه السلام:

«من لم ينسلخ عن هواجسه، ولم يتخلّص من آفات نفسه وشهواتها، ولم

---

١. سورة الطور: الآية ٤٥.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٤٧.

٣. سورة الأنعام: الآية ٣١.

يهزم الشيطان، ولم يدخل في كنف الله وأمان عصمته، لا يصلح للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنّه إذا لم يكن بهذه الصفة، فكلّ ما أظهر يكون حجّة عليه، ولا ينتفع الناس به، قال تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

ويُقال له: ياخائن أتطالب خلقي بما خنت به نفسك، وأرخيت عنه عنانك».

أقول: ما ذكره عليه السلام مطابق للوجدان، كما لا يخفى علىٰ أهله.

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام:

«كان علي عليه السلام إذا أهاله أمر فزع، قام إلى الصلاة، ثمّ تلا هذه الآية: واستعينوا بالصبر والصلاة».

وفي «الفقيه» عنه عليه السلام أيضاً في الآية:

«الصبر والصيام، وإذا نزلت بالرجل النازلة الشديدة، فليصم فإنّ الله تعالى يقول: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ يعني الصيام».

وعن العياشي، عن الصادق عليه السلام:

«ما يمنع أحدكم إذا دخل عليه غمٌّ من غموم الدُّنيا أن يتوضّأ ثمّ يدخل مسجده فيركع ركعتين فيدعو الله فيهما، أما سمعت الله يقول واستعينوا بالصبر والصلاة».

أقول: أمّا الاستعانة بالصبر في الأُمور الدنيويّة والأُخرويّة، فلها أثر في الأُمور التكوينية، فضلاً عن الاختيارية، والصوم من أحد تلك المصاديق. وأمّا الاستعانة بالصلاة فهي استعانة وتوجه إلى مسبّب الأسباب، ومسهّل الأمور الصعاب، وبذلك يحصل تكميل النفس، فضلاً عن حصول المراد.

وعن ابن بابويه، عن علي عليه السلام:

«في قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾، يعني يوقنون أنّهم

يُبعثون ويُحشرون ويُحاسبون ويُجزون بالثواب والعقاب، والظنّ هاهنا اليقين».

وعن العياشي، عن الصادق عليه السلام: «اللقاء البعث، والظنّ هاهنا اليقين».

أقول: لا ينافي تفسير الظن باليقين من جهةٍ، وبقائه علىٰ معناه الحقيقي من جهة أُخرىٰ، كما استظهرنا من الآية المباركة.

وفي «تفسير الإمام العسكري عليه السلام»:

«يقدرون ويتوقّعون أنّهم يلقون ربّهم اللقاء الذي هو أعظم كرامته لعباده».

أقول: تقدّم أنّ ملاقاة العبد لربّه أرفع المقامات وأجلّها، وهي من حدود وجوب الوجود.

وعن ابن عبّاس: «أنّ الآية نزلت في علي عليه السلام وعثمان بن مظعون، وعمّار بن ياسر، وأصحاب لهم».

أقول: هم من صغريات موارد تطبيق الآية الشريفة، بل ومن أجلى المصاديق.

بحث أخلاقي:

الصبر هو أُمّ الفضائل، وأصل مكارم الأخلاق، ومنه تتفرّع كلّ موهبة ومكرمة، فكما أنّ الحيّ القيوم أُمّ الأسماء الحسنىٰ، ومنهما تتفرّع سائرها، كذلك يكون الصبر، فهو حقيقة المقاومة مع المكاره والشهوات والمشتهيات والاستقامة، مع ما يرتضيه العقل والشرع من محاسن الأخلاق، والوصول إلى المعارف والكمالات، والمواظبة على الواجبات وترك المحرمات.

وقد اعتنى الله تعالى به اعتناءً بليغاً، فقد وردت مادّة (ص ب ر) في القرآن الكريم، في ما يقرب من مائة موضع، ولم يرد فضيلة أكثر ذكراً منه فيه، وقد تكرّر الأمر به.

قال تعالىٰ : ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وقال جلّ شأنه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

وقال عزّوجلّ : ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾[3].

وورد الأمر بالاستعانة به في قوله تعالىٰ : ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾[4].

والاستعانة بالصبر في الامور التكوينيّة، استعانةٌ بأسبابها الظاهرية والمعنوية ، وكلّها ترجع إلى مراعاة حصول المسبّبات، عند حصول أسبابها المقتضية لها ، واستنتاج النتائج من المقدّمات المعدّة لها ، وترك المبادرة الى نقض هذا الأمر العقلي النظامي ، فإنّه يؤدي إلى خلاف المطلوب .

وفي الأُمور الاختيارية، فهو:

إمّا علىٰ ما تكره النفس ، أو علىٰ ما تحبّه.

والأوّل: عبارة عن مقاومة النفس للمكاره الواردة عليها، وثباتها في مقابلها وعديم تأثرها ، وعدم انفعالها ، وقد يعبر عن ذلك بالشجاعة وسعة الصدر أيضاً .

والثاني: عبارة عن مقاومة النفس لمدافعة القوى الشهوانية والغلبة عليها بالعقل والفكر .

وكلّ ذلك من الحكمة العملية التي اهتمّ الفلاسفة ، وعلماء الأخلاق بشرحها ، فما ورد في السنّة المقدّسة من «أنّ الصبر مفتاح الفرج» مطابق للقاعدة

---

١ . سورة هود : الآية ١١٥.

٢ . سورة آل عمران : الآية ٢٠٠.

٣ . سورة غافر : الآية ٥٥.

٤ . سورة البقرة : الآية ١٥٣.

العقلية، لأنّه دخول في الشيء من أحسن أبوابه.

وقد أشار نبيّنا الأعظم ﷺ إلى عظيم منزلته لمّا سُئل عن الإيمان، فقال ﷺ: «هو الصبر»، كما جعله جزء الإيمان، فقال ﷺ:

«الإيمان نصفان فنصف صبر، ونصف شكر».

وقال ﷺ: «ما أُعطي أحدٌ عطاءً خيراً له وأوسع من الصبر».

وعن الأئمّة الهُداة عليهم السلام: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فمن لا صبر له لا إيمان له».

والصبر من صفات الأنبياء والمرسلين، الذين أُمِرنا بالاقتداء بفعلهم، والاهتداء بهديهم، قال تعالى مخاطباً للرسول الأعظم ﷺ:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾(١).

وقال جلَّ شأنه: **﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾**(٢).

وقال تعالىٰ: **﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾**(٣).

وقال تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾**(٤).

فكما أنّ الصبر من أهمّ مقوّمات حياتهم عليهم السلام، فهو من أقوىٰ محقّقات شؤونهم، فما بعث الله تعالى نبيّاً ولا أرسل رسولاً، بل ولم يفض علماً علىٰ عالم، إلّا وكان الصبر أليفه حتّى صار النصر حليفه، وقد تحمّل من المشاقّ حتّى صار

---

١. سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

٢. سورة الأنعام: الآية ٣٤.

٣. سورة الأنبياء: الآية ٨٥.

٤. سورة السجدة: الآية ٢٤.

شهير الآفاق، وذلك من سنّة الله: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[1].

وقد عُدَّ الصبر في السنّة المقدّسة من جنود العقل، وضدّه من جنود الجهل، فهو من حيث كونه من جنود العقل له دخلٌ في نظام التكوين، ومن حيث إنّه الإيمان أو جزء الإيمان، له دخل في نظام التشريع، فهو جامع للمنزلتين، وحائز للدرجتين، فله دخل في الأُمور الطبيعيّة، فإنّ مراتب استكمالها لا تتمّ إلّا بالتدرّج وعدم العجلة ـ وإن لم يصحّ إطلاق الصبر بالمعنى المعهود عليها ـ ولذلك ترى أنّ بذور النباتات والأشجار لا تصل إلى مرتبة الكمال، إلّا بالتدرّج، وقد ورد في الحديث:

«إنّ ذكر ستّة أيّام في خلق السماوات والأرض، إنّما كان لتعليم العباد التأنّي والصبر، وإلّا فهو قادر علىٰ خلقهن في أقلّ من ذلك».

فهو من أهمّ موجبات تحقّق المقاصد والظفر بالمطلب، إن توفّرت بقيّة الشرائط، قال علي عليه السلام:

«لا يعدم الصبور الظفر، وإن طال به الزمان».

فليس للصابر إلّا أن يظفر بالمقصود، أو بما أعدّه الله تعالى له من الأجر المحمود.

وتقدّم في تعريف الصبر أنّه: حبس النفس عن الهوىٰ، مع مراعاة تكليف المولى، بل يمكن تعريفه بالمعنى العام ليشمل صبر الواجب والممكن، وأنواعه وأقسامه، بأن يقال:

(هو تقدير الشيء بالنحو الأتمّ علىٰ ما يناسب النظام الأحسن نوعيّاً كان أو شخصيّاً).

---

١. سورة الفتح: الآية ٢٣.

فيشمل صبر الواجب، حيث أطلق الصبر عليه تعالى في الأسماء الحسنى، علىٰ ما روي عن نبيّنا الأعظم ﷺ، وما ورد في الحديث القدسي، وفي الحديث: «لا أحد أصبر علىٰ أذىً يسمعه من الله عزَّوجلَّ».

وفي دعاء المُجير وغيره: «ياصابر»، فإنّه يتفرّع منه الحلم والعفو، الرفق والمداراة، كلّ ذلك متشعّبٌ عن الصبر المختلف باختلاف الخصوصيّات والجهات، فيختلف معناه كذلك، فلا نحتاج إلى تفسير الصبرفيه تعالى بالمعنى العدمي، أي عدم التعجيل في عقوبة العصاة، كما عن جمعٍ من المفسِّرين واللّغويين.

والصبر في الإنسان قد يكون من طبيعته وجبلته، فإنّنا نرى أنّ بعض الأفراد يصبر علىٰ ما يرد عليه من المكاره، ويتحمّل من المشاقّ ما لا يقدر غيره علىٰ تحمّلها. وقد يكون بالاكتساب والمصابرة، وهذا أفضل من القسم الأوّل، وهو موضوع منازل السائرين إلى الله تعالى في سيرهم وسلوكهم، وأهمّ عمادهم في التخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل، والتجلية بالتخلّق بأخلاق الله تعالىٰ، وبقيّة الدرجات من الفناء والطمس، والمحو، والمحق، وغيرها مما شرحه أهل الفلسفة العملية والعرفاء.

كما أنّ الصبر عن الشيء:

تارةً: يكون مع وجود المقتضي وفقد المانع خارجاً.

وأُخرىٰ: مع الميل النفساني وعدم المقتضي.

وثالثة: مع الميل ووجود المانع.

وتختلف مراتب فضل الصبر باختلاف هذه المراتب.

وللصبر أنواع وأفراد كثيرة، كلّها من الفضائل، ولكلّ فرد اسم خاصّ به وضدّ مختصّ به، فيسمّى الصبر في الحرب شجاعة وضدّه الجبن. وفي المصيبة

الصبر ـ بقول مطلق ـ وضدّه الجزع، وفي الحوادث المضجرة رحابة الصدر وضدّه الضجر، وفي الكلام كتماناً وضدّه الإذاعة والإفشاء، وإن كان الصبر عن المفطرات سُمّي صوماً وضدّه الإفطار، وعن شهوة البطن والفرج سُمّي عفّة وضدّه التهتّك، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سُمّي حلماً ويضادّه التذمر، وإن كان عن حطام الدُّنيا سُمّي زهداً وضدّه الحرص، وفي المأكل والمشرب سُمّي قناعة وضدّه الشره، وقد سمّى الله تعالى كلّ ذلك صبراً، وأشار إليه سبحانه في قوله:

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١].

والصبر لا يتحقّق إلّا مع عقد القلب عليه، والعزيمة على الاستمرار عليه، وإلّا فإنّ صرف وجود الشيء لا أثر له، وإنّما الأثر يترتّب على البقاء، وهو يحصل بالصبر والمصابرة والاستقامة علىٰ تحمّل المكاره، ولذلك كان الصبر من عزائم الأمور، فقال تعالىٰ:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[٢].

وعن عليعليه السلام: «ألق عنك واردات الهموم بعزائم الصبر، عوِّد نفسك الصبر فنعم الخُلُق الصبر».

ثمّ إنّ الصبر، تارةً: يكون بتوفيق من الله وللتقرّب إليه، وفي مرضاته كصبر الأنبياء والمرسلين ولاسيما سيِّدهم صلى الله عليه وآله، وهذه أعلىٰ درجات الصبر ويترتّب عليه الثواب العظيم المعدّ للصابرين.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

٢. سورة لقمان: الآية ١٧.

وأُخرىٰ : يكون بتوفيقه تعالىٰ، وليس لله تعالىٰ، بل لأجل أغراض صحيحة أُخرىٰ.

و ثالثة : لايكون بتوفيقه أيضاً، وإن كان لأجل أغراض صحيحة أُخرىٰ.

والغفلة عنه عزَّ وجلَّ، والثواب يتحقّق في الجميع، لأنّ الصبر بنفسه محبوب له تعالىٰ.

وربما يكون اختلاف الثواب والجزاء عليه في القرآن الكريم، لأجل اختلاف درجات الصبر، فهو تعالى يخبر:

تارةً : بأنّه : ﴿**يُحِبُّ الصَّابِرِينَ**﴾[1]، ومحبّته تعالى لشيء من أعلى المقامات وأجلّها، وأنّه مع الصابرين، فقال تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[2].

وأنّه بشَّر الصابرين، فقال تعالىٰ: ﴿**وَبَشِّرْ الصَّابِرِينَ**﴾[3].

وأنّه خيرٌ لهم، فقال تعالىٰ: ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾[4].

وأُخرىٰ : يخبر بأن لهم الثواب الجزيل، قال تعالىٰ فيهم:

﴿**أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ**﴾[5].

ويخبر ثالثة: بمضاعفة الأجر لهم، قال تعالىٰ:

﴿**أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾[6].

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٦.

٢. سورة الأنفال: الآية ٤٦.

٣. سورة البقرة: الآية ١٥٥.

٤. سورة النحل: الآية ١٢٦.

٥. سورة البقرة: الآية ١٥٧.

٦. سورة القصص: الآية ٥٤.

ورابعة : أنّ لهم الأجر بلا حساب ، قال تعالىٰ :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1] .

وعن الصادق عليه السلام قال : «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول : إنّي لأصبر من غلامي هذا ، ومن أهلي علىٰ ما هو أمرّ من الحنظل ، إنّه من صَبَرَ نال بصبره درجة الصائم القائم ، ودرجة الشهيد الذي قد ضرب بسيفه قدام محمّد صلى الله عليه وآله» .

والصبر من الصفات ذات الإضافة ، فإذا لوحظ بالنسبة إليه تبارك وتعالى يكون محبوبه ومورد بشارته ، وإذا لوحظ بالنسبة إلى الصابر يكون من جهات كماله ومكرمة له ، وإذا لوحظ بالنسبة إلى الاجتماع ، يكون مورد التحبّب والتودد والعناية . وهو في كلّ شيء بحسبه ، بشرط أن لايصل إلى مرتبة يقبح الصبر فيها شرعاً أو عرفاً وعقلاً ، وإلّا فلا يكون صبراً مرغوباً ، كالصبر علىٰ هتك العرض أو المال ، أو النفس ، وهو قادر علىٰ دفع المظالم . وعليه ينقسم الصبر حسب الأحكام التكليفية الخمسة .

وقد ورد في الشرع موارد يستحبّ التعجيل فيها ، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله :

«خير الخير ما كان عاجله» .

وعنه صلى الله عليه وآله : «عجّلوا بموتاكم إلى مضاجعهم» .

وفي نصوص كثيرة التعجيل في تزويج الأبكار بالكفوء ، والتعجيل بإتيان الصلاة في أوّل وقتها ، إلىٰ غير ذلك من الموارد التي تستحبّ العجلة فيها .

ثمّ إنّ الصبر عن الشهوات النفسانية فضلاً كبيراً ، فعن الباقر عليه السلام :

«الصبر صبران ، صبرٌ على البلاء حسن جميل ، وأفضل الصبر الورع عن محارم الله» .

سواءً أكان الصبر فيها مع تهيئة أسبابها ، أم مع إمكان التهيئة أو مع عدمهما

---

١ . سورة الزمر : الآية ١٠ .

معاً، والصبر عنها يدور مدار زوال حبّ النفس والهوىٰ، وترك متابعة الدُّنيا، والأوّلان يرجعان في الحقيقه إلى ترك حب الدُّنيا، بل تدور جميع مكارم الأخلاق مدار التجنّب عنها، ومذام الأخلاق مدار التقرّب منها، وقد تواتر عن نبيّنا الأعظم: «حُبّ الدُّنيا رأس كلّ خطيئة».

وعلامة تقوية الصبر وتضعيف حبّ الدُّنيا، هي كثرة التفكّر في الدُّنيا وفنائها، وأنّها أقوى الحُجب عن الوصول إلى المعنويات، بل أصل الحجب الظلمانيّة عن المعارف الربوبيّة والأخلاق الإلٰهيّة.

***

الآية ٤٧ ـ ٤٨

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

كرّر سبحانه وتعالى تذكيرهم بالنِّعم عليهم، إتماماً للحجّة، وإثباتاً لاستحقاقهم الطعن واللّوم، فإنّهم مع كثرة نِعَم الله تعالى عليهم، بالغوا في الجحود بالإسلام، وإنكار ما جاء به النبيّ ﷺ وقد اقترن في الآية السابقة الوعد بوفاء العهد لهم، إن هم وفوا بعهده تعالىٰ، وفي هذه الآية قرنه سبحانه بالخوف عن عذاب الآخرة، فجَمَع سبحانه بين الرجاء والخوف.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾**:

تقدّم معناه، وهو تأكيد لما سبق وتمهيد لما يأتي، ومثل هذه الآيات تدلّ علىٰ وجوب شكر المنعم، وتحقّق العصيان في كفران النعمة وكتمانها، وخصوصيّة المورد، لا توجب تخصيص الحكم العام، فإنّ القرآن: «نزل علىٰ طريقة إياك أعني واسمعي يا جاره». كما قال علي عليه السلام.

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**:

ذكَّرهم سبحانه بهذه النِّعمة بالخصوص، لينبّههم علىٰ أنّهم أولى بالإيمان بالإسلام.

والعالمين وإن كان مطلقاً، ولكن يُراد به خصوص عالمهم، فإنّه فضّلهم علىٰ غيرهم بكثرة الأنبياء منهم، وكثرة المعجزات فيهم، ونزول التوراة عليهم، ولكن ذلك لا يمنع أفضلية غيرهم عليهم، فإنّ الأدلّة العقلية والنقلية دلّت علىٰ أفضلية خاتم الأنبياء علىٰ جميعهم، وأفضلية أُمّته علىٰ سائر الأُمم، إذ السير التكاملي في كلّ شيء خصوصاً في البشر يقتضي فضيلة الأُمّة اللاحقة على السابقة، ولقوله تعالىٰ: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[1]، والسنّة المستفيضة الدالّة علىٰ ذلك.

وسيأتي في البحث الروائي ما ينفع المقام.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً**﴾:

أي واخشوا ذلك اليوم الذي تتقطّع فيه الأسباب، فتكون نظير قوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً**﴾[2].

فيكون سياق هذه الآيات سياق القضايا المنتفية بانتفاء الموضوع.

والعوالم الاستكمالية التي ترد على الإنسان أنواعها علىٰ قسمين:

الأوّل: ما يكون الاستكمال والكمال فيه فردياً فقط، من دون دخل للأسباب الاختيارية فيه، كالعوالم التي ترد على الإنسان قبل وروده إلى الدُّنيا ـ كالنطفة، والعلقة، والمضغة، والجنين في عالم الرحم ـ فهو يسير فيه بالسير الطبيعي منفرداً، قال تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**﴾[3].

---

١. سورة آل عمران: الآية ١١٠.

٢. سورة لقمان: الآية ٣٣.

٣. سورة الأنعام: الآية ٩٤.

الثاني : ما يكون اختياريّاً بجميع أطوارها ـ من جمعها ، وكثرتها وقلّتها وفقدانها ـ دخل في الاستكمال والكمال ، فيكون دار الأسباب من جميع الجهات، وقد جرى علم الله تعالى الأزلي وقضاؤه وقدره في ذلك «وأبى الله أن لايجري الأمور إلّا بأسبابها» كما في الحديث ، فكم من شجاع يغلب غيره بسلاحه ، وكم من صانع يقهر غيره بصنعه، إلىٰ غير ذلك ممّا لا يُحصىٰ.

ويختلف عالم الاخرة عن ما يتقدّمه من العوالم بوجهين :

الأوّل : أنّ الكمال في الآخرة وعدمه فردي فقط ، فصاحب العمل الصالح له مقام خاص به يختلف باختلاف مراتب العمل، من دون أن يكون في البين تسبّب أسباب ، وتهيئة اُمور فيها ، لكونهما في الدُّنيا ، ويظهر أثرها في الآخرة.

الثاني : أنّ فيها تنحصر الملكية والمالكية والملك في الله تعالىٰ ، فلا مُلك إلّا له ، ولا مالك إلّا هو ، ولا ملك إلّا وهو قائم به عزّوجلّ ، فتنقطع بذلك الأسباب والمسبّبات الاختيارية وغيرها ، بل هو تعالىٰ كذلك في جميع العوالم، إلّا أنّه جرت إرادته الكاملة علىٰ تسبّب الأسباب الظاهرية ، ليجري النظام الأحسن علىٰ أكمل الوجه ، وأتمّ الحكمة .

نعم ، باب الشفاعة مفتوح ، لكنّه محدود بحدود خاصّة ، كما ستعرف، فلا حكم إلّا حكمه، ولا ملك إلّا ملكه، فقياس الآخرة على الدُّنيا كما تراه بعض الاُمم ـ منهم اليهود ـ حيث يتوهّمون دفع المكروه والعذاب عن النفس بالفداء ، أو الشفاعة ، أو مناصرة بعض له، أو دفن بعض الأثاث لينتفع بها في مهمّاته الاُخروية، كما كان ينتفع بها في الدُّنيا كل ذلك باطل ، قال تعالىٰ :

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1].

---

١. سورة الشعراء : الآية ٨٨ـ ٨٩ .

إن قيل : تدلّ الأخبار الكثيرة علىٰ أنّه يلحق بالميّت كلّ خير يُهدى إليه من دار الدُّنيا ، حتّى أنّه قد يكون في ضيق فيوسّع الله عليه بذلك، كما يأتي .

قلت : فرق واضح بينهما ، فإنّ ما يلحق بالميت من الصدقات والخيرات إنّما يصرف في سبيل الله تعالىٰ، فيصل ثوابها إليه لا محالة ، لا أن ينتقل نفس المال إلى الميّت ، ودفن المال والسلاح لايستفيد منه الميّت علىٰ فرض أنّ الله تعالى يعيده في الآخرة .

نعم ، ورد في بعض الروايات أنّ الشهيد يُدفن بثيابه ولا ينتزع منه شيء ، قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في شهداء بدر :

«زمّلوهم بدمائهم فإنّهم يُبعثون معها يوم القيامة».

وذلك لأنّه رمز الحياة الأبدية، والنِّعمة السرمدية، فلا تزال تبقى معه أبداً .

فالأقسام المتصوّرة في عمل الانسلان في الدُّنيا والآخرة أربعة :

الأوّل : تأثير عمل كلّ فرد يعمله في الدُّنيا لنفسه في الآخرة، إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ.

وهذا كثير ، وهو الذي تدلّ عليه الكتب السماوية، ويكون المناط عليه في المعاد .

الثاني : تأثير عمل الشخص في الآخرة لنفسه فيها .

وهذا غير صحيح، كما عرفت ، فإنّ الآخرة دار الجزاء ، لا دار الأعمال، إلّا ما ورد بالنسبة إلى بعض الأعمال ، ففي الحديث : أنّه يُقال لقارئ القرآن يوم القيامة : «اقرأ وارق» ، بناءً علىٰ أنّ قرائته للقرآن سبب لارتقاء درجاته فيها ، وما ورد في من مات في حال تعلّمه للقرآن، فإنّه «يبعث الله تعالى من يعلّمه القرآن في قبره» .

الثالث : أن يؤثر عمل شخص في الدُّنيا لشخص في الآخرة، وهو كثير وقد

دلّت الأدلّة الكثيرة على انتفاع الأموات بما يهدي إليهم الأحياء من الخيرات والتبرّعات، ولاسيما الأرحام فيهم، حتى ورد أنّه:

«ربما يكون في ضيق فيوسّع الله تعالى عليه بذلك الخير الذي يوصل إليه من الدُّنيا».

خصوصاً إذا كان بتسبّبٍ من نفس الميّت، ففي الحديث المعروف بين الفريقين:

«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلّا من ثلاث: صدقة جارية، ومصحف يقرأ فيه، وولد صالح يستغفر له».

الرابع: تأثير دعاء الميّت لأحدٍ في دار الدُّنيا.

وهذا القسم أيضاً واقع، قد ورد في الأولاد: «أنّ الولد ربما يكون بارّاً لوالديه ويصير عاقّاً بعد موته».

فيدعو الميّت على الولد في عالم البرزخ فيصير بها عاقاً.

هذا إجمال الأقسام ويأتي تفصيلها في الآيات المباركة المناسبة لها إن شاء الله تعالىٰ.

والحاصل: أنّ ارتباط العوالم بعضها مع بعض ثابت عقلاً ونقلاً، وإن كان خصوصيات هذا الارتباط غير معلومة إلّا لعلّام الغيوب.

وقد يفيض الله تعالى لمعة من إشراقاته الى بعض أوليائه، فيتعلّم أسرار التكوين بقدر ما يُفاض عليه من المبدأ الفياض، ويستفيض من فيض وجوده حتّى مراتب الانبساط والانقباض.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾**:

لأنّ الشفاعة منوطة بإذن الله تعالىٰ، وقبولها إنّما يكون منه تعالىٰ، قال عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾[١]، لأنّ جميع موجبات الشفاعة التي فصّلت في الكتاب والسُنّة الشريفة، من مظاهر إرادته ورضاه. فيظهر التوحيد العملي حينئذٍ بجميع مظاهره وشؤونه، ويضمحلّ الشرك بجميع معانيه. ولا منافاة بين نفي الشفاعة في مورد وإثباتها في آخر، لأنّ في القيامة مواقف، وعقبات، وحالات، ويأتي البحث عن الشفاعة في قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ﴾[٢].

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾:

العدل: بمعنى الاستواء والمماثلة، ويختلف باختلاف الجهات:

فيُقال هذا عادل، أي متشبّث بدينه. وهذا عِدْله أي مثله في جهة من الجهات، سواء من جنسه أو من غير جنسه.

وقد يفترق بفتح العين في الأوّل وكسره في الثاني، قال تعالىٰ:

﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً﴾[٣]، أي ما يساويه في جهة التكليف.

وقال نبيّنا الأعظم ﷺ: «بالعدل قامت السماوات والأرض»، أي بالتساوي في الجهات التكوينيّة، التي لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ، والجهات الاختيارية التي أمر الله تعالى بها عباده.

والمراد بالعدل هنا الفدية، قال تعالىٰ:

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾[٤].

أي لا فداء من أحد لأحد يوم القيامة، إن استطاع أن يأتي بالفدية، وكذا لا

---

١. سورة طه: الآية ١٠٩.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٣. سورة المائدة: الآية ٩٥.

٤. سورة الحديد: الآية ١٥.

توبة هناك، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً﴾[1]، والصرف هو التوبة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

النصرة بمعنى المعونة والتقوية، أي لا أحد يمنعهم من العذاب، لأنّ النصرة منحصرة بالله تعالىٰ، وبالعمل الصالح، وهما خالصان للمؤمنين، لانقطاع النصرة عن جميع الممكنات، وانحصارها في الواجب بالذات، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

ومَن بَعُدَ عنه تعالىٰ، فقد حرم نفسه عن نصرته مطلقاً، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[4].

وبعبارة أُخرىٰ: أنّ النصرة متوقفة على القدرة عليها، ولا قدرة كذلك إلّا لله تعالى في ذلك اليوم.

وهذه الآيات ردّ علىٰ مزاعم اليهود من أنّهم أحباء الله تعالىٰ، وأنّهم شعبه المختار وأبناؤه، وأنّ الله تعالى يشفع لنا يوم القيامة، وينصرنا من العذاب، فنفى الله عنهم ذلك، قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾[5].

---

١. سورة الفرقان: الآية ١٩.

٢. سورة الروم: الآية ٤٧.

٣. سورة التوبة: الآية ٧٤.

٤. سورة الشورىٰ: الآية ٨.

٥. سورة المائدة: الآية ١٨.

بحث روائي:

في «تفسير العسكري» في قوله تعالىٰ: **﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**.

«أي: فعلته بأسلافكم، فضلّتهم ديناً ودنياً».

أقول: سيأتي بيان ذلك.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى في ما تقدّم من الآية:

«وإنّما فضّلهم علىٰ عالمي زمانهم بأشياء خصّهم».

وعن ابن بابويه، قيل لرسول الله ﷺ: «ما العدل؟

قال: الفدية.

قيل: ما الصرف يارسول الله؟ قال ﷺ: التوبة».

***

الآية ٤٩ ـ ٥٠

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى بعض نِعَمه العامّة علىٰ بني إسرائيل مقروناً ببيان بعض إرشاداته لهم ذكر سبحانه في هذه الآيات المباركة جملة من نعمه الخاصّة ـ منّاً عليهم ـ ولا ريب في أنّ ذلك من موجبات الرغبة لو كان المُنعَم عليه من أهل الرغبة إلى نِعَم الله تعالىٰ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾:

مادّة (ن ج و) تدلّ على الانفصال والانقطاع عن الشيء والخلاص منه. وقد استعملت هذه المادّة في القرآن العظيم بهيئآت مختلفة، جامعها يرجع إلى ما ذكرناه.

والآل والأهل بمعنى واحد، إلّا أنّ الأوّل أخصّ من الثاني، لأنّه لا يُضاف إلّا لذوي القدر والشرف، بخلاف الثاني فإنّه يُضاف إلىٰ كلّ شيء، وضيعاً كان أو شريفاً، زماناً كان أو مكاناً أو شيئاً آخر. والجامع القريب بينهما هو الرجوع؛ فآل الرجل من يرجع إليه في قرابة، أو رأي، أو نحو ذلك.

وفرعون: لقبٌ كان يُطلق علىٰ كلّ من مَلَك مصر، كقيصر لملك الروم، وتُبّع لملك اليمن، وخاقان لملك الترك، وكِسْرى لملك الفرس.

وفرعون كلمة غير عربية، مركّبة من لفظين مصريّين (ير) و (عون) أي البيت الأعظم، فصارت علماً لملوك مصر قبل الميلاد بأكثر من ألف سنة، وهو مثل (الباب العالي) المستعمل في سلاطين آل عثمان.

وقد ورد هذا اللفظ في الكتب المقدّسة كثيراً كما ورد في القرآن العظيم فيما يزيد علىٰ سبعين موضعاً، وقد ضبط التاريخ أسماءهم وصفاتهم وأعمالهم، إلى أن ذهب الله تعالىٰ بهم، كما قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾[1].

قوله تعالىٰ: **﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾**:

السوم هنا الكُلفة والمشقّة، فسامه أي كلّفه.

وسوء العذاب: أي أشقّه وأذلّه.

والمعنى: أنّهم كانوا يذيقونكم كلّ ما يتصوّرون من المشاق والمتاعب الشديدة.

وقد وصف سبحانه وتعالى هذا العذاب:

تارةً: بالبلاء العظيم، فقال جلَّ شأنه:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[2].

وأُخرىٰ: بالعذاب المهين، فقال تعالىٰ:

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٣٧.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٤١.

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].

وشَرَحه عليّ عليه السلام في خطبته، فقال:

«فاعتبروا بحال ولد إسماعيل، وبني إسحاق، وبني إسرائيل عليهم السلام فما أشدّ اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال، تأمّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يجتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق، وخضرة الدُّنيا إلى منابت الشيح، ومهافي الريح، ونكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين، إخوان دبر ووبر، أذل الأُمم داراً، وأجدبهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا ظلّ أُلفة يعتمدون علىٰ غيرها، فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرّقة، في بلاء أزل (أي شدّة) وإطباق جهل».

ثمّ بيَّن سبحانه بعض ذلك العذاب، بما يأتي من قوله تعالىٰ:

﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾.

بيان لما سبق من قوله تعالى ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ بذكر بعض المصاديق.

الاستحياء: الاستبقاء، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في وقعة بدر:

«اقتلوا المشركين واستحيوا شراخهم» أو «شرخهم».

أي شبابهم الذين ينتفع بهم في الخدمة، يعني أنّهم كانوا يقتلون الذكور، ويستبقون النساء، وكان قصدهم من ذلك إذلالهم وإبادتهم بقطع نسلهم، أوإبقاء النساء للانتفاع بهن بكلّ ما أمكن من أنحاء الاستمتاعات. وأدب القرآن اقتضى التعبير بلفظ جامع، وإلّا لا حدَّ لظلم هذا المتجبّر المدّعي للألوهية، المتسلّط علىٰ بني نوعه، وقد قال تعالىٰ عن ظلم فرعون وجبروته في آية أُخرىٰ:

---

١. سورة الدخان: الآية ٣٠ ـ ٣١.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

ومن ذلك يعلم أنّه لا وجه لحصر بعض المفسّرين ظلمه في شيء محسوس.

وإنّما ذكر تعالى النساء بدل البنات، في مقابل الأبناء للتغليب ومجاز المشارفة.

وقد يقال : إنّ معنى استحياء النساء أي يطلبون فروجهن؛ لأنّ الحياء الفرج.

وفيه : أنّ الحياء بهذا الإطلاق يختصّ بالفرج من ذوات الخفّ والظلف ـ كما صرح به ابن الأثير ـ فلا يشمل الإنسان.

ولكن كلّ ما قيل من هذه الاحتمالات في قصّة فرعون وبني إسرائيل، يناسب ممّا نسب إليهم من السيّئات.

قوله تعالىٰ : ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ :

البلاء الاختبار والامتحان، ويستعمل في الخير والشرّ، قال سبحانه :

﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[٢].

وقال تعالىٰ : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾[٣].

فهو إمّا إنعام أو انتقام، وربما يكون إنعاماً لقوم، وانتقاماً من آخرين، وهو كثير في سُنّة الله الجارية في هذا العالم، ولذا عبّر تبارك وتعالى بكلمة (ربكم) لأنّ الربوبيّة العظمىٰ تقتضي ذلك.

---

١. سورة القصص: الآية ٤.

٢. سورة الأنبياء: الآية ٣٥.

٣. سورة محمّد: الآية ٣١.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾:

الفرق والفَلَق هو الإنفراج، ولكن الأوّل مع الفصل، والثاني مع الانشقاق.

وفرق البحر، انفصال بعضه عن بعض، مع بقاء الجسم السيّال علىٰ سيلانه، وهو من أعظم المعجزات لموسى ﷺ، كما شرحه الله تبارك وتعالىٰ بقوله جلّ شأنه:

﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[1].

والطود هو الجبل.

والبحر هو الاتّساع والانبساط، ومنه سُمِّي البحر بحراً، وهو من الموضوعات الإضافية التشكيكية، فالبحر المحيط بالدنيا بحر، ودجلة والفرات أيضاً بحر بالنسبة إلى السواقي، والمراد به هنا هو بحر القلزم [البحر الأحمر]، على المعروف.

والباء في قوله تعالىٰ: ﴿بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ للسببية، لأنّ عبورهم في البحر بإعجاز منه جلّ شأنه، صار سبباً لفرق البحر، فلا تنافي بين هذه الآية المباركة، وقوله تعالىٰ: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾[2].

لأنّه أيضاً سبب منه تبارك وتعالى ظهر في عصا موسىٰ، فهم كانوا السبب الغائي لفرق البحر، والعصا كانت بمنزلة السبب الفاعلي، والكلّ منه تبارك وتعالىٰ.

وأمّا احتمال أنّ فرق البحر وهذه الآيات الباهرة، كانت من مجرّد مجاري الطبيعة من المدّ والجزر ونحوهما، كما عن بعض المفسّرين المُنكِر للمعجزات وخوارق العادات. فهو ساقط مطلقاً، لكونه مخالفاً لنصّ الآيات القرآنية، وما

---

١. سورة الشعراء: الآية ٦٣.

٢. سورة الشعراء: الآية ٦٣.

ذكر مفصّلاً في التوراة، كما لا يخفى علىٰ من راجعها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

النجاة هي الانفصال والخلاص، واستعمل هنا في مقابل الغرق. وأصل الغرق هو التجاوز عن الحدّ المعتبر في الشيء، وغالب استعمالاته في القرآن إنّما هو بالنسبة إلى فرعون وآله، وقوم نوح؛ والأوّل إضافي، والثاني كلّي عالمي.

والنظر: هو الإقبال إلى الشيء، فإن كان بالقلب يسمى فكراً واعتباراً، وإن كان بالعين يُسمّىٰ نظراً ورؤية، وإن كان باليد سُمِّي لمساً، إلىٰ غير ذلك من مصاديق معنى الإقبال والتوجّه بالمعنى العام.

وإنّما ذكر تعالى آل فرعون، ولم يذكر غرق نفسه؛ لأنّ المراد من الآية هو استئصالهم رأساً، فيشمل غرق نفسه أيضاً، مع أنّ ذكره في آيات أُخرىٰ يُغني عن ذكره هنا، قال تعالىٰ:

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وإنّما ذكر سبحانه وتعالى (النظر)، لأنّه بالنسبة إلى هلاك العدوّ وغرقه، سرور عظيم لبني إسرائيل، فتكون النِّعمة عليهم أتمّ وأعظم.

وفي هذه الآيات المباركة اعتبارٌ عجيب لمن اعتبر، فإنّ فرعون افتخر بملك مصر، وجريان الأنّهار من تحته، فأغرقه تعالى وأهلكه في ما افتخر به، وهذه سُنّة الله تعالى في كلّ مَن غفل عنه، وجعل همّه في غيره جلَّ شأنه، قال تعالىٰ:

---

١. سورة يونس: الآية ٩٠.

«وعزتي وجلالي وعلوّ شأني، وارتفاع مكاني لأقطعن أمل كلّ مؤمل غيري، ولأكسونّه ثوب المذلّة والأياس».

بحث اجتماعي:

ثمّ إنّ هنا بحثاً اجتماعيّاً، وحاصله: أنّه يمكن إرجاع كلّ اختلاف واقع بين أفراد الإنسان ـ ومنه الاختلاف بين بني إسرائيل وقوم فرعون ـ إلى أحد أُمور:

الأوّل: السبب الاجتماعي، كالاختلاف في العادات والتقاليد، والأخلاق والحضارات.

الثاني: السبب الاقتصادي، فإنّ الاختلاف في مراتب الغنى والفقر، يوجب التعاند والتنازع بين أفرادها.

الثالث: السبب العقائدي، فإنّ لكلّ قوم ديناً ومعتقداً يُغاير ما لقوم آخرين، وكلٌّ يريد بسط عقيدته على الآخرين.

وهناك بعض الأسباب الخفيّة ـ شخصية أو نوعية ـ لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ، وجميع هذه الأسباب من أطوار المجتمع البشري التي أشار إليها تعالىٰ في قوله:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾[1].

فجعل جلَّ شأنه ذلك من أبرز علامات وجوده، وأظهر آيات ثبوته. وهذه الأسباب جميعها اجتمعت بالنسبة إلى بني إسرائيل، والطواغيت الفرعونية، فإنّ بني إسرائيل كانوا مقهورين تحت ظلم الفراعنة وعبيداً لهم.

بحث تاريخي:

تعبّر التوراة عن الإسرائيليين بـ(العبريين)، وترجع كلمة (عبري) إلىٰ عهد

---

١. سورة نوح: الآية ١٣ ـ ١٤.

إبراهيم الخليل عليه السلام، فقد أطلق الكنعانيون هذه التسمية علىٰ إبراهيم، ثمّ اتّسعت فشملت جميع أُسرته، فصاروا يُعرفون بالعبريين.

وغير خفيّ أنّ هذه التسمية لم تكن تختصّ باليهود، بل كانت تُطلق على القبائل التي عبرت الأنّهار إلى أرض كنعان، فالعبريون هم الأقوام الدخيلة على الكنعانيّين، الذين كانوا في حرب معهم، ولأجل ذلك لم يرد في القرآن الكريم إطلاق العبريين على اليهود.

وقد عاش هؤلاء مع الكنعانيين زمناً طويلاً، وأخذوا من الأخيرة عاداتهم وتقاليدهم، حتّىٰ كانوا لا يختلفون عنهم كثيراً إلّا في العقيدة، فإنّهم كانوا يعبدون الإله الواحد دون الأصنام، بخلاف الكنعانيين. ولم يمض من الوقت كثير حتّى أصبح العبريون قبيلة كبيرة، يمتهنون الرعي، وينتقلون من مكان إلى مكان، يبحثون عن المراعي الخصبة، حتّىٰ حلَّ الجدب والمجاعة في أرض كنعان وما جاورها، فكان لابدَّ لهم من الهجرة إلى مصر، التي عُرفت بوفور نعمها وكثرة مياهها، ولم تكن مصر غريبة عنهم، فقد دخلها أبوهم إبراهيم من قبل.

وأوّل من دخل مصر من بني إسرائيل، هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام، وانضمّ إليه إخوته وعشيرته، كما بين سبحانه وتعالى قصتهم في سورة يوسف. وعاشوا فيها زمناً طويلاً، فتكاثر نسلهم، وازداد عددهم عاماً بعد عام. والمذكور في التوراة أنّ هذه الجماعة هي التي خرجت من مصر بعد مرور أكثر من أربعة قرون، بسبب اضطهاد فرعون وقومه لهم.

والإسرائيليون في مصر كانوا في عزلة تامّة عن المصريّين، لا يختلطون معهم، ولذلك لم يتعرّض لهم المصريون بسوء، حتّى ازداد نسلهم، وكثرت أموالهم فأصبحوا مصدر قلق لملوك مصر، واشتدّ هذا القلق في عهد رمسيس (١٢٣٣ ـ ١٣٠٠ قبل الميلاد) الذي يعدّ من أعظم الفراعنة قدرةً ومنعة، فقد تغلّب

علىٰ أعداء مصر، وجلب منهم عدداً كبيراً إليها ، وأسرف في البناء، فكان من نتائجه أن نصف ما بقي من العمائر المصرية تُعزى إلى أيّام حكمه ، وراجت التجارة في عهده وازدادت ثروة المصريين ، وقد أظهر العداء لبني إسرائيل، وكان لذلك أسباب عديدة، كان من أهمّها أنّهم عرفوا بخيانتهم للعهد، والإفساد لدى المصريّين ، وكان ذلك نتيجة انعزالهم وابتعادهم عنهم، وامتناعهم عن قبول عقيدتهم .

وقد نقل التاريخ أنّ هذا الملك جمع قومه وسألهم عمّا يفعله ببني إسرائيل، فنصحوه باستعبادهم حتّى يتغيّروا عمّا هم عليه ، فإنّ للعبودية أثراً كبيراً في إذلال النفس وتغييرها . وقد أخذ بنصيحتهم فاستعبدهم، إلّا أنّه لم يتحقّق له مايريده ، واستبطأ أثر الاستذلال، فعمل على انقراضهم حتّىٰ نمى إليه أنّهم يريدون التآمر عليه ، فازداد قسوةً عليهم، فأذلّهم وسخّرهم في الأعمال الشاقّة كالبناء ، وحصرهم في ساحات العمل ، ووكّل بهم من يتبعهم حتّى لا يجدوا فسحة للراحة ، فقد عانوا من هذا الوضع أشدّ العذاب، وانتشرت فيهم الأوبئة والأمراض ، ولكنّه لم يكتف بذلك لما رأى ازدياد نسلهم، فسنَّ قانوناً يقضي بقتل كلّ مولود ذكر من بني إسرائيل واستبقاء نسائهم ، كما ورد في الحديث أيضاً :

«إنّ فرعون لمّا بلغه أنَّ بني إسرائيل يقولون يولد فينا رجلٌ يكون هلاك فرعون وأصحابه علىٰ يده، كان يقتل أولادهم الذكور ، ويدع الإناث».

وكان قصده من ذلك تزويج المصريّين بهنَّ، ونقض كيانهم المستقلّ بانقراضهم ، أو أن يفعل بهنَّ ما يشاء لإذهاب حيائهن، كما حكى عنه عزّوجلَّ في القرآن العظيم .

وكان موسىٰ عليه‌السلام من مواليد هذا العهد، فبعثه الله تعالى نبيّاً إلى فرعون وقومه، يدعوهم إلى الإيمان وإطلاق الإسرائيليّين ليعبدوا إلٰههم ، فأبىٰ ولم

يستجب له، كما قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِي بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[١].

ولكن فرعون شدّد عليهم الأمر، فازداد ظلمه بهم، ويشير إلى ذلك ماورد في سِفْر الخروج من التوراة: أنّ الله تعالى أنبأ موسى بأنّه سيجعل قلب فرعون قاسياً علىٰ بني إسرائيل، ويزيد النكال بهم، وقد تبرّم بنو إسرائيل من هذا الوضع الجديد، كما قال تعالىٰ: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[٢] فتهيّأ موسى للخروج من مصر.

وقد قيل في سبب الخروج أُمور كثيرة.

فقيل: إنّ فرعون أذن لهم بالخروج بعد أن شكا قومه إليه من الوباء المتفشّي بينهم، ثمّ ندم فرعون علىٰ ذلك فأتبعهم.

وقيل: إنّ موسى أمر نساء بني إسرائيل أن يأخذن حُليّ نساء القبط، كما ورد في التوراة فأمرهم بالخروج فأتبعهم فرعون.

وكيف كان، فقد سار بهم موسى حين بلغ ساحل البحر الأحمر عند خليج السويس، ولكن فرعون اتبعهم حتى طلع عليهم عند شروق الشمس، فأيقن بنو إسرائيل بالهلاك، قال تعالىٰ: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾[٣].

وقاد موسىٰ جيشه، وعبر بهم إلى الشاطئ الشرقي بعد أن ضرب بعصاه البحر ﴿فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٤]، وأبى فرعون إلّا متابعتهم، فعندما

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٠٤ـ١٠٥.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٢٩.

٣. سورة الشعراء: الآية ٦٠.

٤. سورة الشعراء: الآية ٦٣.

توسّط البحر هو وجنوده، انطبق عليهم البحر، فـغرقوا جـميعاً، وخـرجت جـثّة فرعون لتكون لمن بعده عبرة، كما حكى تعالىٰ: **﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾**[1].

وهي محفوطة إلى الآن في مقبره الفراعنة (الأهرام) في المتحف المصري.

وكان خروجهم من مصر حوالي سنة ١٢١٣ قبل الميلاد ـ بعد أن أقـاموا فيها من عهد يوسف ٤٣٠ ـ في شهر أبيب [الشهر الحادي عشر من السنة القبطية]، كما هو المذكور في التوراة.

وكان بنو إسرائيل الذين انطلقوا مع موسىٰ جيشاً كبيراً، وقد ذكر في التوراة أنّ عددهم كان يقارب ٦٠٠/٠٠٠ نسمة، وإن كان فـي هـذا العـدد شـيء مـن المبالغة.

وقد اختلف المؤرِّخون في فرعون الذي خرج في عهده الإسرائيليون:

فقيل: إنّه رمسيس الثاني.

وقيل: إنّه منفتاح.

والصحيح أنّ عهد الاضطهاد كان في مُلك رمسيس الثاني، وعهد الخروج كان في مُلك منفتاح.

وسيأتي بقيّة قصصهم في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

***

---

١. سورة يونس: الآية ٩٢.

الآية ٥١ ـ ٥٤

﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾.

هذه الآيات كسابقتها في مقام تعداد النِّعم علىٰ بني إسرائيل، وهي تشتمل علىٰ نزول التوراة التي هي من أعظم النِّعم عليهم، لأنّها من أهمّ الكتب السماوية بعد القرآن، وإن قوبلت منهم بالردّ والكفران، وعبادة العجل.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾**:

الوعد: معروف، وقد استعملت مادّة (و ع د) بجميع هيئاتها في القرآن الكريم، وتستعمل في الخير تارةً: وهو كثير، قال تعالىٰ:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى﴾**[2].

---

١. سورة المائدة: الآية ٩.

٢. سورة النساء: الآية ٩٥.

وفي الشرّ أُخرىٰ: كقوله تـعالىٰ: ﴿**النَّـارُ وَعَـدَهَا اللهُ الَّـذِينَ كَـفَرُوا وَبِـئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[١].

وفيهما معاً ثالثة، كقوله تعالىٰ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ**﴾[٢].

والإيعاد والوعيد يستعملان في الشرّ، قال تعالىٰ:

﴿**وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ**﴾[٣].

وقال تعالىٰ: ﴿**كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ**﴾[٤].

وخلف الوعد بالخير قبيح، ولكن لاقبح في خلف الوعيد.

والمعروف بين الأُدباء وتبعهم المفسِّرون، أنّ كلّ واحد من الوعد وخـلفه خبرٌ يتّصف بالصدق والكذب، وهو بالنسبة إلىٰ خُلف الوعد بـاطل، لأنّـه مـن مقولة الفعل والعمل، لا من مقولة اللفظ والقول، إلّا أن يريدوا الإلحاق الحكمي لا الموضوعي. وكذا بالنسبة إلى نفس الوعد، فإنّه قد يُستعمل في مقام الإنشاء لا الإخبار.

ثمّ إنّ المفسِّرين ذكروا تبعاً لأهل اللّغة، أنّ المواعدة من الطرفين، فلابدّ من قيام المصدر بهما، وقد ذكرنا في قوله تعالىٰ: ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[٥]، أنّ أصل المفاعلة لاتدلّ إلّا لإنهاء المصدر إلى الغير، سواء قام الغير بهذا الفعل أو لا، ولابدّ فـي تـعيين ذلك مـن التـماس القرينة.

---

١. سورة الحجّ: الآية ٧٢.

٢. سورة فاطر: الآية ٥.

٣. سورة ق: الآية ٢٨.

٤. سورة ق: الآية ١٤.

٥. سورة البقرة: الآية ٩.

ولمّا اجتاز بنو إسرائيل البحر ـ كما تقدّم ـ سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من ربّهم، فواعده ربّه فضرب له ميقاتاً، وقد ذكر الميعاد في القرآن الكريم في موارد ثلاثة: هنا، وفي آية ١٤٢ من سورة الأعراف، وفي آية ٨٠ من سورة طٰه.

وكان مكان الميعاد، هو الجانب الأيمن من طور سيناء، قال تعالىٰ:

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾[1].

وأمّا زمان الميعاد: فهو ذو القعدة، والعشرة الأُولى من ذي الحجّة، كما يستفاد ذلك من الروايات الواردة علىٰ ما يأتي، ويقتضيه الاعتبار أيضاً، لأنّه زمان قبول توبة آدم عليه السلام، ومن أشهر الحجّ، ومن أشهر الحُرُم، وزمان ورود وفد الله تعالى من أطراف الأرض الى المواقيت المكانية، فاتّحد الميقاتان: المكاني والزماني، وهما مقام تجلّي عظمة الله تعالى لأُمّة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، كما تجلّى لموسى بن عمران، وقد أدرك عليه السلام الميقاتين:

أحدهما: جانب الطور الأيمن.

وثانيهما: ما حكاه أبو جعفر الباقر عليه السلام:

«أحرم موسى من رملة، ومر بصفائح الروحاء مُحْرماً، يقود ناقته بخطام من ليف، عليه عباءتان قطوانيتان، يلبّي وتُجيبه الجبال».

والأربعون هي مجموع المدّة، ويمكن أن يكون في أصل التشريع ثلاثين ليلة، فزيد عليه إتمام العشرة، لأنّ أفعاله جلّت عظمته تتغيّر بتغيّر المصالح والمقتضيات، ولذلك تقع مورد البداء والنسخ، كما يأتي تفصيله، ويدلّ علىٰ ما ذكرنا قوله تعالىٰ:

---

١. سورة طه: الآية ٨٠.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[١].

فذكر تعالىٰ هنا الأربعين باعتبار مجموع الوعدين.

وكانت الغاية المطلوبة من هذا الميقات، هي الانقطاع عن جميع العلائق، والتوجّه التام إلى رب الخلائق، ليستعدّ بذلك للاستشراق والتجلّي وتلقّي المعارف والتوراة.

وعن جمعٍ كثير من العرفاء: أنّه قدكان لكلّ نبي ميقات زماني ومكاني مع ربّه، يختلف ذلكَ باختلاف حالاتهم ودرجاتهم، ومنهم من ذكره الله تعالى في القرآن الكريم بإشارات مختلفة، ومنهم مَن لم يذكره.

وإنّما خصَّ سبحانه وتعالى اللّيالي بالذكر دون الأيّام:

إمّا لأنّ الليالي أولى وأجمع للمناجاة معه جلَّ شأنه.

أو لأنّ الليل أسبق من اليوم، لأنّها غُرر شهور العرب التي وضعت علىٰ سير القمر وظهور الهلال.

أو لأنّ الليل يشتمل تمام اليوم دون العكس.

ويمكن أن يكون ذكر الليالي، لأجل بيان أنّ موسى عليه السلام كان يوصل صومه بالليل، ولو اقتصر علىٰ ذكر خصوص اليوم لما أفاد هذا المعنى، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام:

«إنّ موسىٰ عليه السلام كان حين ذهابه إلى المناجاة يمضغ ورق شجرة ويطرحه تحرّزاً عن رائحة فمه حين مناجاته مع ربّه، فأوحى الله تعالى اليه: يا موسى لخلوق فم الصائم أحبُّ إليَّ من ريح المسك».

ولكن عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، النهي عن صوم الوصال، مع أنّه صلى الله عليه وآله كان يصوم

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

صوم الوصال، فقيل له: «كيف ذلك يا رسول الله ﷺ؟!

فقال ﷺ: إنّي لست كأحدكم، إنّي أبيت عند ربّي فيُطعمني ويُسقيني ربّي».

و(موسى) اسم غير عربي مركّب من لفظين: [مو] وهو الماء، و[شا] وهو الشجر، سُمّي بذلك لأنّ التابوت الذي وضعته أُمّه فيه، وألقته في البحر امتثالاً لوحي الله تعالى إليها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾[1]، وجد عند الشجر فسُمّي باسم الماء والشجر.

وعن جمع من المفسّرين واللّغويين، إبدال الشين بالسين المعجمة، ويشهد لهم بعض اللغات العبرية.

وهو: موسىٰ بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وقد ورد اسمه عليه السلام في القرآن الكريم فيما يقرب من مائة وست وثلاتين موضعاً، وشرح الله تعالىٰ حالاته بالتفصيل، من ولادته إلى هجرته من مصر، ونشر دعوته بما لم يشرح حال نبي من أنبيائه بمثل ذلك.

وأمّا جعل الميعاد في الأربعين، فلأنّ الإخلاص لله عزّوجلّ في هذا المقدار من الزمان له موضوعية خاصّة، ولهذا العدد آثار معيّنة، كما يشهد به وجدان أهل الحال، وثبت ذلك في الفلسفة العملية وعلم الأخلاق، وقد قرّره نبيّنا الأعظم ﷺ بقوله:

«من أخلص لله أربعين صباحاً، جرت ينابيع الحكمة من قلبه علىٰ لسانه وأنطق بها لسانه».

---

١. سورة القصص: الآية ٧.

وأمّا ذكره بعنوان ثلاثين، والإتمام بالعشر في آية أُخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾[1].

فلأجل أن للعشر الأخير من الأربعين الإخلاصية، آثاراً خاصّة، لاتحصل في سائر عشراتها السابقة، وتأتي تتمّة الكلام في البحث الفلسفي والأخلاقي.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾:

الاتّخاذ: الافتعال والجعل، سواء كان بمعنى عبادتهم للعجل، أم جعله إلٰهاً.

والعجل: ولد البقر، وإنّما عبّر به، إمّا لعجلة السامري اتّخاذه إلٰها وعبادته له، أو لعجلة موسى في إفنائه دفعاً للشرّ؛ كما قال تعالىٰ: ﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾[2]، فكان جعله إلٰهاً وإفناؤه بالتعجيل.

والمعنىٰ: اتّخذتم العجل إلٰهاً بعد غياب موسىٰ عنكم، وذهابه إلى الميعاد لأخذ التوراة، وهذا من عجيب حالهم، حيث قابلوا النعمة بأقبح أنواع الخيانة للعهد، وأشدّ أفراد الجناية على النفس، لأنّهم استبدلوا التراب بربّ الأرباب، وما رأوه في العجل من الخوار بالعزيز الجبّار، وسيأتي تفصيل قصّة العِجْل وعبادته في سورة الأعراف إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

العفو: إنّما يصدق بالنسبة إلى استحقاق العقاب أيضاً، ولكنّه لم يصل إلى الفعلية إمهالاً منه في عقوبة عباده، فلابدّ وأن تشكروا علىٰ هذه النِّعمة، أي عدم العجلة في العقوبة، حتّىٰ تختاروا إمّا البقاء على الكفر، أو الاهتداء، فتتحقّق العقوبة بالنسبة إلى الأوّل، دون الأخير.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

٢. سورة طه: الآية ٩٧.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾:

أي اذكر نعمة أُخرىٰ لبني إسرائيل، وهي من أهمّ النِّعم، المعنوية والظاهرية الفردية والنوعية، وهي نزول التوراة كتاب يفرق بين الحقّ والباطل، فيه تفصيل كلّ شيء، وسببٌ للاهتداء الى الحقّ المبين، والصراط المستقيم، كما قال تعالىٰ:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾[١].

فقد حصل من الميعاد أمران:

أحدهما: خير الأمور، وهو من الله تعالىٰ.

والثاني: شرّ الأمور، وهو عبادة العجل وكان من الشيطان، لقانون مقابلة كلّ حقّ بباطل، حسب ما اقتضته المقادير الإلٰهية في الأُمور النوعية، بل الشخصية أيضاً.

والفرقان: هو ما يفرق بين الحقّ والباطل. وهذا وصفٌ لكلّ كتاب سماوي، وشريعة إلٰهية، قال تعالىٰ:

﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ* مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾[٢].

ويمكن أن يكون المراد بالفرقان المعنى الوصفي، الشامل للجميع، لا خصوص المعنى العلمي للقرآن.

كما يمكن أن يُراد من الفرقان هنا المعنى الجامع لكلّ ما يفرق بين الحقّ والباطل من التوراة، وفرق البحر، وسائر الآيات والمعجزات التي فرق بها بين الحقّ والباطل.

وكلمة (لعل) إذا استُعملت في كلامه تعالىٰ، تكون بداعي محبّته تعالى

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٥.

٢. سورة آل عمران: الآية ٣ ـ ٤.

لمدخولها ورضائها وإشفاقه بالنسبة إليه، لابمعنى الترجّي الحقيقي لاستحالته بالنسبة إليه عزَّوجلَّ، إذ كيف يتصوّر فيه ذلك، وهو عالم الغيب والشهادة من جميع الخصوصيّات، ممّا هو موجود وما مضى وما هو آت، فكلّ شيء حاضر لديه.

وعن جمع من المفسّرين: أنّها بمعنى «كي» التعليليّة.

وفي هذه الآيات المباركة تعجيب منهم، فإنّه مع ظهور الآيات الكثيرة لبني إسرائيل، ليتدبّروا فيها، ويعتبروا منها، ويعملوا بما أمرهم الله تعالى به، لكنّهم قابلوا تلك بالكفران، ونقض ما أمرهم الله تعالىٰ، فكفروا برسالة خاتم النبيّين.

ولعلَّ السبب في ذلك يرجع إلى أمر مركوز في إنفسهم، وهو أنّهم كانوا يتوقّعون أن يكون خاتم النبيّين من بني إسرائيل، لتتمّ لهم الحركة الدينيّة ابتداؤها وانتهاؤها، لكن جعلها الله تعالىٰ في بني إسماعيل، فحصلت المعاداة الفطرية بينهم.

وعلىٰ أيّة حال ففي هذه الآيات إشارة إلى بُعدهم أيضاً عن مقام الشكر والاهتداء، لإفراطهم في اللّجاجة والعصيان.

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾**:

أي اذكر لبني إسرائيل ما قاله موسى لهم. والظلم الحاصل من عبادة العجل عظيم بتمام معنى العظمة، لأنّه شركٌ، وقد وقع بعد الآيات الكثيرة الواقعة من الله تعالىٰ، فكأنهم سقطوا من السماء إلى الأرض بظلمهم هذا، ومن درجات المقرّبين إلى اسفل السافلين. ولذلك كان ظلماً عظيماً علىٰ أنفسهم بعد تماميّة الحجّة عليهم، حيث صاروا كفّاراً جاحدين، وحكمهم شديد في شريعة التوراة والقرآن.

فقول موسى عليه السلام : «إنكم ظلمتم» إخبار لهم عن كفرهم وجحودهم، وهم اعترفوا بذلك، ولم يحك القرآن الاعتراض منهم علىٰ موسىٰ عليه السلام في ذلك، مع بنائهم على الاعتراض واللجاج.

والقوم: اسمُ جمعٍ لا واحد له من لفظه، وواحده (امرؤ)، والمعروف بين أهل اللغة اختصاصه بالرِّجال، دون النساء، قال تعالىٰ:

﴿لَايَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾[1].

وقال زهير:

وما أدري وسوف أخال أدري أقوم آل حصن أم نساء

وقد يُراد من القوم النساء أيضاً، لقرينة تدلّ عليه. قال تعالىٰ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾[3].

ومعلوم أنّ الرسالة تعمّ الرجال والنساء.

وهو في المقام منادى مضاف، حذف منه الياء، وأصله يا قومي. وخطاب موسى لقومه إنّما كان بأمر منه تعالىٰ، وإنّما فعل ذلك إجلالاً لشأن موسىٰ عليه السلام، وأنّ خطابه كخطاب الله تعالى معهم، ولابدّ وأن يكون كذلك؛ لأنّ كلام النبيّ عليه السلام في جهات التشريع وتربية أُمّته نفس كلام المنبأ عنه، وإلّا لغي التشريع المبني على النبوءة الإلهيّة، فقد ورد في حقّ نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[4].

---

١. سورة الحجرات: الآية ١١.

٢. سورة الأعراف: الآية ٥٩.

٣. سورة الأنعام: الآية ٨٣.

٤. سورة النجم: الآية ٣ ـ ٤.

وهذا الحكم يجري في جميع أنبياء الله تعالىٰ، كلٌّ في اُمّته ومورد نـبوّته. ويستفاد من التعبير الشفقة.

قوله تعالىٰ: **﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ﴾**:

البارئ مثل الخالق لفظاً ومعنىً، ولكنّه أخصّ من الثاني من جهات ثلاث:

الأُولىٰ: اختصاصه بالاطلاق علىٰ الله عزّوجلَّ، ولايُطلق علىٰ غـيره إلّا بالعناية.

الثانية: اختصاصه في كون متعلّقه الحيوان، يقال: خالق الخلق، وبـارئ النسمات.

الثالثة: اختصاص مورده بالأمور الدقـيقة التـي لا يـحيط بـها إلّا عـلّام الغيوب. فهو أخصّ من الخالق والمصورّ، قال تعالىٰ: **﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[1].

والبارئ من الأسماء الحسنى. والتعبير به في هذه الآية المباركة إشارة إلى نهاية جهلهم، حيث اختاروا عبادة الحيوان المعروف بالغباوة، في مقابل من هو باريء لذاته ومن ذاته، وتقدّم معنى التوبة في آية ٣٧ من هذه السورة.

قوله تعالىٰ: **﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾**:

بيان للتوبة، أي ليقتل مَن لم يـعبد العِـجْل مَـن عـبده، ولعـل التـعبير بـ «أنفسكم» وحدة القرابة والدِّين، وليس المراد قتل الإنسان نفسه (الانتحار) كما في بعض التفاسير، بل قتل بعضهم بعضاً، لما قلنا من وجود الوحدة بينهم، هذا في شريعة موسىعليه السلام، وأمّا في الشريعة المقدّسة السمحاء، فقالصلى الله عليه وآله:

---

١. سورة الحشر: الآية ٢٤.

«ما أنعم الله علىٰ عبده بعد الإسلام أفضل من التوبة».

وقال ﷺ: «كفى بالندم توبة».

أو: «إنّ الإسلام يجبُّ ما قبله».

والأمر بالقتل في الآية المباركة يتصوّر علىٰ وجوه:

الأوّل: القتل العشوائي: كالسباع الضّارية التي يتكالب بعضهنّ علىٰ بعض، بلا فرق فيه بين البر، والفاجر (أي عابد العجل) كما في جملة من التفاسير.

وهذا وإن أمكن ثبوتاً، بل ورد نظيره في شمول العذاب للمذنبين وغيرهم بتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولكنّه بعيد عن حالتهم، فإنّها كانت بدائية أي أوّل دخولهم في شريعة موسى عليه السلام، فهي تقتضي الجلب والمداراة، لا الدفع والتضييق.

الثاني: نفس القسم الأوّل، مع اقتضائهم ذلك بأنفسهم لا بإيجاب من الله تعالى عليهم ابتداءً، فيكون الأمر تقريراً لما سألوه.

وهو غير بعيدٍ؛ خصوصاً من الإسرائيليين الذين ينسب إليهم كلّ غثٍّ وسمين، كما عن جمع.

الثالث: إنّ الأمر من الله تعالى كان امتحانيّاً، كما في قضية إبراهيم خليل الله وذبح ابنه إسماعيل فلم يقع قتل في البين، وإنّما وقع الاستسلام والامتحان موقعه.

الرابع: ما تقدّم منا من قتل الأبرياء لعَبَدة العجل، وسيأتي في البحث الروائي ذلك أيضاً.

قوله تعالىٰ: **﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾**:

أي توبتكم بقتلكم لأنفسكم طاعةً لله، ومطهرةً لكم، وكفّارة لذنبكم،

فيرتفع العقاب الأخروي بذلك.

وفي تكرار لفظ (البارئ) إشارة إلى أنّه جلَّ شأنه يتدارك هذا القتل بلطفه وعنايته.

قوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾:

لأنّ ذلك مقتضى كونه بارئاً ومحيطاً بدقائق الأُمور وأسرارها ومنعماً عليهم.

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ عامٌّ لجميع المذنبين وفي جميع الشرائع الإلٰهيّة، فقد وردت هذه الجملة في أغلب قصص الأنبياء عليهم السلام، بل جميعها، فيستفاد أنّه لم يجعل الله تعالى ديناً إلّا وقرنه بقبول توبة المذنبين، وهذا هو النظام الأحسن الذي يرتضيه العقل، ويدلّ عليه النقل أيضاً.

بقي شيء: وهو أنّ عبادة العجل كانت شركاً بالله تعالىٰ، وقد قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾[١].

ويمكن الجواب عنه: بأن تحمل الآية علىٰ ما إذا مات مشركاً، لا ما إذا تاب وندم كما في عبدة العجل، فإنّهم بقتل أنفسهم وتسليمهم لذلك، وقبول توبتهم، لم يبق موضوعٌ للسؤال بعد ذلك لا في الدُّنيا ولا في الآخرة.

وربما يُقال: إنّ قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وبين قوله تعالىٰ: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تهافتاً، فإنّه بعد عفوه تعالى عنهم لايبقى مجال للتوبة.

نقول: يؤخذ بكلّ منهما من جهة لا من جميع الجهات، فإنّ كلّ مجتمع يقع فيه المنكرات، أصولاً أو فروعاً، أوهما معاً، تتحقّق أصناف ثلاثة:

---

١. سورة النساء: الآية ٤٨.

الأوّل : من يردع المنكر ويحاربه .

الثاني : من يفعل المنكر ويأتي به .

الثالث : مَن يهمّ بفعل المنكر ولم يفعله .

والأوّل في هذه القضية كان منحصراً في موسىٰ وهارون.

والثاني مَن اتّخذ العجل إلٰهاً .

والثالث مَن هَمَّ بالاتّخاذ ولم يتّخذه .

والأخير مورد العفو ، والثاني مورد التوبة ، والأوّل هو الرادع الإلٰهي .

بحث روائي:

عن العياشي، عن أبي جعفر عليه السلام:

«في قوله تعالىٰ : **﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾**، قال عليه السلام : كان في العلم والتقدير ثلاثين ليلة، ثمّ بدا لله فزاد عشراً ، فتمّ ميقات ربّه الأوّل والآخر أربعين ليلة» .

أقول : يأتي ما يتعلّق بالنسخ والبداء تفصيلاً إن شاء الله تعالىٰ .

وفي «تفسير العسكري» :

«لمّا فرّج الله عن بني اسرائيل، أمره الله عزّوجلّ أن يأتي للميعاد ويصوم ثلاثين يوماً ، فلمّا كان في آخر الأيّام استاك قبل الفطر، فأوحى الله عزّوجلّ إليه : ياموسى أما علمت أنّ خَلُوق فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك؟! صُمّ عشراً أُخر ولاتستك عند الإفطار ، ففعل ذلك موسىٰ ، فكان وعد الله عزّوجلّ أن يعطيه الكتاب بعد أربعين ليلة» .

أقول : هذا نحو تحبّب واحترام بالنسبة إلى الصائم ، لئلّا يشمئزّ أحدٌ من خَلُوق فمه .

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾:

«أنّ موسىٰ عليه السلام لمّا خرج إلى الميقات، ورجع إلى قومه، وقد عبدوا العجل، قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

فقالوا: كيف نقتل أنفسنا؟ فقال لهم موسى: اغدوا كلّ واحد منكم إلى بيت المقدس ومعه سكّين، أو حديدة، أو سيف، فإذا صعدتُ أنا منبر بني إسرائيل فكونوا أنتم متلثّمين لا يعرف أحدٌ صاحبه فاقتلوا بعضكم بعضاً.

فاجتمعوا سبعين ألف رجل ممّن كانوا عبدوا العجل إلىٰ بيت المقدس، فلمّا صلّىٰ بهم موسى عليه السلام وصعد المنبر أقبل بعضهم يقتل بعضاً حتّى نزل جبرائيل، فقال: قل لهم يا موسى: ارفعوا القتل، فقد تاب الله عليكم فقتل عشرة آلاف وأنزل الله تعالىٰ: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

أقول: وقريب منه ما في «تفسير العسكري»، قد وقع القتل من غير العابدين للعجل على العابدين له، بأمر من موسى عليه السلام، ويجوز للنبي أن يوكل بعض مقدّمات القتل إلى مَن يشاء، وكان ذلك توبةً منهم. والحصر في العدد غير حقيقي، فلا ينافي الحديث الآتي.

وفي «الدرّ المنثور» عن علي عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية:

قال عليه السلام: «قالوا لموسى: ما توبتنا؟

قال موسى عليه السلام: يقتل بعضكم بعضاً. فأخذوا السكاكين، فجعل الرجل يقتل أخاه وأباه وابنه، والله لا يبالي من قتل. حتّى قُتل منهم سبعون ألفاً، فأوحى الله إلى موسىٰ مُرهم فليرفعوا أيديهم، وقد غُفر لمن قُتل، وتيب علىٰ مَن بقي».

أقول: تقدّم في الرواية السابقة وجه ذلك.

بحث فلسفي علمي:

لا ريب في أنّ إفاضاته تعالىٰ غير متناهية، وليست هي محدودة بحدّ خاصّ، والتحديد إنّما هو في المُفاض عليه، فإنّ العطيات بقدر القابليات، والإفاضات إنّما هي محدودة بحدود الاستعدادات. وعلىٰ هذا فإنّ المستفيض قد يشمله الفيض العام (مطلق الوجود)، وقد يشمله الفيض الخاصّ، كما أنّه ربما يستفيد من الفيض الأخصّ، والأخير يتوقّف علىٰ أُمور خاصّة شرعية ـ كالرياضيات والعبادات ـ توجب تهيئة النفس للإفاضة بالفيض الأخص، بلا فرق بين الأنبياء والمرسلين وغيرهم، فإنّ خاتم النبيين ﷺ مع أنّه من أكمل النفوس وأتمّها، وأقربها إلى ربّ العالمين، تحصل من عباداته لله تعالىٰ، ومجاهداته فيه جلَّ شأنه، حالات لم تكن له قبل ذلك.

والقابلية للاستفاضة إنّما تحصل بانقلاع النفس عن العلائق الجسمانية، والحواجب الظلمانية، وانقطاعها إلى الله تعالى وتصفية مرآتها عن الغبار، ومحو جميع الأنداد والأغيار، فإن لذلك الأثر العظيم في حصول الأُنس، وتجلي القلب بأنوار القدس، فيتجلّى الله تعالى علىٰ قلبه بنور عظمته، وإليه أشار نبيّنا الأعظم ﷺ فقال:

«مَن أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه وأنطق بها لسانه».

والغرض من الميقات والميعاد هو ذلك، وقد تقدّم أنّه قال جمع من العرفاء: إنّ لكل نبيّ ووليّ ميقاتاً مخصوصاً.

وإنّما ذكر النبيّ ﷺ في الرواية الصباح، ليلازم العبد على الصمت والسكوت إلّا عن الحقّ، لأنّ اليوم والصباح مظنّة الخلطة مع النّاس، والتكلّم معهم في أُمور الدُّنيا، وفي الحديث:

«مَن رأيتموه سكوتاً فادنوا منه فإنّه يلقي الحكمة».

ثمّ إنّ للميقات والميعاد مظاهر مختلفة، فقد كان ميقات موسىٰ في أربعين ليلة، وفي جانب الطور الأيمن كما عرفت.

وأمّا مواقيت خاتم النبيّين ﷺ، فقد جعل لأُمّته مواقيت خمسة:

مكانية: كمواقيت الحجّ والعمرة.

وزمانية: كأشهر الحجّ.

أو هما معاً: فيما إذا اتّفقتا معاً.

وهي من علامات رسالته، ومعجزات نبوّته؛ وفيها يتبرّأ كلّ مسلم من الشرك والأنداد، ويطرح الأغيار والأضداد، ويتهيّأ تهيئة الأسير الذليل بين يديّ الربّ العظيم، ليتجلّى الله تعالىٰ عليهم عشيّة عرفات، فيحسن إلىٰ محسنهم، ويتجاوز عن مسيّئهم، فكان من إحدى مظاهر تجلّيات الله تعالى لعباده يوم القيامة؛ وآخر كلام موسى عليه السلام مع ربّه في الميقات: «سبحانك تبتُ إليك».

وأمّا أوّل كلام أُمّة محمّد ﷺ وآخر كلامهم، إنّما هو تبشيرات الوصول والمواجهة:

«لبيك اللّهمَّ لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنِّعمة لك والمُلك لا شريكَ لك».

ويفترق ميقات موسىٰ بن عمران، عن ميقات أُمّة محمّد ﷺ، أنّ الأوّل شخصي والآخر نوعي، وأنّ الثاني كان ميقاتاً قبل خلق الخلق، ولكن الأوّل صار ميقاتاً بورود موسى عليه السلام إليه.

ومن المواقيت أيضاً لأُمّة محمّد ﷺ مواقيت الصلاة، التي يحتضرون فيها لدى الله تعالى في أوقات صلواتهم، وتوجّهاتهم إليه بقلوبهم وأبدانهم، كما يشير إليه قوله ﷺ: «الصلاة معراج المؤمن».

كما أنّ الاعتكاف الحاصل لهم في المساجد كذلك، بل اجتمع فيه الميقات الزماني والمكاني والحالي أيضاً.

***

الآية ٥٥ ـ ٥٩

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٥ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٥٧ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾.

بعدما بيَّن سبحانه وتعالىٰ بعض نِعَمه علىٰ بني إسرائيل، مع كفرانهم لها، ذكر جلَّ شأنه في هذه الآيات المباركة بعضها الآخر، وبيَّن فيها بعض الوقائع التي وقعت عليهم أيضاً، كما ذكر فيها ما ينفعهم في صلاح حالهم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾**:

أي اذكروا ما قلتم لموسى عليه السلام، لن نصدّقك حتّى نرى الله جهرةً، وهذا بيان لقصّة أُخرىٰ من قصصهم، وهي من أعظم مظاهر جهلهم، وكانت عقوبة هذا الجهل من أعجل العقوبات التي حلّت بهم.

والإيمان بمعنى التصديق يتعدّى باللّام، كما في المقام، وبالباء كما في

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُمْ بِهِ﴾[1].

والرؤية هنا الإدراك بالقوّة الحسّية البصرية، وتُستعمل بمعنى العلم وما يدرك في عالم الرؤيا أيضاً.

والجهر معناه العلانية، والمراد به ظهور المدرك (بالفتح) معاينة في القوّة الحسية إمّا في البصر، كقول القائل: رأيته جهاراً.

أو السمع كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[2].

وأكّد بالجهر للفرق بين رؤية العيان وغيرها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾:

تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[3].

معنى الصاعقة، وهي النار المحرقة، قال تعالىٰ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾[4]، وقد يُراد بها الصوت الشديد الموجب للموت، قال تعالىٰ:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾[5].

وتأتي بمعنى العذاب، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[6].

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٢٣.

٢. سورة طه: الآية ٧.

٣. سورة البقرة: الآية ١٩.

٤. سورة الرعد: الآية ١٣.

٥. سورة الزمر: الآية ٦٨.

٦. سورة فصّلت: الآية ١٣.

واحتمالات الصاعقة في هذه الآية المباركة، هي:

إمّا أن تكون من العذاب الأُخروي جزاءً لغيّهم ولجاجهم.

وفيه : أنّه خلاف ما في الكتب السماوية، من أنّ العذاب الأُخروي متوقّف علىٰ أُمور معيّنة، يأتي بيانها إن شاء الله تعالىٰ.

أو تكون نحو عذاب دنيوي، جزاءً لعنادهم ولجاجهم.

وفيه : أنّه خلاف ما جرت عليه عادة الله تعالىٰ، من التأنّي والإمهال في التعذيب، والتأخير فيه، إلّا أن يخصّص المقام.

أو أنّ الصاعقة حصلت من آثار عظمته وجلاله وكبريائه جلّ شأنه، فتكون من سنخ قوله تعالىٰ:

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً﴾[1].

فهي أمر وضعي تكويني، وتأثير الأقوال، والأفعال غير المرضية لله تعالى في عالم التكوين يستفاد من الكتاب العزيز والسُنّة المستفيضة كما يأتي، بل تدلّ عليه الأدلّة العقلية أيضاً، علىٰ ما يأتي التعرّض لها إن شاء الله تعالىٰ.

والنظر فيها، تقليب البصر أو البصيرة لإدراك الشيء. وإستعماله في الأوّل أكثر عند العامّة، وفي الثاني أكثر عند الخاصّة. وقد ورد في القرآن الكريم ما يدلّ علىٰ كلّ منهما:

فمن الثاني: قوله تعالىٰ: **﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[2].

---

١. سورة مريم: الآية ٩٠ ـ ٩١.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٨٥.

ومــن الأوّل: قــوله تــعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَـا أُنـزِلَتْ سُـورَةٌ نَـظَرَ بَـعْضُهُمْ إِلَـى بَعْضٍ﴾[1].

وقد استعمل في المقام بمعنى مطلق الإدراك الشامل لكـلّ مـن المـعنيين بحسب شعورهم وإدراكـهم، فـيكون نـحو تـخويفٍ وتشـديدٍ لمـا سألوه مـن موسى عليه السلام.

وقصّة سؤال بني إسرائيل رؤية الله تعالىٰ مذكورة فـي التـوراة، وهـي أنّ طائفة من بني إسرائيل اعترضوا علىٰ موسى وهارون، وقالوا:

لماذا اختصّا بالكلام مع الله تعالىٰ، مع أنّهما إنّما حظيا هذه المنزلة لكونهما من ولد إبراهيم عليه السلام، وهذه النِّعمة تعمّ بني إسرائيل كلّهم.

فقالوا لموسى: لن نؤمن لك حتّىٰ نرى الله جهرة!

فأخذهم الى خيمة العهد، وهي خيمة نصبها موسى لنفسه، وأمر بتقديسها، وسُمِّيت بخيمة الزمان أيضاً، فانشقّت الأرض وابتلعت قسـماً مـنهم وأحـرقت القسم الآخر.

ولكن نقل ابن بابويه في «العيون» عن الرضا عليه السلام:

«أنّ بني إسرائيل قالوا: لن نؤمن لك بأنّ الله أرسلك وكلّمك حتّى نسـمع كلام الله تعالىٰ. فاختار منهم سبعين رجلاً، فلمّا سمعوا كلام الله قالوا: لن نؤمن بأنّه كلام الله، حتّىٰ نرى الله جهرةً. فأخذتهم الصاعقة فماتوا».

وسيأتي تفصيل القصّة في سورة الأعراف إن شاء الله تعالىٰ.

ويُستفاد من الجمع بين هذه الآية المباركة، وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِـي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[2]، أنّ سؤال موسى لرؤية الله تعالى لم يكن لنفسه ومن عند نفسه، بل

---

١. سورة التوبة: الآية ١٢٧.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

كان لبني إسرائيل، ولذا لم يكن مشمولاً للصاعقة الموجبة للموت والبعث بعده، بل قال تعالى في حقّه عليه السلام:

﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وسيأتي التفصيل في سورة الأعراف.

قوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**:

البعث بمعنى الإثارة والإرسال والتوجّه. وقد استعملت مادّته في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، ويجمع هذه الاستعمالات أحد أُمور ثلاثة:

أحدها: الإيجاد من العدم إلىٰ عالم الدُّنيا، كقوله تعالىٰ: **﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾**[2] بناءً علىٰ أنّه أوّل غراب بعث من العدم إلى الوجود، كما هو الظاهر.

ثانيها: الإحياء بعد الإماته، كقوله تعالىٰ: **﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾**[3].

ثالثها: البعث إلى المقاصد الصحيحة، كبعث الرسل، قال تعالىٰ: **﴿وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾**[4].

والمعروف بين المفسّرين أنّ الأوّل مختصّ بالله تعالىٰ، ويستعمل الأخيران في غيره أيضاً، لأنّ بعض أولياء الله تعالى يُحيي الموتى، وأمّا البعث في الحوائج فهو شائع عند الناس.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

٢. سورة المائدة: الآية ٣١.

٣. سورة الحج: الآية ٧.

٤. سورة البقرة: الآية ١٢٩.

أقول : إنّ اختصاص الأوّل بالله تعالىٰ منصوصٌ في قوله عزّوجلّ لعيسى عليه السلام : ﴿**وَإِذْ تَخْلُقُ مِنْ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي**﴾[١] .

إلّا أن يقال : إنّه من تبديل الصورة لا الإيجاد من العدم المحض .

والمراد بالبعث هنا المعنى الثاني ، أي بعثوا بعد الموت لعلّهم يشكرون هذه النِّعمة عليهم ، ولكنّهم قابلوها بالكفران .

وهذه الآية المباركة دليل علىٰ مذهب الإمامية من الرجعة ، واستدلّوا بجملة من الآيات المباركة هذه إحداها .

ويأتي تفصيل ما ذهبوا إليه إن شاء الله تعالىٰ .

وفي هذه الآيات إيماءٌ إلى النهي عن التعمّق في ذات الله جلّت عظمته ، بل استحقاق العقاب عليه ، وقد وردت عن الأئمّة الهداة عليهم السلام في النهي عن التعمّق في ذاته عزّوجلّ روايات كثيرة ، فعن أبي جعفر عليه السلام :

«تكلّموا في خلق الله، ولا تتكلّموا في الله، فإنّ الكلام في الله لايزداد صاحبه إلّا تحيّراً» .

وعن الصادق عليه السلام : «إنّ الله تبارك وتعالى يقول : ﴿**وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى**﴾[٢] فإذا انتهى الكلام إلى الله تعالىٰ فأمسكوا» .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمْ الْغَمَامَ**﴾ :

ذكر سبحانه وتعالىٰ بعض نِعَمه التي مَنَّ بها علىٰ بني إسرائيل، وهي نعمة التظليل، وذلك أنّهم لمّا خرجوا من مصر وأرادوا الأرض المقدّسة، اجتازوا

---

١ . سورة المائدة : الآية ١١٠.

٢ . سورة النجم : الآية ٤٢.

صحراء لا ظلّ فيها ولا شجر، فكان يُصيبهم حرٌّ شديد، فشكوا إلى موسى عليه السلام، فأرسل الله تعالى إليهم الغمام لتظلّهم عن حرّ الشمس، كما هو مذكور في التوراة.

والظلّ هو الستر وكلّ ما يستر عن الضياء يُسمّىٰ ظلاً، قال تعالى في وصف أهل الجنَّة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾[1].

والفيء أخصّ منه، لاختصاص إطلاقه بما زالت عنه الشمس فقط، وليس كلّ ظلّ هو فيئاً.

والغمام هو السحاب والقطعة منه غمامة، وإنّما سمي غماماً، لأنّها تستر السماء، فيصير معنى الغمام والظلّ والستر واحداً ويفرق بالاعتبار، وتظليل الغمام لهم إنّما وقع في التيه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾:

هذه نعمة أُخرىٰ من النِّعم التي مَنَّ بها علىٰ بني إسرائيل.

والمنّ: هو الإحسان والخير، ويقع:

تارةً: بالفعل، وهو حسن وكثير في القرآن.

وأُخرىٰ: بالقول، وهو مستقبح عند الناس إلّا عند كفران النِّعمة، ولذا قالوا: «إذا كفرت النِّعمة حسنت المنّة».

والسلوى: هو كلّما يتسلّىٰ به الإنسان في المصيبة، وفلانٌ في سلوة من العيش، أي في رغدة.

والإنزال بمعنى الخلق والإيجاد، وحيث يصدر كلّ منهما من مبدأ عال بكلّ معنى العلوّ، يصحّ إطلاق الإنزال عليه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾[2].

---

١. سورة المرسلات: الآية ٤١.

٢. سورة الحديد: الآية ٢٥.

والمعنى : أنزلنا عليكم الخيرات والبركات ، وما يـوجب رَغَـد العـيش ، ويشهد لهذا التعميم ذيل الآية الشريفة: ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾، فإنّها فـي مقام الامتنان .

وقد فسّر المنّ بعض المفسِّرين بأنّه مادّة لزجة حلوة تشبه العسـل ، تـقع على الحجر وورق الشجر مائعة، ثـمّ تـجمد وتـجفّ، فـيجمعها النـاس لأجـل الاستفادة منها ، والسلوى : بالسماني ، وهو طائر معروف .

وهذا يكون من باب التطبيق ، لا بيان المعنى الحقيقي ، ويأتي شـرح ذلك في قصة التيه، في سورة المائدة إن شاء الله تعالىٰ .

قوله تعالىٰ : ﴿**كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ :

الطيب ما تستطيبه النفس ، وهو من الأُمور الإضافية، فربَّ طيبٍ يستطيبه قومٌ دون آخرين ، وذكر كلمة (من) في الآية الشريفة لهذه الجهة .

أي ليأكل كلّ منكم ما يشاء ويستطيبه . وسياقها يدلّ عـلىٰ وفـور النِّـعم وكثرتها ، ولكنّهم قابلوها بالكفران والمعاصي، كما أشارت إليه الآية المباركة .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ :

في هذه الآية الشريفة إشارة إلى أمر وجداني، وهو كـلّ مَـن كـفر بـنعمةٍ أُسديت إليه، فقد ظلم نفسه ، لأنّ ذلك سببٌ لانقطاع تـلك النِّـعمة وزوالهـا ، أو يستوجب عذاب الله تعالىٰ ، وممّا ظلموا به أنفسهم جحودهم لله تعالى الذي هو من أعظم الظلم .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ**﴾ :

مادّة (ق ر ي) تأتي بمعنى الجمع، فيصحّ إطلاقها علىٰ كلّ مجمع إطـلاقاً حقيقياً .

وروي أنّ بعض القُضاة دخل علىٰ علي بن الحسين عليه‌السلام، فقال عليه‌السلام:

«أخبرني عن قول الله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾** ما يقول فيه علماؤكم؟

قال: يقولون إنّها مكّة.

فقال عليه‌السلام: وهل رأيت سرق في موضع أكثر منه بمكّة؟!

قال: فما هو؟

قال عليه‌السلام: إنّما عني الرجال.

قلت: فأين ذلك من كتاب الله؟

فقال عليه‌السلام: ألم تسمع قول الله تعالىٰ: **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ﴾**».

أقول: وعلىٰ هذا لا داعي إلى الحذف والإضمار، كما عليه الأُدباء وتبعهم جمع من المفسِّرين، لأنّه مع صحّة المعنى الحقيقي، لا تصل النوبة إلى المجاز والحذف.

ثمّ إنّ المراد بالقرية هنا مطلق المدينة، وهما البلد نظائر لغة، وإن كان قد يفرق بين القرية والبلد عرفاً، فيُقال: القرية للمجمع الصغير من الناس، والقصبة لما هو أكبر منها، والبلد لما هو أكبر منهما.

ولم يعيّن القرآن هذه القرية، إلّا أنّ المعروف بين المفسِّرين أنّها كانت بيت المقدس، وهو المروي عن ابن عبّاس.

وعن بعض: أنّها أريحا، وهي من حدود بيت المقدس فيرجع إلى الأوّل، ويشهد له قوله تعالىٰ:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾[1].

وهذه نعمةٌ أُخرىٰ منَّ بها الله عليهم، حيث أباح لهم دخول القرية بعد زوال التيه عنهم، فيكون الأمر إرشادياً لا تكليفيّاً، وسيأتي تتمّة الكلام بعد ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾:

الرغد هو السعة والكثرة، وإطلاقه يشمل السعة في كلّ شيء، كالرغد في أنواع النِّعم، والرغد في المكان والزمان وغير ذلك، في مقابل كلّ ضيق يفترض.

وحيث إنّ دأب القرآن أنَّ آياته المباركة يبيّن بعضها بعضاً، فلفظ الرغد وإن ذكر في هذه الآية الشريفة، ولم يذكر في سورة الأعراف آية ١٦١، ولكن إذا لاحظنا الآيتين معاً يكون كأنّه ذكر فيهما معاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾:

لمّا أمرهم سبحانه وتعالى بالدخول إلى القرية المقدّسة، بيَّن لهم كيفيّة الدخول وآدابه، ولأجل هذا قدّم قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾ علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾، بخلاف ما ورد في سورة الأعراف.

والسجود هنا بمعنى الخضوع والخشوع، المناسب لمن يدخل الأرض المقدّسة، وهو تأديب إلٰهي في كيفيّة دخول بيت المقدس، ويصحّ تعدّيه إلى كلّ بيت من بيوت المسجد الحرام والكعبة المقدّسة، تعرَّض لها فقهاء الفريقين في الكتب الفقهية.

والمعروف في الباب أنّها بيت القدس، يُسمّى بباب حِطة (باب التوبة)، ويمكن أن يُراد بالباب مطلق مدخل الشيء، سواء كان من الأبواب المعهودة

---

١. سورة المائدة: الآية ٢١.

المادّية أم المعنوية ، أي أبواب استكمالات النفس الإنسانيّة مطلقاً، وإطلاق الباب علىٰ هذا المعنى شائع كثير ، فقد روى الفريقان عن نبيّنا الأعظم ﷺ :

«أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها ، ومن أراد العلم فليأتي الباب» .

فالأنبياء والأوصياء والعلماء بالله العاملون، أبواب معرفة الله تعالىٰ ، وطرق الهداية إليه ، ولابدّ من الخضوع لهم لاستكمال النفوس الناقصة ، وهذا ما تقتضيه الفطرة، فليس ما في هذه الآية المباركة أمراً خارجاً عن حكم الفطرة .

وعن أبي جعفر عليه السلام : «نحن باب حطتكم».

وهذا مطابق لما تقدّم ، فباب الحطة والعلم الإلٰهي واحد .

ولم يعلم أنّ هذا الأمر في الآية المباركة، كان في شرع موسى عليه السلام علىٰ نحو الندب، كما في شرعنا، أو علىٰ نحو الوجوب ، وظاهر الأمر يقتضي الأخير، لولا سياق الأدبية ، وترتّب العقاب علىٰ خصوص الذين بدّلوا القول .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ :

يعني : قولوا ـ عند دخولكم الباب خاشعين متواضعين لله تعالى ـ اللّٰهمّ حطّ عنّا ذنوبنا بتشرّفنا ببيتك ، وسِلْكنا مَسلك أهل عبادتك . فإذا فعلتم ذلك بدخول الباب والتوبة، نغفر لكم خطاياكم الكثيرة ، وقد وعدهم بمزيد الإحسان، وهذا من سنّته عزّوجلّ، قال تعالىٰ : ﴿**لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ**﴾[1]، فلا تختصّ الآية الكريمة بموردها ، بل تشمل كلّ مَن ترك ما لا يرتضيه تعالىٰ، ودخل في ما يرضاه عزّوجلّ .

قوله تعالىٰ : ﴿**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ**﴾:

التبديل : التغيير سواء كان في أصل المادّة أم في الهيئة، أم في بعض

---

١ . سورة يونس : الآية ٢٦.

جهاتهما. وسواء كان في الاعتقاد، أم في مجرّد اللفظ، أم فيهما معاً.

وتبديل ما أنزله الله تعالى حرامٌ بحكم الفطرة، وقد أجمع المسلمون علىٰ عدم صحّته في ما يتعلّق بالشريعة الإسلاميّة، ومنه تبديل ألفاظ القرآن الكريم ولو حرفاً واحداً، فإنّه لايجوز بلا ريب ولا إشكال.

والمعنىٰ: أنّهم غيّروا ما أُمروا به، فخالفوه ولم يتّبعوه، وكان لهذا التبديل مصاديق مختلفة عند اليهود، فإنّهم خالفوا الأمر بالاستغفار والتوبة والسجود في بيت المقدس، وبدّلوه إلى شيء آخر.

وللمفسّرين في تعيين المبدّل إليه في السجود والحطة أقوال:

فذكر بعضهم: أنّهم قالوا بدل «حِطّة»، حنطة في شعرة.

وقال آخر: إنّه بهاطا، أو بحاطا، أو هطا سمهاثا، إلى غير ذلك.

وبدّلوا الأمر بالسجود، أنّهم زحفوا على استاههم.

وكيف كان، فقد وقع التبديل والمخالفة في ما أُمروا به، فشملهم العذاب، وهذا جزاء كلّ مستهزئ بآيات الله وأحكامه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنْ السَّمَاءِ﴾:

يستعمل الرجز بمعنى الاضطراب الموجب للعذاب، وعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«الطاعون رجز عُذّب به بعض الأُمم».

وعن بعض اللّغويين: الرجز والرجس متقاربان، كالبزاق والبصاق.

والرجز (بالضم) عبادة الأوثان، وهو يناسب المعنى الأوّل. ولم يذكر سبحانه وتعالى نوع العذاب، إنّما ذكر بعض المفسّرين أنّه الطاعون، فمات منهم أربعة وعشرون ألفاً من كبارهم وشيوخهم، وبقي الأبناء فانتقل عنهم العلم

والعمل، فمات الكبراء والشيوخ بالطاعون، ومات الباقون بالجهل المركّب الذي هو أشدّ من الطاعون، وإنّما كرّر الظالمين في الآية المباركة، إمّا لأجل تخصيص الرجز بالظالمين، أو تعظيماً للأمر وإظهار قبح ظلمهم.

قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾:

ابتلى اليهود بأنواع من العذاب، جزاءً بما كانوا يفسقون بمخالفة الأوامر الإلٰهيّة.

وسيأتي في سورة الأعراف تمام قصتهم إن شاء الله تعالىٰ.

بحث دلالي:

يمكن أن يكون تظليل الغمام إشارة إلى مقام تجلّي صفاته المقدّسة جلّت عظمته لخُلّص عباده، وإنزال المنّ والسلوى إشارة إلى المقامات الحاصلة لهم من التخلّي عن الرذائل والتحلّي بالفضائل.

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ إشارة إلى قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «لله في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾، إشارة إلى قوله تعالىٰ: «مَن دنا إليَّ شبراً دنوت إليه ذراعاً، ومن دنا إليَّ ذراعاً دنوت منه باعاً، ومن دنا إليَّ باعاً دنوت إليه هرولة».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾، إشارة إلى باب الرِّضا بالقضاء الذي هو باب الله الأعظم.

وقوله تعالىٰ: ﴿سُجَّداً﴾، إشارة إلى ظهور التجلّيات من عالم الغيب.

والقرآن ذو وجوه، والمطلوب هو عدم الجزم بما ظهر من الاحتمال،

وإيكال العلم إلى العليم المتعال.

ثمّ إنّ ذكر حالات بني إسرائيل في ما يقرب من أربعين آية من سورة البقرة، وذكر قصصهم في القرآن الكريم، وبيان لجاجهم وعنادهم مع أنبيائهم، وتعذيبهم بأنواع العذاب، لما في ذلك من التسلية للنبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله، بما كان يلقاه من مشركي العرب، وإيماء إلى أنّ مَن أصرَّ علىٰ جهله وعناده في إنكار الحقّ بعد ظهوره، يرى ما رآه بنو إسرائيل من العذاب، لوجود التشابه بينهما، فلابدَّ من العبرة بما جرىٰ عليهم، ونبذ مساوئ الأخلاق، والاهتمام بإصلاح النفوس، فإنّ الله تعالى لم يحك لنا قصص الماضين إلّا للاعتبار بها.

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً**﴾:

«هم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام ليسمعوا كلام الله تعالى فلمّا سمعوا الكلام، قالوا: لن نؤمن لك يا موسىٰ حتّىٰ نرى الله جهرة. فبعث الله عليهم صاعقةً فاحترقوا، ثمّ أحياهم الله بعد ذلك وبعثهم أنبياء، فهذا دليلٌ على الرجعة في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله، فإنّه قال: لم يكن في بني إسرائيل شيء إلّا وفي أُمّتي مثله».

أقول: يظهر من الحديث ـ علىٰ فرض صحّته ـ أنّ هؤلاء السبعين كانوا من خواص أصحاب موسى عليه السلام لاختياره لهم، كما يأتي في الرواية اللاحقة، وكانوا عالمين بشريعته، وإصرارهم على الرؤية، إنّما كان لأجل أن يصلوا الى هذا المقام الرفيع أي الروية، وترفع درجتهم عند الناس في ترويجهم لشريعة موسى عليه السلام، ونزول الصاعقة عليهم وإحراقهم، نحو تأديب إلٰهي لهم لإصرارهم في سؤالهم، فليست الصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، بل أنّها تأديبية وإحيائهم

وبعثهم أنبياء، لأجل أنّهم كانوا عارفين بخصوصيات شريعة موسى عليه السلام، والظاهر أنّهم كانوا جميعاً أنبياء في عصر واحد، كجمعٍ من علماء أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله في عصر واحد، لأنّهم كانوا يبلِّغوا أحكام التوراة.

وأمّا ذيل الحديث، فيدلّ عليه روايات كثيره من الفريقين، على أنّ كلّ ما وقع في بني إسرائيل يقع في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله، ويشهد لذلك قوله تعالىٰ:

﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾[1].

وهذا شأن جميع ذوي العقول التي انحصرت إدراكاتهم على الحسّ والمحسوسات، وتأتي الإشارة إلى الآيات الدالّة على الرجعة والأخبار الدالّة عليها.

وفي «العيون» عن الرضا عليه السلام:

«إنّهم السبعون الذين اختارهم موسى عليه السلام وصاروا معه إلى الجبل، فقالوا له: إنّك قد رأيت الله فأرناه كما رأيته.

فقال لهم: إنّي لم أَره.

فقالوا له: لن نؤمن لك حتّىٰ نرىٰ الله جهرة».

أقول: تقدّم في الرواية السابقة ما يتعلّق بهذا الرواية.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالىٰ: **﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ﴾** الآية:

«لمّا عبر بهم موسى البحر نزلوا في مفازة، فقالوا: يا موسى أهلكتنا وأخرجتنا من العمران إلى مفازة لا ظلَّ فيها، ولا شجر، ولا ماء فكانت تجيء بالنهار غمامة تظلّهم من الشمس، وينزل عليهم بالليل المنّ فيأكلونه، وبالعشي

---

١. سورة الإسراء: الآية ٩٠ ـ ٩٢.

يجيء طائر مشوي فيقع على موائدهم، فإذا أكلوا وشبعوا طار عنهم».

أقول : على فرض صحّة الحديث، يكون هذا من سنخ أطعمة الجنّة التي تكون لها حياة خاصّة.

وفي «الكافي» عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله عزّوجلّ: **﴿مَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**:

قال عليه السلام : «إنّ الله أعظم وأعزّ وأجلّ وأمنع من أن يُظلم، ولكنّه خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه، وولايتنا ولايته، حيث يقول: **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾**، يعني الأئمّة».

وقريب منه ما عن أبي الحسن الماضي عليه السلام.

أقول : أمّا قوله عليه السلام : إنّ الله أعظم وأعزّ وأجلّ وأمنع من أن يَظلم، فإنّ الظلم بمعنى المظلومية من صفات الممكن، وهو تعالى منزّه عن ذلك.

وأمّا الظلم بمعنى الفاعل، فهو مضافاً إلى أنّه من صفات الممكن أيضاً، متقوّم بالاحتياج وهو تعالى منزّه عنهما.

وأمّا قوله: (خلطنا بنفسه)، يعني: جعلنا من مظاهره تعالى على العباد، لأنّ أنبياء الله تعالى وأولياءه أدلّاء عليه، وكلّ دليل مظهر لمدلوله، فيكون الخلط بهذا المعنى.

وأمّا قوله عليه السلام : (فجعل ظلمنا ظلمه وولايتنا ولايته)، إذ لا معنى لولاية الله تعالى من كلّ جهة وإطاعته، إلّا أن يكون الظلم عليهم ظلماً على الله تعالى.

وعن ابن بابويه، عن الرضا، عن آبائه عن علي عليهم السلام، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الكمأة من المنّ الذي نزل على بني إسرائيل ـ الحديث ـ».

ومثله ما رواه البرقي، عن الصادق عليه السلام، عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

أقول : هذا من باب التطبيق ، ويظهر أنّ للمنّ مصاديق منها ما ورد في الحديث . والكمأة شحم الأرض .

وفي «تفسير العياشي» عن الرِّضا عليه السلام ، في قول الله عزّوجلّ : **﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾**:

قال عليه السلام : «قال أبو جعفر عليه السلام : نحن باب حطتكم» .

أقول : تقدّم ما علىٰ ذلك ، وقريب منه ما ورد عن النبيّ صلى الله عليه وآله في حقّ عليّ .

***

الآية ٦٠ ـ ٦١

﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة بعض القضايا المهمّة الواقعة في بني إسرائيل في عهد موسى عليه السلام، تذكيراً بنعمه عليهم، فقابلوا ذلك بالكفران والعناد للحقّ، فعُوقبوا بالذلّة والمسكنة وغضب من الله تعالىٰ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾:

الاستسقاء طلب الماء، وذلك أنّ بني إسرائيل لمّا خرجوا من مصر وقعوا في صحراء قفر، فأصابهم ظمأ شديد، فاستعانوا بموسى عليه السلام فطلب من الله تعالى أن يسقيهم، كما سبق أنّهم طلبوا من موسى عليه السلام أن يظلّهم من حرّ الشمس فظلّل عليهم الغمام، وطلبوا الطعام فأنزل الله تعالىٰ عليهم المنّ والسلوى، وجميع هذه

الآيات وقعت في التيه، كما سيأتي تفصيل قصّتهم في سورة الأعراف إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾:

أي أمرنا موسىٰ عليه السلام أن يضرب الحجر بعصاه.

وقد ذكر بعض المفسّرين: أنّ هذا الحجر لم يكن حجراً معيّناً، بل أي حجر ضربه عليه السلام انفجر منه الماء.

ولكنّه مخالفٌ لظاهر الآية المباركة، بل كان حجراً معيّناً من أحجار الجنَّة، علىٰ ما روي عن أبي جعفر عليه السلام، فإنّه قال:

«ثلاثة أحجار من الجنَّة: مقام إبراهيم، وحَجَر بني إسرائيل، والحَجَر الأسود».

وهو موجود لدى خاتم الأوصياء عليه السلام، وسيكون لهذا الحجر شأن من الشأن عند ظهوره عليه السلام، ويشهد له ما في التوراة، فإنّه عبّر عنه في سفر الخروج بـ(الصخرة)، وستأتي تتمّة الكلام في البحث الروائي.

وعصا موسىٰ عليه السلام معروفة في الكتب السماوية، وقد كانت مظهراً لمعجزات كثيرة، وأصلها من آس الجنَّة، كان آدم عليه السلام حملها معه من الجنَّة إلى الأرض، كان طولها عشرة أذرع علىٰ طول موسىٰ عليه السلام، ولها شعبتان تتوقدان نوراً في الظلمة، وكانت تتوارث مع الأنبياء وأوصيائهم، حتّى دفعها شُعيب إلىٰ موسىٰ بن عمران عليه السلام وهي موجودة الآن، وستظهر حتّى تلقف أساس الظلم والعدوان علىٰ يد خليفة من خلفاء الرحمٰن إن شاء الله تعالىٰ، وفي جميع ذلك روايات معتبرة يأتي التعرّض لها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾:

الإنفجار: الإنشقاق، وكلّ انفجار مسبوق بالانبجاس ولا عكس. وقد ذكر

سبحانه وتعالى في آية أُخرىٰ الانبجاس، فقال جلَّ شأنه:
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذْ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِب بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾[١].

ويمكن الجمع بينه وبين المقام باختلاف المراتب شدّة وضعف، لأجل القرائن المحفوفة بالموضوع. وكانت عدد العيون المنفجرة بعدد الأسباط، لكلّ سبط مشربٌ معيّن لا يتعدّاه إلىٰ غيره، كما في الآية المباركة.

قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾:

العلم إمّا بإلهام منه عزّوجلَّ ذلك لهم، أو بجعل من موسى عليه السلام، أو بالتباني علىٰ ذلك، ليختار كل أُناس مشربهم فلايقعوا في التنافس والتزاحم.

قوله تعالىٰ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾:

المراد من الرزق هنا، هو الحاصل من عالم الغيب كما مرّ، أي كلوا ممّا رزقكم الله من المنّ والسلوى، واشربوا ممّا فجّرناه من الصخرة. وقد تقدّم في أوّل السورة معنى الرزق.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾:

العيث: شدّة الفساد، أي لا تبالغوا في الفساد في الأرض. وفي الآية المباركة إيماء إلى أنّ كلّ فساد في الأرض عظيم وشديد، أو أنّ الفساد يجب أن يُتحرّز حتّى عن موهومه، فضلاً عن مظنونه ومعلومه.

وورود النهي عقيب الانعام فيه إيماء أيضاً إلى أنّ النِّعمة يجب أن لا تكون سبباً لفسادهم، فلا يقابلوها بالغيّ والكفران. ويعرف من ذلك أنّ فساد بني

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٦٠.

إسرائيل وتبديلهم نِعَم الله تعالىٰ بالكفران، لاينفكّ عنهم، وقد طُبعوا علىٰ ذلك، كما شاهد ذلك نبيّنا الأعظم ﷺ في مشركي قريش ويهود عصر التنزيل.

ثمّ إنّ حكم الآية عام لا يختصّ بخصوص المورد، كما في كثير من الآيات، ولعلّه لذلك التفت من سياق الكلام السابق إلى سياق آخر.

والأمر بالأكل والشرب للإباحة لجميع ما لم ينه الشارع عن أكله وشربه ولعامّة أفراد الناس.

وظهور الماء من الحجارة بعصا موسى ﷺ، مذكور في التوراة والقرآن الكريم، كما أنّ ظهور الماء من أنامل نبيّنا الأعظم ﷺ مذكور في كتب الفريقين، ومن الواضح أنّ الثاني أشدّ معجزة من الأوّل.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾:

أي واذكر ما قاله بنو إسرائيل لموسىٰ: إنّنا لن نصبر على المنّ والسلوى، حيث لم يجدوا بديلاً عنهما. وهذا يدلّ علىٰ قصور هممهم، وأنّها مقتصرة على المادّيات، وعدم قابليّتهم لنِعَم عالم الغيب، فقد استولى علىٰ طباعهم السخرية والعناد، فكان هذا السؤال منبعثاً عن طبيعتهم.

والطعام: كلّ ما يتغذّى به، وغُلّب استعماله في الحنطة لأجل الغلبة الاستعمالية وإلّا فقد يستعمل في الماء أيضاً، قال تعالىٰ:

﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾[1].

وعن نبيّنا ﷺ في وصف ماء زمزم: «طعام طُعم وشفاء سُقم».

والطعام اسم يُطلق علىٰ ما يُؤكل ويُشرب، وقد وردت مادّة (ط ع م) في القرآن الكريم بهيئات مختلفة بالنسبة إلى الدُّنيا والآخرة:

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا﴾[2].

وقال جلَّ شأنه في وصف النار: ﴿وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً﴾[3].

والطَعم ـ بالفتح ـ هو ما يؤديه الذوق، قال تعالى في وصف الجنَّة:

﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ﴾[4].

فهذه المادّة قرينة الإنسان في جميع نشآته إلى الخلود، وربما يستعمل في المعنويات أيضاً، قال تعالىٰ:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾[5].

وفسّر في الأخبار إلى علمه الذي يتعلّمه الإنسان. فالطُعم ـ بالضم ـ الأكل، وبالفتح عرض قائم بالقوّة الذائقة.

والمراد بالواحد الوحدة النوعية، فإنّ الطعام كان مركّباً من المنّ والسلوى، وأنّه يتكرّر كلّ يوم فذلك ينافي الوحدة الشخصية.

وفي عدم صبرهم علىٰ طعام واحد، يحتمل وجهان:

الأوّل: ملالة الذوق، لأنّ لكلّ جديد لذّة.

الثاني: المراد الوحدة في الآكلين، مع أنّ فيهم الأغنياء والفقراء ومَن هو أدون، وهذا لايناسب مقامهم الدنيوي.

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٤.

٢. سورة المائدة: الآية ٩٣.

٣. سورة المزّمل: الآية ١٣.

٤. سورة محمّد: الآية ١٥.

٥. سورة عبس: الآية ٢٤.

وكلّ ذلك يرجع إلى قصور عقولهم، كما ذكرناه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾:

الدُّعاء هنا بمعنى السؤال من الله تعالىٰ، والطلب منه، وإفراد الخطاب في قوله تعالىٰ: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لمّا علموا من أُنس موسىٰ عليه السلام بربّه، ورأفته تعالى بموسى عليه السلام فكانوا يعلمون الاستجابة منه، وتحريضاً لموسى عليه السلام للتأكيد في السؤال.

والبقل: كلّ نبات لاينبت أصله وفرعه في الشتاء، والمراد به ما يطعمه الإنسان من طيب الخضروات.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾:

القثّاء نباتٌ معروف وهو الخيار، كما أنّ العدس والبصل معروفان. والفوم هو الحنطة، روي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام، وهو قول أكثر المفسّرين. وقال جمع إنّه الثوم أبدلت الثاء فاء، وهو المشاكل للبصل.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾:

الاستبدال طلب شيء بدلاً من آخر، أي أتستبدلون الذي هو خسيس بالمنّ والسلوى الذي هو خير منه؟!، واستبدالهم الدنيء بالخير واضح، لأنّ المنّ والسلوى ينزلان عليهم من عالم الغيب من غير تعب وعناء، وجميع ما سألوه إنّما كانا أطيب وألذّ ممّا سألوه.

قوله تعالىٰ: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾:

قد تقدّم معنى المصر، وهو في الأصل بمعنى الانقطاع والفصل، لأنّ المحل

صار منقطعاً ومنفصلاً عن غيره بالعمارة والسكنى .

والمراد بها مصر من الأمصار، وقيل إنّها مصر المعروفة، ويجوز تنوينها لصرفها، ولادليل علىٰ كلا القولين .

وكيف كان فالأمر للتعجيز، لأنّه لا يمكنهم الدخول في مصرٍ من الأمصار، لأنّ الله تبارك وتعالىٰ كتب عليهم التيه، ولا يمكنهم القتال لضعف عزائمهم وجبن نفوسهم، وأنّ الأرض التي هم فيها جدباء لاينبت فيها البقل والزرع .

قوله تعالىٰ : ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ :

الضرب يأتي لمعان كثيرة تتميّز بالقرائن، والمراد به في المقام هو اللزوم والالزام، من قولهم : (ضرب المولى الخراج علىٰ عبيده)، أي ألزمهم، وذلك أحسن الاستعمالات .

والذلّة : الصغار والهوان .

والمسكنة : الخضوع الشديد وفقر النفس، لأنّ الفقر يسكن الشخص ويقلّل حركته، وهما أعمّ ممّا إذا كانت في النفس أو في المال، أو في سائر الجهات .

والله جلَّ شأنه عاقبهم بالذلّة والمسكنة، لأنّهم كفروا بأنعُم الله، فقد أذلّهم الله تعالى باستيلاء سائر الأُمم عليهم .

والمتيقّن من الضمير في (عليهم) اليهود، ففي عصر موسى عليه السلام الذين آذوه، ومَن آذوا منهم نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، ويمكن إرجاعه إلى جميع الأعصار، كما دلّت عليه التواريخ، ويأتي في الآيات المناسبة بيان ذلك .

قوله تعالىٰ : ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ :

والبوء بمعنى الرجوع، وباؤا أي رجعوا وانقلبوا، ويستعمل في القرآن

غالباً في الشرّ، قال تعالىٰ: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾[٢].

والغضب إن أُضيف إليه سبحانه وتعالىٰ، فهو عقابه بالنسبة إلى مَن غضب عليه، وإن أُضيف إلى الخلق، فهو حالة توجب الإضرار، وهي من الحالات المذمومة، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«اتّقوا الغضب فإنّه شُعلة من نار جهنّم يُلقي صاحبها في النار».

نعم، إذا كان الغضب لله تعالى فهو محمود، ومنه بعض مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقدّم بعض الكلام في سورة الفاتحة عند قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾.

وقد يبيّن تعالى السبب في إذلالهم ومسكنتهم وغضبه عليهم بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾، فرجعوا بكفرهم وعصيانهم إلى غضبه تعالىٰ رجوعاً دائميّاً، فإنّ كلّ غضب لابدّ له من سبب بخلاف الرحمة، فقد تواتر عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أنّ رحمته سبقت غضبه» وليس المراد بالسبق الزماني منه، بل السبق الإيجادي التكويني، فإنّ ما سواه منه عزّوجلّ ومن رحمته، فكلّ مَن يعصي الله سبحانه وتعالىٰ، فقد رجع من رحمته إلىٰ غضبه، وعقابه بعمده، واختياره بعد فتح جميع أبواب الرحمة على الفاعل المختار، فيستحقّ الخزي والعار في حكم العقل، وحكم الشرع.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾:

أي أنَّ ما حلَّ بهم من الذلّ والمسكنة، واستحقاق غضب الله تعالىٰ، كان

١. سورة البقرة: الآية ٩٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٦٢.

سبب كفرهم وتكذيبهم لآياته جلَّ شأنه.

والمراد بآيات الله تعالى المعجزات الباهرات، التي شاهدوها من موسى عليه السلام، والكفر بها رجوع بغضب علىٰ غضب، لأنّ كفران كلّ آية من آياته يوجب غضباً منه عزَّوجلَّ؛ ويجورز أن يكون المراد الكفر بالمعجزات، وقتل النبيّين، أو إنكار الإنجيل والقرآن.

والأولى إرادة العموم ليشمل جميع ما ذكر مع ترك الواجبات وفعل المحرمات، وتشهد لذلك الروايات الدالّة علىٰ أنّ الإصرار على المعاصي الصغيرة من الكبائر، ولا اختصاص لذلك ببني إسرائيل فقط، بل يشمل أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله لعدم التخصيص بالمورد كما هو المتعارف.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾:

الأنبياء جمع النبيّ كالأقوياء جمع القويّ. والنبأ هو الخبر، ولكنّه أخصّ من مطلق الخبر، لاختصاصه بالإخبار عن الغيب بواسطة إنسان رفيع الشأن وعظيم المنزلة.

والمشهور بين اللغويّين وتبعهم المفسّرين: أنّ مبدأ اشتقاق النبيّ مهموز. وعن بعض: اشتقاقه من النبوّة، من غير همز، وهي الارتفاع، لأنّ مقام النبيّ رفيع جدّاً، ولا ينافي ذلك لزومه الإخبار عن الله تعالى، فبعضٌ عبّروا بنفس اللازم وهو الإخبار، والبعض الأخر عبّروا بالملزوم وهو رفعة المقام، ويمكن تأييده بثقل الهمزة في كلام العرب، حتّى نسب إليهم عليهم السلام:

«لولا أنّ جبرائيل نزل القرآن بالهمزة ما همزنا أهل البيت».

ومنه يظهرحكم تخفيف الهمزة في القرآن كلّه، وعليه كلّما دار بين قراءة شيء بالهمزة أو بغيرها تكون القراءة بغيرها أولى. وروي أنّ رجلاً جاء إلى

النبيّ ﷺ فقال:

«يانبيء الله ـ بالهمزة ـ فقال: لست بنبيء الله ـ وهَمَز ـ ولكنّي نبيّ الله ـ بغير همز ـ».

ويأتي النبيّ بمعنى الطريق، وسمّى الرسول به، لاهتداء الخلق به كالطريق.

وعلىٰ أيّة حال، النبيّ هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بلا واسطة بشر، سواء كانت له شريعة كموسىٰ وعيسىٰ ومحمّد (صلى الله عليهم)، أم لم تكن له شريعة كيحيىٰ مثلاً. والرسول هو الإنسان المُخبر عن الله تعالىٰ، وكانت له شريعة، سواء كانت مبتدأة كآدم عليه السلام، أم ناسخة كشريعة محمّد ﷺ، وسيأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة.

وإنّما وصف الله سبحانه قتل النبيّين بغير الحقّ، وهو كذلك إذ لا يعقل أن يكون قتل الأنبياء بالحقّ، فالقيد ليس باحترازي، فهو إمّا لأجل تعظيم الذنب الذي اقترفوه، وزيادة الشنعة عليهم. أو من باب تقرير زعمهم واعتقادهم، يعني مع أنّكم تعتقدون أنّ هذا القتل كان بغير حقّ، فكيف تُقدمون عليه مع هذا الاعتقاد، وقد قتلوا من أنبياء الله تعالى أشعيا وزكريا ويحيىٰ وغيرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

العصيان معروف وهو خلاف الطاعة. والاعتداء تجاوز كلّ شيء، ويحتمل أن يكون لفظ الإشارة الثانية في الآية المباركة تأكيداً للأُولى فيها، أي ذلك الذلّ والمسكنة والغضب كان بسبب عصيانهم لأوامر الله تعالىٰ، وخروجهم عن حدود ما أنزله الله تعالىٰ. ويُحتمل أن ترجع الإشارة إلى الأخير، أي أنّ قتلهم الأنبياء كان بسبب عصيانهم واعتدائهم.

ويستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، أنّ الاعتداء صار عادة لهم طبعاً وخُلقاً لديهم، وهذا أمر لا يختصّ باليهود، بل كلّ من استولى عليه العصيان والمخالفة والاعتداء علىٰ حدود الله تعالىٰ يستحقّ غضب الله تعالى وإذلاله، فيكون ذيل الآية الشريفة حكما عقليّاً لا يختصّ بأُمّة دون أُخرىٰ.

بحوث المقام

بحث روائي:

في «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾:

قال عليه السلام: «والله ما قتلوهم بأيديهم، ولا ضربوهم بأسيافهم، ولكن سمعوا أحاديثهم فأذاعوها، فأخذوا عليها وصار قتلاً واعتداء ومعصية».

أقول: المراد من القتل أعمّ من المباشر والتسبيب، وفي ذلك روايات كثيرة، بل يستفاد ذلك من نفس الآية المباركة، وربما يكون السبب أقوىٰ.

وعن القمّي: «كان مع موسىٰ حجر يضعه في وسط العسكر، ثمّ يضربه بعصاه فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً ـ كما حكى الله تعالى ـ فيذهب كلّ سبط في رحله، وكانوا إثنى عشر سبطاً».

أقول: تعبير القرآن المبين وهذا الخبر بالحجر، أولىٰ من تعبير التوراة بالصخرة، لأنّ الحجر يمكن حمله معهم ـ كما في هذه الرواية ـ دون الصخرة، فإنّها تُطلق على الحجارة الكبيرة التي لا تُحمل إلّا مع المشقّة.

وفي «تفسير العسكري»، عن النبيّ صلى الله عليه وآله:

«احذروا الانهماك في المعاصي، والتهاون بها، فإنّ المعاصي يستولي بها الخذلان علىٰ صاحبها، حتّىٰ توقعه في ما هو أعظم منها، فلا يزال يعصي ويتهاون ويخذل ويوقع في ما هو أعظم ممّا جنىٰ».

أقول: ما ورد في هذه الرواية وجداني لكلّ مَن أرخى عنان النفس في المعاصي، وسلك في أي مسلك شاء وأراد، وتدلّ عليه الروايات الكثيرة

واستفاد عليه السلام ذلك من قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

بحث فقهي وكلامي:

قد استدلّ بالآية الشريفة ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾ علىٰ إباحة الأشياء وحليتها، وجعلوها أصلاً عبّروا عنه بأصالة الإباحة العقلية والنقلية، وقد حرّرنا البحث عنه في كتابنا (تهذيب الأصول) فلا وجه للتعرّض هنا بعد ذلك.

كما استدلّ بها علىٰ أنّ الرزق يطلق على الحلال فقط؛ لأنّ الأمر يدلّ على الإباحة في المقام، وحيث لا يتصوّر الإباحة في الحرام، فلا يصدق عليه الرزق.

ولكن يرد عليه: أنّ من شروط ظهور اللفظ في شيء، إحراز كون المتكلّم في مقام بيان ذلك الشيء، وإقامة الحجّة عليه، وهو غير محرز في المقام، ويكفي في عدم صحّة التمسّك بالإطلاق، الشكّ في ذلك علىٰ ما هو المتعارف في المحاورات، وقد حرّرنا ذلك في أُصول الفقه، ويأتي في الآيات المناسبة ما يتعلّق بالرزق إن شاء الله تعالىٰ.

بحث فلسفي:

ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في هذه الآيات المباركة، جملةً من المعجزات التي صدرت من موسى عليه السلام، وهي كلّها من صنع الله تعالىٰ، وإذا نسبت إليه تعالى لايتصوّر فيها التحديد والتقييد بوجه من الوجوه، لعموم قدرته، فالحدّ بالنسبة إلى الكمال الأتمّ المطلق من كلّ جهة ـ من ذاته وبذاته ولذاته ـ لايتصوّر له معنى معقول، ولكن إذا لوحظ ذلك كلّه بالنسبة إلى المورد والمتعلّق، لابدّ أن يحدّ بحدّ الإمكان الذاتي، إذ المستحيل بالذات يقصر عن القصور في القدرة، وقد سُئل أبو عبد الله عليه السلام:

«هل يقدر الله علىٰ أن يجعل الدُّنيا في بيضة، بحيث لاتصغر الدُّنيا ولا تكبر البيضة؟

فقال عليه السلام : إنّ الله قادر ، ولكن هذا لايكون».

فاتّفق العقل والنقل علىٰ خروج الممتنعات عن مورد المعجزات وخوارق العادات ، وإنّما يكون موردها الممكنات الذاتية، وإن كانت ممتنعة عادةً بالأسباب العادية، لكنّها ممكنة بالقدرة القاهرة الربوبية . ومنه يعلم الوجه في المعجزات الصادرة عن الأنبياء لاسيّما نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله .

وهذا مراد جمع من الفلاسفة والمتكلّمين، وتبعهم بعض المفسّرين القدماء، من أنّ المعجزة تجري بأسبابها الطبيعية ، أي أنّها تجري في الممكنات الذاتية لا الممتنعات بأسبابها الطبيعية الظاهرة لمن جرت علىٰ يده المعجزات الخفيّة علىٰ كيره بل غير القابلة للظهور له .

ومع ذلك إنّه تبارك وتعالى سلك في جريان الإعجاز مسلك الأسباب الظاهرية ، حفظاً للنظام الأحسن الجاري في الأسباب والمسبّبات ، فإنّه تعالى أبى أن تجري الأُمورإلّا بأسبابها ، ولذا كان جريان الماء بضرب الحجر بالعصا، وحمل مريم ابنة عمران بتمثّل الروح الأمين لها ، وتسبيح الحصىٰ في يَدَيّ نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ، مع أنّه تبارك وتعالى قادرٌ علىٰ إيجاد هذه الأُمور بغير تلك الأسباب أيضاً .

وممّا ذكرنا يظهر أنّ جميع القوانين العلمية ، والمخترعات الحديثة، وما يلحقها بعد ذلك لا ربط لها بالمعجزات وخارق العادة أصلاً ، لأنّها تجري وفق قوانين علمية ، أو عملية ثابتة مطردة حاصلة من التجربة، بخلاف المعجزة فإنّها سُنّة جديدة لم يألفها الإنسان ، ولا يعرف لها قاعدة مطردة ، وإنّما تكون بإذن الله تبارك وتعالىٰ .

***

الآية ٦٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

بعد أن ذكر تعالىٰ بعض أحوال اليهود، وتعداد النِعَم عليهم، وكفرهم وعنادهم عن الحقّ، شرع في بيان أحوال المؤمنين من اليهود والنصارى والصابئين الذين عملوا الصالحات، وما وعدهم بجزيل الأجر.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المراد بالذين آمنوا، مَن اتّخذ الدِّين القيّم، كما قال تعالىٰ: ﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[1]، وليس المراد به خصوص المسلمين الذين صدقوا محمّداً ﷺ، ويدلّ على التعميم ذيل الآية الشريفة، فيكون ذكر الأصناف الثلاثة تخصيصاً بعد التعميم، وتفصيلاً بعد الإجمال.

قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾:

أي الذين صاروا يهوداً، نسبوا إلى يهوذا أكبر ولد يعقوب، وأبدلت الذال دالاً تخفيفاً في الاستعمال، وهو اسم جمع واحده يهودي، كالروم والرومي. وقد استعملت مادّة (ه و د) بهيئاتها في القرآن الكريم:

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦١.

فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ﴾[3].

وهذه المادّة تأتي بمعنى الرجوع والتوبة، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾[4] أي: تبنا.

وسُمِّيت اليهود بذلك لتوبتهم عن عبادة العجل، أو الرجوع عن شريعة موسىٰ عليه السلام، أو الرجوع عن الإسلام، والكلّ صحيح في الجملة بالنسبة إليهم حسب الاختلاف الواقع بينهم، وقد نسب إلى نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله أنّه قال:

«اختلفت بنو إسرائيل بعد موسىٰ بخمسمائة سنة، واختلفوا بعد عيسىٰ بمأتي سنة».

وتأتي بمعنى السكون والموادعة والتأنّي في الحركة.

ويستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾[5]، أنّ الإيمان بتوراة موسىٰ عليه السلام، والتسليم بشريعته، أخصّ من مطلق التهود في تلك الأعصار القديمة، فضلاً عن هذه الأعصار، ويشهد لذلك ما نقل في التاريخ أنّ بني إسرائيل ارتد أكثر أسباطهم إلى الشرك وعبادة الأوثان من بعد سليمان، ثمّ بادوا بالقتل والأسر، فلم يبق منهم اسم ولا رسم. والذين بقوا علىٰ

---

١. سورة الحجّ: الآية ١٧.

٢. سورة البقرة: الآية ١٣٥.

٣. سورة المائدة: الآية ٦٤.

٤. سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

٥. سورة المائدة: الآية ٤٤.

صورة التوحيد والشريعة علىٰ تقلب في ذلك أيضاً، هم الموسويّة، وهم أسباط يهوذا أو من تبعهم كسبط بنيامين، فصار عنوان اليهود علماً لمن ينتمي إلى الملّة الموسوية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّصَارَى﴾:

جمع نصراني أو نصران كسكارى وسكران. واشتقاقه إمّا نسبته إلى قرية (الناصرة) كان ينزلها عيسى عليه السلام، أو من تناصرهم.

أو من قول الحواريّين نحن أنصار الله، كما حكى عنهم تبارك وتعالىٰ:

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللهِ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾:

ورد لفظ الصابئين في القرآن الكريم في موارد ثلاثة: هنا، وفي سورة المائدة قال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾[2].

وفي سورة الحجّ[3]، قال تعالىٰ: ﴿وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى﴾.

ويمكن أن يكون تقديمهم بلحاظ تقدّم زمانهم على النصارىٰ، والتأخير عنهم بلحاظ أخذ جملة من أحكامهم من النصارى.

ومادّة (ص ب ا) تأتي بمعنى الميل، فالصابي مَن خرج ومالَ من دين إلى دين آخر، ولذا كان المشركين يقولون لمن أسلم: قد صبا. والصابئون هم الذين

---

١. سورة الصف: الآية ١٤.

٢. الآية: ٦٩.

٣. الآية: ١٧.

خرجوا من أهل الكتاب.

وقد اختلف المفسّرون والفقهاء في الصابئين، هل أنّهم من أهل الكتاب أم لا؟ وعلى الثاني هل هم من المشركين أم لا؟

ويمكن أن يستظهر من ذكرهم في القرآن في سياق أهل الكتاب، أنّهم منهم موضوعاً أو حكماً، ويستفاد من إجماع الفقهاء علىٰ صحّة أخذ الجزية من الصابئة ـ فإن تمّ هذا الإجماع ـ يدلّ علىٰ أنّهم من أهل الكتاب، لعدم جواز أخذ الجزية من غير أهل الكتاب.

وقيل: إنّ كلّ يهودي ترك دينه وأراد أن يتنصّر، أو كل نصراني ترك دينه وأراد أن يتهوّد، سُمّي صابئيّاً.

وهذا القول مردود: فإنّ للصابئين دينهم وعقائدهم وعاداتهم المتميِّزة عن غيرهم.

والحقّ أن يُقال: إنّ الدِّين إمّا سماوي، أو وضعي افتعالي محض، أو مركّب منهما، والصابئة اسم نوعي للأخير، وسيأتي مزيد بيان في البحث الروائي والبحث التاريخي العقائدي.

قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً﴾:

بيان لمعنى الإيمان، وحقيقته هي الإيمان بالمبدأ والمعاد، ويلزمهما الإيمان بالرسالات السماوية أيضاً، والعمل الصالح علىٰ طبق الشريعة المقدّسة، فيكون العمل الصالح من لوازم الإيمان بالرسالة، فإنّ العمل الصالح لا يعرف إلّا من قبل أنبياء الله، وبأمر منه عزَّوجلَّ، كلّ في ظرفه ما لم ينسخ بغيره.

وهذه الآية وما في سياقها ظاهرة في أمرين:

أحدهما: ما ذهب إليه أصحابنا ودلّت عليه النصوص، من أنّ العمل

الصالح جزء الإيمان.

ثانيهما: أنّ المناط كلّه في الإيمان ـ الذي تترتب عليه الآثار الدنيوية والأُخروية ـ إنّما هو الإيمان بالله واليوم الأخر والعمل الصالح، فإنَّ مَن كان كذلك لم يتعدّ حدود الله، ولم يتوان في طلب الحقّ ومرضاة الله، ولا تأخذه لومة لائم أو نزعة باطل، فلا أثر لقولهم: **﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾**[1]، كما لا أثر لقول اليهود: **﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾**[2]، ولا لقول النصارى كذلك، وقد تقدّم بعض الكلام في معنى الإيمان في أوّل سورة البقرة فراجع.

قوله تعالىٰ: **﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**:

أي إنّ جزاء إيمانهم، وثواب عملهم الصالح، معدّ عند ربّهم، وهذا من قبيل ترتّب المعلول على العلّة التامّة. وذِكْر **﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**، لبيان أنّه يستحيل أن يتغيّر ويتبدّل، للأدلّة العقلية والنقلية الدالّة علىٰ أنّ ما عنده تعالىٰ غير قابل للتغيير والتبديل، وكفى بذلك فخراً لأهل الإيمان أن كان لهم ذخيرة باقية عند ربّهم، فيكون لذاته تعالىٰ معيّة قومية مع عباده، قال تعالىٰ: **﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾**[3]، وبعناياته الخاصّة توفيقات وتأييدات لهم، وفي جزائه لأعمالهم خزائن يضاعف لمن يشاء.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾**:

أي لا خوف عليهم من المتوقّع، ولا حزن على الواقع، ونفي ذاتهما يقتضي

---

١. سورة البقرة: الآية ١٣٥.

٢. سورة المائدة: الآية ١٨.

٣. سورة الحديد: الآية ٤.

نفي جميع ما يتصوّر فيهما من الأفراد أبداً، بجميع مراتبها من الخارجية والعقلية والخيالية، فإنّ الحضور المطلق المستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿**عِنْدَ رَبِّهِمْ**﴾، يقتضي نفي الخوف والحزن بالنسبة إليه، فالنفي نفي موضوعي، وهي من القضايا التي قياساتها معها، فإنّ الوصول إلى مرتبة الكمال التامّ، والمستغرق في فيوضات الكمال المطلق بالذات، لا يتصوّر فيه نقص حتّى يتعلّق به الخوف والحزن، ولا ريب أنّ منشأهما وجود النقص في الجملة.

إن قيل: إنّ المراتب متفاوتة، فالنقص حاصل ولو بالنسبة إليها.

يُقال: هذا من قبيل لوازم الذات غيرالملتفت إليها، فلا يتعلّق بها الحزن لأنّ مورده الالتفات والقصد.

بحث روائي:

عن ابن بابويه في «العيون» عن الرِّضا عليه السلام في النصارىٰ:

«إنّهم من قرية اسمها ناصرة من بلاد الشام، نزلها مريم وعيسىٰ بعد رجوعهما من مصر».

أقول: تقدّم وجه اشتقاق ذلك أيضاً.

وفي «المعاني» عنه عليه السلام:

«إنّ اليهود سمّي باليهود، لأنّهم من ولد يهوذا بن يعقوب».

وفي «تفسير القمّي»: «الصابئون قوم لا مجوس ولا يهود ولا نصارى ولا مسلمون، وهم قوم يعبدون الكواكب والنجوم».

أقول: يأتي بيان مذهبهم.

وفي «الدرّ المنثور»، عن سلمان الفارسي، قال:

«سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن أهل دين كنت معهم، فذكر من صلاتهم وعبادتهم فنزلت ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا**﴾ الآية».

بحث تاريخي عقائدي:

الصابئة :ـكما في جملة من التواريخ ـقوم يدينون بالله الواحد، يتعصّبون للروحانيات لتقرّبهم إلى الله، يعبدون الكواكب، وبعضهم يعبدون التماثيل، ويقال: إن بيوراسب أوّل من أظهر القول بمذهب الصابئة، وتبعه علىٰ ذلك الذين أرسل اليهم النبيّ نوح عليه السلام، ويدّعي الصابئون أنّ من أنبيائهم عاذيمون، وهرمس.

وقيل : إنّ عاذيمون هو شيث، وهرمس هو إدريس.

وقيل : إنّ إسم الصابئة مشتقّ من الأصل العبري (ص ب ع)، أي غطس، ثمّ أُسقطت العين، ويشير بذلك إلى فرقة المعمدانيين ـكما ستعرف ـ.

وقيل : إنّه كان لادريس ـوهو اخنوخ علىٰ ما في التوراة ـابنٌ كان يُسمّىٰ (صاب) وإليه تُنسب الصابئة.

وقد كان هذا الدِّين منتشراً في بلاد كثيرة، وبعث الله فيهم الأنبياء والرسل، وقد أخذ هذا الدِّين أُموراً كثيرة من الأديان الإلهيّة، وتأثّر بالمعتقدات والوثنية، وهم علىٰ فرقتين متميّزتين:

الأُولى : الفرقة المندياثية، وهي فرقة يهودية نصرانية، أخذت من تعاليم اليهود والمسيحية، فأخذت شعيرة التعميد من نصارى يوحنا المعمدان، وتأثّرت بالمجوسية، وأخيراً اخذت بعض تعاليم الإسلام. والظاهر أنّ الصابئة الذين ذكرهم الله تعالى في القرآن في مواضع ثلاثة هي هذه الفرقة.

الثانية : الفرقة الحرانية، نسبة إلى صابئة حران، وهم فرقة وثنية انتحلت بعض أحكام أهل الكتاب ليمكنهم العيش في بلاد الإسلام، وينعموا بالسماحة التي أظهرها القرآن لأهل الكتاب.

وقد تفرّقت هاتان الفرقتان إلى فرق متعدّدة لاحاجة إلى ذكرها.

وتتميّز الصابئة عن سائر المذاهب بشدّة أحكامهم، وقسوة تعاليمهم،

ولأجل ذلك أعرض الناس عن الدخول فيها، وانكمشت علىٰ نفسها، فلم يبق منهم إلّا القليل، ويتركّب دين الصابئة من أمرين:

الأوّل: الإيمان بالله الواحد صانع العالم، وهو ربّ الأرباب وإلٰه الآلهة، مدبِّر، حكيم، قادر، ومقدّس عن جميع صفات مخلوقاته، يعجز الخلق عن الوصول إلى جلاله، وإنّما يتقرّب إليه بالوسائط المقرّبين، وهم الروحانيون المطهّرون المنزّهون عن المادّة والمادّيات، فهم مبرّأون عن القوى الجسدانية، والحركات المكانية، والتغييرات الزمانية، قد جبلوا على التقديس والتسبيح ويقولون: إنّهم المتوسّطون في الاختراع، وقالوا: إنّه لا يمكن أن يكون الإنسان مورد فيض الروحانيات وعنايتهم، إلّا بحصول المناسبة بينه وبينها، ولا تتحقّق هذه المناسبة إلّا بتطهير النفس عن الرذائل، وتهذيبها عن العلائق الشهوية والغضبية، والتحلّي بالكمالات.

وبعبارة أُخرىٰ: تحلّي النفس بالكمالات، وتخلّيها عن الرذائل والشهوات، ولايحصل ذلك إلّا بالعمل الشاقّ، وسيأتي بعض تلك الأعمال.

وبعض الصابئة يقولون بوحدة الوجود، فقالوا: إنّ الخالق واحد كثير، أمّا الواحد ففي الذات، وأمّا الكثير فلأنّه يحل في مخلوقاته ويتكثّر بالأشخاص.

وقال الصابئة: إنّ الله أجلّ من أن يخلق الشرّ والقبائح والأقذار والمخلوقات الحقيرة المؤذية ـ كالعقارب والخنافس والحيات ـ، بل هي كلّها واقعة ضرورة اتّصال الكواكب سعادة ونحوسة، واجتماعات العناصر صفوةً وكدورة، فما كان من سعد وخير فهو الصفوة، وتنسب إليه عزَّوجلَّ، وما كان من نحس وكدر وشرّ، فلا ينسب إليه، بل هي حاصلة إمّا اتّفاقاً أو ضرورة.

والروحانيات كثيرة عند الصابئين:

فمنها: مدبّرات الكواكب السبعة السيّارة في أفلاكها وهياكلها، فإنّها

مدبّرات هذا العالم، وحيث لم يتمكّنوا من معاينة هذه المدبّرات السبعة، صنعوا لها هياكل وتقرّبوا إليها.

ومنها: الجواهر العقلية الروحانية.

وقد بنوا لكلّ من هذه الأسماء والأفلاك السبعة هياكل وأشكالاً تقرّبوا إليها، فمنها هيكل العلّة الأُولى، ودونها هيكل العقل، وهيكل الضرورة، وهيكل النفس، كلّها بأشكال خاصّة مختلفة، كما صنعوا كذلك هياكل الكواكب السبعة.

وقالوا: إنّ نسبة الروحاني إلى الهيكل، نسبة الروح إلى الجسد، وفعل الروحانيات إنّما هو تحريك تلك الهياكل لتحصل من تحريكها انفعالات في الطبائع والعناصر.

والروحانيات: إمّا كليّة فيكون تأثيرها كليّاً، أو جزئية فالتأثير جزئي. ويقولون إنّ لكلّ ظاهرة طبيعية ملكاً يكون مدبِّراً لها.

ثمّ إنّ بعض الصابئين لمّا رأوا أنّ هياكل الأفلاك السبع دائمة التغيّر تطلع وتغرب، تُرى ليلاً ولا تُرى نهاراً، وضعوا لتلك الهياكل أشخاصاً وتماثيل لتكون نصب أعينهم، ويتوسّلون بها إلى الهياكل، وهي إلى الروحانيّين، وهم إلى صانع العالم، وهذه هي الفرقة الوثنية من الصابئة، وقد بقيت إلى العصورالمتأخِّرة كما تقدّم.

ومن هنا جاء اختلاف المفسِّرين والعلماء، فخلطوا هذه الفرقة بالفرقة الأُولى التي تنفي الوثنية، والروايات الواردة في أنّها يهودية أو نصرانية، مجوسية مسلمة، كما مرّ في البحث الروائي تشير إلى هذه الفرقة التي هي من أهل الكتاب دون الفرقة الوثنية.

الأمر الثاني: الأعمال. وقد تقدّم أنّ الصابئة قالوا: إنّه لا يمكن التوسّل بالروحانيات إلّا بالتخلية والتحلية، ولا تحصلان إلّا بالأعمال، وهي مختلفة عند

فرقهم وشاقّة ، فالصابئة كلّهم يصومون ، ويصلّون ثلاث صلوات :

أوّلها: عند طلوع الشمس ثمان ركعات .

والثانية: عند زوال الشمس عن وسط السماء خمس ركعات ، في كلّ ركعة ثلاث سجدات .

ويتنفّلون بصلاة في الساعة الثانية من النهار ، وأُخرىٰ : في التاسعة ، والثالثة : في الساعة الثالثة من الليل .

كما يصلّون علىٰ طهر ووضوء خاص، وهم يغتسلون من الجنابة ، ومسّ الميت ، ويحرِّمون أكل الخنزير والكلاب ، والطيور ذوات المخالب ، والحمام ، ونهوا عن السكر والشرب، وعن الاختتان ، وأمروا بالتزويج بوليّ وشهود ، ونهوا عن تعدّد الزوجات ، ولا يبيحون الطلاق إلّا بحكم الحاكم ، وقد حرم بعضهم أكل البصل والجريث والباقلاء .

وقد أُمروا جميعاً بتقريب القرابين متعلّقة بالكواكب وأجناسها وهياكلها، واختلفوا في طبيعة الأضاحي حتّى وصل عند بعضهم التضحية بالبشر .

والحاصل ممّا وصل إلينا من حالاتهم: أنّ الصابئة فرق مختلفة فبعضهم أخذوا بشريعة موسىٰ ، وبعضهم أخذوا بشريعة عيسىٰ ، وبعضهم وثنيّون، والكلّ يُظهرون الإسلام ، والتغييرات والتبدّلات كثيرة في دينهم، مع صعوبات كثيرة تنافي سائر الأديان ، ولذا قلَّ الدخول في دينهم ، فصار عرضة للزوال والانحلال . هذا ما ضبطته التواريخ بعد ردّ بعضها إلى بعض .

وأمّا الصابئون حين نزول القرآن فيستظهر من الآيات تردّدهم أيضاً بين الأديان الثلاثة اليهودية والمسيحيّة والإسلام ، والله العالم بالحقائق .

***

الآية ٦٣ ـ ٧٤

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً
خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا
فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا
لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ
لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ
فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ
تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ
الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا
يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة، احتجاجاته بنعمه المترادفة علىٰ بني إسرائيل، وذمائم أخلاق بني إسرائيل، مثل نكثهم لعهود الله تعالىٰ

ومواثيقه، وتعنّتهم في إتيان أوامر الله تعالىٰ، كما فعلوا في ذبح البقرة، ثمّ وصفهم جلَّ شأنه بضعف الإيمان والقساوة بعدما رأوا من الآيات والمعجزات، وقد أورد سبحانه وتعالى هذه القصص وأحوال بني إسرائيل، ليذكرنا بما جرىٰ فيهم، فنعتبر بها، ويثير اليهود للإيمان بالنبي ﷺ.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**﴾:

الميثاق هو العهد المؤكّد، ومواثيق الله تعالى عهوده مع عباده المؤكّدة بحكم العقل الفطري، الدالّ علىٰ لزوم شكر المُنعِم، وقد تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿**أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾[١]، بعض الكلام فراجع.

والمراد بالطور، هو طور سيناء الجبل المعروف الذي كلّم الله عليه موسىٰ عليه السلام.

وهذه الآية المباركة تفسير لقوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ**﴾[٢]. والنتق هو الجذب أو القلع، وهو يتصوّر علىٰ وجهين:

الأوّل: أن يكون بسبب الزلزلة الحادثة في الأرض.

الثاني: أن يكون ذلك بنفسه معجزة من الله تعالىٰ، بلا واسطة سبب طبيعي من زلزلة ونحوها، ويمكن تأييد الثاني بظهور كونه معجزة مستقلّة، وتأتي في سورة الأعراف بقيّة الكلام.

وما يُقال: من أنّ رفع الجبل نحو إكراه لهم على الإيمان والعمل بالتوراة، وهذا باطل عقلاً وشرعاً.

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٠.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٧١.

غير صحيح؛ لأنّهم علموا أنّ هذا نحو إعجاز من الله تعالىٰ، لا أن يكون إكراهاً على الإيمان به، لفرض بقاء اختيارهم بعد ذلك، وأمرهم بالأخذ بالتوراة بقوّة. ويستفاد ذلك من سياق الآية.

وهذه الآية الشريفة كانت بعد نزول التوراة. وأخذ الميثاق منهم لكي يعملوا بها بقوّة واجتهاد.

قوله تعالىٰ: ﴿**خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ**﴾:

أي خذوا الكتاب الذي أنزلناه إليكم بعزيمة وجد واجتهاد. والمراد بالقوّة الأعمّ من الظاهرية الجسمانية، والقوّة النفسانية المعنوية. بقرينة ذيل الآية الشريفة. وسيأتي في البحث الروائي ما يدلّ علىٰ ذلك.

والمورد وإن كان خاصّاً، لكن الحكم عام لجميع أُمم الأنبياء، ولاسيّما خاتمهم الذي يكون دينه مبتنياً على الدوام والتأبيد.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾:

المراد بالذكر هو حفظه علماً وعملاً لا مجرّد الذكر اللّساني. فإنّه لا ينفع ما لم يكن مقروناً بالعمل، كما في الروايات المستفيضة، ويدلّ علىٰ ذلك قوله تعالى فيها: ﴿**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾، إذ التقوى لا تترتّب إلّا على العمل بما يحصل منه التقوى. لا علىٰ مجرّد التلاوة فقط، فيكون المقام من باب ترتّب المعلول على العلّة. يعني أنّ العمل به يوجب التقوى. ومن جملة ما أُمروا بتذكيره وصف النبيّ ﷺ والإيمان به.

وكلمة الترجي تدلّ علىٰ إيكال الموضوع إلى اختيارهم، ومحبوبية التقوىٰ عند الله تعالىٰ، لما مرّ مكرراً من أنّ الترجّي المستعمل في القرآن يؤتى به بداعي محبوبية متعلّقه.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾:

التولّي: هو الإعراض والإدبار عن الشيء، أي أنّهم أعرضوا عن التوراة من بعدما أخذ منهم الميثاق على العمل بها.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾:

المراد من فضله تبارك وتعالى هو الإمهال، وعدم التعجيل في العقوبة. والرحمة هي الإلهام بالتوبة وقبولها. والخسران هو ذهاب رأس المال، وهو في الإنسان عبارة عن الحقيقية الإنسانيّة لجميع الكمالات.

والمعنى: أنّه لولا إمهال الله تبارك وتعالى لكم، وجريان سنّته علىٰ عدم التعجيل في الأخذ بالمعاصي، وقبول توبتكم بعد ذلك، لكنتم من الخاسرين، أمّا الخسران بالنسبة إلى أصل الإيمان بالله تعالىٰ، فمعلوم أنّه مستند الى اختيارك، وأمّا الخسران بالنسبة إلى أصل الإنسان، فلأنّها متقوّمة بالإيمان به جلّ شأنه، فالخسران يتحقّق حينئذٍ فيهم بالنسبة إلى النشأتين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾:

العلم هنا عبارة عن المعرفة الشخصية. والاعتداء هو التجاوز عن الحدّ اللازم، فيشمل ارتكاب المحرّمات العقلية ـ كأنحاء الظلم ـ كارتكاب المناهي الإلٰهيّة.

ومادّة (س ب ت) تدلّ على القطع، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾[1]، أي جعلنا النوم قطعاً للحركات، وسبباً للراحة والسكون. ويوم السبت معروف في أيّام الاسبوع، وهو عيد اليهود؛ والأحد عيد النصارىٰ، والجمعة عيد المسلمين، فذات هذه الأيّام أعياد لهؤلاء، سواء قلنا بكونها أسماء لها من العهد

---

١. سورة النبأ: الآية ٩.

القديم ـ كما يظهر من بعض الآثار ـ أو أنّها حدثت بعد قرون كثيرة كما عن جمع.

والمعنى : لقد عرفتم الذين تجاوزوا عمّا أمرهم الله تعالىٰ، وارتكبوا ما نهاهم عنه في يوم السبت، وذلك أنّ الله تعالىٰ جعل لهم وظائف في هذا اليوم بالنسبة إلى الصيد وجهات أُخرىٰ، فلم يعملوا بها، وسيأتي تفصيل القصّة في سورة الأعراف.

قوله تعالىٰ: **﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾**:

القردة جمع قرد، وهو حيوان معروف.

وخسأ بمعنى الطرد والإبعاد عن مذلّة وحقارة، ولذا يستعمل في طرد الكلب، ومن يُراد إهانته، كقوله تعالى للمجرمين في جهنم: **﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾**[1].

أي ابتعدوا عن مذلّة وسخط. والأمر هنا تكويني، كما في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**[2].

وصيرورتهم قردة بحسب القلب معلوم لا إشكال فيه، لأنّه المتيقّن من جميع ما ورد في المقام من النصوص والتفاسير، إنّما البحث في أنّهم هل مسخوا إلى صورة القردة أيضاً أو لا؟

نسب الأوّل إلى جمهور المفسّرين، ولا بأس به لأنّ الله تعالى قادر علىٰ كلّ شيء.

إن قلت : صيرورتهم بحسب الصورة قردة، مخالفة لسنّة الله تعالى في عباده لابتنائها على الإمهال في الأخذ بالعقوبة، مع أنّه لو مسخوا قردة، كيف

---

١. سورة المؤمنون: الآية ١٠٨.

٢. سورة يٰس: الآية ٨٢.

يكون ذلك عبرة لغيرهم؟

قلت : أمّا الأوّل، فلإمكان أن تكون المعصية على حدّ لا تليق بالإمهال، فحكمته تعالى اقتضت الأخذ بها وهي غير معلومة لغيره عزّوجلّ.

وأمّا الثاني : فلفرض بقاء التعرّف الإجمالي بين الممسوخين وغيرهم، فيصير ذلك عبرة للآخرين.

قوله تعالى : ﴿**فَجعلْناها نكالاً لِما بيْنَ يديْها وما خلْفها ومَوْعظَةً للْمُتَقين**﴾ :

النكال : بمعنى المنع ، وتسمّى العقوبة نكالاً ، لأنّها تمنع الناس عن ارتكاب ما يوجبها .

والمراد بما بين يديها الأقوام المحاذون لها، الذين لم يعاصروا بعقوبتهم ، وما خلفها الأمم اللاحقة لهم .

والوعظ التخويف بكلّ ما يفعل الله تعالى بالعصاة .

وإنّما خصّ الله تعالى المتّقين: إمّا لأجل أنّهم يعلمون بأنّ الله لا يفعل ذلك إلّا مع الحكمة والاستحقاق .

أو لأجل أنّ الموعظة تزيدهم بصيرة وإيماناً، وتقدّم بعض الكلام في قوله تعالى : ﴿**هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] .

وفي سنخ هذه الآيات تسلية لنبيّنا الأعظم ... عمّا كان يقاسيه من رذائل أخلاق أمّته في زمان حياته، وما يعانيه بعد ارتحاله، فإنّه ... شاهد يعلم بما يجري في أمّته . وحكم هذه الآية عام، فإنّها تشتمل على ترتب سخط الله تعالى بمخالفته في الدّنيا ، وحصول المسخ وتعقب ذلك بالنكال والموعظة ، ففيها دلالة

---

١ . سورة البقرة ، الآية ٢ .

واضحة علىٰ تعميم الحكم لجميع الأزمان والأمم، ولاتختصّ بأُمّة دون أُخرىٰ، لما ذكرنا غير مرّة أنّ المورد لا يكون مخصّصاً.

نعم، إنّ الله تعالى قد يمهل لمصالح كثيرة، ولكنّه لا يهمل، ومسخ الصورة وإن لم يكن له موضوع في أُمّة خاتم النبيين ﷺ إجلالاً له ﷺ، ولكن حكم مسخ القلوب ممكن بحسب الأخبار الكثيرة والبراهين العقلية، وسيأتي البحث في ذلك إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ بعض المفسّرين استدلّ بهذه الآية المباركة على عدم جواز الحيلة في الأحكام الشرعية الإلهيّة مطلقاً، لأنّ اليهود إنّما استحقّوا هذه العقوبة لأجل احتيالهم في الحكم الإلهي.

والمناقشة في هذا الاستدلال واضحة، لأنّ معنى الحيلة الشرعية: اجتهاد الفقهاء في إخراج الموضوع المحرم عن انطباق عنوان الحرام عليه، إمّا تخصيصاً او تخصّصاً إلى عنوان محلّل يدلّ على حلّيته الدليل الشرعي، وهذا معنى قول أبي جعفر الباقر عليه السلام:

«نعمت الحيلة الفرار من الحرام إلى الحلال».

وقول الصادق عليه السلام: «ما أعاد الصلاة قط فقيه يحتال فيها ويدبرها حتّى يصحّحها».

وذكرنا تفصيل البحث في موارد من الفقه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾:

شرع في بيان قصّة البقرة، وبها سُمّيت هذه السورة.

البقرة واحدة البقر اسم جنس، الأنثى والذكر فيه سواء.

وقيل: البقرة إسم للأنثى، والثور اسم للذكر، كالرجل والمرأة، والجمل

والناقة.

ومادّة (بقر) تأتي بمعنى الشق والتوسّع لأنّه يشقّ الأرض ويوسعها للزراعة. وسُمّي الرابع من أولاد رسول الله ﷺ باقراً، لأنّه يشقّ بالعلم شقّاً، وفي الحديث: «نهى النبيّ ﷺ عن التبقّر في المال» أي التوسّع فيه.

والمنساق من مجموع الآيات المباركة، أن قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[1]، مقدَّم علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾، تقدّم العلّة على المعلول، وإنّما أخّر في ظاهر الكلام لمراعاة الفنون الأدبية المحاورية، التي منها: الاهتمام بذكر المقدّم وتهيئة النفوس للإصغاء إليه، فيكون أدعى للبحث عن معرفة السبب، وجعله كلاماً مستقلاً في توجيه الأسماع والأذهان، واشتياق السماع إليه، ومثل ذلك في القرآن كثرة.

ومنها: توجيه الخطاب ابتداءً إلى نبيّنا الأعظم ﷺ، لعدم ذكر البقرة في التوراة فلم يكونوا مأنوسين به.

قوله تعالىٰ: **﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾**:

الهزء: السخرية واللّعب والاستخفاف. وهذا القول دليل علىٰ جهلهم بقدرة الله تعالىٰ، وعدم الاعتناء بأحكام الله تعالىٰ، فإنّ الواجب عليهم تنفيذ أوامره جلّ شأنه.

وهيئة الهزء كهيئة الكفؤ تُقرأ بوجوه أربعة: بضم الوسط، أو سكونه وكلّ منهما إمّا مع الهمز أو بدونه، وجميعها لغات صحيحة تصحّ القراءة بها لكن الأرجح أن يقرأ بالهمزة مع ضم الوسط، والأدون مع الواو وإسكان الوسط، والمعروف ترك الهمزة مهما أمكن كما تقدّم.

---

١. سورة البقرة: الآية ٧٢.

والمسألة فقهية مذكورة في بحث القراءة من الصلاة، فراجع كتابنا (مهذّب الأحكام).

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾:

العوذ والعياذ، هو الالتجاء عمّا يخاف من شرّه، واستعمال هذا اللفظ في القرآن كثير، وهوإمّا قولي أو حالي أو عملي أو بالجميع، والتجاء الأنبياء والأولياء من القسم الأخير، لشدّة انقطاعهم إليه عزّوجلّ، ولعلّ من أشدّه قول مريم ابنة عمران: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ* مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[2].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

فالالتجاء إلى الله تعالى لابدّ أن يكون حاليّاً وعمليّاً، لا أن يكون من مجرّد القول فقط.

والجهل تارةً: يُطلق علىٰ ما يقابل العقل.

وأُخرىٰ: علىٰ فعل ما لاينبغي فعله إلّا من الصغير وبعض مراتب الشبّان، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾[3]، وهو ملازم للمعنى الأوّل.

ويمكن أن يستدلّ بمثل هذه الآية المباركة علىٰ عصمة الأنبياء، لأنّ الاستهزاء والسخرية قبيحان، لاينبغي صدورهما منهم، خصوصاً إذا كانا في مورد أحكام الله تعالىٰ.

---

١. سورة مريم: الآية ١٨.

٢. سورة الفل: الآية ١ ـ ٢.

٣. سورة يوسف: الآية ٨٩.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾:

الدُّعاء في هذه الآيات بمعنى طلب الحاجة؟ ويجوز في ضمير البقرة كلّ من التذكير والتأنيث. وقد سألوا من موسىعليه السلام أن يسأل ربّه أن يبيّن صفات البقرة.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

الفارض المسنّة. والبكر ما لم يستفحله الفحل، وضربة بكر أي قاطعة.

وعن ابن فارس: «كانت ضربات علي عليه السلام أبكاراً إذا اعتلى قدّ، وإذا اعترض قطّ».

والعوان: النصف، وهو التوسّط بين السنين، أي أنّ البقرة متوسّطة في السنّ ليست بكبيرة لاتحمل، ولا صغيرة لم تحمل.

قوله تعالىٰ: ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾:

تأكيداً للأمر الأوّل وفيه من التنبيه علىٰ ترك التعنّت.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾:

الفاقع: صفة كمال للصفرة، كما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة، أي خلصت صفرته، يقال أسود حالك، وأحمر قانئ، وأبيض ناصع، وأخضر ناضر، وأصفر فاقع. وكلّها صفات مبالغة لهذه الألوان.

وقد نقل أنّ الصفرة الشديدة توجب السرور، وتجلي البصر، وعن الصادقعليه السلام:

«مَن لبس نعلاً صفراء لم يزل مسروراً حتّى يبليها».

قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾:

تشديد آخر منهم علىٰ أنفسهم، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«إنّهم أُمروا بأدنى بقرة، ولكن شدّدوا على أنفسهم، فشدّد الله عليهم، وأيم الله لو لم يستثنوا ما اهتدوا إليها أبداً».

والمنساق من هذه الآية المباركة، أنّها في مقام بيان صفات فعلها، والآية السابقة في مقام بيان صفات جسمها.

والمعنى: إنّ وجوه البقرة تتشابه، فأرادوا زيادة التمييز، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ استثناء منهم، وهذا هو المراد من قوله ﷺ:

«لو لم يستثنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبيّنت لهم إلى آخر الأبد».

قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾:

الذلول من البهيمة، ما كانت منقادة ومعتادة للعمل، أي صعبة ليست معتادة لعمل إثارة الأرض، ولا تطاوع لأن يسقى بها الزرع، أو يستقى عليها.

والمراد بالمسلّمة، أي سلّمها الله تعالى من العيوب. و «لاشية فيها» أي لونها متّحد ليس فيه اختلاف وتعدّد، كما في بعض الأبقار، وأصله من الوشي وهو خلط اللون باللون.

قوله تعالىٰ: ﴿الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾:

أي إنك بيّنت الحقّ، لظهور الأوصاف التي بيّنها موسى ﷺ في ما وجدوها من البقرة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾:

لكثرة ثقل ذلك التكليف عليهم، بما شدّدوا علىٰ أنفسهم، أو لغلاء ثمنها ـ كما في بعض الروايات علىٰ ما يأتي في البحث الروائي ـ أو خوفاً للفضيحة.

وكيف كان، فهو يدلّ على امتحانهم لأوامر الله تعالىٰ، وإنّما أمروا بالذبح دون ضرب الحي، لئلا يقعوا في الضلالة أكثر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾:

هذه الآية المباركة مقدّمة معنىً وإن تأخّرت في اللفظ، لما عرفت.

و «ادّارأتم» أصله تدارأتم، أي اختلفتم وتنازعتم، فأُدغمت التاء في الدال، لأنّهما من مخرج واحد، وزيدت ألف الوصول حذراً من الابتداء بالساكن، كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا﴾[1].

وكذا قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[3].

ومادّة درأ تأتي:

بمعنى الدفع، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾[4].

وتأتي بمعنى الجلب والملائمة، ومنه قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«رأس العقل بعد الإيمان بالله مداراة الناس».

وكذا قوله صلى الله عليه وآله: «أُمرت بمداراة النّاس كما أُمرت بأداء الفرائض».

ويمكن أن يكون من الدرء بمعنى الدفع، أي يدفع الإنسان عن أخيه ظلماً،

---

١. سورة الأعراف: الآية ٣٨.

٢. سورة التوبة: الآية ٣٨.

٣. سورة يٰس: الآية ٤٩.

٤. سورة القصص: الآية ٥٤.

يوجب التفرقة بينهما، ويحمله على الأُلفة والموافقة.

ومعنى الآية المباركة: إنَّ بعضكم قتل نفساً فتخاصمتم وتدافعتم في شأنه، فصار كلّ واحد يدفع عن نفسه التهمة. وقد نُسب القتل إلى اليهود في عصر النبيّ ﷺ، لأنّهم من نسلهم، وتصحّ في المحاورات النسبة إلى اللاحقين بفعل السابقين.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾:

أي أنّه تعالىٰ يظهر جميع ما تكتمون من أسراركم وتهمة بعضكم لبعض.

قوله تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾:

يعني: اضربوا المقتول ببعض البقرة المذبوحة. ولم يعيّن سبحانه وتعالىٰ هذا البعض، فيكتفى بضرب أي جزء كان، ولكن للمفسّرين في تعيينه تفاصيل غير مستندة إلى مدرك صحيح، ولا دليل صريح، فالأولى الإغماض عن التعرّض لها.

وإنّما أمرهم بالضرب من دون أن يضرب موسى عليه السلام بنفسه، لأنّ الفعل إذ كان صادراً منهم، فهو أبين لقطع النزاع كما يظهر من ذيل الآية الشريفة.

قوله تعالىٰ: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾:

أي: كما أنّه أحيى المقتول بعد موته، كذلك يُحيي كلّ ميّت. وهذا من تنظير الكلّي المعقول على الجزئي المحسوس، وإثبات للمدّعي الكلّي بإحساس بعض جزئيّاته، إذ الكلّيات إنّما تستكشف عند عامة النّاس من الجزئيات، ولذا اشتهر «مَن فقد حسّاً فقد علماً».

قوله تعالىٰ: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾:

أي: أنّه فعل ذلك من الإحياء بعد الإماتة، وما ترتّب علىٰ ذلك من فصل

الخصومة وإظهار القاتل، لعلّكم تفقهون وتدركون أنّ الله تعالى قادر على إحياء مطلق الأموات، حيواناً كان أو نباتاً، كما قال تعالىٰ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1].

فتدبّروا في آيات الله تعالىٰ، فاعتبروا بها، وامنعوا أنفسكم من العصيان، واتباع الأهواء والشهوات.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾:

القسوة: الصلابة والشدّة والرداءة والغلظة، ولم تستعمل في القرآن الكريم غالباً إلّا مضافاً إلى القلب، فيكون المعنى الغلظة والصلابة عمّا من شأنه أن يكون رقيقاً، قال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللهِ﴾[2].

وقسوة القلب من أشدّ الأمراض النفسيّة والروحيّة، بل أصلها وأمّها، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإنّ كثرة الكلام لغير ذكر الله تقسي القلب، وإنّ أبعد الناس من الله القلب القاسي».

والقلب المتّصف بالقساوة كمرآة عليها حجاب غليظ، لا يرى فيها صورة أصلاً، وسيأتي تفصيل المقال فيه إن شاء الله تعالىٰ.

وقوله تعالىٰ: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾:

أي: من بعد أن رأيتم الآيات والمعجزات ودلائل التوحيد والرسالة وعرفتم الحقّ.

---

١. سورة الحديد: الآية ١٧.

٢. سورة الزمر: الآية ٢٢.

قوله تعالىٰ: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾:

كلمة (أو أشدّ)، يصحّ أن تكون بمعنى التنويع، أي أنّ بعض القلوب كالحجارة، وبعضها الآخر أشدّ منها.

أو باعتبار الحالات، ففي بعض الحالات يكون القلب كالحجارة، وفي بعضها الأُخرى يكون أشدّ، فحينئذ يصحّ الكلام بالنسبة إلى المتكلّم والسامع.

كما يجوز أن تكون بمعنى الترديد، أو بمعنى بل، والكلام حينئذٍ سيق مساق فهم السامع.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾:

الأنهار جمع نهر بسكون الهاء وفتحه، كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾[1]، والفتح أفصح، ولذا لم يستعمل في القرآن مفرد الأنّهار إلّا مفتوحة العين، ولم يرد بسكونها فيه.

وتقدّم معنى الانفجار في قوله تعالىٰ: ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾[2].

و (يشقّق) أصله (يتشقّق) اُدغمت التاء في الشين.

ذكر سبحانه وتعالى أنّ الحجارة ينفجر منها الأنّهار كالعيون في الجبال، فتعود منفعته على الحيوان والنبات. وأنّ بعض الحجارة يتشقّق فيخرج منها الماء، كالأحجار التي ينبع منها الماء قليلاً كان أو كثيراً، وأنّ منها لما يهبط من خشية الله تعالىٰ، لأنّ جميع الموجودات مسخّرة تحت إرادته وقدرته عزّوجلّ، قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[3]، قال تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ

---

١. سورة القمر: الآية ٥٤.

٢. سورة البقرة: الآية ٦٠.

٣. سورة الجمعة: الآية ١.

الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[١].

والخشية هي الخوف، ولكنّها أعمّ منه مورداً، لإطلاقها على الجمادات أيضاً، وأخصّ منه مفهوماً، لأنّها الخوف المشوب بالتعظيم، بخلاف مطلق الخوف. وللخشية والخوف منه تعالى مراتب كثيرة جدّاً، وبعض مراتبها يختص بالعلماء بالله تعالىٰ، قال أبو عبد الله عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾**[٢]:

«يعني بذلك من يصدِّق فعله قوله، ومَن لم يصدِّق قوله فعلُه، فليس بعالم وإن شقّ الشعر في المتشابهات».

هذا بالنسبة إلى الفاعل المختار.

وأمّا بالنسبة إلى سائر الموجودات، من الجماد والنبات والحيوان، فحيث أنّ الخشية منه عزّوجلّ من لوازم ربوبيّته العظمى وقيمومته، فتتّصف جميع تلك الموجودات بالخشية منه تعالىٰ، قال جلَّ شأنه:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[٣].

ولم يدل دليل عقلي أو نقلي علىٰ أنّ مفاهيم الألفاظ لابدَّ وأن تختصّ بعالم الإنسان، وبما نتعقّله من المعاني، بل هي عامّة لجميع العوالم، كلّ علىٰ حسب وجوده، بل الأدلّة العقلية تدلّ على الخلاف، ويأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وقد حدث في بني إسرائيل جميع ما تقدّم من الآيات، فقد انفجر الماء من الحجارة، واندك الجبل ورفع فوقهم كأنّه ظلّه. وفي ذلك كلّه توبيخ وتحقير

---

١. سورة الرعد: الآية ١٣.

٢. سورة فاطر: الآية ٢٨.

٣. سورة الحشر: الآية ٢١.

عجيب لهم ولمن يكون قاسي القلب، فإنّه مع رؤية جميع تلك الآيات الباهرات، ودلائل الحقّ والتوحيد، لا تؤثّر في قلبه، فقد جعلوا القلب الذي له المحلّ الأعلىٰ في مصاف أخسّ الأشياء بمساوئ الأخلاق ورذائلها، فلا تجدي فيه المواعظ والحِكَم.

إن قيل: بعد قدرة الله تعالى علىٰ تسخير الحجارة وما هو أصلب منها، فهو قادر علىٰ تسخير القلوب أيضاً.

يُقال: تسخير القلوب تكويناً تحت إرادته تعالى بلا إشكال، ولكن اختياره لابدّ وأن يكون تحت إرادة صاحب القلب، ليتمّ بذلك نظام التشريع والجزاء كما تقدّم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**:

مادّة (غ ف ل) تأتي بمعنى ذهاب التوجّه الفعلي الحاصل للنفس عن الشيء، بعد حصول العلم به في الجملة، وتستعمل في مورد السهو والنسيان أيضاً، وقد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات كثيرة، وقد ورد في آيات كثيرة:

قال تعالىٰ: **﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾**(١).

وقال جلَّ شأنه: **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾**(٢).

والغفلة: إمّا من الخلق عن الله تعالىٰ، أو عنه تعالى عن خلقه.

والثاني مستحيل، إذ كيف تعقل الغفلة عمّن كان ذاته بذاته العلم والحياة، والقيمومة المطلقة علىٰ ما سواه، إلّا إذا رجعت الغفلة فيه تعالى إلى عدم التعجيل

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٣٢.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٤٢.

في الجزاء وإمهاله في العقاب.

وهذا صحيح، وقد دلّت الأدلّة العقلية والنقلية عليه، وقد اشتهر: «إنّ من أفضل أخلاق الكِرام تغافُلهم عمّا يعلمون من مساوئ غيرهم».

فهذا تغافل ممدوح. ولكن إطلاقه علي الله تعالىٰ غير مأذون فيه شرعاً.

وأمّا الأوّل، وهو غفلة النّاس عن الله تعالىٰ، وهذا التقسم معلوم لكلّ مَن رجع إلى نفسه، بل يمكن أن يرجع بعض مراتبها إلى الكفر.

ثمّ إنّه لا ريب في اتّصاف الإنسان بالسهو والنسيان والغفلة، ولكن هل يتّصف الحيوان بها؟

فيه بحث عند الفلاسفة والعلماء، ولنا كلام سيأتي في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

فالاعتقاد بحضوره تعالى وشهوده، مع عمل كلّ عامل، وعلمه الأزلي بجميع الخصوصيّات، يقتضي أن تكون الحالة غير ما نرىٰ، والعمل غير ما نعمل.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من مجموع هذه الآيات المباركة الواردة في قصّة البقرة أُمور:

الأوّل: استهزاؤهم بأوامر الله تعالىٰ، وامتهانهم لما جاء به الأنبياء عليهم السلام، ولقد كان الواجب عليهم التسليم بما جاء به موسى عليه السلام، وكان جزاؤهم أن شدّد الله تعالىٰ عليهم، ونسبهم إلى الجهل، وشبّه قلوبهم بالحجارة.

الثاني: مرجوحيّة كثرة السؤال والمداقة بالنسبة إلى الأحكام، بل إنّها توجب التشديد في الأحكام، وقد يوجب العقاب وغضب الله تعالىٰ، قال عزّ من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[1]، وورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «إنّ الله كره لكم قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال» وغير ذلك من الروايات.

الثالث: إنّما أُمروا بذبح البقرة دون غيرها من الأنعام والحيوان، إمّا اختباراً لهم ببقاء حبّ العجل وتعظيمهم له. أو تحقيراً لهذه الدابّة، لأنّ البقرة كانت من جنس معبودهم، فأراد سبحانه وتعالى أن يبيّن أنّها لا تقدر أن تدفع عنها السوء فضلاً عن العابدين لها. أو لأجل أنّهم كانوا يعدّون البقرة من أعظم القربات، حتّى أنّهم جعلوا لها بيتاً لا يدخله إلّا خيارهم بكيفيّة خاصّة، فأمرهم الله تعالىٰ بذلك تقريراً لعادتهم في ما يتقرّبون عند حوائجهم اليه تعالىٰ.

الرابع: إنّ ما ورد من التخصيصات في البقرة، كما تقدّم في الآية الشريفة، لأجل أنّ منشأ الحياة ـ ولو كان جسمانيّاً ـ لابدّ أن لا يتخصّص سوى الإضافة إلى

---

١. سورة المائدة: الآية ١٠١.

الله تعالىٰ ، وأن لايدّعي أحد في القرون التالية، أنّ ما يملكه من البقرة من نسل تلك البقرة التي أحيى بها الموتىٰ ، فهذه البقرة كانت منفيّة الصفات والخصوصيّات كما تقدّم .

الخامس : التنبيه علىٰ تمام قدرته تعالىٰ ، فإنّ من أوضح الواضحات أنّه لايمكن إحياء ميت بتلاقي جسمين لا حياة فيهما ، فلابدّ وأن تكون الحياة في القتيل بعد ضربه ببعض البقرة من عالم الغيب المحيط بعالم الشهادة ، كما يدلّ عليه قوله تعالىٰ : ﴿**كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ**﴾، في ذيل الآية المباركة ، حيث حصر الاحياء بذاته الأقدس، فكان الإحياء من المعجزات .

السادس : ما ورد من الآيات المباركة في هذه القصّة، الاعتبار العظيم، والتسلية لنبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، لما كان يلقاه من يهود عصره صلى الله عليه وآله، ومشركي قريش ، وتكفي في إتمام الحجّة عليهم لنبوّة خاتم الأنبياء، لاعترافهم بأنّها ليست من تعليم بشري، وإنّما هي من وحي سماوي . ولكن ﴿**جَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً**﴾[١] ، فاستحقّوا بذلك العذاب الأليم .

ثمّ إنّه يمكن أن يكون في قوله تعالىٰ : ﴿**لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾، إشارة إلى العزوف عن حطام الدُّنيا وزخارفها ، ولا يتحقّق ذلك إلّا بالاستيلاء على الشهوات النفسانية التي هي أقوى من البقرة ، ولاتصل النفس الإنسانيّة إلى أسرار عالم الغيب والشهادة، إلّا بإماتة تلك الشهوات ، وكيف يعقل أن تنكشف الأسرار، وتتجلّى الأنوار، مع وجود تلك الحُجب ، وقال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله :

«لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات» .

وسيأتي بقيّة البحث في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

---

١. سورة النحل : الآية ١٤.

بحث روائي:

العياشي، عن إسحاق بن عمّار، قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾، أقوّة في الأبدان، أم قوّة في القلوب؟

قال عليه السلام: فيهما جميعاً».

أقول: المراد بالقوّة في القلوب، رسوخ مَلَكة الإيمان، في قلبه بحيث تمنعه عن المحارم، وقد تقدّم ما يتعلّق بالرواية أيضاً.

عن القمّي في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾.

قال: «إن موسى عليه السلام لمّا رجع بني إسرائيل ومعه التوراة، لم يقبلوا منه، فرفع الله جبل طور سيناء عليهم، وقال لهم موسىٰ: لئن لم تقبلوا ليقعن الجبل عليكم وليقتلنّكم، فنكّسوا رؤوسكم».

أقول: لايخفى أنّه معجزة من معاجزه عليه السلام، وهي في مقام تخويفهم، ولاينافي ذلك بقاء اختيارهم في الإيمان، فاستسلموا اختياراً.

عن العياشي، عن الحلبي، في قوله تعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾.

قال عليه السلام: «اذكروا ما فيه، واذكروا ما تركه من العقوبة».

أقول: في الحديث إشارة إلى ما في الامتثال من الثواب، وفي المخالفة من العقاب.

عن زرارة، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.

قال عليه السلام «لما معها، ينظر إليها من أهل القرىٰ. ولما خلفها، قال عليه السلام: ونحن، ولنا فيها موعظة».

أقول: المراد من قوله عليه السلام: (ونحن، ولنا)، ليس خصوص الإمام عليه السلام، بل

جميع من تُتلى عليه هذه الآيات.

وعن العياشي، عن ابن فضّال، قال:

«سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إنّ الله أمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، وإنّما كانوا يحتاجون إلى ذنبها فشدّد الله عليهم».

أقول: هذا مطابق للقاعدة، وهي تحقّق الإجزاء بمطلق الامتثال للمأمور به، ويأتي في الرواية الثانية ما يؤيّده. وأمّا تعيين الذَنَب فلأنّه من أجزاء البقرة، ولكن الظاهر من الحديث أنّ فيه موضوعية خاصّة.

وفي «الدرّ المنثور»، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«لولا أنّ بني إسرائيل قالوا: **﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾** ما أُعطوا أبداً، ولو أنّهم اعترضوا بقرةً من البقر فذبحوها لأجزأت منهم، ولكنّهم شدّدوا فشدّد الله عليهم».

وروى العياشي، عن أحمد بن أبي نصر البزنطي، قال:

«سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول: إنّ رجلاً من بني إسرائيل، قتل قرابة له، ثمّ أخذه وطرحه علىٰ طريق أفضل سبط من أسباط بني إسرائيل، ثمّ جاء يطلب بدمه.

فقالوا لموسى عليه السلام: إنّ سبط آل فلان قتلوا فلاناً، فأخبر مَن قتله؟

قال: ايتوني ببقرة **﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾**، ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم، **﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ﴾**، يعني لا صغيرة ولا كبيرة **﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾**. ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن شدّدوا فشدّد الله عليهم **﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾** ولو أنّهم عمدوا إلى بقرة أجزأتهم، ولكن

شدّدوا فشدّد الله عليهم ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ* قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فطلبوها فوجدوها عند فتى من بني إسرائيل، فقال: لا أبيع إلّا بملء مسك ذهباً.

فجاؤا موسى عليه السلام، وقالوا له ذلك، فقال: اشتروها، فاشتروها وجاؤوا بها، فأمر بذبحها، ثمّ أمر أن يضربوا الميّت بذَنَبها، فلمّا فعلوا ذلك حيي المقتول، وقال: يا رسول الله إنّ ابن عمّي قتلني، دون من يُدَّعى عليه قتلي، فعلموا بذلك قاتله.

فقال لرسول الله موسى عليه السلام بعض أصحابه: إنّ هذه البقرة لها نبأ.

فقال عليه السلام: ما هو؟

قالوا: إن فتىً من بني إسرائيل كان بارّاً بأبيه، وإنّه اشترى بيعاً، فجاء إلى أبيه والأقاليد (مقاليد) تحت رأسه، فكره أن يوقظه، فترك ذلك البيع، فاستيقظ أبوه فأخبره.

فقال له: أحسنت، هذه البقرة فهي لك عوضاً لما فاتك.

قال: فقال له رسول الله موسى عليه السلام: أنظر إلى البرّ ما بلغ لأهله».

أقول: مقتضى إطلاق الآية المباركة ـ كما هو صريح الأخبار ـ وإن كان هو الاكتفاء في ذبح البقرة بكلّ ما يسمّى بقرة، كما هو مقتضى القاعدة في مطلق الخطابات التي سيقت هذا المساق، ولكنّه مشكل بل ممنوع، إلّا فيما إذا أحرز أنّ المتكلّم في مقام بيان ما له دخل في مراده من كلّ جهة، ولا وجه لإحراز ذلك في مقام، بل هو محرز العدم، أمّا بالنسبة إلى الله تعالى فلعلمه جلّ شأنه بأنّه سترد علىٰ هذه البقرة قيود تصيّرها منحصرة في الفرد، وأمّا بالنسبة إلى المخاطبين فلبنائهم على التشكيك والتدقيق في مطلق أُمورهم العادية، فكيف بمثل هذا

الأمر الذي هو من أهمّ الأُمور الخارقة للعادة، والقاطعة للخصومة، فالتقييد والانحصار في الفرد ظاهر من سياق حال أصل التكليف، وأحوال المكلّفين، والتمسّك بالإطلاق في مثل هذا النحو من البيان، غير مأنوس في المحاورات العقلانية، بل مأنوس العدم.

إن قيل : كيف وهذا مصرّح به في الروايات، من أنّهم لو عمدوا إلى ذبح أي بقرة لكفى؟

يُقال : أوّلاً : إنّها غير نقيّة السند.

وثانياً : إنّها ليست في مقام بيان خصوصيّات القضية، بل في مقام بيان مذمّة التعمّق والمداقة في خصوصيّات التكليف، ويأتي في قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾**(١).

ويمكن الجمع بين الأخبار، ورفع المنافاة بينها، أنّهم لو عمدوا وذبحوا مطلق البقرة، نسخ الحكم الأوّل عنهم لمصلحة المبادرة إلى الامتثال، وترك المداقة ومنه يظهر ما في جملة من التفاسير من التطويل.

وفي «تفسير القمّي»، عن أبي جعفر عليه السلام، قال:

«إنّ رجلاً من خيار بني إسرائيل وعلمائهم خطب امرأة فيهم، فأنعمت له، وخطبها ابن عمّ لذلك الرجل، وكان فاسقاً رديّاً، فلم ينعموا له، فحسد ابن عمّه الذي أنعموا له، فقعد له فقتله غيلة، ثمّ حمله إلى موسى عليه السلام، فقال: يانبي الله، هذا ابن عمّي قد قُتل.

قال موسىٰ: مَن قتله؟

قال: لا أدري. وكان القتل في بني إسرائيل عظيما جدّاً، فعظم ذلك علىٰ موسى عليه السلام فاجتمع إليه بنو إسرائيل، فقالوا: ما ترى يا نبيّ الله؟ وكان في بني

---

١. سورة المائدة: الآية ١٠١.

إسرائيل رجلٌ له بقرة، وكان له ابن بارّ، وكان عند ابنه سلعة، فجاء قوم يطلبون سلعته، وكان مفتاح بيته تحت رأس أبيه وكان نائماً، وكره ابنه أن ينبّهه وينغص عليه نومه، فانصرف القوم ولم يشتروا سلعته، فلما انتبه أبوه، قال له: يابُني ماذا صنعت في سلعتك؟

قال: هي قائمة لم أبعها، لأنّ المفتاح كان تحت رأسك، فكرهتُ أن أُنبّهك، وأُنغّص عليك نومك.

قال له أبوه: قد جعلتُ هذه البقرة لك عوضاً عمّا فاتك من ربح سلعتك. وشكر الله لابنه ما فعل لأبيه، وأمر بني إسرائيل أن يذبحوا تلك البقرة».

أقول: تقدّم البحث عنه في الخبر السابق.

بحث تاريخي:

لم ترد قصّة البقرة بهذا التفصيل في التوراة، وإنّما ورد فيها حكم كلّي، فقد جاء في سفر التثنية، الإصحاح الحادي والعشرين، ما هذا لفظه:

«إذا وجد قتيل في الأرض التي يعطيك الربّ إلهك لتمتلكها، واقعاً في الحقل لا يعلم مَن قتله، يخرج شيوخك وقُضاتك، ويقيسون إلى المدن التي حول القتيل، فالمدينة القُربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقرة لم يُحرث عليها، لم تجر بالنير، وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة إلى وادٍ دائم السيلان، لم يُحرث فيه ولم يُزرع، ويكسرون عنق العجلة في الوادي، ثم يتقدّم الكهنة بنو لاوي، لأنّه إيّاهم اختار الربّ إلهك ليخدموه، ويباركوا باسم الربّ، وحسب قولهم تكون كلّ خصومة، وكلّ ضربة، ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين مِن القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق في الوادي، ويُصرحون ويقولون أيدينا لم تسفك هذا الدم، وأعيننا لم تُبصر به، إغفر لشعبك بني إسرائيل

الذي فديت يا ربّ، ولا تجعل بريء في وسط شعبك إسرائيل، فيغفر لهم الدم، فتنزع الدم البريء من وسطك إذا عملت الصالح في عيني الرب».

والظاهر من ذلك أنّه كان من بقايا قصّة معلومة مبيّنة عندهم، دخلتها يد التحريف والتضييق، وكم لهم من هذه التحريفات؟! وقد صحّح القرآن هذه القصّة بالكيفيّة المذكورة، ثمّ شرحتها الأخبار الواردة عن نبيّنا الأعظم ﷺ والأئمّة الهُداة عليهم السلام، كما تقدّم في البحث الروائي.

بحث فلسفي:

تضمّنت الآية الشريفة عقوبة من العقوبات التي حلّت علىٰ بني إسرائيل، فقد مسخهم الله تعالى علىٰ صورة القِرَدة والخنايز، وتقدّم ما يتعلّق بها.

والمسخ هو من أقسام التناسخ الذي كان مورد البحث بين الفلاسفة امتناعاً وجوازاً منذ القدم.

وقد أثبت الممتنعون ـ وهم أكابر الفلاسفة ـ استحالته، سواء كان صعودياً [من مطلق الحيوان إلى الإنسان] أو نزولياً أو عرضياً.

ولكن استدلّ المجوّزون بأدلّة عقلية ونقلية من الكتاب الكريم، والسنّة الشريفة، فاستدلّوا بمثل هذه الآية المباركة ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، وما سيقت مساقها كقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾[1].

والنصوص الكثيرة الواردة في الأبواب المختلفة، مثل ما ورد في صلاة الجماعة:

«أما يخشى الذي يرفع رأسه قبل الإمام، أن يحول الله تعالى رأسه رأس حمار».

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٠.

بل قيل: إنّه ما من مذهب إلّا وللتناسخ فيه قدم راسخ.

والحقّ أن يُقال: إنّ هنا موضوعين لا ربط لأحدهما بالآخر:

أحدها: التناسخ، وهو عبارة عن: انتقال نفس من بدن ـ كان بينهما اتّحاد في مدّة من الزمان، قليلة كانت أو كثيرة ـ إلى بدن آخر، وحصول الاتّحاد بينهما. وله أقسام صعودي ونزولي وعرضي كما مرّ.

الثاني: تجسّم الملكات وظهورها عن كلّ نفس في بدن يناسب تلك الملكات، والصفات النفسانية في الخارج بصورة تناسبها. ولا ربط لأحد الموضوعين بالآخر.

والذي ينفيه أكابر الفلاسفة وأجمع المسلمون علىٰ نفيه، إنّما هو التناسخ لا تجسّم الملكات، وما أثبته جمع بالبرهان إنّما هو الثاني، وأدّعى أهل العرفان فيه الشهود والعيان، والسنّة المقدّسة مشحونة به، لاسيما في أبواب المعاد، فقوله تعالىٰ: **﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾**، أو قوله تعالىٰ: **﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾**[1]، قولٌ وجعلٌ تكويني في جعل ملكاتهم وصفاتهم السيّئة التي تكون في نفوسهم، ونشأت عليها أبدانهم في قالب هذه الحيوانات المناسبة لفعالهم وملكاتهم، فالروح والملكات عين ما كانت في السابق، لكن اقتضت الحكمة الإلٰهيّة ظهورها في قالب الإنسان مدّة، ثمّ ظهورها في قالبٍ يناسب تلك الصفات والملكات في مدّة اُخرىٰ، فالحقيقة واحدة، والمظاهر مختلفة بإرادة الله تعالى وجعله.

ومن ذلك يظهر أنّ تجسّم النفس بصور صفاتها واخلاقها، لا ربط له بمسألة التناسخ، وبطلان الثاني لا يستلزم بطلان الأوّل.

ثمّ إنّ أساس مذهب التناسخ يدور مدار أحد اُمور ثلاثة:

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٠.

إمّا قدم النفوس.

أو كون النفوس المجرّدة كالمادّيات التي تعتريها التغييرات والتبدّلات.

أو النقص في قدرة الله تعالى وتضييقها بقدر عقولهم.

والكلّ باطل، فلا تناسخ لا في عالم الدُّنيا، ولا في عالم الغيب، أي دار السعادة والشقاوة، ولا في عالم العقول المحضة، ويأتي تفصيل ذلك كلّه إن شاء الله تعالىٰ.

وعلىٰ فرض تحقّق المسخ الاصطلاحي، فما هو الموجود من القردة والخنازير ليس من نسل ذلك المسوخ؛ لما دلّ من النصوص علىٰ أنّ المسوخ لا بقاء لها بعد ثلاثة أيّام، وما هو الوجود ـ ويطلق عليه المسوخ ـ إنّما يكون مثلهم لا أن يكون من نسلهم، وممّا اتّفق عليه المسلمون أنّه ليس في القردة والخنازير مَن هو من أولاد آدم عليه السلام.

وخلاصة الكلام: المسخ إمّا في الظاهر، أو في الباطن، أو فيهما معاً. وكلّ هذه الأقسام إمّا في هذا العالم، أو في عالم الآخرة، أو فيهما معاً. وما كان في الدُّنيا إمّا أن يكون نسله مثله بعد المسخ، أو يكون مثله قبل المسخ، فيكون آدميّاً، أو ينقطع نسله بالمرّة، بل يهلك نفسه بعد قليل من زمان مسخه.

ولكلّ من هذه الأقسام تفصيلات، ربما نتعرّض لها في ضمن الآيات المستقبلة.

***

الآية ٧٥ ـ ٨٢

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ۝٧٩ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨٠ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٨١ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٨٢﴾.

هذه الآيات المباركة تدلّ على إخباره جلّ شأنه للنبيّ ﷺ وأصحابه باليأس عن إيمان اليهود، وعدم أهليّتهم للإيمان بالله ورسوله ولو ظاهراً، لما فيهم من الكيد والخيانة للرسول الأعظم ﷺ، ومكرهم بتحريف كلام الله تعالى بكلّ ما تمكّنوا، وقد أوعدهم الله تعالى بالويل والنار.

***

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ :

الطمع : تعلّق النفس بما تعتقد فيه النفع ، وبمعناه الأمل والرجاء، إلّا أنّ الطمع أقوىٰ منهما .

وتُستعمل المادّة في الخير والشرّ ، وأكثر استعمالاتها في الثاني، ولذا يعدّ من الصفات الذميمة .

والهمزة للإنكار ، وفيه إيماء باستبعاد إيمانهم به ﷺ واليأس منه ، والخطاب للرسول والمؤمنين ، أي كيف تطمعون أن يؤمن اليهود، وهم من أهل السوء والعناد ـ وقلوبهم قاسية كالحجارة ـ ولهم سابقة في الكفر والتحريف لكلام الله تعالىٰ .

ولقد كان رسول الله ﷺ والمؤمنون شديدي الحرص علىٰ إيمانهم لأسباب عديدة :

منها : أنّهم من أهل الكتاب ، وهم علىٰ معرفة برسول الله ﷺ ودينه، لما ذكر في كتابهم .

قوله تعالىٰ : ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ :

الفريق جمع لا واحد له ، والمراد به مَن له القدرة على التحريف، سواء كان من الأحبار والعلماء، أو مَن تبعهم في ذلك، وإن لم يكن منهم موضوعاً ، وإن كان ظاهر الآية يختصّ بالطائفة أُولى .

والمراد بسماع كلام الله تعالى ما أدركوه بقوّة السمع، سواء كان عند خطاب الله لموسى عليه السلام ، أو منه إليهم ، أو من أنبيائهم . وكلامه تعالى سواء كان من التوراة ، أو ما ورد في أوصاف خاتم النبيّين ﷺ .

والتحريف: التبديل والتغيير حسب مشتهيات النفس، سواء كان في اللفظ أو في المعني أو في المحلّ، بأن ينقل اللفظ من موضعه إلى موضع آخر.

والكلّ حرام عقلاً وشرعاً إلّا إذا ورد إذن من قبل الشارع، كما في تغيير القراءة فيه، وهو لا يعدّ من التحريف الاصطلاحي، ويأتي تفصيل ذلك كلّه إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿**مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾:

أي: من بعدما عرفوه وفهموه، وتمّت الحجّة عليهم، وهذا معنى قوله تعالى في الآية المباركة: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ**﴾[1]، أو ﴿**عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[2]، وهم يعلمون بأنّهم يحرِّفون ويكذبون على الله تعالىٰ. وذلك نصّ علىٰ تعمّدهم وسوء قصدهم. وفي هذين القيدين من التشنيع لفعلهم ما لا يخفىٰ.

وحكم الآية المباركة عامّ يجري في كلّ من يحرِّف كلام الله حسب مقاصده، وإن لم يكن من اليهود، فيشمل أهل البدع والآراء والمقاييس، ولو كانوا من المسلمين.

ومعنى الآية المباركة أنّه كيف تطمعون في إيمانهم؟! وقد كان لهم سلف يفعلون السوء، وقد جبلوا على العناد والإصرار على الضلال، وكان من أفعالهم الشنيعة، أنّهم كانوا يحرِّفون كلمات الله تعالىٰ هذا حال سلفهم، وأمّا أحوال الحاضرين فهي لا تتخطّى عمّن تقدّمهم، كما بيّن ذلك سبحانه وتعالى في الآيات التالية.

---

١. سورة المائدة: الآية ٤١.

٢. سورة المائدة: الآية ١٣.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾:

بيَّن سبحانه وتعالىٰ صفة أُخرىٰ من ذمائم أخلاقهم وشُعب نِفاقهم، أي إذا واجه اليهود أصحاب الرسول ﷺ اعترفوا بالإسلام، وقالوا: إنّا آمنا برسولكم ـ كما آمنتم به ـ بحكم التوراة من البشارة ببعثته، ولكن قولهم ذلك كان علىٰ سبيل النفاق.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾:

الفتح في الأصل إزالة الإغلاق والإشكال، سواء كان ذلك في الأُمور المادّية أو المعنوية أو الاعتبارية، وقد استعمل في القرآن الكريم بجميع مشتقّاته، قالى تعالىٰ: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾[2]، أي عنده ما يفتح به أبواب الرحمة على الخلق.

وكلّ نبي فاتح لأُمّته أبواب المعارف الإلٰهيّة، ويبيّن الأحكام للناس. ومنه إطلاق الفاتح على الحاكم، والفتح على الحكم والقضاء، والفاتح على القاضي. والمراد به هنا ما كان مبيّناً في التوراة. ويستفاد منه أنّهم كانوا يزعمون أنّ ذلك سرّ لهم خاصّة.

ومادّة (ح د ث) تأتي بمعنى الكون بعد العدم، سواء كانت البَعدية ذاتية أم زمانية. والحديث بمعنى الكلام والخبر، وإنّما يفترق بالاعتبار، فيُسمّى حديثاً

١. سورة سبأ: الآية ٢٦.

٢. سورة الأنعام: الآية ٥٩.

باعتبار حدوثه وتجدّده، وقد أطلق الحديث علىٰ نفس القرآن أيضاً، قال تعالىٰ: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾[٢].

والمعنى: أنّه إذا خلا بعضهم ببعض يذمّ من أظهر منهم ما كان في التوراة من البشارة بالنبيّ ﷺ وصفاته والأمر باتباعه.

قوله تعالىٰ: ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾:

مادّة (ح ج ج) تأتي بمعنى القصد، والمحاجّة أن يقصد كلّ أحد ردّ الآخر بدليل معتبر. أي إنّكم إذا أظهرتم للمؤمنين ما في التوراة، يصير حجّة عليكم من المسلمين، فيحاجّوكم به، وليس هذا إلّا النفاق.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾:

يحتمل أن يكون قول الأحبار والرؤساء لمن أظهر منهم الإيمان، أي أفلا تعقلون أنّ هذا الحديث يوجب إتمام الحجّة للمسلمين علىٰ بني إسرائيل.

ويحتمل أن يكون الخطاب من الله تعالى للمؤمنين، أي أفلا تعقلون أنّ بني اسرائيل منافقون في أقوالهم وأعمالهم، وأنّهم لا يؤمنون فلا تعتمدوا علىٰ ما يصدر منهم.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾:

الإسرار خلاف الإعلان، وللإسرار مراتب كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[٣].

---

١. سورة النجم: الآية ٥٩.

٢. سورة الواقعة: الآية ٨١.

٣. سورة طه: الآية ٧.

وعن بعض أهل اللغة ـ وتبعه بعض المفسّرين ـ: أنّه من الأضداد، لقوله تعالىٰ: ﴿وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾[1]، أي أظهروا الندامة.

ولكنّه مردود: لأنّه خلاف ظاهر الآية المباركة، كما يأتي في محلّها.

نعم، يمكن أن يكون شيء واحد سرّاً من جهة، وإظهاراً من جهة أُخرىٰ، فهو من الصفات ذات الإضافة، قال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾[2].

وقال جلّ شأنه: ﴿إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾[4].

وعلىٰ أيّة حال، فهذه الآية المباركة من القضايا التي يكون دليلها معها، بعد تصوّرها، وفيها توبيخ وتقريع لكلّ من يعلم بالحقّ ولا يحقّه، أو يعلم بالباطل ولا يبطله، فضلاً عن أن يظهر خلافه في كلّ منهما، فإنّه تعالىٰ حاضر لدى القلوب، فلابدّ أن تكون القلوب حاضرة لديه، حضوراً عمليّاً لا اعتقادياً فقط، إذ لا أثر للاعتقاد بدون العمل.

وهذه الآية المباركة من الآيات التي تدلّ علىٰ إحاطته تعالى بما سواه، وهذه الإحاطة واقعيّة، فوق ما نتعقّله من معنى الإحاطة، ولذا عقّب سبحانه وتعالى علمه الإطلاقي بما سواه بالإلوهية المطلقة **تارةً:** فقال جلّ شأنه:

﴿وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾[5].

---

١. سورة سبأ: الآية ٣٣.

٢. سورة التحريم: الآية ٣.

٣. سورة نوح: الآية ٩.

٤. سورة الرعد: الآية ٢٢.

٥. سورة الأنعام: الآية ٣.

وأخرىٰ : علّقه علىٰ ذات الإلوهية ، فقال تعالىٰ : **﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾**[١].

ويأتي شرح ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ .

قوله تعالىٰ : **﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾** :

الأُمي : مَن لا يكتب ولا يقرأ ، وهو صفة ذمّ ، وقد تكون من صفات المدح، كما في نبيّنا الأعظم ﷺ فإنّه كان أُمّياً ، ولكن علّمه الله تعالى من لدنه جميع المعارف وجهات التشريع .

والأماني : جمع أُمنية ، وهي التصوّرات التي لا حقيقة لها ولا واقع، وإن ظنّ أنّ لها واقعاً وحقيقة .

وهذه الجملة تحتمل معنيين :

الأوّل : أنّ كتاب الله تعالىٰ يشتمل علىٰ أشياء لا حقيقة لها بزعمهم، ويشهد له قوله تعالىٰ : **﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**[٢].

الثاني : أن يكون المراد أنّه لا حظّ لهم من معنى الكتاب ومراد كلامه تعالىٰ ، وهمّهم إنّما يكون في غير ذلك . وإنّما عبّر بالأُمنية لأنّه لا يتجاوز الوهم والخيال الذي هو أنزل العوالم ، ولا يمكن أن يصل إلى مراده تعالى الذي هو من عالم الغيب ، فيكون من أدلّة النهي عن تفسير كلام الله بالرأي .

وتأتي بمعنى القراءة أيضاً ، أي لا يعلمون الكتاب إلّا قراءة اللفظ من دون التعدّي إلى فهم المعنى الحقيقي .

وهؤلاء هم الفريق الثاني من اليهود الذين لا حظّ لهم من الكتاب، إلّا

---

١ . سورة النحل : الآية ٢٣ .

٢ . سورة الفرقان : الآية ٥ .

الأكاذيب والمفتعلات، وهم المأوّلون لكتاب الله علىٰ طبق آرائهم وأُمنياتهم التي ليس لها أصل صحيح.

وأمّا الفريق الأوّل فهم المحرِّفون لكتاب الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾:

المراد بالظنّ الوهم، أي ليس حظّهم من الكتاب، إلّا ما يتوهّمونه من الأغراض الفاسدة، كما يأتي في ذيل الآية المباركة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾:

ذكر سبحانه وتعالى فريقين من اليهود، وهم المحرِّفون لكتاب الله تعالىٰ، والمأوّلون له. وبقى قسم ثالث، وهم المفترون على الله تعالىٰ.

الويل: لفظ جامد لا تثنية فيه ولا جمع. والويلات جمع ويلة لا الويل. ومعناه شدّة الشرّ والحزن والعذاب والهلكة، وقد استعمل هذا اللفظ في القرآن الكريم في ما يقرب من أربعين موضعاً، كلّها مقرونة بما يدلّ على الذمّ والحزن والمكروه.

وعن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«إنّ الويل وادٍ في جهنّم بين الجبلين».

وهذا من باب التطبيق لا بيان المعنى الحقيقي.

وقد كرّر اللفظ في المقام ثلاث مرّات، لشدّة عظم المعصية، وتغليظاً لفعلهم، وهو كذلك عقلاً، فإنّ الافتعال والجعل من غير مَن له حقّ الجعل فعل شنيع وفيه خطر عظيم، فأفعال هذه الفرق الثلاث وهم: المحرِّفون، والمأوّلون، والمغترّون، فيها قبح عقلي، وكلّ ذلك داخل في الظلم الذي يحكم بقبحه العقل،

فلا اختصاص له بقوم دون آخرين.

وإنّما أضاف الله تعالى الكتاب إلى اليد، مع أنّها لا تكون إلّا بها تبييناً للموضوع كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾[١]، وفي المحاورات: (رأيته بعيني) و (سمعته بأُذني).

وإشارة إلى تحقير الموضوع، يعني أنّ ما يفعل باليد لايليق أن يُنسب إلى الله تعالىٰ، فإنّ ما عنده ليس إلّا الحقائق الواقعية التي تجلّ عن تدخّل القوى الإمكانية فيها.

ويمكن أن يكون فيه إيماء إلى إيكال الأمر إلى أنفسهم، أي أنّه مع أنّكم تعلمون أنّه من مفتعلات أنفسكم، كيف تنسبونه إلى الله تعالىٰ.

ويُراد من الكتاب الذي كتبته أيديهم، الأعمّ ممّا كتبوه قبل بعثة نبيّنا الأعظم ﷺ، أو حينها، أو بعدها. ومن ذلك ما رُوى أنّ أحبارهم عمدوا إلى التوراة وحرّفوا ما ورد في صفة النبيّ ﷺ.

وسيأتي في البحث الروائي ما ينفع المقام.

قوله تعالىٰ: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾:

ليس المراد بالاشتراء خصوص الشراء مقابل سائر النقل والانتقال، بل المراد به التبديل. ووصف سبحانه وتعالى الثمن بالقلّة، إمّا لأجل فنائه وإن كان كثيراً، أو لأجل أنّ الحقّ لايقابل بأيّ ثمن، فإنّ كلّ ما في الدُّنيا إن قوبل بإزالة الحقّ عن مقرّه، وإظهار الباطل، لكان ذلك قليلاً في مقابل هذا الذنب العظيم، قال تعالىٰ:

﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

---

١. سورة يٰس: الآية ٣٥.

٢. سورة البقرة: الآية ١٠٢.

وأنّى للنفوس المأنوسة بالمادّيات، معرفة آيات الله جلّت عظمته وقيمها الواقعية، وهذه الآية المباركة شارحة لقوله تعالىٰ:

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وكرّر سبحانه وتعالى الوعيد ـ في هذه الآية المباركة ـ ثلاثة مرات:

إمّا لأجل عظمة الجرم وشناعته، كما مرّ.

أو لأجل صدور ثلاث جرائم عظيمة، هي أصل التغيير، ونشره بين الناس، واخذ الرشوة وإعمال الأغراض الشريرة في التغيير، فعبّر بقوله سبحانه تعالىٰ:

﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾.

أي لهم عذابٌ شديد لأجل التحريف، ولأجل الأغراض الفاسدة، وفعل المعاصي.

قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾**:

ذكر سبحانه وتعالىٰ في هذه الآية المباركة خصلة من خصالهم السيّئة، وضرباً من غرورهم، وادّعائهم أنّهم من أبناء الله وأحبائه، فلابدّ وأن تكون مدّة العقاب قليلة.

وقيل: إنّ أكثر اليهود علىٰ أنّ النار تمسّهم سبعة أيّام.

وقيل: إنّها تمسّهم أربعين يوماً، وهي المدّة التي عبدوا فيها العجل.

والمسّ واللمس بمعنى واحد، إلّا أنّ الثاني أعمّ مورداً من الأوّل، فيصحّ أن يقال: (التمست الكتاب فلم أجده)، ولايصحّ أن يقال: (مسست الكتاب فلم أجده)، قال تعالىٰ: **﴿أَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً﴾**[2].

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠١.

٢. سورة الجنّ: الآية ٨.

ولا يصحّ استعمال مسسنا السماء، لأنّ المنساق منه اللصوق والمقارنة الحقيقيّة بين الماس والممسوس.

وأكثر ما تستعمل مادّة (م س س) في القرآن، إنّما هو في السوء والضرّ والمكروه، وقد تُستعمل في الخير أيضاً، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً* إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً* وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[1].

وربما تعترض غالب النفوس شبهة دوران مدّة العقاب مدار مدّة العصيان، فإذا كانت مدّة العصيان محدودة، فلابدّ وأن تكون الأُولى ـ أيضاً ـ محدودة، فلا وجه للزيادة فضلاً عن الخلود والأبدية، وقد ذكرت هذه الشبهة في علم الفلسفة والكلام والحديث، ودفع عنها بأجوبة متعدّدة، سيأتي التعرّض لها في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾**:

تقدّم معنى العهد، وهو حفظ الشيء وإحكامه ومراعاته حالاً بعد حال، والعهد:

إمّا بين الله تعالىٰ وبين خلقه، وهو كثير ومنه قوله تعالىٰ: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾**[2].

وكلّ ما بيّنه رسوله الباطني ـ وهو العقل ـ من حسن الإحسان وقبح الظلم، وجميع ما بيّنه أنبياؤه ورسله الظاهرية، بواسطة الوحي السماوي، يكون من عهود الله تبارك وتعالى علىٰ عباده.

وإمّا ما بين العباد بعضهم مع بعض، وهي المعاملات التي يقوم بها النظام.

---

١. سورة المعارج: الآية ١٩ ـ ٢١.

٢. سورة يس: الآية ٦٠.

وجميع هذه الأقسام واجب الوفاء بها عقلاً وشرعاً.

ومعنى الوجوب على الله تعالى حُسن فعله وقبح نقضه، وكلّما كان كذلك فهو واجب عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَاتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ﴾:

مركّب من مقدّمتين واضحتين، يعترف الخصم بإحداهما، وتثبت في حقّه الأُخرى لا محالة، أي إن كان لكم في دعواكم عهد من الله تعالىٰ، فلن يخلف الله عهده، وهم يعترفون بعدمه، فينسبون إليه ما لم يقله.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾:

أي: تقولون ما لا دليل لكم عليه. وهذه نتيجة واضحة لعدم إثبات عهد الله إليهم، فنفى الله تعالى عنهم العلم والمعلوم، تنبيهاً علىٰ كمال غباوتهم، ولا تختصّ هذه الآية بقوم دون آخرين، بل تجري في كل مَن تمنّى على الله أمراً غير مشروع، وافترى عليه في ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾:

بلى كلمة تستعمل غالباً مع النفي، فتزيله وتثبت نقيضه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾[1]، فأثبتوا الربوبيّة فكانوا مسلمين، بخلاف (نعم) فإنّه تقرير غالباً.

وعليه، لو قالوا: (نعم) لكانوا كافرين. وإذا قيل: (ما عندي شيء)، فقال المخاطب: (بلى) فهو ردّ لكلامه، وإذا قال: (نعم) فهو تقرير.

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٧٢.

هذا مع عدم القرينة في البين وإلّا فتتبع هي لا محالة.

فكلمة (بلى) في المقام ردّ لما زعموه، أي ليس الأمر كما ذكرتم، بل تمسّكم النار كما تمسّ غيركم وتخلدون فيها.

ومادّة (كسب) استُعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، فأُضيفت:

تارةً: إلى القلب، فقال تعالىٰ: ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[1].

وإلى الأيدي أُخرىٰ، فقال جلَّ شأنه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[2].

والمرجع في الجميع واحد، لعدم الفرق بين النسبة إلى الذات أو إلى اليد.

وأصل المادّة تستعمل في طلب النفع، سواء كان واقعيّاً أم وهميّاً أم خياليّاً، ويعتبر الاستمرار فيه في الجملة، فلا يُقال لمن اشترى شيئاً لطلب النفع مرّة إنّه كاسب، إلّا بالعناية. وهذا من إحدىٰ عناياته تبارك وتعالى في ما استعملت فيه هذه الكلمة في القرآن الكريم، فلم يرتّب الحكم علىٰ صرف الوجود غالباً إلّا في الشرك.

والسيّئة: الفعل القبيح، وهي ضدّ الحسنة، وتشمل جميع القبائح من الصغائر والكبائر والشرك، فإن أُريد بها في المقام الشرك ـ كما عن جمع من المفسّرين ـ يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ بياناً للشرك الذي يكون خطيئة محيطة بالإنسان.

وإن كان المراد بها مطلق السيّئة، فيكون المراد بالإحاطة اشتدادها، يصير صاحبها من أهل الخلود في النّار.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٢٥.

٢. سورة المدّثر: الآية ٣٨.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

الإحاطة: الغلبة والاستيلاء.

والخطيئة: الحالة الخاصّة الحاصلة من مطلق الذنب، الموجبة للخلود، أو الشرك ـ أو ما يكون مثله ـ بقرينة الإحاطة والخلود في النار.

وذكر الخطيئة دون السيّئة، إشارة إلى أن تكرّر السيّئة يوجب إحاطة الخطيئة وصدورها عنه، ولو لم تكن عن التفات تفصيلي حينها، بعد أن كان أصل السبب عن عمد واختيار منه.

ودخول أصحاب الخطايا في النار والخلود فيها، كدخول الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنَّة، والخلود فيها مطابق للبراهين العقلية ـ كما يأتي ـ فإنّ مَن أحاطت به خطيئته يكون من الأشقياء، ومَن كان كذلك فهو مخلّد في النار، كما أنّ مَن آمن وعمل صالحاً يكون من السعداء، وكلّ مَن كان كذلك فهو مخلّد في الجنَّة.

ثمّ إنّ إحاطة الخطيئة بالإنسان، تكون علىٰ أقسام:

من أهمّها الشرك والكفر بالله تعالىٰ، فإنّهما يُحيطان على القلب والجوارح، قال تعالىٰ: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾[1].

وقال جلَّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2].

ومنها: متابعة الذنب للذنب، بحيث تستولي السيّئة علىٰ مجامع قلبه، فتتبدّل فطرته الأوّلية إلى فطرة أهل الجحيم والنار، مع فرض عدم تخلّل التوبة والندم، وما يوجب الكفران في البين، وقال تعالىٰ:

---

١. سورة المائدة: الآية ٧٢.

٢. سورة مريم: الآية ٣٧.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾[١].

وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«ما من عبد إلّا وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السواد، وإن تمادىٰ في الذنوب زاد ذلك السواد حتّى يغطّي البياض، فإذا غطّى البياض لم يرجع صاحبه إلىٰ خير أبداً، وهو قول الله عزّوجلّ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾».

ومنها: الاستخفاف والاستهانة بأوامر الله تعالىٰ ونواهية، المؤدّي إلى الاستهزاء بالدِّين، قال تعالىٰ:

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾[٢].

وغير ذلك من الأقسام التي يكون المناط فيها كلّه تبديل الذات المقتضية للسعادة إلى الشقاوة، في مرتبة الاقتضاء، فتتغيّر الذات من كثرة مزاولة السيّئات والمعاصي، وعدم المبالاة بها، كما يصير الجبان بكثرة مزاولة الحروب شجاعاً، فمقتضيات الذات تتغيّر بالملكات، وهي تحصل بتكرّر الأفعال.

وما قيل: إنّ الذاتي لا يتغيّر ولا يتبدّل.

مردود: بأنّ ذلك في الذاتي المنطقي وما هو لازم الماهيّة، لا الذاتي في العرف والشرع اللازم للوجود لجهات خارجيّة عن الذات والماهية.

ويأتي تفصيل ذلك كلّه في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ

---

١. سورة الأنعام: الآية ٧٠.

٢. سورة الروم: الآية ١٠.

فِيهَا خَالِدُونَ﴾:

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أصحاب النار، ذكر هنا أصحاب الجنَّة، وهم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا الصالحات، وهذا من سنّته تبارك وتعالىٰ، فإنّه يقرن بين الترهيب والترغيب، وهو من بديع حكمته.

وهاتان الآيتان المباركتان تشبهان الآية السابقة، وهي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

في أنّ كلّاً منهما في مقام بيان أنّ الخلود في الجنَّة والنار، إنّما هو للسعداء، دون مجرّد التسمية بالأسماء. والفرق أنّ الآيتين الأخيرتين في مقام بيان ترتّب الخلود في الجنَّة على السعداء، والخلود في النّار على الأشقياء، ويلزم الأثر للتسمية، والآيتين الأوليين في مقام بيان عدم الأثر للتسمية أوّلاً، فيلزم الخلود في الجنَّة للسعداء، والخلود في النّار للأشقياء.

بحث روائي:

في «المجمع» عن الباقرعليه السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾**.

قال: «كان قوم من اليهود ليسوا من المعاندين المتواطئين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمّد صلى الله عليه وآله، فنهى كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمّد صلى الله عليه وآله، فيحاجّوكم به عند ربّهم؛ فنزلت الآية».

وقريب منه ما رواه القمّي.

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٢.

أقول : تقدّم أنّ ذلك تحريف في ما أنزل الله ، ومكر وخديعة .

وعن القمّي أيضاً ، في قوله تعالىٰ : **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾** :

«قال بنو اسرائيل : لن تمسّنا النار ، ولن نُعذّب إلّا الأيّام المعدودات التي عبدنا فيها العجل، فردّ الله عليهم» .

أقول : تقدّم ما يتعلّق بذلك .

وفي «تفسير العسكري» في قوله تعالىٰ : **﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾**.

قال عليه السلام : «السيّئة المحيطة به أن تخرجه عن جملة دين الله ، وتنزعه عن ولاية الله تعالىٰ ، وتؤمّنه من سخط الله ، وهي الشرك بالله والكفر به ، وبنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ، وولاية عليّ وخلفائه عليهم السلام ، وكلّ واحدة من هذه سيّئة تحيط به ، أي تحيط بأعماله فتبطلها وتمحقها» .

وفي «الكافي»، عن أحدهما عليهما السلام، في قوله تعالىٰ : **﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾** : «إذا جَحَدوا ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، فأُولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» .

وقريب منها ممّا رواه الشيخ بأسناده عن علي عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله .

أقول : في ذلك روايات مستفيضة بل متواترة، وكلّها من باب المصداق والتطبيق ، وتشمل جميع الأعمال الباطلة لفقد شرط من شروطها .

ثمّ إنّ الأفعال الصادرة عن الإنسان إمّا مباشرية له فقط ، أو تسبيبيّة منه ، أو مركّبة منهما ، والجميع إمّا من الحسنات والخيرات، أو من الشرور والسيّئات .

ولا ريب في أنّه يجزي جزاء الحسنات على الأفعال الحسنة مطلقاً، بل

مقتضى قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[١] تضاعف الجزاء.

وأمّا السيّئات فإن كانت فعلاً مباشرياً، فيُعاقب عليها ما لم تمح بالتوبة بشروطها.

وأمّا إذا كانت الأفعال تسبيبيّة منه، فقد قال نبيّنا الأعظم ﷺ في ما تواتر عنه:

«مَن سَنَّ سُنّة حسنة فله أجر من عمل بها، ومَن سَنَّ سُنّة سيّئة فعليه وزر مَن عَمِلَ بها».

وتشهد لذلك الأدلّة العقلية.

وتحريف كلام الله تعالىٰ وآياته، وتغيير السنّة المقدّسة النبوّية، هو من القسم الأخير.

بحث فقهي:

قد استدلّ بالآية المباركة ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ علىٰ حرمة أخذ الأُجرة علىٰ تدوين المصحف الشريف، وحرمة بيعه. وأصل المسألة مذكورة في الكتب الفقهية، وقد استدلّوا على الحرمة ـ أيضاً ـ بأدلّة أُخرىٰ لكنّها قاصرة عن إثباتها.

فمقتضى الأُصول والأدلّة والقواعد الجواز، إلّا أن يدلّ دليل معتبر بالخصوص على الحرمة، وقد ذكرنا التفصيل في الفقه. ومن أراد المزيد فليراجع كتابنا (مهذّب الأحكام).

***

١. سورة الأنعام: الآية ١٦٠.

الآية ٨٣ ـ ٨٦

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَتَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى أحوال بني إسرائيل، وما أنعم عليهم بأنواع النِّعم، وما ظهر فيهم من المعجزات الباهرات، شرع في تعداد ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق، وهي أُمور عقلية نظامية، تنظّم شؤونهم الفردية والاجتماعية، الدنيوية والأُخروية، ويترتّب علىٰ مخالفتها والاستخفاف بها، الأحكام الوضعية والتكليفية.

وإنّما كرّر جلَّ شأنه ميثاق بني إسرائيل، لأنّهم أوّل مَن قامت فيهم الحركة الدينية، ولعلّهم يشكرون هذه النِّعمة، ويدينون بما جاء به النبيّ ﷺ تعظيما لشأنه ﷺ، واهتماماً باتباعه، وتسلية له لئلا يتأثّر من لجاجهم وإنكارهم، فإنّهم جُبلوا علىٰ ذلك.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾:

الأخذ: الاستيلاء والتحصيل والحيازة، وقد استُعملت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات كثيرة جدّاً بالنسبة إليه تعالى وإلى خلقه، وكذا في السنّة المقدّسة؛ فعن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«على اليد ما أخذت حتّى تؤدّي».

وتقدّم معنى الميثاق، وهو العهد المؤكّد والعقد المستحكم. والموثوق به في الآيات المباركة، أُمور كلّها ممّا يستقل العقل بحسنها، واجتمعت الشرائع السماوية عليها.

والمعنى: اذكر أيُّها الرسول ما أخذناه من المواثيق عليهم، وقد بيَّن سبحانه وتعالى هذه المواثيق بما يأتي.

قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾:

جملة خبرية في مقام الإنشاء، وهذا أبلغ في الطلب وآكد، أي اعبدوا الله وحده لا شريك له، كما قال تعالىٰ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً﴾[1]، وهو غاية كمال العقل، وأولى في درجة الرقي إلى المقامات العالية التى لا حدَّ لها ولا نهاية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾:

أي: أمرناهم بالإحسان إلى الوالدين، وهو حكم حَسَن يحكم به ذوو العقول لو لم يحكم بحسنه كلّ ذي شعور؛ وقد قرن سبحانه وتعالى الوالدين

---

١. سورة النساء: الآية ٣٦.

بالتوحيد في هذه الآية المباركة، وفي جملة من الآيات، قال تعالىٰ:
﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[١].

وقال جلَّ شأنه: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾**[٢].

وذلك، لأنّ النشأة الأُولى أو الخلق، وإن كان من الله تعالىٰ، ولكن دوام بقاء عالم الإنسانيّة بالوالدين، كما أنّ منشأ التربية الحقيقية من الله تعالىٰ، لأنّه الرّب على الإطلاق وجميع ما سواه مربوب له.

ثمّ بعد ذلك في النظام الأحسن تكون التربية من جهة الوالدين، ولذا قرن الشكر لهما بشكره تعالىٰ، فقال جلَّ شانه: **﴿أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾**[٣].

والتربية، تارة: تكون جسمانية، وهي التي يقوم بها الوالدان، ويتمّ بقاء النوع الإنساني بها.

وأُخرىٰ: تربية معنوية، وهي التي بها تقوم الحياة الأبدية، ويقوم بها الأنبياء والأولياء والعلماء.

ولاريب في أفضلية الثانية من الأُولى وأهمّيتها.

وإنّما أطلق تعالى الإحسان إلى الوالدين، لأنّه ممّا يختلف باختلاف الأعصار والأمصار والحالات كما هو معلوم، ويتمّ الإحسان إليهما بمعاشرتهما بالمعروف، ورعايتهما وامتثال أوامرهما والتواضع لهما.

وكيف كان، فأفعال الإنسان بالنسبة إليهما علىٰ أقسام ثلاثة:

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥١.

٢. سورة الإسراء: الآية ٢٣.

٣. سورة لقمان: الآية ١٤.

الأوّل: ما أدرك أنّه حَسَن.

والثاني: ما أدرك أنّه السيّيء.

والثالث : ما تردّد في أنّه من الحَسَن أو السيّئ.

ويصحّ الأوّل بالنسبة إلى الوالدين، ولا يجوز الثاني، وفي الأخير تفصيل يُطلب من الفقه.

قوله تعالىٰ: **﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾**:

القربى هي القرابة، أي أمرناهم بالإحسان إلى القرابة، وهو ممّا تحكم به الفطرة أيضاً، لأن بحفظ القرابة يتحقّق نظام الأُسرة والاجتماع الذي هو من أهمّ مقاصد النوع الانساني؛ فالإحسان إليها يقوّي أواصر تلك القرابة ويصلحها.

قوله تعالىٰ: **﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾**:

اليتم: هو الانفراد، ومنه قولهم: (درّة يتيمة)، وقول الصادق عليه السلام: «والله نحن اليتامىٰ».

واليتيم في الإنسان مَن فَقَد الأب، وفي البهائم مَن فَقدَ الأُمّ، وفي الطيور فيهما. وتقدَّم معنى المسكين، وهو من أسكنته الحاجة، وأطلق سبحانه وتعالى الإحسان إليهم، لما مرَّ آنفاً في الإحسان إلى الوالدين، وسيأتي تفصيل ذلك في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾**:

إلتفات في الكلام، وعدول في الخطاب، لأهمّية المورد بعد أن أمر سبحانه وتعالى بالإحسان الى أفراد مخصوصين ـ هم الوالدان والأقربون، واليتامى والمساكين ـ أكّد ذلك بحسن المعاشرة، والقول الجميل، وكلّ ما هو حسن

للناس، ولابدّ من تقييد ذلك بأدلّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو أجمع كلمة لحفظ النظام ، وأحسن ما يجلب به قلوب الأنام ، فعن أبي جعفر عليه السلام :

«قولوا للنّاس أحسن ما تحبّوا أن يُقال فيكم».

وسيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق به أيضاً .

وهذه المواثيق لم تكن تختصّ بطائفة خاصّة ، بل هي أُمور فطرية حكم بحسنها العقل، وحثَّ عليها الشرع ، فلو عمل بها النّاس لعمّت الأُلفة وزالت البغضاء والتنافر بينهم ، وانقاد الكلّ للكلّ ، واضمحلّ العدوان بين أفراد الإنسان ، وبلغ المجتمع الإنساني إلى ذروة المجد والشرف ، ولكنّهم عمدوا إلى الشقاق والنفاق ، فتولّوا عن الحقّ إعراضاً ، فصاروا لما لا يتوقعون أغراضاً .

قوله تعالى : **﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾** :

بيّن سبحانه وتعالى معنى العبادة التي تقدّمت في صدر الآية المباركة ، ليبطل جلَّ شأنه افتعال المفتعلين ، لأنّ العبادة لابدّ أن تستند بجميع خصوصيّاتها إلى الشارع .

والإقامة: كما تقدّم، المواظبة علىٰ إتيان الصلاة تامّة الأجزاء، وجامعة للشرائط ، وهي أقوى صلة بين الله تعالى وعباده ، ومن أهمّ السُّبل في إصلاح النفس ، لما تشتمل على الإخلاص لله تعالىٰ ، والخشوع لعظمته .

كما أنّ الزكاة أقوىٰ صلة بين الأغنياء والفقراء، ثمّ بينهم وبين الله تعالىٰ ، ففيها إصلاح المجتمع .

والزكاة أيضاً من الأُمور العبادية، فلابدّ أن تستند خصوصيّاتها إلى الشرع ، وإن كان مطلق الصدقة محبوباً بالفطرة لدى الأُمم .

قوله تعالىٰ : **﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾** :

بيان لما وقع منهم من عدم الوفاء بالميثاق، ومعارضتهم له بالنفاق.

والتولّي هو الإعراض، والمعروف أنّه إذا عُدِّي بنفسه، يكون بمعنى الولاية والمحبّة والإقبال، وإذا عُدِّي بـ(عن) كان بمعنى الإعراض والإدبار، والقرينة في المقام على الثاني: «وأنتم معرضون».

وغالباً ما استعمل لفظ التولّي في القرآن الكريم، إلّا وعُقِّب بالإعراض، مبالغةً في الترك والتولّي. وقد كان لتولّيهم مظاهر مختلفة، ذكر سبحانه وتعالىٰ جملة منها في الآيات المتقدِّمة، وسيأتي في الآيات اللّاحقة بعضها الآخر.

والمراد بالمستثنى في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ بعض اليهود الذين أقاموا علىٰ دينهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في حكايته عن الشيطان:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١].

ونسب إلى نبيّنا الأعظمﷺ: «العالمون هالكون إلّا العاملين، والعاملون هالكون إلّا المخلصين، والمخلصون علىٰ خطر».

ثمّ إنّ التوجّه إلىٰ شيء، يلازم الإعراض عمّا يضادّه وينافيه، فهما من الصفات ذات الإضافة، بينهما التلازم شدّةً وضعفاً، أو كمالاً ونقصاً، فمن توجّه إلى شيء من حيث هو، مع قطع النظر عن أنّه صنع الله تعالىٰ، ومظاهر آياته، ومورد قضائه ورضائه، فقد أعرض عن الله تعالى بقدر ما توجّه إليه، وأمّا إذا كان توجّهه إليه من حيث إنّه مورد رضائه وطلبه، لا يعدّ ذلك إعراضاً عنه تعالىٰ، بل توجّهاً إليه تعالىٰ، وهما يتحقّقان بالقلب، إذ لا يمكن أن يتحقّق التوجّه إليه تعالىٰ بالجسم، لما ثبت في الفلسفة من امتناع الجهة بالنسبة إليه عزّوجلّ، قال تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾[٢].

---

١. سورة ص: الآية ٨٢.

٢. سورة البقرة: الآية ١١٥.

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٢].

والإعراض القلبي عنه عزَّ وجلَّ يكون:

إمّا بعدم الاعتقاد به.

أو عدم سماع أحكامه.

أو عدم العمل بها بعد الاستماع.

أو الاستهزاء بآياته.

أو التولّي عن أنبيائه ورسله والقائمين مقامهم في التشريع.

وفي الأخير يتحقّق الإعراض القلبي والجسماني معاً.

ويأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وقد نسب إلى جمع من المفسّرين أنّ هذه الآية المباركة منسوخة، واختلفوا في تعيين الناسخ:

فقد ذهب جمع إلى أنّ قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ منسوخ بآية السيف، وهي قوله تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾[٣]، وهو منسوب إلى ابن عبّاس.

وقيل غير ذلك.

والحقّ أنّ الآية المباركة في مقام بيان أصل القانون وتشريع الحكم، وذكرنا أنّ مضمونها أحكام فطرية، حَكَم بحسنها العقل، إلّا أنّ لها قيوداً مذكورة في الكتاب، فليست الآية منسوخة، وإلّا لَعَمَّ النسخ كلّ تقييد لمطلق، أو خاصّ

---

١. سورة الحديد: الآية ٤.

٢. سورة ق: الآية ١٦.

٣. سورة التوبة: الآية ٢٩.

لعام، والحديث الوارد في المقام عن الصادق عليه السلام -كما سيأتي- محمول على ما ذكرناه، إن تمّ اعتباره.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾:

ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة جملة من المنهيّات التي أخذ العهد من بني إسرائيل باجتنابها، كما ذكر في سابقها ممّا أُمروا بها.

والسفك والصب والإهراق بمعنى واحد.

والنفس -بالسكون- بمعنى الروح، وهما شيء واحد، وإن اختلفا مفهوماً، وهي أشرف ما في الإنسان، وقد تحيّرت العقول فيها، ولم تزل مورد بحث العلماء واجتهادهم، وغاية ما وصل العلم فيها مع بذل الجهود الجبّارة، أنّها مبدأ الحياة والحركة، ولكنّهم لم يقدروا أن يتوصّلوا إلى الحقيقة، بل كلّما ازداد الجهد فيها في تعاقب القرون، ازداد الإنسان بُعداً عنها وازدادت غموضاً، ولذا قالوا: إنّ قوله عليه السلام: «مَن عَرَفَ نفسه فقد عرَفَ ربّه» من التعليق على المحال، إن لوحظ بالنسبة إلى الحقيقة، وأمّا إذا لوحظ باعتبار الآثار، فهو متيسّر بحسب مراتب الإدراكات والاستعدادات.

والنَفَس -بالفتح- الهواء الداخل في البدن والخارج منه، وبه قوام الحياة، وتأتي بمعنى الفَرَج، ومنه ما نسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله:

«إنّي أجد نَفَس الرحمٰن من اليمن».

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ التفات إلى الحاضرين، ترغيباً لهم إلى الإيمان بالنبيّ صلى الله عليه وآله الذي يبيّن ما أُخذ عليهم من المواثيق.

والديار: جمع الدار، سمّيت به لدورها علىٰ ساكنها، وهي من الأمور

التشكيكيّة الإضافية، فالدنيا مع سعتها دار الفناء، والآخرة مع عدم انتهائها دار البقاء، ودار المسكين التي لا تسع مَدّ رجليه دار أيضاً. والديَّار ـ بالتشديد ـ من سَكَن الدار.

والمعنى : وإذ أخذنا منكم العهد، أن لا يسفك بعضكم دم بعض، ولا يخرج بعضكم بعضاً من ديارهم بغير الحقّ، مباشرياً كان أو بالتسبيب، وكلّ منهما من القبائح العقلية، ولذا اعترفوا وشهدوا بذلك.

وإنّما عبّر سبحانه بالنفس، وجعل غير الشخص كأنّه نفسه، مبالغة في النهي، وتأكيداً في الترك، ولأنّهم أُمّة واحدة بينهم روابط القرابة والمصلحة والدِّين، فما يصيبُ واحداً منهم كأنّما يصيب الأُمّة، وأراد سبحانه وتعالى بذلك تعليم حفظ الوحدة بين الأفراد مهما أمكنهم، كقوله تعالىٰ:

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾[1].

قوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾**:

الإقرار هو الإخبار الجازم بما هو لازم. والشهادة من الشهود، وهو الحضور الذي لا شكّ فيه.

والمعنى : أنّكم أقررتم بالميثاق والعهد؛ وتشهدون بما فعلتم به من الهتك والنقض.

قوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾**:

إخبار عن نقضهم للعهد، والخطاب إلى يهود عصر النبيّ ﷺ، وبيان لما نقضوه من سفك الدم، وإخراج صاحب الدار من داره، وفيه إشارة إلى ما كان بين

١. سورة النور: الآية ٦١.

اليهود في عصر النبيّ ﷺ من التنافر والتعاند والقتل والأسر والعدوان.

وسيأتي في البحث الروائي ما يدلّ علىٰ ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾:

التظاهر التعاون، وهو مشتقّ من الظهر بمعنى المعين، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١].

والإثم والوزر والمعصية بمعنى واحد. والعدوان التجاوز عن الحدّ، وفي المقام هو الإفراط في الظلم. أي أنّه كان منكم مَن يعاون الظالم علىٰ إخوانه من اليهود بالإثم والعدوان، أي القتل والأسر والإخراج من الديار.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾:

أسارى: جمع أسير، وهو كلّ مأخوذ قهراً. وقد يطلق الأُسارى علىٰ مَن في الوثاق، والأسرىٰ علىٰ مَن في اليد بلا وثاق.

وتفادوهم: من الفداء وهو طلب الفدية.

والمعنى: أنّه يفدي كلّ فريق من اليهود أسرى أهل ملّته، وإن كان من أعدائه، ثمّ يعتذرون عن ذلك بأنّ دينهم أمرهم بفداء الأسرى من بني إسرائيل. وليس ذلك إلّا من الاستهزاء بأحكام الله تعالىٰ، والإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض الآخر، فإنّه لو كان كذلك، فلِمَ يقتل بعضكم بعضاً، ويخرج بعضكم الآخر من ديارهم، وهو محرَّم عليهم في دينهم، وقد نهاهم الله تعالى عن ذلك، كما ذكره تعالىٰ.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٨٨.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾:

توبيخ وتأنيب، أي أنّكم إذا كنتم مؤمنين، فما بالكم تؤمنون ببعض الكتاب وهو فداء الأسرى، وتكفرون ببعض وهو حرمة القتل، وإخراج أهل الديار من ديارهم.

وفداء الأسير حَسَن، لا ريب في محبوبيّته، بشرط أن لا يكون الفادي هو السبب في أسره، إلّا كان تبعياً في الإيمان، وكفراً بأحكام الله، ولذا توعّد سبحانه علىٰ مَن كان كذلك بالخزي في الدُّنيا، والعذاب الشديد في الآخرة.

والتعبير بالكفر إشارة إلى استهزائهم بحكم الله وجحودهم له، وإلّا فإنّ مجرّد ترك العمل ببعض الأحكام، لا يوجب الكفر وإن أوجب الفسق.

قوله تعالىٰ: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾:

الخزي هو العذاب والهوان، قال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾[1].

والتعبير بالردّ، إشارة إلى أنّ مسيرهم في المبدأ والمنتهى واحد، من العذاب إلى العذاب.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾:

لاتخفىٰ عليه خافية، فقد أعدَّ لكلّ عمل جزاءه، وقد تقدّم معنىٰ ذلك، وفيه زجر شديد لهم، وفي مثل هذه الآيات تسلية لنبيّنا الأعظم ﷺ، عمّا كان يلقاه من اليهود، وإرشاد لأمّته إلىٰ نبذ ما فعله اليهود، وإلّا أصابهم ما أصاب اليهود.

١. سورة آل عمران: الآية ١٩٢.

قوله تعالىٰ : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ :

بيان لقبح أفعالهم ، وقبحهم في تبديل الحياة الأبدية الشريفة، بالحياة الزائلة الخسيسة، بتركهم أحكام الله تعالىٰ ، واستهزائهم بآياته وفسقهم ، ومثل هذا التبديل ممّا حكم العقل بقبحه ، وأجمعت الشرائع الإلٰهيّة على التنديد به ، قال تعالىٰ في شأن الآخرة : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[١].

وقال جلّ شأنه في الدُّنيا : ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٢].

وقال تعالىٰ : ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٣].

وقد وردت أخبار كثيرة عن المعصومين عليهم السلام في ذمّ الدُّنيا وطالبها، والترغيب إلى الآخرة :

فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله في ما اشتهر عنه : «الدُّنيا ميتة وطالبها كلاب».

إلىٰ غير ذلك من الأخبار التي يصعب ضبطها .

إن قيل : إنّه كيف تكون الدُّنيا كذلك ، وأنّها مزرعة الآخرة ، ولولاها لم تتحقّق الجنان العالية ، ولا الوجوه الناضرة .

يُقال : إذا لوحظت الدنيا من حيث نفسها، فهي قبيحة مذمومة ، وإذا لوحظت من حيث وقوعها في طريق الآخرة، بما ارتضاه الله تعالىٰ، فهي ممدوحة، بل هي من بعض مظاهر الآخرة، ظهرت في العالم لمصالح كثيرة ، علىٰ ما يأتي تفصيله إن شاء الله تعالىٰ .

يقول تعالىٰ : ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ :

---

١ . سورة العنكبوت : الآية ٦٤.

٢ . سورة الحديد : الآية ٢٠.

٣ . سورة التوبة : الآية ٣٨.

الخفيف معروف، وهو من المعاني الإضافية، فربما يكون شيء واحد خفيفاً من جهة وثقيلاً من جهة أُخرىٰ، قال نبيّنا الأعظم ﷺ:

«قول لا إله إلّا الله خفيف على اللسان ثقيل في الميزان».

وهو في المقام بمعنى التسهيل، كقوله ﷺ:

«مَن استخفَّ بصلاته فلا يرد عليَّ الحوض» أي تساهل فيها.

ويستعمل في القرآن غالباً مقروناً بالخلود، قال تعالىٰ:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾[1].

ويمكن أن يستفاد الخلود في المقام، من قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾**، لأنّهم بأعمالهم قد سدّوا على أنفسهم أبواب رحمته تعالىٰ، فلا ينصرهم ناصر، فيكون عدم النصر مساوقاً للخلود في النار، وتقتضيه مناسبة الحكم والموضوع أيضاً.

وذكر كلمة الفاء، في قوله تعالىٰ **﴿فَلَا يُخَفَّفُ﴾**، قرينة علىٰ أنّ مدخولها مترتّب علىٰ أفعالهم، من باب ترتّب المعلول علىٰ علّته، كما في قول القائل: (تحرّكت اليد فتحرّك المفتاح).

بحث دلالي:

هذه الآيات المباركة، وغيرها من الآيات الواردة في القرآن الكريم، في قصص بني إسرائيل وأحوالهم، كلّها تشير إلىٰ وحدتهم وترابطهم، حتّىٰ كأنّ الكلام عن الأبناء والآباء واحد فيهم، وأنّ اللاحق نفس السابق في العمل، فاعتبر القرآن أنّ جزاء الجميع واحد، وإن كان العمل صادراً عن بعضهم، وليس ذلك إلّا لأجل وجود الترابط الوثيق بين أفراد اليهود، فلهم وحدتهم في الدِّين والنسب

---

١. سورة آل عمران: الآية ٨٨.

والاجتماع وغيرها، حتّى ليُعدّ الفرد اليهودي عنواناً مشيراً إلى أُمّته، وله من الأخلاق والعادات ما لغيره من اليهود، فقد اتّفقت طباعهم، واتّحدت نفوسهم، وقلّما تكون هذه الظاهرة الاجتماعية في الأُمم والجماعات. فكان خطاب القرآن مع اليهود في عصر التنزيل، كالخطاب مع اليهود في غير عصرهم.

ولعلّ السرّ في إصرار القرآن على استعمال هذا الأُسلوب من الخطاب، هو اعتبار هذه الأُمّة من أحوال الماضين، فإنّ الله تعالى لم يذكر لنا أحوالهم إلّا للاعتبار بها، أو لأجل بيان أنّ سنّة الله تعالى في الاجتماع الإنساني، أن تكون متكافلة متعاونة، يسعى كلّ فرد في إسعاد أُمّته، و يعتبر سعادته بسعادتها، وفي ذلك آيات وروايات كثيرة يأتي التعرّض لها في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

بحث روائي:

وفي «الكافي» عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾:

قال: «أن تحسن صحبتهما، وأن لا تكلّفهما أن يسألاك شيئاً ممّا يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنيين».

وفي «الكافي» أيضاً، عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً**﴾:

«قولوا للناس حسناً، ولاتقولوا إلّا خيراً حتّى تعلموا ما هو».

وعن العياشي، عن أبي جعفر عليه السلام:

«قولوا للناس أحسن ما تحبّون أن يُقال لكم، فإنّ الله يبغض اللّعان السبّاب الطعّان على المؤمنين المتفحّش، السائل المُلحِف، ويحبّ الحليم الحيي

العفيف المتعفّف».

ومثله ما رواه في «الكافي» و«المعاني».

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾:

«نزلت هذه الآية في أهل الذمّة، ثمّ نسخها قوله عزّوجلّ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية».

وعن العياشي، عن الصادق عليه السلام أيضاً:

«إنّ الله بعثَ محمّداً صلى الله عليه وآله بخمسة أسياف: فسيف علىٰ أهل الذمّة، قال تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، نزلت في أهل الذمّة، ثمّ نسخها أُخرىٰ قوله تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ الآية».

أقول: المراد من النسخ في المقام، ليس المعنى المصطلح فيه، كما يأتي في قوله تعالىٰ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾[1]، بل المراد التقييد والتخصيص، كما يقيّد بقوله تعالىٰ:

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[2].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[3].

وفي «تفسير العسكري»، في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾:

«أقيموا الصلاة بتمام ركوعها وسجودها، ومواقيتها، وأداء حقوقها. وآتوا الزكاة من المال، والجاه، وقوّة البدن».

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠٦.

٢. سورة البقرة: الآية ١٩٤.

٣. سورة الشورىٰ: الآية ٤٠.

أقول : تقدّم ما يدلّ علىٰ ذلك في أوّل سورة البقرة .

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام في وجوه الكفر في القرآن، قال :

«الرابع من الكفر : ترك أمر الله ، وهو قول الله عزّوجلّ : **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾** ـ الى قوله تعالىٰ ـ **﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾** فكفّرهم بترك ما أمر الله ، ونسبهم إلى الإيمان، ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده ، فقال عزّوجلّ : **﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾** الآية» .

أقول : ترك ما أمر الله تعالى له مراتب :

مجرّد الترك مع الاعتقاد به واقعاً.

والترك مع عدم الاعتقاد .

والترك مع الاستهزاء .

والأخيران يوجبان الكفر، والأوّل موجب للفسق ، كما فصّلنا ذلك في الفقه . فراجع كتابنا «مهذّب الأحكام في بيان الحلال والحرام».

***

الآية ٨٧ ـ ٩١

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ
وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً
كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى
الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا
اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا
أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾.

من أهمّ العهود والمواثيق الإنسانيّة مع الله تبارك وتعالى، إرشاده إلى المعارف الإلٰهيّة التي فيها الكمال الانساني، ولم يتمكّن البشر أن يبلغ ذلك إلّا بمرشدين من قبله تعالىٰ، وهم الرسل والأنبياء بما أنزل عليهم من الكتب والأحكام. وقد جرت سنّته تبارك وتعالى أن يرسل الرسل بعضهم إثر بعض، لئلا ينسى الإنسان ما عهد إليه ربّه، ولا يكون في حيرة وضلالة.

وممّا أنعم تعالىٰ علىٰ بني إسرائيل، أن أرسل إليهم عدداً من الرسل، لينبئوهم بما عهد إليهم ربّهم، ويجدّدوا المواثيق عليهم، فلم يكن منهم إلّا الإصرار على الكفر والعصيان، ذلك لأنّهم اتّبعوا الشهوات، فقست قلوبهم، فاستحقّوا اللّعن والعذاب الأليم بما كانوا يفعلون.

***

التفسير

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ :

المراد من الكتاب هو التوراة، الكتاب المقدّس، أوّل الكتب السماوية .

والتقفية : هي الإرداف والمتابعة، كلفظ تترى ، قال تعالىٰ : ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى﴾[1]، أي متتابعاً .

والمعنى : لقد أرسلنا موسى وأعطيناه التوراة ، ثم أتبعنا بعد موته رسلاً علىٰ شريعته ، يجدّدون العهد يأمرون وينهون .

وعن جمع : إنّ عدد الرسل بين موسىٰ وعيسىٰ أربعة آلاف .

وعن آخرين : إنّهم سبعين ألفاً ، منهم من ذُكرت أسماؤهم في القرآن، مثل: داود وسليمان ، ويونس ، وإلياس ، واليسع ، وذي الكفل ، ويحيى ، وزكريا عليهم‌السلام .

ومنهم من لم تُذكر أسماؤهم ، منهم: يوشع، صاحب دعاء السمات المعروف عندنا .

وقال أبو عبدالله عليه‌السلام : «إذا دعوتم الله بالأنبياء المستعلنين، فادعوا بالأنبياء المستخفين» .

قوله تعالىٰ : ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ :

البيّنات : الحجج القيّمة ، والبراهين الواضحة ، فتشمل الإنجيل، وجميع معجزات عيسى عليه‌السلام ، وهي التي ذكرها الله تعالى في سورتي آل عمران والمائدة .

وعيسىٰ بالسريانية أيشوع ـ بتقديم الهمزة ثمّ الياء والشين المعجمة ـ ومعناه السيّد أو المبارك ، وهو من الأنبياء أُولي العزم ، وصاحب الكتاب المقدّس ، وشريعته ناسخة لكثير من شريعة موسى عليه‌السلام ، مصدّق للتوراة ، ومبشّر

---

١ . سورة المؤمنون : الآية ٤٤.

برسالة أحمدﷺ، قال تعالىٰ:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾[١].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾**[٢].

ولهذا خصّه الله تعالىٰ بالذكر في المقام بعد موسىعليه السلام.

قوله تعالىٰ: **﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾**:

التأييد: التقوية والإعانة.

والقُدُس ـ بضم الدال أو سكونه ـ الطهارة والتطهير عن كلّ ما يوجب النقص، ويأتي بمعنى الكمال الأتمّ، وبهذا المعنى يكون من أسمائه الحسنى. فيُقال: (يا قدو)».

وروح القدس: هو جبرائيل الذي ينزل على الأنبياءعليهم السلام، ومنه يستمدّون العلوم النازلة من الله تعالىٰ على البشر، فتطهر النفوس المستعدّة عن أدناس الرذائل، وتبلغ إلى ما أُعدّت لهم من درجات الفضائل.

وتأييد عيسىعليه السلام بروح القدس، كان من أوّل حمل أُمّه به إلى أن رُفع إلى السماء، كما يأتي بعد ذلك.

هذا، ولكن يظهر من جملة من الأخبار أنّ روح القدس غير جبرائيل، وهو مع الأنبياء والأوصياءعليهم السلام يستمدّون منه. وأمّا بالنسبة إلى نبيّنا الأعظمﷺ الذي هو بدء سلسلة النزول، وختم سلسله الصعود، فمقتضى المستفيضة عنهﷺ:

«أوّل ما خلق الله روحي [أو نوري]».

---

١. سورة المائدة: الآية ٢٦.

٢. سورة الصف: الآية ٦.

أن يكون جبرئيل يخدمه لا أن يكون مؤيّداً بجبرئيل.

وفي المقام تفصيلٌ، نتعرّض له في الموضع المناسب، إن شاء الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾:

الهوى: الميل إلى الشيء، سُمّي في بذلك لأنّه يهوي بصاحبه إلى النار، إذ يستعمل غالباً في الشرّ وفيما ليس بحقّ.

والمعنى: أنّكم تتّبعون أهواءكم، حتّىٰ في اتّباع رسل الله، فمن كان منهم موافقاً لهواكم تتبعونه، وتخالفون مَن لا يكون كذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾:

أي: أنّكم كذّبتم فريقاً من الرُّسل، كعيسى عليه السلام ومحمّد صلى الله عليه وآله، وتقتلون فريقاً آخر منهم كيحيىٰ وزكريا عليهما السلام وغيرهما.

ومن إيراد الفعل بالمضارع، يستفاد استمرارهم علىٰ هذا الفعل الشنيع، فصار العناد والجحود سجيّةً لهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾:

الغلف بسكون اللّام، جمع (الأغلف)، وبضمّه جمع (غلاف) كحُمر وحمار، بمعنى الغطاء. ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلّا في موردين:

أحدهما: هنا.

والآخر: في قوله تعالىٰ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا﴾[1].

وكلاهما ورد في شأن اليهود، وفي مقام ذمّهم والطعن فيهم، والمراد به على التقديرين:

---

١. سورة النساء: الآية ١٥٥.

أنّهم قالوا قلوبنا مملوءة من علم التوراة، فلا نحتاج إلى شريعة جديدة.

أو أنّ قلوبنا في حجاب وغلاف لا نفهم ما جاء به الرسول ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾[1]، استخفافاً بما أنزله الله تعالى وغروراً بما عندهم.

والمعنيان متلازمان كما لا يخفىٰ.

وهذا القول ـ كسائر أقوالهم وأفعالهم القبيحة ـ من مظاهر استكبارهم. ولا يختصّ ذلك باليهود، بل يصدر من كلّ مَن يزعم كمالاً لنفسه ـ وهو فاقد له ـ فيغترّ بما عنده، وقد ردَّ الله عليهم، وأبطل مزاعمهم.

قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾:

اللعن: الطرد.

والمعنى: أنّ سبب نفورهم عن الإيمان، ليس ما قالوا، بل هو كفرهم وعنادهم، كما جبلت عليه نفوسهم، ممّا أوجب طردهم وبُعدهم عن كلّ خير، ومنه الإسلام.

قوله تعالىٰ: ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾:

قليلاً صفة للمصدر، أي إيماناً قليلاً، والتنوين فيه للتنكير، و(ما) نكرة تفيد تأكيد الإبهام أو زيادته، أي يؤمنون إيماناً قليلاً، يكون بحكم العدم من حيث الكمّيّة والكيفيّة.

ويستفاد منه أنّه لمّا كان سبب لعنهم وطردهم عن رحمته تعالىٰ، هو كفرهم ولجاجهم وعنادهم، المنطبعة عليه نفوسهم، فهم قوم قد كتب عليهم الشقاء، فلا يرجى منهم خير، ولا يؤمل منهم إيمان، إلّا إذا أدركته بركة التوفيق منه عزّوجلّ،

١. سورة فصّلت: الآية ٥.

فيفيء إلى فطرته فيؤمن، وإن كان ذلك قليلاً جدّاً.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾:

بيّن سبحانه وتعالىٰ ذميمة أُخرىٰ من ذمائم أخلاق بني إسرائيل، وهي من مظاهر استكبارهم وبغيهم، أي لمّا جاءهم القرآن بما فيه من الدلائل، على أنّه من عند الله تعالىٰ، مصدّق لما معهم من التوراة المشتملة على التوحيد والمعارف الإلٰهيّة المبشّرة بالقرآن ورسالة محمّد ﷺ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾:

الاستفتاح الاستنصار، ومنه الحديث:

«كان النبيّ ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين»، أي: يستنصر بهم.

كما ورد في حديث آخر، عن النبيّ ﷺ أنّه قال:

«إنّما نصر الله هذه الأُمّة بضعفائها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم».

والمعنىٰ: يستنصرون بمحمّد ﷺ وشريعته على المشركين، ويأملون لأن يستظهروا به علىٰ مَن سواهم من المشركين.

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾:

أي فلمّا جاءهم ما كانوا قد عرفوه من أمر النبيّ ﷺ ورسالته وقرآنه، جحدوا به، حسداً منهم واستكباراً، فكان جزاؤهم أن كتب الله عليهم اللعن والطرد من رحمته.

وكفرهم هذا من كفر الجحود ـ ككفر إبليس ـ الذي هو من أشدّ أنواع الكفر.

ولا يختصّ حكم هذه الآية المباركة باليهود، بل يشمل كلّ مَن أنعم الله

عليه ثمّ أنكرها، ولو بعدم أداء شكرها، ويأتي في قوله تعالىٰ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾[١]، ما ينفع المقام.

وفي تكرار قوله تعالىٰ: ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، تأكيدٌ للذنب وتهويلٌ له.

قوله تعالىٰ: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ﴾:

بئس كلمة تُستعمل في جميع أنحاء الذمّ، كما أنّ (نِعمَ) كلمة تُستعمل في جميع أنحاء المدح. و(ما) نكرة مبهمة، بمعنى مطلق الشيء. أي بئس شيء اشتروا.

ويجوز أن تكون موصولة، أي بئس الذي اشتروا به.

والشراء والاشتراء بمعنى واحد، ويستعمل كلّ منهما في البيع والشراء، ويأتي بمعنى مطلق المبادلة، أي بئس ما فعلوه من تبديل النفس التي من حقّها أن تقابل بالإيمان والمعارف الإلٰهيّة، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، لتكون لها السعادة في الدارين، كما قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

ولكنّهم بدّلوها باختيارهم بأخسّ الأمور، وذمائم الأخلاق، والكفر بما أنزل الله تعالى حسداً منهم واستكباراً، فجلبوا لأنفسهم شقاوة الدارين، وهذا حال مَن أعرض عن الله تعالىٰ. وفي الآية المباركة تسفيه لأحلامهم، وتوبيخ لهم.

قوله تعالىٰ: ﴿بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾:

البغي هنا هو الفساد. ويتضمّن معنى التجاوز عن الحدّ والطلب، ويختلف باختلاف المتعلّق. ويستعمل في الخير والشرّ. وفي مورد الإطلاق ينصرف إلى

---

١. سورة النحل: الآية ٨٣.

الشرّ، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[١].

وقال جلّ شأنه: ﴿وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

ومن مفهومه يستفاد البغي بالحقّ، وفي الحديث: «إنّ الله يحبّ بغاة العلم»، أي طلّاب العلم وروّاده.

وفي الحديث أيضاً: «ابغوني الضعيف، فإنّكم إنّما تُرزقون وتُنصرون بضعفائكم».

وجملة: (أن يُنزل الله من فضله)، في موضع نصب بيان للبغي، أي أنّ سبب كفرهم إنّما هو البغي الذي جُبلت عليه نفوسهم، وكانت له أسباب متعدّدة، منها كراهة أن ينزل الله تعالىٰ من فضله علىٰ مَن يشاء من عباده، وقد حملهم الحسد علىٰ أن يحتفظوا لأنفسهم الحركة الدينية، والقول بأنّهم شعب الله المختار بأن لا يعترفوا بنبيّ في غير ملّتهم، وحسدهم هذا وكفرهم، نظير كفر إبليس بالله تعالىٰ، وحسده علىٰ آدم عليه السلام، فهو الذي شيّد أساس الكفر والجحود، وتبعه اليهود، فالحقيقة واحدة، والمظاهر مختلفة.

قوله تعالىٰ: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾:

تقدّم ما يتعلّق به. والمراد أنّهم رجعوا إلى غضب علىٰ غضب، بتكرار المعاصي منهم، وأنّ كلّ سوء اعتقادي يصدر من الإنسان، ثمّ يصدر منه سوء آخر كذلك، فهو من الغضب على الغضب، فلا وجه لجعل الغضب الأوّل هو الذي استوجبوه بالكفر بالنبيّ صلى الله عليه وآله، والغضب الثاني هو الذي لحقهم من عبادة العجل، أو

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٨.

٢. سورة الشورىٰ: الآية ٤٢.

غضب الله عليهم من أجل الكفر مع المعرفة، وغضبه الآخر من أجل حسدهم وعنادهم للرسول ﷺ، أو غير ذلك من الوجوه التي ذكرها المفسّرون، بل يشمل جميع المخالفات الإلٰهيّة المتكرّرة التي توجب الغضب المستمرّ عليهم، ولذلك مصاديق مختلفة، فإنّ كلّ مَن يختار ديناً باطلاً ثمّ يتركه، ويدخل في دين باطل آخر، أو مَن يرتكب محرّماً تكليفيّاً ثمّ يعقبه بمحرم تكليفي آخر يختلف مع الأوّل في النوع، أو يرتكب محرماً تكليفيّاً آخر متّفق مع الأوّل في النوع من الكبائر، أو كان من الصغائر، من دون أن يتخلّل بين ارتكاب المحرمات تكفير وتوبة، فجميع هذه الصور تكون داخلة في هذه الآية المباركة، وإنّ الفاعل يستوجب غضباً علىٰ غضب حسب مراتب الذنب، كبيرة أو صغيرة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**﴾:

الهوان بمعنى الذلّة، وهو:

إمّا ممدوح عند الخالق والمخلوق، وذلك في ما إذا طرح الإنسان عن نفسه جميع أنحاء الإنانية والتكبّر، كما قال تعالىٰ: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً**﴾[1]، وهو من الخُلُق الكريم، والروايات في مدحه متواترة، ويكفي في حسنه سيرة النبيّ ﷺ وخلفائه المعصومين عليهم السلام، وقد روى الفريقان عنه ﷺ: «المؤمن هيّن ليّن».

وإمّا مذموم، وهو: ما إذا حصل عن استخفاف الغير للإنسان، واستذلاله له في غير ما أذن فيه الشرع، ولا ريب في أنّه مرجوح بل حرام، وأمّا إذا كان بإذن منه ففيه تفصيلات مذكورة في الفقه.

والمراد به في المقام ذلك الذلّ والإهانة الحاصلان للإنسان من ارتكابه

١. سورة الفرقان: الآية ٦٣.

المعاصي والمحرمات الإلٰهيّة ، والكفر الموجب لخلوده في النار .

وفي جعل الظاهر موضع المضمر ـ فلم يقل : (ولهم عذاب مهين) ـ إشارة إلى بيان التعليل في خلودهم في النار ، وهو الكفر .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا**﴾ :

ذكر سبحانه وتعالى مظهراً آخر من مظاهر استكبارهم وغرورهم ، وقد سبق أن قالوا : ﴿**قُلُوبُنَا غُلْفٌ**﴾، لم نفهم الإيمان ، ولانعقل ما يدعوإليه الرسول ﷺ ، وهنا ذكر تعالى اعتذاراً آخر منهم والردّ عليهم ، أي إذا قيل لليهود آمنوا بالقرآن الذي أنزله الله علىٰ رسوله الكريم ﷺ، قالوا بغيّاً واستكباراً نؤمن بالذي أنزل علينا من التوراة ، ولا نؤمن بغيرها . وفي قوله تعالىٰ : ﴿**آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللهُ**﴾ إشارة إلى أنّ المناط هو الإيمان بالذي أنزله الله تعالىٰ ، سواء كان علىٰ موسىعليه السلام، أو علىٰ محمّد ﷺ ، فإنّ الأنبياء إنّما هم مبلّغون عن الله تعالىٰ .

وفيه ردّ لمزاعم اليهود وغيرهم من أنّ الإيمان لابدّ وأن يكون بالذي أنزل علىٰ نبيّ معيّن ، كما أنّ فيه إيماء إلى أن الإيمان بجميع الرسل والأنبياء أخذ بنحو الوحدة ، فمن لم يؤمن بواحد منهم، فكأنّه لم يؤمن بالجميع ، ويدلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ :

﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[1] .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا مَعَهُمْ**﴾ :

مادّة (و ر ي) تأتي بمعنى الستر في الجملة، سواء دلّت عليه بالمطابقة،

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٣٦ .

كقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾[٢].

أو بالالتزام، كما في المقام.

ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، منها الخَلف والأمام وغيرهما. والجامع القريب بين تلك الاستعمالات ما ذكرناه.

فما عن بعض اللّغويين: من أنّها من الأضداد تستعمل في الخلف والأمام. خلط بين المفهوم والمصاديق، وكم لهم من هذا النحو من الأخلاط في اللغة كما لا يخفى.

والمعنىٰ: إنّهم يكفرون بما عدا ما أنزل عليهم من القرآن، وهو الحقّ الذي لاريب فيه جاء مصدقاً لما معهم. وفيه من الإشارة إلى سفاهتهم وخبطهم في دعواهم ما لايخفى، فإنّهم لو كانوا مؤمنين بما أنزل عليهم لاستلزم الإيمان بالقرآن، لأنّ التوراة تشتمل على البشارة بالنبيّ ﷺ وما أنزل عليه، وأنّ القرآن مصدق للتوراة في كثير من الأحكام، وأنّهم إذا كانوا مؤمنين كذلك، فلماذا يقتلون أنبياء الله تعالى؟! مع أنّ التوراة تُعظِّم شأنهم، وتنهىٰ عن مطلق القتل، فضلاً عن قتل الأنبياء، فإيمانهم بما أُنزل عليهم، والكفر بما سواه، إن هو إلّا تناقض في القول والاعتقاد، واتّباع للشهوات.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

إلزام لهم بالحجّة، أي إنّكم تتّبعون الشهوات والأهواء، لأنّه إذا كنتم صادقين في إيمانكم بما أنزل على الأنبياء، فلماذا تقتلونهم، فإنّهم لم يدعوكم إلّا

---

١. سورة ص: الآية ٣٢.

٢. سورة الأعراف: الآية ٢٦.

إلى الإيمان والعمل الصالح، ونهوكم عن القتل مطلقاً.

وفي إسناد القتل إلى اليهود في عصر التنزيل، مع أنّه وقع من أسلافهم ما تقدّم كراراً من أنّهم أُمّة واحدة، وأنّهم في الطباع والعادات والأخلاق كنفس واحدة، فاقتضى صحّة خطاب الأبناء بما فعل الآباء.

بحث روائي:

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام، في قوله الله تعالىٰ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾**:

قال: «كان قوم في ما بين محمّد صلى الله عليه وآله وعيسىٰ عليه السلام، وكانوا يتوعّدون أهل الأصنام، بالنبي صلى الله عليه وآله، ويقولون: ليخرجن نبيٌّ وليكسّرنَّ أصنامكم، ليفعلنَّ بكم ما يفعلنَّ، فلمّا خرج رسول الله كفروا به».

أقول: يمكن أن يجمع بين هذه الرواية والروايات الآتية الظاهرة في اليهود، إمّا بتقييد هذه الرواية بها، أو أنّهم قوم آخرون غير اليهود.

وعن القمّي: «كانت اليهود يقولون للعرب قبل مجيء النبيّ صلى الله عليه وآله: أيُّها العرب هذا أوان نبيّ يخرج من مكّة، وكانت مهاجرته بالمدينة، وهو آخر الأنبياء وأفضلهم، في عينيه حُمرة، وبين كتفيه خاتم النبوّة، يلبس الشملة، ويجتزي بالكِسرة والتميرات، ويركب الحمار العَريّ، وهو الضحوك القتّال، يضع سيفه علىٰ عاتقه، لا يبالي مَن لاقىٰ، يبلغ سلطانه منقطع الخُفّ والحافر، لنقتلنّكم به يامعشر العرب قتل عاد. فلمّا بعث الله نبيّه بهذه الصِّفة، حسدوه وكفروا به، كما قال الله تعالىٰ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾** الآية».

أقول: يمكن أن اليهود قد استظهروا صفاته صلى الله عليه وآله وحالاته من التوراة.

وفي «تفسير العياشي» عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: **﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ**

كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ...﴾ الآية:

قال عليه السلام: «كانت اليهود تجد في كتبهم أنّ مهاجر محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله ما بين عير وأُحد، فخرجوا يطلبون الموضع، فمرّوا بجبل يُقال له: حَداد، فقالوا: حَداد وأُحد سواء، فتفرّقوا عنده فنزل بعضهم بتيماء، وبعضهم بفدك، وبعضهم بخيبر. فاشتاق الذين بتيما إلى بعض إخوانهم، فمرَّ بهم أعرابي من قيس فتكاروا منه، وقال لهم: أمرُّ بكم ما بين عير وأُحد، فقالوا له: إذا مررت بهما فآذناً لهما، فلمّا توسّط بهم أرض المدينة، قال: ذلك عير وهذا أُحد، فنزلوا عن ظهر إبله، وقالوا له: قد أصبنا بغيتنا فلا حاجة بنا إلى إبلك، فاذهب حيث شئت.

وكتبوا إلى إخوانهم الذين بفدك وخيبر: إنّا قد أصبنا الموضع فهلمّوا إلينا.

فكتبوا إليهم: إنّا قد استقرت بنا الدار، واتّخذنا بها الأموال، وما أقربنا منكم، فإذا كان ذلك أسرعنا إليكم، واتّخذوا بأرض المدينة أموالاً، فلمّا كثرت أموالهم بلغ تُبّع فغزاهم، فتحصّنوا منه، فحاصرهم ثمّ آمنهم، فنزلوا عليه، فقال لهم: إنّي قد استطبتُ بلادكم، ولا أراني إلّا مقيماً فيكم؟

فقالوا: ليس ذلك لك، إنّها مهاجر نبيّ، وليس ذلك لأحد حتّىٰ يكون ذلك.

فقال لهم: فإنّي مخلّف فيكم من أُسرتي مَن إذا كان ذلك ساعده. فخلف حيين تراهم: الأوس والخزرج، فلمّا كثروا بها كانوا يتناولون أموال اليهود، فكانت اليهود تقول لهم: أمّا لو بعث محمّد صلى الله عليه وآله لنخرجنّكم من ديارنا وأموالنا، فلمّا بعث الله محمّداً آمنت به الأنصار، وكفرت به اليهود، وهو قوله تعالىٰ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**».

وقريب منه ما في «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس.

أقول: (عِير وأُحد): جبلان بالمدينة، كما ورد في أخبار التقصير في

الصلاة أيضاً، وفي الحديث عنه ﷺ: «حرمٌ ما بين عِيْر وأُحُد».

ونقل الواحدي، عن ابن عبّاس:

«كان يهود خيبر تقاتل غطفان، فكلّما التقوا هزمت يهود خيبر، فعادت اليهود بهذا الدُّعاء، وقالت: اللّهمَّ إنّا نسألك بحقّ النبيّ الأُمّي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان، إلّا نصرتنا عليهم.

قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدُّعاء، فهزموا غطفان.

فلمّا بُعث النبيّ ﷺ كفروا به، فأنزل الله تعالىٰ: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**، أي بك يا محمّد ـ إلىٰ قوله تعالىٰ ـ: **﴿فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**».

وفي «الدرّ المنثور» عن ابن عبّاس، أنّه قال:

«كانت يهود بني قريظة والنضير من قبل أن يُبعث محمّد ﷺ، يستفتحون الله يدعون الله على الذين كفروا، ويقولون: اللّهمَّ إنّا نستنصرك بحق النبيّ إلّا نصرتنا عليهم فيُنصرون، فلمّا جاءهم ما عرفوا ـ يريد محمّداً ﷺ ـ ولم يشكّوا فيه كفروا به».

وقريب من ذلك روايات أُخرىٰ.

أقول: عن بعض المفسّرين الإشكال في هذه الروايات الأخيرة، أوّلاً: بقصور السند: وثانيّاً: بوهن الدلالة، لأنّه لا وجه لاقسام الله تعالىٰ، مع أنّه لا حقّ في البين حتّىٰ يقسم به، لأنّ الكلّ مخلوقه ومملوكه تعالىٰ.

ولكنّه غير صحيح، أمّا الأخبار: فلأنّها مستفيضة بين الفريقين، بل متواترة معنىٰ، كما لا يخفى على الفاحص المتتبّع، فلا موضوع لتضعيف السند.

وأمّا إقسام الله تعالى: فإقسام العظيم بما هو شريف ومحترم لديه تعالىٰ، والقَسَم بالعزيز من العرف المحاوري بين جميع أفراد الإنسان، وعليه جرت

محاورة الكتاب والسنّة، قال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2].

وفي الحديث إنّ الله تعالى قال: «وعِزّتي وجلالي لأقطعن أمل كلّ مؤمل أمّل غيري».

وأمّا أنّه لا حق في البين حتّىٰ يقسم الله تعالىٰ به، فلا وجه له، لأنّ الحقّ هو الثابت الواقع المتحقّق، فالله عزّوجلّ هو الحقّ المحض، وجميع ما سواه حقّ له، لأنّه مالك كلّ شيء وخالقه، وإليه مرجع الجميع، وأي معنى للحقّية يتصوّر أشدّ وأعلىٰ من ذلك؟!، وهو تعالىٰ جعل لبعض عباده حقّاً على نفسه الأقدس تشريفاً وتعظيماً لهم، قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وفي الحديث: «حقّ على الله تعالى أن لايُعصى في مكان إلّا وأظهرها للشمس ليُطّهرها».

والأحاديث في موضوع جعل الله تعالى حقّاً لخلقه علىٰ نفسه، خصوصاً عباده المخلصين، كثيرة جدّاً، وخاتم النبيّين من أفضلهم، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام.

العياشي، عن الصادق عليه السلام، في قوله الله تعالىٰ: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

قال: «وإنّما نزل هذا في قوم من اليهود، وكانوا علىٰ عهد محمّد صلى الله عليه وآله لم يقتلوا أنبياء الله بأيديهم، ولا كانوا في زمانهم، وإنّما قتل أولياؤهم الذين كانوا من

---

١. سورة الحجر: الآية ٧٢.

٢. سورة ص: الآية ٨٢.

٣. سورة الروم: الآية ٤٧.

قبلهم، فنزّلوا بهم أُولئك القتلة فجعلهم الله منهم، وأضاف إليهم فعل أوائلهم بما تبعوهم وتولّوهم».

أقول: تقدّم وجه ذلك في البحوث السابقة، فلا وجه للتكرار.

***

الآية ٩٢ـ٩٦

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

تبيّن هذه الآيات المباركة، أخذ الميثاق والتشديد فيه، ثمّ كفرهم وارتدادهم، وردٌّ لأمانيّهم الباطلة من أنّهم أبناء الله تعالى وأنّ الدار الآخرة لهم دون غيرهم، والذمّ بأنّهم أحرص النّاس على الحياة الدُّنيا.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾:

البيّنات: جمع بيّنة، الدليل الواضح. والمراد بها الدلائل الواضحة، والبراهين الظاهرة، عقلية أو حسّيّة، أو هما معاً.

وبيّنات موسى عليه السلام هي التوراة، وما ذكره تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ

آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾[١]، وهي العصا، والسنون، واليد، والحَجَر، والدم، والطوفان، والقمّل، والضّفادع، وفلق البحر، وسيأتي التفصيل في سورة الإسراء. وهي آيات باهرات، تدلّ علىٰ وحدانيّته تعالىٰ، فلا مجال للشكّ والريب بعد مجيئها.

قوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾:

أي أنّكم بعد أن وضح لكم الحقّ وظهر صدق موسى عليه السلام في ما يدّعيه من توحيد الله تعالىٰ، وأنّه هو المعبود المطلق، عدلتم إلىٰ عبادة العِجْل، واتّخذتموه إلهاً لكم، وأنتم ظالمون، وأي ظلم أعظم من الشرك بالله تعالىٰ، والارتداد عن دينه، وفيه من التوبيخ والتقريع العظيم لهم.

ويستفاد من هذه الآية المباركة، أنّ الظلم الواقع منهم، إنّما كان بعد الإمهال لهم بالنظر في تلك الآيات البيّنات، وإتمام الحجّة، وحينئذٍ يكون ظلمهم أعظم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾:

تقدّم شرح مثله في الآية المباركة ٦٣ من هذه السورة، إلّا أنّ في الآية السابقة ذكر سبحانه وتعالىٰ: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، وهنا أمرهم بالفهم، والمعنيان متقاربان، فإنّ المراد من الذكر هو المذاكرة والحفظ، كما أنّ المراد من السمع هو الفهم والعمل بالمسموع، لا خصوص الدرك الظاهري، من دون ترتيب الأثر عليه، قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[٢].

فإنّ السماع الحقيقي الذي يترتّب عليهما نظام الإفادة والاستفادة، والتعليم والتعلّم، بل جميع الكمالات، إنّما هو العمل بالمدرَك إن كان حقّاً، لا

---

١. سورة الإسراء: الآية ١٠١.

٢. سورة الأنفال: الآية ٢١.

نفس الإدراك من حيث هو، إذ ليس فيه كمال حتّى يذكر، وهذا هو المراد بقوله تعالىٰ:

﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[٢].

وغير ذلك من الآيات المباركة الكثيرة.

ولعلّ ذكر السمع هنا لصحّة إردافه بقوله تعالىٰ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، وإلّا فالسمع والذكر في الحقيقة واحد كما عرفت.

قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾:

التفات من الحاضر إلى الغيبة، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾[٣]، إلّا أنّ المقام يدلّ علىٰ سرعة النقض، أي أنّهم قبلوا الميثاق، ولكنّهم خالفوه ولم يعملوا به. والظاهر أنّ ذلك كناية عن بيان حالهم وسرعة عصيانهم.

وقيل: إنّه من ظاهر مقالهم.

وعلىٰ أي تقدير، ففيه توبيخ، وردٌّ لمزاعمهم حيث قالوا: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾[٤]، وهذا أيضاً من فضائحهم، إذ كيف يقبلون أمراً يعلمون أنّ فيه سعادتهم، ثمّ يبادرون إلي إنكاره وعصيانه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾:

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

٢. سورة الزمر: الآية ١٨.

٣. سورة البقرة: الآية ٧٥.

٤. سورة البقرة: الآية ٩١.

الإشراب المخالطة والامتزاج، وهو كناية عن انهماكهم في حبّ العجل، حتّى كأنّه خالط قلوبهم كما يخالط الصبغُ الثوبَ، أو كما يدخل المشروب في بدن الإنسان، أي أنّهم بسبب كفرهم قد انهمكوا في حبّ العجل، وذلك لأنّ كثرة ملازمة الشيء ومحبّته، توجب صيرورة القلب والإرادة مظهراً من مظاهره، وقد اشتهر: «أنّ حبّ الشيء يُعمي ويُصمّ».

وفي الحديث: «يُحشر النّاس علىٰ نيّاتهم يوم القيامة».

وفيه أيضاً: «مَن أحبَّ شيئاً حشره الله معه».

إشراب القلوب لما هو المحبوب وجداني، لكلّ ذي قلب، خولط قلبه بغير ذكر الله تعالىٰ.

ويرجع حبّ بني إسرائيل للعجل، إلىٰ ما كانوا عليه من الوثنية في مصر، فإنّه كان لهذا الحيوان منزلة عظيمة عند المصريّين، وسيأتي في سورة الأعراف تفصيل القصّة.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾:

توبيخ وتقريع عظيم لهم، أي بئس الإيمان إيمانكم الذي يأمركم بعبادة الأوثان، ونقض العهود، وقتل الأنبياء، فأعمالكم التي هي أثر الإيمان، تدل علىٰ نفي الإيمان الذي أمركم الله تعالىٰ، فإنّه يأمركم بتوحيده تعالىٰ ونبذ الأوثان، وطاعة الأنبياء، واحترام العهود. وقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، للتنزيل والمجاراة مع المخاطبين، وإلّا فلا إيمان لهم حقيقة.

وهذا الحكم لا يختصّ باليهود، بل يشمل كلّ اُمّة أمرهم الله تعالى بالايمان والعمل الصالح، فخالفوا الله تعالىٰ، واتّبعوا أهواءهم، فيُقال للمسلمين العاملين علىٰ غير طريقة القرآن، إنّكم آمنتم بالقرآن، فبئسما يأمركم به إيمانكم، أنكم

آمنتم بأهوائكم، فلستم بمؤمنين، إذ لابدّ أن يظهر أثر إيمانكم بالقرآن في أعمالكم.

قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾**:

إلزام لهم بالحجّة، فإنّهم ادّعوا دعاوى باطلة، كما حكاها الله تعالى في القرآن الكريم، كقولهم: **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً﴾**[١].

وقولهم: **﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾**[٢].

وأنّهم شعب الله المختار، وادّعاؤهم الإيمان بما أُنزل عليهم، فردّ الله تعالى عليهم وأكذبهم، فقال تعالىٰ: قل لهم إن كانت دعاويكم صادقة، وأنّ الدار الآخرة مع ما فيها من الثواب والنعيم مختصّة بكم، فتمنّوا الموت، لأنّه يوصلكم إلى ذلك النعيم، فإنَّ مَن علم أنّه من أهل النعيم، كان الموت أحبُّ إليه من الحياة في الدُّنيا التي لم تبرح عن الشقاء والأذىٰ، ولم يعقل من الإنسان أن يؤثر الشقاوة على السعادة، مع أنّهم يفرّون من الموت ويحبّون الحياة، وهذا من التناقض بين القول والفعل الذي لا ينبغي صدوره من العاقل. فإنّ معيار حبّ الآخرة حبّاً صادقاً حقيقيّاً، هو التحرّز عن جميع العلائق، والانقطاع الى ربّ الخلائق، كما قال ذلك علي عليه السلام في خطبه المباركة، لاسيما الخطبة المعروفة في وصف المتّقين، وقد نسب إليه عليه السلام أنّه قال:

«والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أُمّه».

وكذلك يكون الذين أماتوا شهواتهم في الدُّنيا الفانية، فأحبّوا الحياة الأبدية في الدار الآخرة.

---

١. سورة البقرة: الآية ٨٠.

٢. سورة المائدة: الآية ١٨.

قوله تعالىٰ : ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ :

أي إن كنتم صادقين في دعاويكم، وفيه إيماء إلى كذب دعواهم .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ :

كناية عن مطلق العمل السيّئ، سواء كان بالجوارح، أو الكفر والضـلال . وهذا الاستعمال شائع في المحاورات . أي إنّهم يعرفون مصيرهم بما قدّموه من سيّئآت الأعمال ، وما اجترحوه من موبقات الخطايا والضلال ، فلن يتمنّوا الموت أبداً . ويظهر من ذلك فساد حالهم، وبطلان مقالهم .

قوله تعالىٰ : ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ :

أي إنّ الله يعلم أنّهم ظالمون، لاتخفى عليه أعمالهم ونواياهم لو جـحدوا ذلك ، وفيه من التهديد والتوعيد ما لايخفىٰ .

ثمّ إنّ التمنّي علىٰ أقسام :

فتارةً : يكون وهميّاً خياليّاً لا حقيقة له بوجه من الوجوه .

وهذا ضربٌ من الكذب ، ومن علامات الحمقىٰ كما في الحديث .

وأُخرىٰ : يكون تمنيّاً حقيقيّاً مقروناً بتهيئة الأسباب، فـإمّا أن يـصل إلى الغاية ، أو لا يصل إليها؛ لخروجها عن تحت اختياره ، فإنّ الله تعالى علىٰ كلّ شيء محيط ، وفي الحديث : «العبد يدبّر والله يقدّر» .

وثالثة : ما يكون متعلّقاً بعالم الآخرة ونعيمها، مع تهيئة الأسباب، وتقديم الأعمال .

وهذا هو التمنّي المطلوب عقلاً وشرعاً ، وهو من مقاصد القـرآن، وسـائر الكتب الإلٰهيّة ، فإنّه من الإسراع في الوصـول إلى المشـتاق ، بـل هـو الغـرض الأفضل على الإطلاق ، والتخلّص من دار النوائب والمكاره، والوصـول إلى دار

السعادة والراحة.

ورابعة: التمنّي لدار الآخرة، مع عدم تهيئة النفس، وعدم تقديم الأعمال.

وهذا القسم مذموم عقلاً وشرعاً، بل باطل عند كلّ ذي شعور، له قوّة التمييز بين الصحيح والسقيم.

وتمنّي اليهود من هذا القسم، ولذا أنكره تعالى عليهم.

قوله تعالىٰ: **﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾**:

الحرص: شدّة طلب الشيء والإفراط فيه. بيَّن سبحانه وتعالى حقيقة حالهم، فإنّه بعد أن ذكر أنّهم لن يتمنّوا الموت أبداً، قال سبحانه: إنّهم يحبّون الحياة، ويؤثرون البقاء، ولهم في ذلك حرص شديد، ليس لهم في النّاس من نظير. وهذا واضح لمن انغمر في المادّيات، وسُلبت قواه، وغرّته الحياة الدُّنيا وزبرجها، فاتّخذ إلٰهه هواه، فلم يؤمن بما وراءها شيئاً، وهم الذين حكى الله تعالى عنهم في قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾**[1].

وتنكير الحياة للتحقير، أي يحبّون البقاء في الحياة، ولو كانت حياة بؤس وشقاء، أو كانت قليلة، لأنّه يعلم بأنّه يرد إلى أشدّ العذاب.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾**:

أي إنّهم أحرص النّاس على الحياة حتّى من المشركين الذين ينكرون المعاد والحياة بعد الموت، سواء كانوا من مشركي العرب أو غيرهم.

وإنّما خصّهم بالذكر، لأنّهم لايعرفون غير الحياة الدُّنيا، ولا علم لهم بالبعث والحساب، كما يحكي الله تعالى عن قولهم:

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٦.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾[١].

فما عن بعض المفسِّرين: من أنّ المراد بها المشركون، الذين جرت عادتهم على الدُّعاء للعاطس، بقولهم: «عش ألف سنة». إنّما يكون من باب التطبيق لا التخصيص.

قوله تعالىٰ: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾:

مادّة (و د د) تستعمل بمعنى المحبّة، وتُطلق على الله تعالىٰ، حينئذٍ قال عزّوجلّ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾[٢].

وتستعمل بمعنى التمنّي، وهو كثير في القرآن الكريم، ومنه المقام.

ومادّة (ع م ر) ـ بسكون الميم أو ضمّها، أو فتح العين وسكون الميم، وإن كان هذا الأخير يختصّ بالقَسَم، قال تعالىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣] ـ مأخوذة من العمارة، أي عمارة البدن في الحياة الدُّنيا، أو عمارة الدُّنيا للكون فيها، أو عمارة الآخرة للارتحال إليها، أو عمارة الجميع، وهي أفضلها.

أي: يتمنّىٰ كلّ واحد منهم أن يعمَّر في الحياة الدُّنيا ألف سنة، أو أكثر، لأنّه يعلم أنّ البقاء في الدُّنيا مع الآلام والمشاقّ خيرٌ له من الآخرة، فإنّ فيها العذاب. ولكنّه لا يعقل أنّ هذه المدّة القليلة المحدودة لا تنفعه ولا تدفع عنه العذاب، إذ لابدّ من الإيمان والعمل الصالح.

وإنّما عبّر تعالىٰ بألف سنة:

---

١. سورة المؤمنون: الآية ٣٧.

٢. سورة البروج: الآية ١٤.

٣. سورة الحجر: الآية ٧٢.

إمّا لأجل أنّه مثال لكثرة العمر ، كما أنّ لفظ سبعين كان مثالاً للكثرة في العشرات ، مثل قوله تعالىٰ :

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾[1] .

أو لأجل أنّه نوع تقبيح لهم في مبالغاتهم ومقترحاتهم الدائرة بينهم .

أو لأنّ الألف آخر أسماء مراتب الأعداد .

والسنة : مأخوذة من «سنه» كما عن بعض ، وعن آخرين أنّها مأخوذة من «سنو» بالواو بقرينة سنوات ، والظاهر أنّ هذا خلط بين هاء السكت، ومادّة أصل الكلمة، كما يظهر للمتأمّل في استعمالات هذا اللفظ ، فلا فرق بين الاستعمالين .

قوله تعالىٰ : **﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾** :

الزحزحة : الإزالة عن المقرّ ، والتنحية عنه ، وفي الحديث :

«مَن صام يوماً في سبيل الله، زحزح الله وجهه عن النار سبعين خريفاً» .

أي ليس طول العمر من حيث هو موجباً للخروج عن العذاب، بل المناط كلّه إنّما هو العمل الصالح، واكتساب الحسنات، وترك السيّئات .

وإنّما كرّر تعالىٰ كلمة (أن يُعمّر)، ولم يأت بالضمير، لبيان أنّ مقصوده الأهمّ وقوع طول العمر خارجاً ، لا مجرّد تمنّي ذلك، ولو أتى بالضمير لم يكن ظاهراً فيه .

قوله تعالىٰ : **﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾** :

---

١. سورة التوبة : الآية ٨٠ .

المراد بالبصر عند الإطلاق عليه عزَّوجلَّ العلم، وإنّما خصّه بالذكر، لبيان كمال الإحاطة بالدقائق التي لاتدرك إلّا بالبصر.

وفيه تهديدٌ عجيبٌ، وتوعيدٌ غريبٌ لمن هو غافل عن السعادة الأبدية، ولايتحفّظ علىٰ عمره، ولايصرفه إلّا في ما لا يرتضيه تعالىٰ، فإنّ الإنسان إنّما خلق في الدُّنيا لكي يعيش فيها برهة من الزمن، ثمّ يغادرها إلى دار أُخرىٰ، هي مقرّ له، فيحصد ما عمله مدّة حياته في الدُّنيا، فإمّا أن تكون الدار الآخرة هي دار الراحة والسكون والسعادة، أو تكون دار الشقاء والعذاب، فما يحصله الإنسان من خلقه إنّما يكون في عمره، فلابدّ وأن يبذله في تحصيل السعادة الأبدية، ولايصرف هذه الجوهرة الثمينة في ما لا فائدة فيه، أو تكون الفائدة منحصرة بالدنيا الفانية. ونعم ما نسب إلى علي عليه السلام:

«بقيّة عمر المؤمن لاقيمة لها، يدرك بها ما فات ويُحصي بها ما أمات».

فيكون محبّته للحياة، لأجل أن يدفع عن نفسه موجبات الشقاوة، ويكتسب فيها أسباب السعادة الأبدية، وكراهته للموت لأنّه يوجب فراق الأحباب، والانقطاع عن الأصحاب، وفراق الأليف ممّا لايرتضيه بالطبع كلّ وضيع وشريف، ولذا ورد كراهة تمنّي الموت ولا بأس بأن يقول:

«اللُّهمَّ أحيني إذا كانت الحياة خيراً لي، وأمتني إذا كان الممات خيراً»، كما ذُكر في الحديث.

وفي غير هاتين الصورتين، حبّ الحياة إن رجع إلى حبّ الدُّنيا فيكون مذموماً، وهو من الأمراض المهلكة، ولابدّ من علاجها، وسيأتي شرح ذلك في الآيات المناسبات إن شاء الله تعالىٰ.

بحث روائي:

عن القمّي، في قوله تعالىٰ: « ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾: أي أحبّوه حتّى عبدوه».

أقول : تقدّم ما يدلّ علىٰ ذلك.

وعن العياشي، عن أبي جعفرعليه السلام، في قوله تعالى أيضاً، قال:

«فعمد موسىعليه السلام فبرد العجل من أنفه إلى طرف ذنبه، ثمّ أحرقه بالنار، فذرّه في اليم.

قال: فكان أحدهم لَيَقع في الماء وما به إليه من حاجة فيتعرّض بذلك الرماد فيشربه، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾».

أقول : رواه الفريقان، ولو فرض صحّة سنده، يكون المراد إن الشرب الظاهري بيان وكاشف عن حبّهم للعجل؛ فتتمّ الحجّة عليهم بذلك.

وعن القمّي أيضاً في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾:

«لأنّ في التوراة مكتوب إنّ أولياء الله يتمنّون الموت ولا يرهبونه».

أقول : تقدّم مثل ذلك عن عليعليه السلام.

بحث أدبي:

عن جمع من الأدباء ـ وتبعهم بعض المفسّرين ـ أنّ كلمة (لو) تستعمل في معان:

الأوّل : للسببيّة بين الشرط والجزاء.

الثاني : لامتناع الجواب بدون الشرط.

الثالث : التعلّق في المستقبل، كقوله تعالىٰ:

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾[١].

الرابع : أن تكون مصدرية بمنزلة (إن) المصدرية .

وأكثر وقوعها كذلك، بعد (وَّد ، يود) . ويفترقان في أنّ مدخول (و) بعيد الحصول ، أو ممتنع، إمّا في نفسه أو بحسب العادة ، أو إبرازه بصورة البعيد أو الممتنع . بخلاف (إنْ) كقوله تعالىٰ : ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٢].

وقوله تعالىٰ : ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[٣].

وقوله تعالىٰ : ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[٤].

وفي غير ذلك تأتي أن المشدّدة المفتوحة ، أو ان الساكنة المصدرية مكانها .

الخامس : للعرض ، كقولهم : «لوتنزل عندنا فتصيب منّا خيراً» .

السادس : للتقليل ، كقول نبيّنا الأعظم ﷺ : «اتّقوا النار ولو بشقّ تمرة» .

السابع : التمنّي ، كقوله تعالىٰ : ﴿لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾[٥].

وقولهم : (لو تأتيني فتحدّثني) .

والفرق بينها وبين (لو) المصدرية التي لم يكن فيها معنى التمنّي، أن ما بعد الفاء بعد (لو) التي للتمنّي يكون منصوباً، بخلاف ما بعد لو المصدرية .

ويستفاد من ذلك أنّها من المشترك اللفظي ، ولهم في ذلك نظائر كثيرة .

---

١ . سورة النساء : الآية ٩ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٩٦ .

٣ . سورة آل عمران : الآية ٦٨ .

٤ . سورة الحجر : الآية ٢ .

٥ . سورة البقرة : الآية ١٦٧ .

والحقّ أنّ ذلك من خلط المستعمل فيه بدواعي الاستعمال ، فإنّ شأن أداة الشرط مطلقاً، إنّما هو جعل متلوّها واقعاً موقع الفرض والتقدير ، وأمّا الخصوصيّات فإنّما تستفاد من جهات أُخرىٰ . وقد حصل هذا الخلط من الخليل في الكتاب «العين» ومن غيره ، فتعدّد دواعي الاستعمال معلوم، وتعدّد الوضع والمستعمل فيه مشكوك، فيرجع فيه إلى الأصل .

إن قيل : إنّ هذا من مجرّد الدعوى بلا دليل عليها .

يُقال : تعدّد الدواعي وجداني عند المستعملين ، وتعدّد الوضع والمستعمل فيه يحتاج إلىٰ دليل، وهو مفقود، بل الأصل ينفيه .

إن قيل : إنّ باب المجاز واسع ، وكلّما زيدَ في الكلام مجازاته واستعاراته يُزاد في حسنه .

يُقال : إن رجع ذلك إلى ما قلناه فهو حسن ، وإن رجع إلى ما اشتهر بينهم من ملاحظة ما اعتبروه في المحاورات والاستعارات، فالأصل والوجدان ينفيان ذلك كلّه .

وقد فصّلنا القول في علم الأُصول، فراجع كتابنا (تهذيب الأُصول) .

***

الآية ٩٧ ـ ١٠١

﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً
وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ
عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا
عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ
اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

تبيّن هذه الآيات المباركة جملة أُخرىٰ من المساوىء الاعتقادية والأخلاقية لهم، كعداوتهم للملائكة والرسل، بلا سبب معقول لذلك، بل بمجرّد الأوهام الفاسدة. ثمّ بيان عنايته تبارك وتعالى للنّاس، وأنّه لايكون عدوّاً إلّا للكافرين الذين يستحقّون تلك العداوة باختيارهم.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾:

العدوّ ضدّ الصديق. وجبرئيل إسم أعجمي ليس من الألفاظ العربية، ولذا كثرت فيه اللغات ـ كما في غيره من الألفاظ غير العربية التي تكثر فيها اللهجات ـ حتّى أنهاها بعضهم إلى ثلاث عشرة لغة.

بيّن سبحانه وتعالىٰ ذميمة أُخرىٰ من ذمائم أخلاقهم، فقد افتروا علىٰ أمين

وحي الله عزَّوجلَّ، بأنّه ملك يُنزل الحرب والدمار، والشدّة والفناء، وأنّه أنذر بخراب بيت المقدس، وأنّه يفعل من عند نفسه بخلاف غيره من الملائكة.

فردَّ سبحانه وتعالى عليهم بأنّ هذا الملك وغيره من الملائكة مسخّرون تحت إرادة الله تعالى، المهيمن على الجميع، الفعّال لما يشاء، فلا يفعلون إلّا ما ارتضاه الله تعالىٰ، ولايقضون إلّا ما أحبّه عزَّوجلَّ، قال تعالىٰ:

﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

إذا كانت أفعال جبريل مستندة إليه عزَّوجلَّ، فيلزم أن تكون عداوتهم له عداوة الله تعالىٰ، ويرشد إلى ذلك ذيل الآية المباركة: (بإذن الله)، أي أنّ كلّ ما ينزله جبريل علىٰ رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء، إنّما يكون بإذن من الله تعالى، لا من عند نفسه.

قوله تعالىٰ: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾:

التفات من الغيبة إلى الخطاب، وهو من أحسن بدائع الفصاحة. والضمير في (نزّله) يرجع إلى القرآن المستفاد من قرائن الحال، وذلك يدلّ علىٰ رفيع شأنه، فكأنّه لشهرته لم يذكره في المقال، وفيه من الإيماء إلى شرف جبريل عليه السلام وذمّ أعدائه.

والمراد من (إذن الله) علمه وإرادته. وإنّما ذكر سبحانه القلب، لأنّه موضع تلقّي العلم والمعارف والكمالات. وخصّ قلب نبيّنا الأعظم ﷺ، لأنّه خاتم الأنبياء وأشرفهم، بل غاية أصل الخليقة وسيّدها، والإشارة إلى أنّ ما نزل على الأنبياء السابقين كموسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام من أشعة ما نزل علىٰ قلبه ولمعات من هذا النور العظيم، فكما أنّ ذاته الأقدس غاية الخلق، يكون كتابه المقدّس غاية

---

١. سورة التحريم: الآية ٦.

الكتب المقدّسة السماوية . والغاية مقدّمة في العلم، وإن تأخّرت في الوجود كما ثبت في الفلسفة .

قوله تعالىٰ : ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ :

أي أنّ القرآن الذي أنزله جبريل علىٰ محمّدﷺ، مصدّق لما تقدّم من الكتب الإلٰهيّة، وهدىً وبشرى للمؤمنين ، وتقدّم شرح ذلك في أوّل هذه السورة . ونزيد هنا أنّ الهداية والبشارة متلازمتان في جميع أطوار وجودهما، ومراتب ظهورهما في الدُّنيا والآخرة والعمل . وسياق الآية المباركة يدلّ علىٰ أنّ لها شأناً وسبباً لنزولها ، وسيأتي في البحث الروائي الكلام عنه .

قوله تعالىٰ : ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلّٰهِ﴾ :

مادّة (ع د و) تأتي بمعنى التجاوز عن الحدّ المعيّن في الشيء ، وللتجاوز موارد كثيرة :

فإذا كان التجاوز في الميل القلبي، يطلق عليه العداوة والمعاداة .

وفي الاقتصاد في المشي: يُطلق عليه العَدو، وفي المرض يُطلق عليه العدوى ، وفي المعاملات والمجاملات يُطلق عليه العدوان والتعدّي والاعتداء .

إلىٰ غير ذلك من موارد استعمالاته في المحاورات .

وقد ذكرت هذه المادّة في القرآن الكريم بجملة كثيرة من متفرّعاتها ، وهي بالمعنى الحقيقي ممتنعة بالنسبة إليه عزَّوجلَّ ، إذ لا يعقل التجاوز بالنسبة إلى من هو غير متناه من حيث القدرة والغلبة والقهارية .

نعم ، يصحّ بالمعنى الاعتقادي ، وهو يرجع إلى مخالفته في الاعتقاد والعمل . هذا .

وإن أرجعنا عداوته إلى عداوة أنبيائه وأوليائه، يصحّ بالمعنى الحقيقي أيضاً، وكذلك إن أرجعناها إلى عقابه.

وإنّما أضاف سبحانه وتعالى العداوة في نفسه تشريفاً لملائكته ورسله وأوليائه، وفي الحديث: «من أهان لي وليّاً فقد بارزني بالمحاربة».

وقد وردت آيات وروايات دالّة علىٰ حُسن مخالطته تعالىٰ مع عباده، علىٰ مايأتي تفصيلها إن شاء الله تعالىٰ، وليس المراد بالمخالطة ما هو المنساق من ظاهر اللفظ، بل ما قاله علي عليه السلام:

«داخل لا بالمجانسة، وخارج لا بالمباينة، فبينونته تعالى بينونة صفة لا بينونة عزلة».

كما أنّ في ذكر نفسه أوّلاً، ثمّ الملائكة والرسل، إشعاراً بعدم الفرق في هذه العداوة بينه تعالىٰ وبينهم، لأنّهم مظاهر آياته وأولياء خلقه ووسائط فيضه.

قوله تعالىٰ: **﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾**:

تقدّم وجه اشتقاقهما. واتّفق جميع الفلاسفة علىٰ أنّ الملائكة ذوات مجرّدة، ليست من المادّيات إلّا أنّ فلاسفة المسلمين ذكروا أنّها جواهر مجرّدة، والمتكلّمون منهم يقولون إنّها أجسام لطيفة لعدم ثبوت الجواهر المجرّدة عندهم. وشبّهوا الأجسام اللطيفة بالأجسام التي نشاهدها في عالم النوم، وما يوجد في الذهن. وحيث إنّ وجود الملائكة لايتوقّف على المادّة وتهيئة الأسباب، فيكفي في إيجادها مجرّد الأمر الإلهي، وهي بجميع أقسامها من عالم الأمر، أي ما يوجد بمجرّد أمره تعالىٰ من غير توقّف على المادّة والزمان ونحوهما.

فمنها: ما لها مراتب ومنازل، كالمدبّرات أمراً، والنازعات والفارقات، ونحو ذلك.

ومنها: ما ليس كذلك .

وقد اصطلح علىٰ تسمية الكلّ بالملائكة ، وعلىٰ تسمية مَن له شأن من الشأن بالملك ، فكلّ ملك ملائكة، وليس كلّ ملائكة ملك، فنسبة المَلَك (بفتح الميم واللّام) إلى البقيّة، كنسبة الملِك (بكسر اللام) إلى الرعية .

ويأتي تفصيل أحوال الملائكة وشؤونها وأفعالها في المحلّ المناسب إن شاء الله تعالىٰ .

قوله تعالىٰ : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ :

إنّما خصّهما تعالى بالذكر إعلاناً بعلوّ شأنهما وتشريفاً لهما ، أو لأنّ اليهود إنّما خصّوهما بالذكر، فقالوا : إنّ جبريل مَلَك الإنذار والعذاب ، وميكال مَلَك الرحمة ، فنزلت الآية ردّاً عليهم، بأنّ معاداة أحدهما هي معاداة الآخر، ومحبّتهما كذلك . وإلّا فهما من سادات الملائكة ، وهم أربعة :

جبريل: الذي هو موكل بإفادة العلوم للذوات المستعدّة، لكلّ علم وفنّ وصنعة .

وميكائيل: موكل بالأرزاق .

وإسرافيل: موكل بإفاضة الأرواح لكلّ ذي روح .

وعزرائيل: موكل بقبض الأرواح .

ولكلّ من هؤلاء الأربعة أعوان وجنود لا يعلمها إلّا الله تعالىٰ، وهو المهيمن على الجميع .

قوله تعالىٰ : ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ :

أي أنّ مَن كان كذلك، لايكون إلّا كافراً به تعالىٰ، والله عدوّ للكافرين ، وعداوته لهم عبارة عن سخطه تعالى عليهم وعقابه لهم ، وهم الظالمون .

لأنفسهم، وكفىٰ بذلك خزياً.

وفي الآية إشارة إلى أنّ عداوة الله لاتحقّق إلّا بسبق عداوة العبد له تعالىٰ، فهو كالموضوع لعداوته عزّوجلّ، والموضوع متقدم علىٰ ما يلحقه، فبينهما ملازمة الجزاء والشرط.

كما أنّ في الآية المباركة من الوعيد الشديد، والذمّ لمعادي الملائكة، لاسيما جبرئيل فإنّ اليهود وإن كانوا لايدعون معاداة جميع الملائكة، ولكنّه في الواقع كذلك، فإنّ عدواة أحدهم تكون عداوة للكلّ.

وفي وضع الظاهر موضع الضمير في قوله تعالىٰ: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى أنّ العلّة في العداوة هي الكفر.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾:

الآيات البيّنات، أي الأدلّة الواضحة التي لاريب فيها علىٰ صدق نبوبه من القرآن وسائر المعاجز.

قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾:

الفسق: الخروج، يُقال: فسق الرطب أي خرج عن قشرة، وكلّ من خرج عن طاعة الله تعالى فهو فاسق، وله مراتب كثيرة، تتفاوت بين الشدّة والضعف؛ ففسق الكفر مرتبة منه، وفسق الكذب مرتبة منه، وفسق الكذب والغيبة المتداوَلين بين النّاس فسق أيضاً. وهو الجامع بين المعاصي الكبيرة والصغيرة الواردة في الكتاب والسنّة، المشروح في علمي الفقه والأخلاق.

بل يمكن القول بأنّ الفسق حجاب للقلب عن استشراقاته المعنوية من المبدأ القيّوم، فإمّا أن يعمّ الحجاب جميع القلب، أو يكون حجاباً عن بعضه، فيكون كنقطة سوداء في القلب، تتغيّر زيادةً ونقيصة، فإذا صدرت من الكافر

معصية. كالكذب ـ مثلاً ـ اجتمع فيه قبحان وخطيئتان: قبح الكفر و خطيئته، وقبح الكذب وخطيئته.

ويأتي التفصيل في المحل المناسب.

والمعنىٰ: أنّ معك أيُّها النبيّ العظيم آيات بيِّنات تدلّ علىٰ صدق دعواك، وكلّ مَن أنكرها يكون خارجاً عن الحقّ، وقد استحبّ الكفر عناداً، وعلىٰ هـذا يصحّ أن يُراد بالكفر والفسق العقليّان منهما أيضاً، لا خصوص الشرعي، لأنّ ردّ تلك الآيات البيّنات خروج عن طريقة العقل والعقلاء ونور الفطرة، في ردّ الآيات البيِّنات من غير دليل وحجّة، بل بمجرّد العناد والجحود والتقليد الأعمىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾**:

الواو في (أو) حرف عطف تصدر بأداة الاستفهام، الدالّة على التوبيخ والتقريع، لعادتهم في نقض العهود.

والعهد: ما يلزم مراعاته وحفظه، والقيام به، والمراد به عهودهم مع الأنبياء والرسل.

والنبذ: هو طرح الشيء لقلّة الاهتمام والاعتناء به.

قوله تعالىٰ: **﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾**:

فيه إيماء إلى ما قد يتبادر من لفظ الفريق القلّة منهم، فذكر سبحانه أنّ أكثرهم لايؤمنون، وهو في مقام التعليل لما يصدر عنهم من الأفعال القبيحة ونقض العهود، يعني أنّهم ينقضون العهد، لأنّ أكثرهم لايؤمنون.

ويُستفاد من هذه الآية المباركة عدم الوثوق بهم لاعتيادهم علىٰ نقض العهود، وعدم رجاء الإيمان من أكثرهم.

كما يستفاد منها ذمّ الكثير والأكثر، كما ورد فيما يقرب من مائة آية، قال

تعالىٰ: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾[٢].

إلىٰ غير ذلك من الآيات المباركة.

بخلاف القليل والأقل، فقد ذكروا بالمدح، قال تعالىٰ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[٣].

ولو تأمّل شخص في أحوال عامّة النّاس، رأى أنّ ذلك حقّ مطابق للواقع، وتدلّ علىٰ ذلك أقوال الأئمّة عليهم السلام؛ ففي الحديث:

«المؤمنة أعزّ من المؤمن، والمؤمن أعزّ من الكبريت الأحمر، ومن رأى من أحدكم الكبريث الأحمر؟!».

وفي الآية المباركة تسلية لنبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، وإخبار له بإدبار الأكثر عنه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾:

تقدّم معناه في الآية ٨٩، أي لمّا جاءهم محمّد صلى الله عليه وآله الرسول من عند الله تعالى، المصدِّق لجميع ما أنزله الله تعالىٰ من التوراة والإنجيل، المشتملين على التوحيد وسائر المعارف الإلهيّة، والأحكام التشريعية، وصفات الرسول الذي وُعِدوا وبُشّروا به، وأنّه من آل إسماعيل، فإنّ أُصول الأحكام واحدة، وإن ظهرت تارة في صحف إبراهيم، وتوراة موسى أُخرىٰ، وإنجيل عيسى عليه السلام ثالثة، وقرآن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله رابعة، فمَن نَبذَ واحداً منها فقد نبذَ الجميع، فالكلّ مصدِّق للكلّ، والجميع شريعة واحدة.

---

١. سورة الحجّ: الآية ١٨.

٢. سورة المائدة: الآية ٤٩.

٣. سورة سبأ: الآية ٤٦.

قوله تعالىٰ: **﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾**:

نبذ الشيء وراء ظهره، كناية عن ترك العمل به وكفرهم به. والمراد بكتاب الله مطلقه، الأعمّ من التوراة والإنجيل والقرآن.

قوله تعالىٰ: **﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾**:

تنزيل لعلمهم منزلة الجاهل المقصِّر في العصيان واستحقاق العقاب. وفيه من المبالغة في الترك والإهمال، ما لا يخفىٰ.

يعني: أنّكم مع علمكم بأنّه الحقّ فقد نبذتموه وراء ظهوركم، فلم تحرِّموا حرامه، ولم تحلِّلوا حلاله، فصار الجحود أشدّ، والعقاب أكثر.

بحث روائي:

القمّي في قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾**:

«إنّما نزلت في اليهود الذين قالوا لرسول الله ﷺ: إنّ لنا في الملائكة أصدقاء وأعداء.

فقال رسول الله ﷺ: مَن صديقكم، ومَن عدوكم؟

فقالوا: جبرئيل عدوّنا، لأنّه يأتي بالعذاب، ولو كان الذي ينزل عليك القرآن ميكائيل لآمنّا بك، فإنّ ميكائيل صديقنا، وجبريل ملك الفضاضة والعذاب، وميكائيل ملك الرحمة».

أقول: رواه الفريقان، وفي «الدرّ المنثور» قريب من ذلك.

وفي «المجمع» في الآية أيضاً، قال ابن عبّاس:

«كان سبب نزول الآية ما روي أنّ ابن صوريا وجماعة من يهود أهل فدك،

لمّا قدم النبيّ ﷺ المدينة سألوه، فقالوا: يا محمّد كيف نومك؟ فقد أُخبرنا عن نوم النبيّ الذي يأتي في آخر الزمان.

فقال ﷺ: تنام عيناي وقلبي يقظان.

قالوا: صدقت يا محمّد.

فأخبرنا عن الولد يكون من الرجل أو المرأة؟

فقال ﷺ: أمّا العظام والعصب والعروق فمن الرجل، وأمّا اللحم والدم والظفر والشعر فمن المرأة.

فقالوا: صدقت يا محمّد.

فما بال الولد يشبه أعمامه، وليس فيه من شبه أخواله شيء؟ أو يشبه أخواله، وليس فيه من شبه أعمامه شيء؟

فقال ﷺ: أيّهما علا ماؤه كان الشَّبَه له.

قالوا: صدقت يا محمّد.

فأخبرنا عن ربّك فما هو؟

فأنزل الله سبحانه وتعالىٰ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة.

فقال له ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتّبعتك؟ أفي ملك يأتيك بما ينزل الله عليك؟

فقال ﷺ: جبرئيل.

قال: ذاك عدوّنا، ينزل بالقتال والشدّة والحرب، وميكائيل ينزل باليُسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنّا بك».

رواه الطبرسي في «الاحتجاج» عن جابر بن عبدالله. ورواه أيضاً في «الدرّ المنثور».

أقول: أمّا قوله ﷺ: (تنام عيني وقلبي يقظان)، فقد نقل مستفيضاً

عنه ﷺ، وهو كذلك بحسب ما أثبتوه من حضوره ﷺ عند ربّه دائماً، كما يدلّ عليه قوله ﷺ علىٰ ما رواه الفريقان:

«إنّي لست كأحدكم أبيت عند ربي فيطعمني ربّي ويسقيني ربّي».

والمراد منهما الإفاضات المعنوية، والجذبات الواقعية الرحمانية، فلا يعقل حجاب لقلبه بمثل النوم والغفلة ونحوهما، ويشهد له ما هو من خصائصه، من أنّه يرى من خلفه كما يرى من أمامه، وأنّه لا ظلّ له، وتأتي تتمّة الكلام في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

وأمّا قوله: ﷺ: (أمّا العظام والعَصَب والعروق فمن الرجل)، فقد أثبت العلم الحديث ذلك أيضاً كما يأتي مفصّلاً.

وفي «الدرّ المنثور»: ﴿**وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ**﴾:

قال ابن عبّاس: «هذا جواب لابن صوريا، حيث قال لرسول الله ﷺ: يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بيّنة فنتّبعك بها. فأنزل الله تعالى الآية».

***

الآية ١٠٢ ـ ١٠٣

﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾.

بيّن سبحانه وتعالى بعض أعمالهم الفاسدة، كالافتراء علىٰ أنبياء الله تعالىٰ، والسحر، ثمّ أبطل ذلك، وحكم بكذبهم، وأمر باتّباع طريق الحقّ، وأنّ التقوى خيرٌ لهم ممّا هم عليه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾:

اختلفت أقوال المفسِّرين في هذه الآيات المباركة، فصارت معترك الآراء والاحتمالات، وقلّما يوجد مثلها في سائر الآيات الشريفة، ومع ذلك فهي علىٰ فصاحتها وبلاغتها، لم يعترها من تلك الاحتمالات إجمال، ولا في حُسن نظمها وفصاحتها كلال، وليس ذلك إلّا من تقدير العليم الحكيم. ونحن نشير إلى ما

يستفاد ممّا هو الظاهر منها.

فنقول : مادّة (ت ب ع) تأتي بمعنى التقفية في الأثر، والاقتداء والمتابعة، سواء كان ذلك في الحقّ أو الباطل، كقوله تعالىٰ:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

والضمير يرجع إلى اليهود الذين عمدوا إلى هذه المتابعة، سواء كانوا من يهود عهد سليمان، أو من غيرهم، بل يشمل غير اليهود أيضاً ممّن ينطبق عليه عنوان المتابعة.

و(تتلوا) إن كان بمعنى مطلق القراءة والبيان، فالأمر واضح، وإن كان بمعنى قراءة ما نزل من عالم الغيب علىٰ حسب دعوى الشياطين وزعمهم بأنّ ما يقرأون إنّما هو من الغيب، لكن بعد إثبات كفرهم في ذيل الآية الشريفة، تكون هذه الدعوى منهم كاذبة لا محالة.

والمراد بالشياطين، الأعمّ من شياطين الإنس والجنّ علىٰ حدّ قوله تعالىٰ:

﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾(٢).

ويُحتمل أن يكون المراد خصوص شياطين الجنّ، فإنّ شياطين الإنس بمنزلة القوى العاملة لها.

والمراد بملك سليمان، عهده وأهل مملكته، ولعلّ ما في التعبير به إشارة إلى غلبة السحر والكهانة في ذلك الزمان، حتّى استولى علىٰ ملك سليمان، وذلك لأنّ اليهود زعموا أنّ ملك سليمان إنّما قام علىٰ أساس السحر والكهانة

---

١. سورة الجاثية: الآية ١٨.

٢. سورة الأنعام: الآية ٧٢.

والطلسمات، ونحو ذلك من الحيل التي نسبوها إليه كذباً وافتراء، فغلبت على النّاس، واعتادوا عليها، واتّخذوا السحر وسيلة إلى مقاصدهم وأغراضهم، أو ليتوصلوا بها إلى الملك، كما توصل سليمان به بزعمهم.

وهذا يدلّ علىٰ شدّة انغماسهم في المادّيات، وإعراضهم عن الحقائق وأحكام الله تعالى وأنبيائه ورسله، وهو لا يختصّ باليهود، فإنّ كلّ قوم أعرضوا عن آيات الله، واتّبعوا أهواءهم، ولم يقتدوا بالعلماء الداعين إليه تعالىٰ، صاروا مرتعاً للشياطين ووساوسهم، فيعملون كلّما يشاؤون في إبطال الحقّ وإفشاء الباطل، وذلك هو الخسران المبين.

و(علىٰ)، في قوله تعالىٰ: ﴿**عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ تصلح أن تكون بمعنى (في)، أي في ملك سليمان، أو بمعنى (مع)، كمافي قوله تعالىٰ: ﴿**رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ**﴾[1] أي على ألسنة رسلك أو معهم.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا**﴾:

لأنَّ إفشاء الباطل في عهده، أو علىٰ ملكه من الشياطين، لا دلالة فيه على أنّ سليمان اعتقد بالباطل بوجه من الوجوه، بل إثبات النبوّة له يمنع عن ذلك مطلقاً، وفيه تبرئة من الله لسليمان، وإثبات الكفر لمن نسب إليه السحر.

والمراد بالكفر المنسوب إلى الشياطين الكفر المطلق، فيصير المقام بالنسبة إليهم، من باب التطبيق لا التخصيص، أو بيان غاية قبح السحر. ثمّ بيّن تعالىٰ بعض وجوه كفرهم بما ذكره جلَّ شأنه.

قوله تعالىٰ: ﴿**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**﴾:

ليفتنوهم عن دينهم، ويضلّوهم عن سبيل الحقّ، وفي الآية المباركة إشارة

---

١. سورة آل عمران، الآية: ١٩٤.

إلى قبح السحر بل إيجابه الكفر، وقد عُبِّر في الأحاديث عن السحر بالكفر، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«السحر والشرك مقرونان».

وعن عليّ عليه السلام: «مَنْ تعلّم شيئاً من السحر قليلاً أو كثيراً فقد كفر».

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾:

المَلَكين (بفتح اللّام) تثنية المَلَك بالفتح، وهي القراءة المشهورة، وصريح بعض الروايات كما يأتي في البحث الروائي.

وقرأ بعضهم مَلِكين (بكسر اللّام) تثنية المَلِك، ولم يُعهد ذلك في التاريخ، ولو كان لشاع وبان، وقد ذكروا في توجيه ذلك أُموراً لم يقم عليها دليل من العقل أو النقل، فالأولى الإعراض عن ذكرها.

وكيف كان، فهما مَلَكان بعثهما الله تعالى لإتمام الحجّة علىٰ شعب بابل ليعلّموا مضارّ السحر، ويدفعوا به عن سحر السحرة وكيد الشياطين، ولعلّ ذلك كان مقدّمة لظهور دعوة أنبياء الله تعالىٰ، وإيذاناً بزوال دعوة الشياطين إلى السحر والكهانة ونحوهما من الأباطيل، وسيأتي معنى الإنزال.

قوله تعالىٰ: ﴿بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾:

بابل هي المدينة المعروفة في العراق، عاصمة البابليّين، أعظم مملكة في المعمورة في ذلك الحين. وقد دلّت التواريخ على أنّها كانت أقوىٰ مركز للسحر والكهانة في تلك الأعصار، بل ليس في الحضارات كلّها حضارة أغنىٰ في الخرافات من الحضارة البابليّة. كما أنّها كانت مركزاً تجاريّاً هامّاً يؤمّها التجّار؛ فكانت مورد اختلاف الناس من أطراف العالم لأغراضهم الدنيوية، ولذلك كثر تردّد أنبياء الله عليهم السلام إليها، لإظهار الحجّة والبيان عليهم في كلّ فرصة يجدونها،

فالقادسية (بانيقا) موجودة حتّى الآن قرب بابل، وهي محلّ رعي أغنام إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام، كما أنّ تلّ نمرود الذي اُلقي الخليل منه في النار معروف في هذه المدينة، وإنّ مقام إدريس وإبراهيم موجودان في مسجدي الكوفة والسهلة.

وعن أبي جعفر عليه السلام في وصف مسجد الكوفة: «إنّها سرّة بابل»، وقبر هود وصالح عليهما السلام مشهوران في ظهر الكوفة.

وعن عليّ عليه السلام في وقعة الخوارج، أنّه عليه السلام لمّا وصل إلى أرض بابل، قال: «هذه أرض ملعونة، قد عُذّبت في الدهر مرّتين، وهي تتوقّع الثالثة، وهي إحدى المؤتفكات، وهي أوّل أرض عُبِدَ فيها وثن».

فاقتضت المصالح التكوينيّة والتشريعيّة أن يُتمّ الله تعالى الحجّة على أهل تلك الدِّيار، بما تقتضيه الظروف وأحوال العباد، فأراد سبحانه وتعالى أوّلاً أن يميز لهم الإرادة الوهميّة الشيطانيّة، والإرادة الغيبيّة الإلٰهيّة، ثمّ التدرّج في المعارف الإلٰهيّة بما تقتضيه الحكمة المتعالية.

وهاروت وماروت: إسمان أعجميان، وهما ملكان نزلا من السماء في صورة الإنسان، وكانا بين الناس مدّة من الزمن، فعلا ذكرهما، وشاع أمرهما، وكثرت مراودة الناس إليها، حتّىٰ صارا بمنزلة مَلِكين لهم.

وقيل: إنّهما من البشر كانا من أهل صمت ووقار.

والظاهر أنّ أصحاب هذا القول نظروا إلىٰ هذين الملكين بعد تجسّمهما بصورة البشر، فلا نزاع في البين.

وقد أنزل الله تعالىٰ هذين الملكين لتعليم الناس السحر، وإنذارهم عن مضارّه، فيحذّروا عن سحر السحرة وكيد الشياطين، وكان ذلك لمصالح كثيرة، منها: التمييز بين المعجزة والسحر، وأنّ الأُولىٰ من الله تعالىٰ، والثاني من الشياطين وأعوانه.

فالمراد بالإنزال في الآية المباركة، إنّما هو نحو من الإلهام، وإنّما ألهمهما الله تعالىٰ ذلك لدفع المفاسد المترتّبة على السحر، لا لموضوعيّة فيه حتّىٰ يكون من الإلهام الفاسد.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾:

مادّة (فتن) تأتي بمعنى الاختبار والامتحان، سواء في الخير أو الشرّ، قال تعالىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[1].

والمراد بها في المقام مطلق الاختبار، لأنّهم إنّما نسبوا إلى سليمان عليه السلام السحر، وافتروا عليه، بأنّ تسخيره للجنّ والإنس وغيرهما إنّما كان بواسطة السحر، حتّىٰ غلب على أهل عصره، وكاد أن يذهب معجزة أنبياء الله تعالىٰ رأساً، فأنزل الله الملكين يعلّمان الناس السحر، ليفرّقوا بين الحقّ والباطل، مع تصريحهما لمن كان يتعلّمه بأنّ ما يتعلّمه إنّما هو لأجل الامتحان والاختبار، ودفع كيد الشياطين، والتفرقة بين الحقّ والباطل، وإنّ السحر كفر، فلا تكفر بتعلّمك له كما ذكر سبحانه وتعالىٰ بعد ذلك.

قوله تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾:

ذكر سبحانه وتعالىٰ مصداقاً من مصاديق السحر، لأجل كونه من أهمّها الشائع بينهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾:

لفرض أنّ جميع الموجودات من خيرها وشرّها، مورد قضائه وقدره، فلا يخرج أثر السحر عن تقديره تعالىٰ وقضائه، لئلا يبطل نظام القضاء والقدر،

---

١. سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

وجعل المسبّبات مترتّبة على أسبابها حسب ما اقتضته الطبيعة، وما يختاره الفاعل المختار.

قوله تعالىٰ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾:

النفع ما يتوصّل به إلى الخير، فهو خير وضدّه الضرّ، وقد استُعمل ذلك في القرآن الكريم كثيراً؛ قال تعالىٰ:

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُ وَ مٰا لاٰ يَنْفَعُهُ﴾[١].

وهو لفظ عام يشمل جميع موارد النفع في الدُّنيا والآخرة، بل يطلق عليه سبحانه وتعالىٰ، فمن أسمائه المقدّسة (يا ضارّ يا نافع)، قال تعالىٰ:

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[٣].

إلى غير ذلك من موارد الاستعمال في القرآن الكريم.

فيطلق على الواجب والجوهر والعرض في الدُّنيا والآخرة.

ثمّ إنّ النفع والضرّ:

إمّا واقعيّان حقيقيّان، وهما المنساقان منهما في استعمالات القرآن.

أو وهميان خياليّان؛ قال تعالىٰ:

﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾[٤].

وغالب أُمور الدُّنيا مبنيّة على الوهم والخيال.

---

١. سورة الحجّ، الآية: ١٢.

٢. سورة يس، الآية: ٧٣.

٣. سورة المائدة، الآية: ١١٩.

٤. سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

والمعنىٰ: أنّهم يتعلّمون من السحر ما كان فيه ضرر عليهم في الدُّنيا والآخرة؛ أمّا في الدُّنيا فلعدم إحاطة المعلِّم بالواقعيّات، ولا كون العلم من الوسائل إليها، فإنّ المنفعة الوقتية الخياليّة التي يجلبها من السحر، مع ما فيها من الإيذاء لسائر الناس لا تعدّ خيراً أصلاً، لاسيّما إذا كان جزاؤه عظيماً.

وأمّا في الآخرة، فمع كون المعلوم قرين الكفر بالله تعالىٰ، فلابدّ وأن يكون إثمه عظيماً، فقد أوقعوا أنفسهم في الخسران والنقصان بسوء اختيارهم. وفي نفي المنفعة بعد إثبات المضرّة، إشارة إلىٰ وجود منفعة مّا في السحر ولكنّها قليلة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾:

اللّام للتوكيد، وإن كانت في محلّ القسم. ولفظ (من) موصولة يصلح فيه الجنس والافراد والجميع، والضمير يعود إلى السحر.

والخَلاق النصيب من الخير يستعمل في القرآن في نصيب الآخرة.

والمعنىٰ: إنّ الذين اتّبعوا ما تتلوا الشياطين، واختاروا السحر وسيلة لنيل مقاصدهم، واستبدلوا ما في التوراة بذلك، ونبذوه وراء ظهورهم، يعلمون أنّه ليس لهم في الآخرة نصيب، لفرض وجود العقل فيهم، وتمييزهم بين الخير والشرّ، والنفع والضرّ، وإتمام الحجّة عليهم بدعوة الأنبياء، وتحريم السحر عليهم، فما بذلوه بإزاء تعلّمهم السحر واتّباعه وهو دينهم وآخرتهم.

والقضية من القضايا العقلية التي لا اختصاص لها بقوم دون آخرين، وهي استبدال الخير بالشرّ.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾:

أي ولبئس ما استبدلوا به أنفسهم، لأنّهم عرَّضوا أنفسهم للهلاك والعذاب الدائم بما رضوا بالسحر، لو كانوا يعلمون علماً فعليّاً بأنّهم باعوا أنفسهم بأخسّ

الأثمان وأقبحها.

وفي الآية المباركة من الفصاحة ما لا يخفىٰ علىٰ من تأمّل فيها، وتقدّم نظيرها في الآية ٩٠ من هذه السورة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ﴾:

مادّة (ث و ب) تأتي بمعنى الرجوع في جميع متفرّعاتها، وسمّي الجزاء ثواباً لأنّه رجوع العمل بوجوده الحقيقي الواقعي إلى العامل. قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[2].

وغلّب استعمالها في مقابل العقاب.

والمعنىٰ: أنّهم لو استبدلوا السحر، واتّباع الشياطين بالإيمان والتقوىٰ، لكان ثواب الله على أفعالهم الصالحة خيراً لهم من جميع ما اكتسبوه من أفعالهم. وتنكير المثوبة، لبيان أنّ أقلّ ما يصدق عليه الثواب، هو خير لهم ممّا عملوه.

قوله تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾:

المراد به العلم الفعلي ولو إجمالاً، أي أنّهم لو كانوا يلتفتون إلى أنّ الإيمان بالله والتقوى أعلىٰ درجات الكمال في الإنسان، وجزاء ذلك أعلىٰ من كلّ جزاء، لعلموا قبح ما بدّلوه.

---

١. سورة الزلزلة، الآية: ٧ ـ ٨.

٢. سورة المطففين، الآية: ٣٦.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات المباركة أُمور:

الأوّل: أنَّ الله تعالى لم يبيّن حقيقة السحر في هذه الآية الشريفة، وأجمل الأمر،وإنّما وصفه سبحانه في آية أُخرى أنّه تخيّلٌ وضربٌ من الخداع النفسي:

قال تعالىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[2].

ولعلّ الحكمة في ذلك أنّه أوْكَلَ معرفة الحقائق المكتسبة إلىٰ بحث الإنسان وجهده في تحصيلها، وقد ذكرنا في قصّة الخليقة ما يتعلّق بالمقام.

الثاني: يستفاد من الآية المباركة أنّ السحر كان من الأُمور العادية، يتعلّمه الناس في تلك الأعصار، وهذا من جملة الفروق بينه وبين المعجزة، فإنّها ليست كذلك، وسيأتي مزيد بيان في البحث الآتي.

الثالث: لعلّ الوجه في إنزال السحر على المَلَكين دون الأنبياء عليهم السلام ، إمّا لأجل أنّ المَلَكَين كانا محشورَين في الناس، يعرفان كيد الشياطين ومكر السحرة، أو لجلالة مقام الأنبياء عليهم السلام، لئلا يتّهمهم الناس بما لا يليق بهم.

الرابع: تدلّ الآيات المباركة على أن في عمل السحر معرضية للكفر، ولا ريب فيه، لأنّ الأُنس بما هو من شؤون الشياطين، يوجب البُعد عن ساحة الرحمٰن.

---

١. سورة طه، الآية: ٦٦.

٢. سورة الأعراف، الآية: ١١٦.

الخامس: الآية الشريفة تنصّ على أنّ تعليم المَلَكين للسحر، إنّما كان لغرض إفساد سحر السَحَرة، وبيان السحر والمعجزة. وفيها إشارة إلى أنّ التفريق بين المرء وزوجه، وغيره من الأعمال الفاسدة، إنّما هو من عمل الناس، وليس من تعليم الملكين، وأنّه كان ذلك من سوء اختيارهم، ومنه يظهر السرّ في اختفاء جملة من العلوم، والاسم الأعظم، وبعض الدعوات المستجابة.

السادس: أنّ في قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾، من الإيحاء النفسي للإنسان بأن لا يتأثّروا بسحر السَحَرة، فإنّه ليس لهم تلك القوّة الغيبيّة التي تؤثّر على النفوس، بل أعمالهم تستند علىٰ ضربٍ من الخداع والتخيّل، فما يحصل من المسبّبات المستندة إلى أسبابها، إنّما تكون بإذن من الله تعالى، وقَدَره وقضائه.

السابع: يظهر من هذه الآية المباركة وما في سياقها من الآيات الشريفة، أنّ العلوم التي يتعلّمها الإنسان على أقسام:

منها: ما ينفع لدينه ودنياه.

ومنها: ما يضرّ بهما.

ومنها: ما ينفع لدنياه، ويضرّ بدينه.

ومنها: ما يكون عكس ذلك.

ومنها: ما لا نفع فيه أصلاً، وإنّما من صرف الوقت في ما لا يعنيه ولا يفيده.

والمائز بين هذه الأقسام هو الكتاب الكريم، والسنّة المقدّسة، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وخلفائه المعصومين عليهم السلام أحاديث كثيرة، تعيّن بعض العلوم النافعة للناس، ولعلّ أجمعها قول نبيّنا صلى الله عليه وآله :

«إنّما العلم ثلاثة: آيةٌ محكمة، أو فريضةٌ عادلة، أو سُنّةٌ قائمة، وما خلاهنّ فهو فضل».

فذكر ﷺ علم المبدأ والمعاد من أُصول العقائد، وعلم التحلّي بالفضائل والتخلّي عن الرذائل، وعلم مسائل الحلال والحرام، وشرائع الأحكام. فبيّن ﷺ العلوم الدخيلة في استكمال الإنسان في عوالمه الثلاثة ـ عقله وروحه وبدنه ـ، وقد جمعها عليّ عليه السلام في عبارة موجزة:

«العلم أكثر من أن تحيطوا به، فخذوا من كلّ شيء أحسنه».

هذا كلّه في العلم الذي له دخل في الكمال المطلق، والسعادة الأبدية.

وأمّا العلوم والصنائع والفنون، فالناس بالفطرة يتوجّهون نحوها، فإنّ الدار دار الاستكمال، والخروج من القوّة الفعليّة، فلايحتاج إلى ترغيب من مرغب إلهي أو غيره، فإنّ الساكن إنّما يتحرّك نحو المطلوب بالفطرة، ولذلك لم يعهد تفصيل ذلك في القرآن الكريم والسُنّة الشريفة. نعم، اُشير إليها في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا﴾[1]، وما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ :

«إعمل لآخرتك كأنّك تموت غداً، واعمل لدُنياك كأنّك تعيش أبداً».

فالإنسان خُلق لأجل الاستكمال والسعادة، ولا ينفكّ عن ذلك، وداعيه وقائده والمرغّب إليه، إمّا هو الله تعالىٰ وأنبياؤه وأولياؤه، أو يكون هي الفطرة التي هي جزء من السير التكاملي الموجود فيه.

وفي المقام تفصيل يأتي في المحل المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

الثامن: ليس في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾، دلالةٌ على أنّ مطلق السحر ممّا اُوحي إلى الملكين، حتّىٰ تدلّ بالملازمة على إباحته، لأنّ الإنزال من الله تعالى أعمّ من ذلك، خصوصاً إذا كان من باب دفع الأفسد بالفاسد.

---

١. سورة القصص، الآية: ٧٧.

بحث روائي:

الطبرسي في «الاحتجاج»، عن الصادق عليه السلام:

«وقد سُئل من أين عَلِم الشياطين السحر؟

قال: من حيث عرف الأطبّاء الطب، بعضه تجربة وبعضه علاج».

أقول: الحديث موافق للاعتبار، وهو شارح لجميع أخبار الباب، مع غضّ النظر عن الإسناد.

وفي «تفسير العيّاشي» في قوله تعالىٰ: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾**، عن الباقر عليه السلام في الحديث:

«فلمّا هَلك سُليمان عليه السلام وضع إبليس السحر وكَتَبه في كتاب، ثمّ طواه وكتب علىٰ ظهره: هذا ما وضع آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم، مَن أراد كذا وكذا فليعمل كذا وكذا، ثمّ دفنه تحت سريره، ثمّ استثاره لهم فقرأه، فقال الكافرون: ما كان يغلبنا سليمان إلّا بهذا، وقال المؤمنون: بل هو عبدُ الله ونبيُّه، فقال جلَّ ذكره: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾**».

ورواه القمّي أيضاً.

أقول: هذا الحديث شاهد علىٰ حمل قوله تعالىٰ: **﴿مَا تَتْلُوا﴾** على الافتراء والافتعال، وهو شائع في الاستعمال، يُقال: ما قلت وما تلوت، أي ما افتريت. والمراد من إبليس كلّ مصدر للشرّ والفساد.

وفي «العيون» في حديث الرِّضا عليه السلام مع المأمون:

«وأمّا هاروت وماروت فكانا مَلَكين، علّما الناس السحر ليتحرّزوا به عن سحر السَحَرة، ويُبطلوا كيدهم، وما علّما أحداً من ذلك شيئاً إلّا قالا له: **﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾**، فكفر قوم باستعمالهم لما أُمروا بالاحتراز عنه، وجعلوا يفرّقون بما

يعلمونه بين المرء وزوجه، قال الله تعالىٰ: ﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾».

أقول: هذا الحديث أيضاً مبيِّن وشارح لظاهر الآية المباركة، ولجميع ما ورد في الباب من الأخبار، كما أنّه ظاهر في الكفر العملي، مضافاً إلىٰ كفرهم الاعتقادي أيضاً، وقد فصّلنا ذلك في الفقه.

وهناك روايات أُخرىٰ ـ بين مفصّلة وغيرها ـ مرويّة عن نبيّنا الأعظم ﷺ وخلفائه المعصومين، أعرضنا عن ذكرها؛ لأنّ سياقها يدلّ علىٰ عدم صدورها عن المعصومين عليهم السلام، بل هي من المفتعلات، كما هو الظاهر منها، وعلىٰ فرض صحّة بعضها لابدّ من ردّ علمه إلى أهله.

وفي «العيون» أيضاً عن الصادق عليه السلام، في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿**مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ**﴾.

قال عليه السلام: «لأنّهم يعتقدون أن لا آخرة، فهم يعتقدون أنّها إذا لم تكن آخرة فلا خلاق لهم، أي لا نصيب لهم في دار بعد الدُّنيا، فهم مع كفرهم لا خلاق لهم فيها».

أقول: ظاهر الحديث نفي الخلاق بنفي الموضوع، أي لا يعتقدون بأصل الآخرة، ولكنّهم علىٰ قسمين:

قسمٌ: يعتقدون بها وينكرونها عملاً.

وقسم آخر: لا يعتقدون بها أصلاً.

فنزَّل عليه السلام الأوّل منزلة الثاني، لعدم الأثر لمجرّد الاعتقاد بلا عمل.

بحث علمي:

السحر ضرب من ضروب التأثير النفساني، وهو علمٌ كسائر العلوم، له

قواعده وأحكامه، وقد ورد في القرآن الكريم فيما يقرب من ستّين موضعاً، وأكثره ورد في قصص موسىٰ عليه السلام وفرعون، ولم يبيّن سبحانه وتعالىٰ حيقيقته ـ كما هو دأبه جلَّ شأنه في الحقائق العلميّة ـ ليرجع الإنسان إلىٰ نفسه في البحث عنها، والاجتهاد في تحصيلها، والارتقاء في العلم، كما عرفت سابقاً.

وإذا تتبّعنا موارد استعمالات لفظ السحر، نرى أنّه يأتي بمعنى الافتتان والفتنة، وفي الحديث: «إنَّ من البيان لسحراً»، وهذا هو المعنى الدارج عند العامّة، حينما يتعجّبون من شيء ويفتتنون به، يُقال: «سحرتنا الطبيعة»، عند مشاهدة بديع صنع الله تعالىٰ فيها، ويُقال: «سحرنا جماله» إذا افتتن به، وأمثال ذلك.

وأمّا السحر بالمعنى العلمي، فهو ضرب من التأثير النفسي المشوب بالفتنة، وإظهار ما ليس بواقع بصورة المعبَّر عنه في القرآن الكريم بالتخيّل والخداع:

قال تعالىٰ: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ**﴾[2].

فإنّ الإرهاب المقارن مع التخيّل والخداع، له الأثر النفسي في الإنسان.

والعلوم من ناحية الموضوع تنقسم إلى تقسام:

الأوّل: ما كان موضوعه المادّة والمادّيات، كالعلوم الطبيعيّة.

الثاني: ما كان موضوعه الروح وما وراء المادّة، وهذا القسم يختلف من حيث تجرّد موضوعه عن المادّة بالكلّية، كالعلوم الإلٰهيّة، أو لم يكن كذلك كالعلوم التي تبحث عن الملائكة والأرواح ونحوهما.

الثالث: ما كان موضوعه مزيجاً من المادّة والروح، كعلم السحر

---

١. سورة طه، الآية: ٦٦.

٢. سورة الأعراف، الآية: ١١٦.

وكالطّلسمات والنيرنجات،وأمثال ذلك، فإنّها من دون اتّصالها بالأرواح لاأثرلها، كما أنّها لو لم تستعن بأُمور خاصّة، لم يتأثّر الطرف المقابل، كحركات في اليد، أو في العين، أو تحريك في اللّسان، أو رموز في الكتابة، أو تدخين وغير ذلك.

نعم، من شدّة اعتماده على الأثر النفسي، يمكن لنا أن نقول إنّه في جوهره عمل نفسي له آثار مادّية، ولذا لا يمكن أن يأتي تحت تجربة وإلّا كان وهماً في وهم. ومن الواضح أنّ الأثر النفسي لا يمكن أن يتحقّق إلّا في محلّ قابل ومستعدّ لقبول ما يصدر عن الساحر، ولذلك كان تأثيره في النفس محدوداً بالفرد الناقص من حيث المعرفة والكمال، وأمّا الإنسان الكامل فلا أثر للسحر فيه، ولم يعهد أنّ نبيّاً من أنبياء الله تعالىٰ تغلّب عليه السحر وأثّر فيه، وما ورد في سحر النبيّ ﷺ فلنا فيه كلام يأتي في محلّه.

ومن ذلك يعلم وجه انتشار السحر في الأُمم البدائية، التي يكثر فيها الجهل والاعتقاد بالخرافات.

ثمّ إنّ إنفاذ السحر وتأثيره في النفوس الضعيفة، يتوقّف علىٰ قوّة الساحر وثبات في العزيمة، وأكاذيب يستعين بها على التأثير في وعي المسحور ووهمه، يشبه في ذلك بعلم التوهّم ـ علم التنويم المغناطيسي ـ المبني على التأثير في وهم الأفراد، ويستفيد الساحر من الأكاذيب والمفتعلات ما لا يستفيده من غيرها، وهو إنّما بلغ إلى هذه المرتبة بفضل ما كان يعتقده الناس في السحر والسحرة من أنّ لهم التصرّف في كلّ شيء، وتصدر عنهم أعمال عظيمة، كإحياء الأموات، أو إصابة الناس بالأمراض، فكانوا يخافون منهم كخوفهم من الله تعالىٰ.

ولم تسلم الأُمم الراقية في هذه الأعصار عن هذه الخرافات، حتّىٰ جعلوا للساحر منزلة اجتماعية عظيمة يتوصّلون بهم لإنجاح مقاصدهم. وساعد ذلك ما

يدّعيه السحرة من أنّهم قادرون على استحضار الأرواح فيسألونها عمّا يريدونه، أو يأمرونها بأعمال خالصة، أو أنّهم قادرون على إطلاق الرياح وإنزال الأمطار، أو يعرفون حوادث المستقبل، ويعلمون مقاصد الإله، إلىٰ غير ذلك من الأكاذيب، فيتأثّر الناس بها، فينطبع في نفس الواهم أنّ الأرواح تستجيب إلى أوامر الساحر، ولمّا كان كلّ ذلك من الوهم، ذهب بعض العلماء إلى أنّه ليس للسحر حقيقة إلّا ما يؤثّر في الوهم والخيال.

ولقد كان موقف الأديان الإلٰهيّة، والأنبياء عليهم السلام والكتب السماوية من السحر واضحاً، فكان أكبر همّهم هو إرجاع الإنسان إلى تمييزه وعقله، وإبطال ما كان يحيط بالسَحَرة من العظمة والكبرياء، وأمّا القرآن الكريم فقد أبطل السحر من جهتين:

الأُولىٰ: إزالة الأثر النفسي للسحر والسحرة، فقال تعالىٰ: ﴿**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾[1] فنفىٰ سبحانه وتعالىٰ عن السَحَرة القوّة الغيبيّة، وكم لهذا الكلام الشريف من الأثر النفسي المعاكس للسحر، وأباطيل السحرة، فإنّ الإنسان إذا اعتقد أنّ جميع الممكنات تحت إرادته تعالىٰ وقضائه وقدره، وهو القيّوم المطلق، ولا يقدر أحد أن يتصرّف في شيء إلّا بإرادته تعالىٰ، كان لهذا الاعتقاد الأثر الكبير في نفسه، فلا يبقى مجالٌ حينئذٍ لأباطيل السحرة.

ولعلّ من حِكَم إنزال الملكين ـ هاروت وماروت ـ هو تعريف الناس بأعمال السحرة، وإبطال ما أثاروه حولهم من الإشاعات، وتهيئة النفوس لتلقّي المعارف الإلٰهيّة كما عرفت.

الجهة الثانية: هدم صرح السحر، حينما قال سبحانه وتعالىٰ بأنّه ضربٌ من الخداع والتخيّل، وأنّ الساحر لا يفلح في أمره مهما حاول إظهار الجدّ في عمله.

---

١. سورة البقرة، الآية: ١٠٢.

وهذا لا ينافي إثبات الحقيقة له في الجملة، بل إثبات الوجود هو إثبات للتحقّق له، فإنّ الوجود مساوق للشيئيّة والتحقّق، قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾[1]؛ والمراد من الأثر في الآية المباركة الاتباع، علىٰ ما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالىٰ، فإنّه ممّا لا ينكر ظهور بعض الأعمال، وخرق العادة علىٰ يد الساحر، ولو بحسب وجدان المسحورين، ومن نفى عنه الحقيقة، إنّما أراد نفي الحقيقة بالنسبة إلى الواقع كالمعجزة والكرامة، وهذا مسلَّم لا ريب فيه.

ثمّ إنّ تأثير السحر في الإنسان ضربٌ من تأثير القوى الفعّالة فيه، كتأثير الكواكب في الأرض بما فيها الإنسان ممّا لا ينكره أحد، كما أنّ تأثير الملائكة المقرَّبين أيضاً كذلك، وتأثير الأنبياء والأوصياء وبعض الصالحين بما يصدر منهم من المعاجز وخوارق العادات لا يشكّ فيه عاقل، ومنها تأثير العين والإصابة بها، فإنّه لا يرتاب فيها أحد، وإن اختلف العلماء في كيفيّة تأثيرها، وفي الحديث:

«لو كشف عن القبور لرأيتم أكثر موتاكم من العين».

وسيأتي تفصيل الكلام في سورة القلم إن شاء الله تعالىٰ.

نعم، الفرق بين ما يصدر من الأنبياء والأولياء والعلماء، الذين حذوا حذوهم، وبين ما يصدر من الشياطين وتابعيهم من السَحَرة والكهنة واضح، فإنّ بينهما فرقاً بحسب الذات والمنشأ والغاية.

توضيح ذلك: أنّ الإنسان في عالم الدُّنيا قائم بالاختيار، وأمّا عالم الآخرة فهو عالَم جزاء الفاعل المختار، فلولا الاختيار لبطل العالَمان، والاختيار بما هو اختيار متعلّق بطرفي الفعل ـ الخير والشرّ، أو الهداية والضلالة ـ ولكلّ منهما قائد ودليل، والأنبياء عليهم السلام ومن يتلو تلوهم أدلّاء الهداية وأئمّتها، والشياطين ومَن يحذو حذوها قوّاد الشرّ والفساد وأدلّاؤهما.

---

١. سورة المدثّر، الآية: ٢٤.

ونظر كلّ واحد من القائدين والدليلين هو الإنسـان لا غـير، فـالمعجزات والكرامات وخوارق العادات المنبعثة عن القدرة الإلهيّة، غير تلك الأُمور، وهي سلاسل يُجرُّ بها النّاس إلى الجنّة، وفي مثلها قال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

«عجبت من أقوام يُجرُّون إلى الجنّة بالسلاسل».

والسحر والكهانة والشعبذة وأمثالها من الحيل، كلّها من الشياطين، وهـي سلاسل يُجرُّ بها إلى النار.

فذات المعجزة من طرق الهداية، وذات السحر ونحوه من طرق الضلالة. كما أنّ منشأ الأُولى صفاء النفس وارتباطها مع الله تعالىٰ وإفاضته جلّ شأنه على الفرد، ومنشأ الثاني كدورة النفس وخبثها وارتباطها مع الشياطين. ومع ذلك لم يكن للسحر تأثير إلّا بإذن الله تعالىٰ وقدرته، فإنّه القيّوم المـطلق عـلىٰ جـميع الممكنات: **﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾**[1].

ثمّ إنّهم ذكروا للسحر أنواعاً كثيرة، تختلف في التأثير شدّةً وضعفاً، ولكن يمكن لنا القول بأنّ تلك الأنواع خلطٌ بين السحر وغيره، فقد ذكروا منها الاستعانة بالأرواح الطاهرة السماوية، والنفوس الفلكية، فإنّ مثل ذلك لا يُعدُّ من السـحر أبداً، فإنّ الشخص لا يصل إلىٰ هذه المرتبة، إلّا إذا كانت نفسه طاهرة وكاملة، كما أنّ الاستعانة بالأدوية أو بعض الآلات، أو الأخذ بالعين، فإنّها لا تسمّىٰ سـحراً أيضاً، وإن أثّرت أثره، كما لا يخفىٰ علىٰ مَنْ تتبّع الكتب. فالسحر كما عرفت هو الاستعانة بالأرواح الأرضية كالشياطين والأجنّة؛ إمّا بالتسخير أو بأفعالٍ خاصّة.

كما أنّ تسخير الأرواح ـ سواء تعلّقت بذوات الأرواح، أو بالنفوس الفلكية أو غيرها، أو تبديل عنصر إلى عنصر آخر ـ سواء كـان بآلةٍ أو غـيرها كـلّ ذلك

---

١. سورة سبأ، الآية: ٣.

ممكنٌ عقلاً وواقع خارجاً، وإن لم يترتّب عليه حرام، فهو جائز شرعاً، وليس ذلك من السحر في شيء، بل هي من سُبل استكشاف المجهول، ولا يمكن ذلك إلّا بتهيئة النفس وإعدادها بأعمال شاقّة.

كما أنّ طرق استفادة السرّ المكنون علم الحروف والنجوم، وهما ليسا من السحر أيضاً، بل نسب الأوّل إلى الأئمّة الهُداة عليهم السلام وسُمّي بالجفر، وهو من العلوم الشريفة كثيرهُ لا يدرك، وقليله لا ينفع.

بحث فقهي:

المحرّمات في الشريعة المقدّسة:

تارةً: تكون المفاسد فيها شخصيّة فقط كشرب السمّ مثلاً.

وأُخرىٰ: تكون شخصيّة ونوعيّة، كالظلم.

وثالثة: تكون منهما مضافاً إلى معرضية المعارضة مع النبوّات السماوية كالسحر.

وحيث إنّ العقل يستقلّ بقبح الجميع، خصوصاً الاخيرتين، فلابدّ وأن تكونا محرّمتين في جميع الشرائع الإلٰهيّة.

فالسحر محرّم في شريعتي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام ، وقد ورد في سفر اللّاويّين الإصحاح التاسع عشر من التوراة:

«لا تلتفوا إلى الجان، ولا تطلبوا التوابع [النفاثات في العقد] فتتنجّسوا».

وقال في الإصحاح العشرين منه: «وإذا كان في رجل أو امرأة جان أو تابعة، فإنّه يُقتل بالحجارة يرجمونه دَمُه عليه».

ثمّ إنّه قد استدلّ بعض الفقهاء بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ الآية،

علىٰ جواز تعليم السحر وتعلّمه، لأنّ المُنزِل هو الله تعالىٰ، والمَلَك معصوم، فلا يعقل أن يكون محرّماً.

وفيه: إنّ التأمّل في مجموع الآية الشريفة صدرها وذيلها، يدلّ على أنّ الاستدلال بها على الحرمة أولىٰ من الاستدلال بها على الجواز، فإنّها قد عدّت السحر في عرض الكفر، فكيف يستدلّ بها على الجواز؟

نعم، قد يعرض الجواز لعناوين خارجيّة، كما تزول حرمة الكذب لعروض عناوين توجب رفع الحرمة، والمسألة محرّرة في الكتب الفقهيّة، فراجع المكاسب من كتابنا «مهذّب الأحكام».

بحث كلامي:

لاريب في أنّ ما يُفاض على الممكنات، لابدّ أن ينتهي إليه سبحانه وتعالىٰ بنحو الاقتضاء، للأدلّة العقليّة والنقليّة، ففي الأثر المعروف ـ المنقول متواتراً بين الفريقين ـ عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «لا إله إلّا الله وحده وحده وحده»، فإنّ الوحدة الأُولى إشارة إلى وحدة الذات، والثانية تشير إلى وحدة الصفات؛ أي سلب جميع النقائص عنه تعالىٰ، وفي الثالثة إشارة إلى وحدة الفعل؛ أي أنّه مبدأ الكلّ، وأنّه لا حول ولا قوّة إلّا به، فهذه الجملة المباركة جامعة لأنحاء التوحيد، ولكن ذلك لاينافي قانون الأسباب والمسبّبات، فإنّ الله تعالى أبى أن يجري الأُمور إلّا بأسبابها، ومن ذلك يعلم وجه انتساب المعجزة وخوارق العادات، والكرامات، والسحر، والطلّسمات إليه تعالىٰ. وقد فرّق الفلاسفة والمتكلّمون بين المعجزة والسحر بعد اتّحادهما في أنّهما صادران من عالم آخر غير عالم المادّة؛ وأنّ هدفهما هو الإنسان لا غير بوجوه عديدة:

الأوّل: بحسب المنشأ، فإنّ المعجزة قوّة إلٰهيّة تبعث في النفس ذلك التأثير

بعد صفائها وارتباطها مع الله تعالىٰ، والاستفاضة من القدرة الإلٰهيّة. والسحر ينبعث عن نفس خبيثة مرتبطة مع الشياطين، كما تقدّم.

الثاني: الفرق بحسب الذات، فإنّ المعجزة من طرق الهداية والصلاح والخير، ولا تصدر إلّا من النفوس الخيّرة، بخلاف السحر فإنّه من طرق الضلال والغواية والشرّ، ولا تصدر إلّا من النفوس الشرّيرة.

الثالث: الفرق بحسب الغاية، فإنّ الغاية من المعجزة هي الدعوة إلى الحقّ وتثبيت دعوى الأنبياء، ولذا تكون مقرونة غالباً مع التحدّي، فلا تصدر من الكاذب. وأمّا السحر فإنّ الغاية منه الشرّ والإضرار.

الرابع: أنّ الشخص الذي تجري علىٰ يديه المعجزة، ذو نفس كاملة، قد اجتهد صاحبها في القيام بمراد المحبوب اعتقاداً وعملاً، عن علم بأُصول الشريعة وفروعها، يدعو إلى الحقّ، وهو يعمل بما يدعوا إليه، فإنّ لمثل هذه النفوس إرادة قويّة، ولها خلّاقية في الجملة، لانبعاث إرادتهم عن إرادة العليم الحكيم، إمّا مباشرةً كالأنبياء والأوصياء، أو بواسطتهم كعباد الله الصالحين. وهذا بخلاف السحر ونحوه فإنّ صاحبه لا يكون كذلك، بل له نفس شريرة كدرة لا يصدر منها الخير، مرتبطة مع الشياطين ومَن يحذو حذوها.

الخامس: المعجزة ليست مكتسبة، ولم تكن لها قواعد مطردة، بل هي تصدر حسب إرادة الله تعالىٰ، فإمّا أن تكون خارقة للعادة واقعاً وظاهراً، أو بحسب الظاهر، وإن كانت في الواقع مطابقة لقانون السببية والمسبّبيّة. وأمّا السحر فهو علمٌ له قواعده وأحكامه يصدر عن تعلّم وتجربة.

وهناك فروق أُخرى أغمضنا النظر عن ذكرها، فإنّ الأمر وجداني ظاهر لكلّ مَن رجع إلى وجدانه.

***

الآية ١٠٤ ـ ١٠٥

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾.

ذكر سبحانه وتعالى جهالة أُخرىٰ من جهالات اليهود، وهي من مظاهر تحريفهم للكلام عن مواضعه، وسوء أدبهم مع الأنبياء عليهم السلام. ثمّ بيّن العلم الحقّ بعد أن أبطل بعض العلوم في الآيات السابقة وجعله كالكفر، وبدأ أوّلاً ببعض آداب التعلّم، ووجّه الخطاب للمؤمنين تشريفاً لهم، وإيذاناً بعلوّ التعليم والتعلّم، ولما كان في هذا الأمر ارتباطاً بينهم وبين اليهود.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

ذكر هذا الخطاب في القرآن الكريم فيما يزيد علىٰ ثمانين آية نزلت جميعها في المدينة.

وفي جملة كثيرة من الأحاديث: أنّه ما أنزلت آية فيها **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** إلّا وعليٌّ عليه السلام رأسها وأميرها.

وعن علي عليه السلام:

«ليس في القرآن يا أيُّها الذين آمنوا إلّا وفي التوراة يا أيُّها المساكين».

ويأتي في البحث الروائي نقل بعض الروايات.

ويشمل الخطاب كلّاً من الحاضرين في مجلسه، والغائبين بل المعدومين أيضاً، لأنّه متعلّق بالعنوان من حيث كونه طريقاً إلى المعنون. وإنّما ذكر الإيمان في متعلّق الخطاب، لأجل الترغيب إليه وتحريض النّاس إلى الاتّصاف به ابتداءً ثمّ العمل بما يتعلّق به، فيكون مثل هذا الخطاب أشدّ في جلب القلوب، وآكد في الدعوة إلى المطلوب، وله نظائر كثيرة في كلام الفصحاء من العرب وغيرهم.

قوله تعالىٰ: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾:

لفظ «راعنا» سواء كان من المراعاة أو من الرعونة، أو شيئاً آخر، ليس استعماله من الأدب المحاوري، وفي خطاب النبيّ ﷺ بذلك من الجفاء وسوء الأدب، لأنّه يأتي بالمعنى الذي بيّنه تعالىٰ بقوله جلّ شأنه:

﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾[١].

وذلك لأنّ مقام النبيّ ﷺ مقام المعلّم الهادي، ولابدّ للمتعلّم من حفظ الأدب معه، ونبذ كلّ ما هو مشتبه الإهانة والهتك فضلاً عن معلومهما. ويحترز عن إظهار منزلة لنفسه عند المعلّم، فإنّه من الإهانة والجفاء بمقامه.

والمعروف أنّ هذه الكلمة سبّ بالعبرانية، كما ورد في بعض الروايات.

وقال شيخنا الأستاذ البلاغي رحمة الله عليه:

«قد تتبّعت العهد القديم فوجدت أنّ كلمة «راع» ـ بفتحة مشالة إلى الألف، وتسمّىٰ عندهم (قامص) ـ تكون بمعنى الشرّ أو القبيح، ومن ذلك ما في الفصل الثاني والثالث من السفر الأوّل من توراتهم. وبمعنى الشرير وأحد الأشرار، ومن

---

١. سورة النساء: الآية ٤٦.

ذلك ما في الفصل الأوّل من السفر الخامس، وفي الرابع والستين والثامن والسبعين من مزاميرهم، وفي ترجمة الأناجيل بالعبرانية. و«نا» ضمير المتكلّم ـ في العبرانية تبدّل ألفها واواً أو تمال إلى الواو، فتكون راعنا في العبرانية بمعنى شرّيرنا ونحو ذلك».

فتكون الكلمة في لغتهم «راعينو» موافقة للعربية في نبرتها ولهجتها، وبكون النهي عن استعمالها لئلا يتّخذها اليهود ـ الذين عُرفوا بسوء الأدب مع أنبيائهم ـ وسيلة للسبّ والطعن في الدِّين، فيقتدون بالمؤمنين في اللفظ، ويقصدون المعنى الفاسد منه.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا﴾:

أي أمهلنا حتّىٰ نفهم ما تقول، أو راقبنا في إدراكنا وأقبل علينا. وهذه الكلمة خير من الكلمة الأولى، فإنّها تفيد ما كانوا يريدونه، وتنفي ما كانت توهمه الكلمة الأُولى.

واسمعوا: أي افهموا ما يبيّن لكم رسول الله ﷺ، فيتحقّق حينئذٍ حقيقة الاستفادة والتعلّم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾:

أي أنّ مَن فعل ذلك منكم ولم يسمع قوله ﷺ، وخالف أمره، يصير كافراً، وللكافرين عذاب أليم، بلا فرق بين اليهود وغيرهم، فإنّ حكم الآية المباركة عام، إذ هو من الأحكام الفطرية الحسنة التي يحكم بحسنها العقلاء، ولابدّ من مراعاة ما ورد فيها من الآداب علىٰ جميع المتعلِّمين والمستفيدين.

وتشير الآية المباركه إلى مدح كون المُستفيد والمتعلّم في مقام الفهم والإدراك، وحُسن التماسه ذلك من المعلِّم، كما تشير إلى أن إفادة المفيد، لابدّ

وأن تكون بقدر استعداد المستفيد والمتعلّم، وعلىٰ قدر القابليات، وتدلّ علىٰ ذلك النصوص الكثيرة، وقد روى الفريقان عن نبيّنا الأعظم ﷺ:

«إنّا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نُكلِّم النّاس علىٰ قدر عقولهم».

قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

أي: ما يحب الذين كفروا من اليهود والنصارى، ولا من المشركين أن ينزل عليكم أي خير. وكلمة (من) تفيد الاستغراق، لوقوعها في حيّز النفي. وفي إتيان كلمة (ربّكم) إشارة إلى عطفه تعالى علىٰ هذه الأُمّة.

والمراد من الخير في المقام كلّ خير دنيوي وأُخروي، فيشمل منصب النبوّة، وما يلزمها من المعارف والكمالات الإنسانيّة المنبعثة عن هذه الشريعة المقدّسة الغرّاء.

والسبب في حسد الكفّار والمشركين على المؤمنين، هو تمنّي الكفّار أن تكون فيهم الحركة الدينية فلا تتعدّى إلى غيرهم. وأمّا المشركين فلأنّ الإسلام يهدّد كيانهم، ويُخيِّب آمالهم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾:

تقدّم معنى الرحمة في سورة الحمد، ويُراد منها في المقام بقرينة (بـ) التبعيضيّة، خصوص تلك الرحمة التي أُنزلت علىٰ نبيّنا الأعظم ﷺ ومَن تبعه من المؤمنين، وهي النِّعمة الكاملة الدائمة الأبدية، والكمال الأتمّ المطلق، وهي حقيقة الإيمان التي مثلت في نبيّنا الأعظم ﷺ، ثمّ أشرقت منه ﷺ علىٰ تابعيه وأُمّته، الجامعة للرحمة الرحمانية والرحيميّة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾:

ذكرت هذه الجملة المباركة في موارد كثيرة من القرآن الكريم، كما وردت مادّة (ف ض ل) في مواضع أُخرىٰ منه.

قال تعالىٰ: ﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[٣].

إلىٰ غير ذلك من الآيات الشريفة. ومن أسمائه الحسنى المباركة «يا دائم الفضل».

وأصل هذه المادّة تستعمل في الزيادة، علىٰ ما يلزم على المعطي إعطاؤه، وعلىٰ ما يستحقّه المُعطى له، فيكون إحساناً وزيادة، فلا تُطلق علىٰ عوض المال والعمل. نعم، إذا أعطى زيادة على المِثل أو القيمة أو المسمّى كان فضلاً.

ومواهب الله تعالىٰ علىٰ جميع خلقه من هذا القبيل، على فرض الاستحقاق، فضلاً عن أنّه لا وجه لأصل الاستحقاق، فهي فضل وتفضّل منه عزَّوجلَّ، سواء كان بالنسبة إلى المعنويات أو المادّيات، أو بالنسبة إلى النشآت الأُخرىٰ.

وفي الآية المباركة ردّ على الكفّار والمشركين، وعلىٰ جميع الحاسدين بما يبين جهلهم، أي أنّه لايمنعه مانع، ولا يحوله حسد حاسد من أختصاص رحمته بمن يشاء من عباده، حسب ما يراه من المصلحة، فإنّه ذو الفضل العظيم.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

٢. سورة آل عمران: الآية ٢٥١.

٣. سورة الحديد: الآية ٢٩.

بحث روائي:

العياشي، عن علي بن الحسين عليهما السلام:

«ليس في القرآن يا أيُّها الذين آمنوا إلّا وفي التوراة يا أيُّها المساكين».

ورواه الصدوق عن علي عليه السلام أيضاً.

وعن أحمد بن حنبل في «المسند»، عن ابن عبّاس، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما أنزل الله فيها يا أيُّها الذين آمنوا إلّا وعليٌّ رأسها وأميرها».

وفي «ينابيع المودّة» أخرجه موفّق بن أحمد، عن مجاهد وعِكرمة، عن ابن عبّاس، عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقال موفّق في «المناقب»: رواه جماعة من الثقاة، هم الأعمش، واللّيث، وابن أبي ليلى وغيرهم عن مجاهد وعِكرمة، وعطاء، عن ابن عبّاس، عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

وفي «الصواعق» أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم، عن ابن عبّاس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مّا أنزل الله آية فيها يا أيُّها الذين آمنوا إلّا وعليٌّ أميرها وشريفها».

وقال الإربلي في «كشف الغمّة» نقل ذلك عن ابن مردويه بأسانيده عن ابن عبّاس وحذيفة.

وفي «حلية» النعيم: إن النّاس يروون هذا الحديث.

أقول: نقل ذلك عن الإمامية بطرق متواترة، وهو حقّ لاريب فيه؛ لأنّ عليّاً عليه السلام أعلم النّاس بالقرآن، وبجهات الإيمان بإجماع المسلمين، فتكون الرويات الواردة من الآيات المتفرّقة في حقّ علي عليه السلام من باب الانطباق.

وفي «ينابيع المودّة» عن أبي الحسن والضحّاك وعلقمة:

«أنّ كلّ شيءٍ من القرآن يا أيُّها الذين آمنوا فإنّه نزل بالمدينة» .

أقول : مثل هذه الرواية موافقة للاعتبار ، لأنّ مكّة المكرمة بدء نزول الوحي كانت بمنزلة المادّة للإيمان، وفي المدينة المنوّرة تحقّقت الصورة ، فيصحّ توجية الخطاب حينئذٍ.

وعن الشيخ في «التبيان» ، عن الباقر عليه السلام:

في قوله تعالىٰ : ﴿**رَاعِنَا**﴾ إنّها كلمة سب» .

الواحدي في «أسباب النزول»، عن ابن عبّاس في قوله تعالىٰ : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا**﴾ الآية:

«وذلك أنّ العرب كانوا يتكلّمون بها ، فلمّا سمعتهم اليهود يقولونها للنبيّ صلى الله عليه وآله أعجبهم ذلك . وكان راعنا في كلام اليهود السبّ القبيح ، فقالوا : إنّا كنّا نسبّ محمّداً سرّاً ، فالآن أعلنوا السبّ لمحمّد ، فكانوا يأتون نبيّ الله صلى الله عليه وآله فيقولون : يا محمّد راعنا ، ويضحكون ، ففطن بها رجلٌ من الأنصار وهو سعد بن عبادة ـ أو سعد بن معاذ ـ وكان عارفاً بلغة اليهود ، فقال : يا أعداء الله ، عليكم لعنة الله، والذي نفس محمّد بيده لئن سمعتها من رجل منكم لأضربنّ عنقه .

فقالوا : ألستم تقولونها؟ فأنزل الله تعالىٰ : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا**﴾ ـ الآية ـ».

أقول : الرواية حسب الاعتبار صحيحة ، وتقدّم وجه ذلك كما ذكرنا عن بعض مشايخنا .

***

الآية ١٠٦ ـ ١٠٨

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٦ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٠٧ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝١٠٨﴾.

بعد أن ذكر الله سبحانه وتعالى أنّه ينزل الرحمة والوحي علىٰ مَن يشاء من عباده، بيّن سبحانه وتعالى استيلاءه على الحكم بكلّ ما يشاء من النسخ والإثبات، لأنّه مالك السماوات والأرض، وعلىٰ كلّ شيء قدير. وفي الآيات المباركة ردّ لمزاعِم اليهود الذي يحدّدون قدرته تعالىٰ بحدّ خاصّ. وقد ذمّ سبحانه وتعالى أيضاً توجيه كلّ سؤال ينبعث عن قصور العقول إلى رسوله الكريم، كما فعلت اليهود بالنسبة إلىٰ موسى عليه السلام. وهذا في الواقع يكون ذمّاً للتقليد عن الكفّار.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾**:

النسخ: يأتي بمعنى إزالة شيء بشيء يتعقّبه، يُقال: نَسَخ الشمسُ الظلَّ؛ ونَسَخ الظلُّ الشمسَ، ونَسَخ الشيبُ الشبابَ، ويستلزم ذلك أُمور:

الأوّل: النقل كما يقال: نسختُ الكتاب، وقال تعالىٰ: **﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا**

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١]، وهو عبارة عن نقله وضبطه.

الثاني: مجرّد الإزالة إذا لوحظ بالنسبة إلى المنسوخ فقط.

وعن بعض المفسّرين: أنّ منه قوله تعالىٰ: **﴿فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾**[٢]، أي يزيله، فلا يُتلى ولا يثبت في المصحف.

والظاهر بطلانه؛ لتذييل الآية المباركة بقوله تعالىٰ: **﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ آيَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾**، أي يزيل ما ألقاه الشيطان وهو الباطل، ويثبت الحقّ.

وأمّا نسخ التلاوة فيسيأتي بطلانه إن شاء الله تعالىٰ.

الثالث: الإثبات إذا لوحظ بالنسبة إلى الناسخ فقط.

الرابع: هما معاً إذا لوحظ بالنسبة إليهما معاً، فيكون بمعنى التبديل أيضاً، ومنه اصطلاح العلماء في النسخ المبحوث عندهم أي تبديل ما كان ثابتاً من الحكم الشرعي بدليل معتبر علىٰ خلافه. والتناسخ المعروف عند أهله أيضاً عن النقل والإزالة، كما لايخفى.

ومن ذلك يعلم أنّ تخصيص العمومات، وتقييد المطلقات، والقرائن العامّة أو الخاصّة علىٰ خلاف الظاهر، ليس من النسخ في شيء، لا موضوعاً ولا حكماً.

والآية هي العلامة، وتُطلق علىٰ تمام الآية وعلى الجزء منها، بل قد أُطلق القرآن الآية علىٰ ما جاء في الكتب الإلٰهيّة السابقة، قال تعالىٰ:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[٣].

---

١. سورة الجاثية: الآية ٢٩.

٢. سورة الحجّ: الآية ٥٢.

٣. سورة آل عمران: الآية ١١٣.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾[١].

والمراد بها العلامات الدالّة علىٰ وحدانيّته تعالىٰ، وصفاته المقدّسة وأفعاله الحُسنى، والأنبياء، والقرآن، وسائر المعجزات، فلا تختصّ بخصوص الآيات المباركة القرآنية، ويستفاد هذا التعميم من قوله تعالىٰ في ذيل الآية المباركة: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال الشاعر:

وفي كلّ شيء له آية تدلّ علىٰ أنّه واحد

وإن كان شأن النزول ـ كما في بعض التفاسير ـ آيات الأحكام الواردة في القرآن، وقد ذكرنا مراراً أنّ شأن النزول من باب التطبيق لا التخصيص. فهي قابلة للشدّة والضعف، فربما يكون شيءٌ آية له تعالى من جميع جهاته، وقد يكون من جهة. والنسخ قد يتعلّق بالجميع وقد يتعلّق بالبعض.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾:

من النسيان، حذف حرف العلّة للجزم بالعطف علىٰ «ننسخ»، والفعل «انسى ينسي» بمعنى ترك الحفظ إمّا لقصور، أو تقصير، أو عن علم وتعمّد، لحِكَم ومصالح تترتّب عليه.

ومن الأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٢].

وقول نبيّنا الأعظم ﷺ: «رفع عن أُمّتي الخطأ والنسيان».

ومن الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾[٣].

---

١. سورة الزمر: الآية ٧١.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٣. سورة الجاثية: الآية ٣٤.

وقوله تعالىٰ: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[٢].

والقصور إنّما هو من العبد لا منه تعالىٰ، فإنّه يجازي المقصّرين حسب تقصيرهم.

ومن الأخير: قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: نترك حفظ الآية لمصالح.

وترك الحفظ **تارةً:** لعدم الوحي مع وجود المقتضي له، لمصالح في الترك تغلب على المقتضي.

وأُخرىٰ: ترك الحفظ عن قلب نبيّنا الأعظم ﷺ، مع صدور الوحي إليه.

و ثالثة: بالإزالة عن قلوب المخاطبين، مع صدور الوحي على لسان الرسول ﷺ.

ويصحّ الجمع بالنسبة إليه عزّوجلّ، فإنّ ما سواه تحت إرادته. واستعمال النسيان في ما ينبغي أن يُنسىٰ كثير، وفي المثل المعروف «احفظوا أنساءكم» أي التزموا بأنسائها وعدم الالتفات إليها وعدم ترتيب الأثر عليها، وهي عبارة عن ذمائم الصفات التي يرتكبها الشخص في المجتمع على الغير، أو يرتكبها الغير عليه.

وقال بعض المفسّرين: إنّ قوله تعالىٰ: ﴿نُنْسِهَا﴾، أي نؤخّرها من الإنساء، ومنه قول نبيّنا الأعظم ﷺ: «صلة الرحم مثراة للمال، ومنسأة للأجل»، ويُقال: نسأ الله أجلك، وقد انتسأ القوم، إذا تأخّروا، أو تباعدوا.

ويمكن المناقشة فيه: بأنّ الكلمة لو كانت من الإنساء بمعنى التأخير، لما جاز حذف الياء، لأنّها ليست حرف علّة، والقراءة المشهورة علىٰ خلافه، مضافاً

---

١. سورة السجدة: الآية ١٤.

٢. سورة الحشر: الآية ١٩.

إلى أنّ التأخير ملازم للترك أيضاً.

ولا تنافي بين هذه الآية المباركة، وقوله تعالىٰ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾[١]، لأنّ الأخير بحسب التأييد الإلٰهي، والأوّل بحسب ذات الطبيعة البشرية.

بل يمكن أن يُقال: إنّ الآية المباركة لا تشمل نبيّنا الأعظم ﷺ بالنسبة إلى القرآن، لأنّه مؤيّد بروح القدس، ومتّصل بالمبدأ القيّوم.

نعم في الموضوعات الخارجية ورد الإنساء بالنسبة إليه ﷺ، كما تقدّم في قوله تعالىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[٢]، فراجع.

قوله تعالىٰ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾:

أي نأت بخير من تلك الآية المنسوخة في الأثر، وأنفع منها في الإقناع والصّلاح وفق المصالح، لأنّ الدار دار التكامل، وأفعال الله تعالى مبتنية على المصالح التكامليّة، مع اقتضاء علمه الأتمّ وحكمته البالغة في ذلك أيضاً.

قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾:

في التأثير، ليتذكّر الإنسان ما قد نسيه منها.

قوله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

هذا بمنزلة التعليل لاستيلائه تعالى على النسخ والإنساء، فإنّ قدرته التامّة غير المحدودة تقتضي ذلك، وهو قرينة على أنّ المراد من الآية ليس خصوص القرآن، بل الباهرات ومنها القرآن الكريم الدالّة علىٰ نبوّة أنبياء الله تعالىٰ.

والخطاب للنبي ﷺ تشريفي، ولأنّه ﷺ بمفرده بمنزلة الجميع، ولبيان

---

١. سورة الأعلىٰ: الآية ٦.

٢. سورة البقرة: الآية ٣٦.

طريق الاستدلال له حتّى يتعلّم منه الجميع ، ويعتبرونه الواسطة بينهم وبين الله تعالىٰ .

والاستفهام تقريري ، وهو أبين في الإثبات من نفس الاستدلال .

ثمّ إنّه تعالى أراد تثبيت إيمان المؤمنين، لئلا يتأثّروا بشبهات الكافرين، فأقام الدليل الأخير علىٰ تمام قدرته .

قوله تعالىٰ : ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ :

أي أنّه مالك لهما خلقاً وإيجاداً ، وإرادةً وتدبيراً ، والنّاس كلّهم عبيده يفعل ما يشاء فيهم ، ويحكم ما يريد ، لايعجزه شيء . والخطاب للنبي ﷺ تشريفاً والمراد به غيره .

قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ :

التفات في الخطاب من الإفراد إلى الجمع لما ذكرناه، والولي هو القائم بالأمر ومدبّر الرعية ومدبّر أُمورها . والنصير مَن يطلب النصرة والتقوية منه . أي أنّ وليّكم وناصركم هو الله تعالىٰ وحده، وهو يفعل فيكم بما تقتضيه حكمته البالغة ولا يفوته أحد ، فهو الذي يقدر الإنسان على العمل بنحو الاقتضاء ، كما أنّه المالك للثواب والعقاب فيكون تعالى مبدأ الكلّ ومنتهاه .

والآية من الأدلّة العقلية علىٰ تمام قدرته وكمال إرادته ، وكم لها نظير في الآيات القرآنية ، وفيها إشارة إلى لزوم انقطاع العباد إليه تعالى لانحصار الولاية فيه ، والإعانة منه عزَّوجلَّ ، فهو مسبب الأسباب بما يشاء ، وإن كان جعلها تحت اختيار العبد وقدرته ، فلابدّ وأن يكون السعي من العبد والنصرة منه عزَّوجلَّ ، فإن وافقت نصرته تعالى لسعي العبد، فذلك هو الفوز العظيم، وإن تخلّفت فهو الخسران المبين .

قوله تعالىٰ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾:

أم هنا منقطعة بمعنى بل، وتتضمّن الاستفهام، فتكون إضراباً عن عقائدهم الفاسدة بما هو أفسد.

والمراد بالسؤال كلّ سؤال لايصدر عن فكر ورويّة، بل يصدر عن عناد ولجاج، ويكون منشؤه الجهل المركّب. وقد بيّن سبحانه وتعالىٰ بعض تلك الأسئلة في آيات أُخرىٰ، فقال:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾[١].

والمراد بالسائل كلّ مَن تصدّى له، سواء كان من الكفّار أو المشركين أو المنافقين.

والسؤال في الآية المباركة عام يشمل ما وقع في عصر البعثة بالنسبة إلى أصل حدوث الشريعة، وما يقع بعدها إلى يوم القيامة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[٢]، واستنكار إرادتهم للسؤال، يستلزم استنكار وقوع المراد بالأولى، فهي أشدّ من تقبيح المراد والذمّ عليه، فيصير نظير قوله تعالىٰ:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

فنفى تعالى أصل تحقّق المراد منهم بنفي أصل الإرادة.

قوله تعالىٰ: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾:

فقد طلب فرعون وقومه من موسي عليه السلام الآيات الواحدة تلو الأُخرىٰ، ولم

---

١. سورة الإسراء: الآية ٩٠.

٢. سورة المائدة: الآية ١٠١.

٣. سورة القصص: الآية ٨٣.

يؤمنوا بها استكباراً منهم وعناداً، وكذلك فعل بنو إسرائيل، فإنّهم سألوا موسى عليه السلام أن يريهم الله تعالى جهرة كما حكى الله تعالى عنهم، فقال عزّوجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾[١].

وقال تعالى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[٢].

وغير ذلك من اقتراحات بني إسرائيل علىٰ موسى عليه السلام من قبل.

وقيل: إنّ بعضهم سأل رسول الله صلى الله عليه وآله أن يجعل لهم ذات أنواط، كما كان عند أقوام آخرين. فحقيقة الجهل المركّب واحدة، وان اختلفت مظاهرها. وقد أخبر نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله بأنّ ما وقع في بني إسرائيل، يقع في هذه الأُمّة أيضاً. ولاريب أنّ تلك الأسئلة لاتصدر إلّا ممّن طُبع على اللجاج والعناد، وعدم الاعتقاد بما جاء به الأنبياء، ولذا أنكر عليهم سبحانه وتعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾:

التبديل هو جعل شيء بإزاء شيء آخر بدلاً منه.

والسواء هو الوسط، وسواء السبيل الصراط المستقيم. أي إنّ مَن عاند أنبياء الله تعالىٰ، ولم يؤمن بما جاؤوا به بكثرة السؤال، فقد اختار الكفر على الإيمان، ومن كان كذلك فقد ضلَّ عن الصراط المستقيم.

والمراد بالتبديل، حقيقته الأعمّ من أن يكونوا قد قصدوا ذلك أو لم يقصدوه، وهذه العناية لم توجد في التعبير بالشراء والاشتراء الواقعين في آيات أُخرىٰ.

والسرّ في ذلك ما ثبت في الفلسفة العملية من أنّ أفعال العباد وإن كانت

---

١. سورة البقرة: الآية ٥٥.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٣٨.

معلولة للإنسان، لكنّها مع كونها كذلك لها جهة علّية في نفس الفاعل، فتكون مؤثّرة فيه بنحو من الأنحاء فيصير علّة لعمله، وعمله علّة مؤثّر فيه أيضاً، فإذا كان العمل الصادر من الإنسان خيراً أثّر فيه وأوجب صفاء نفسه ونوراً في قلبه، وإن كان شرّاً أوجب ظلمة وكدورة فيها، حتّى تصل إلى ما قال تعالىٰ: **﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[1]، وحينئذٍ يرى الفاعل أثر فعله في هذه الدُّنيا، فلا اختصاص لقوله تعالىٰ: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾**[2]، بالآخرة، بل يعمّ جميع العوالم، كما يدلّ عليه الأحاديث الكثيرة التي تأتي الإشارة إليها في محلّها. وعليه فإذا لم يسلك الصراط المستقيم انسلاكاً اعتقادياً أو عمليّاً، فقد ضلَّ عن سواء السبيل.

---

١. سورة المطففين: الآية ١٤.

٢. سورة الزلزلة: الآية ٧ـ٨.

بحوث المقام

بحث دلالي:

قد تكرّر قوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ تَعلَم**﴾ في آيتي: ١٠٧ ـ ١٠٦، ويمكن أن يكون الوجه في ذلك تعدّد منشأ النسخ والإزالة، فأطلق تارةً بالنسبة إلى الأعراض والاعتبارات، وأُخرىٰ بالنسبة الى الجواهر والذوات، كما قالت اليهود بالنسبة إلى كلّ منهما، فزعموا أن قدرته تعالى محدودة بالإحداث فقط، فإذا حدث يخرج عن تحت قدرته جلّ شأنه، كما حكى الله تعالىٰ عنهم: ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ**﴾[1].

فأبطل تعالى في المقام كلّ ذلك، وحكم بأنّ الأشياء كلّها تحت قدرته حدوثاً وبقاءً، أمّا الحدوث فبقوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾.

وأمّا البقاء، فلقوله تعالىٰ: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾.

ثمّ إنّ إطلاق الآية المباركة: ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾ يشمل جميع آياته عزّوجلّ من حيث أحكامه تعالىٰ، ومن جهة جماله وجلاله، فكلّ شيءٍ له آية من الجواهر والأعراض في الأرضين والسماوات، وله عزّوجلّ في ذلك كلّه إبداع وإنشاء، فهي من الأُمور التشكيكيّة شدّةً وضعفاً كميّة وكيفيّة، فنسخه تعالى يشمل جميع ذلك كلّه، بحيث لا حدَّ للناسخ ولا حدَّ للمنسوخ، ولا يحيط بكلّ واحد منهما إلّا هو تعالىٰ، وفي كلّ شيء له آية، وكلّ شيء له فيه نسخ وتغيير وتبديل، ولا معنى لما أثبته أكابر الفلاسفة من أنّ مناط

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٤.

الحاجة هو الإمكان حدوثاً وبقاءً إلّا هذا، كما لا معنى لكونه تعالىٰ مهيمناً علىٰ ما سواه على الإطلاق، وإنّ عنده خزائن الأشياء كلها وما ينزلها إلّا بقدر معلوم إلّا هذا.

والنسخ قد يتعلّق بتمام الآية أو الحكم كلّه، وأُخرىٰ ببعض الجهات دون البعض، والثاني لا ينافي بقاءها من سائر الجهات، وسيأتي التفصيل في هذه المباحث في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالىٰ.

بحث روائي:

في «تفسير العياشي»: عن الباقر عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾**:

«فقال عليه السلام: الناسخ ما حُوِّل، وما ينسيها مثل الغيب الذي لم يكن بعد قوله تعالىٰ: **﴿يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾** قال عليه السلام: فيفعل الله ما يشاء، ويحوِّل ما يشاء، مثل قوم يونس إذ بدا له فرحمهم، ومثل قوله تعالىٰ: **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾** قال عليه السلام: أدركهم برحمته».

أقول: ما ورد في الأحاديث في أصل النسخ وفي الناسخ كمّيةً وكيفيّة كثير جدّاً ومتواتر بين الفريقين، وما ذكره عليه السلام في هذا الحديث في النسخ بالمعنى العام، أي مطلق التحويل والتغيير الشامل للبداء أيضاً، كما صرّح في الرواية التالية صحيح لا إشكال فيه، وتقدّم في تفسير الآية ما يدلّ عليه أيضاً.

وأمّا قوله عليه السلام: «وماينسيها مثل الغيب الذي لم يكن»، يُحتمل فيه معنيان:

الأوّل: صدور الوحي إلى قلب النبيّ صلى الله عليه وآله، ثّم إنساء ما أوحي إليه قبل بيانه لمصالح فيه.

الثاني: ثبوت المقتضي في عالم الغيب للوحي، لأنّه باق علىٰ غيبه

المكنون، وعدم صدوره عن مرتبة الغيب إلى مرتبة أُخرىٰ من وحي وغير ذلك، وهذا وجه حسن.

وفي «تفسير العيّاشي» عنه عليه السلام أيضاً:

«إنّ من النسخ البداء المشتمل عليه قوله تعالىٰ: ﴿**يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾، ونجاة قوم يونس».

أقول: كون البداء من النسخ بحسب المعنى اللغوي، وهو مطلق التحويل، صحيح لا إشكال فيه، لكن المنساق من مجموع الروايات الواصلة إلينا، أنّ مورد النسخ التشريعيات، والبداء مورد التكوينيّات، وهذا الاختلاف بحسب المتعلّق لا بحسب الذات.

ورُوي أيضاً: «إنّ موت إمام وقيام آخر مقامه من النسخ».

أقول: ظهر وجهه ممّا تقدّم من أنّ النسخ بمعنى مطلق التحويل، أي تحويل الإمامة من إمام إلى إمام آخر.

وفي «تفسير النعماني» عن أمير المؤمنين عليه السلام ذكر عدّة آيات من الناسخ والمنسوخ:

منها: قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ نسخه قوله عزّوجلّ: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾، أي للرحمة خلقهم.

أقول: إنّ المراد من النسخ بالمعنى الأعمّ، مطلق التحويل، وإلّا فخلق الجنّ والإنس ليعبدون، أي ليأمرهم بالعبادة كما في جملة من الأخبار، وهو عبارة أُخرىٰ عن خلقهم للرحمة بعد امتثال الأمر.

وفيه أيضاً قال عليه السلام: «ونسخ قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً**﴾، قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا**

مُبْعَدُونَ* لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَ هُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ* لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾.

أقول : هذا من سنخ التخصص بالنسبة إلى الاية الأولى. ولا ينافي ذلك قوله تعالىٰ : **﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾**، لفرض الخروج الموضوعي.

فما في بعض التفاسير من المنافاة، بأنّه لاوجه لتخصيص القضاء الحتم، مغالطة بين التخصيص والتخصص. مع أنّه لوكان القضاء الحتم تحت اختياره تعالى من كلّ جهة حدوثاً وبقاءاً، يصحّ التخصيص بالنسبة إليه إيضاً، وإنّما أظهره تعالى بصورة التعميم والحتم لمصالح في ذلك.

وعن الواحدي في «أسباب النزول» في قوله تعالىٰ : **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾** الآية :

(إنّ المشركين قالوا : ألا ترون إلى محمّد يأمر أصحابه بأمر ثمّ ينهاهم عنه، ويأمرهم بخلافه، ويقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً؟ أما هذا القرآن إلّا كلام محمّد، يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً، فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونزّل أيضاً : **﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾**).

أقول : إنّ ما قاله المشركون نشأ من عدم فهمهم للقواعد العرفية الدائرة بينهم.

وفي «الدرّ المنثور» عن قتادة : (كانت الآية تنسخ الآية، وكان نبيّ الله يقرأ الآية والسورة، ومايشاء الله من السورة، ثمّ تُرفَع فينسيها الله نبيّه؟ فقال الله تعالى يقصّ علىٰ نبيّه : **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾** فيها رخصة، فيها أمر، فيها نهي).

أقول : هذه الرواية لاتناسب مقام النبوّة وحفظه لما يوفي إليه، كما عرفت سابقاً.

وعن الواحدي في «أسباب النزول» عن ابن عبّاس، في قوله تعالىٰ: ﴿**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ**﴾ الآية:

(نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي أُميّة ورهط من قريش، قالوا: يا محمّدﷺ اجعل لنا الصفا ذهباً، وسّع لنا أرض مكّة، وفجّر الأنهار خلالها تفجيراً، نؤمن بك، فأنزل الله تعالى هذه الآية).

أقول: يدلّ علىٰ ذلك ما تقدّم من قوله ﷺ: «بأن ما وقع في بني إسرائيل يقع في هذه الأُمّة أيضاً».

بحث كلامي:

استدلّ بعض المفسّرين بالآية الشريفة ﴿**مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا**﴾ علىٰ إمكان النسخ ووقوعه في القرآن الكريم، وذكرنا أنّ المراد من النسخ في الآية المباركة غير المعنى المصطلح فيه، بل هو بالمعنى الأعمّ. ولتوضيح ذلك لابدّ من البحث فيه ولو علىٰ سبيل الإجمال.

معنى النسخ:

النسخ في اللغة هو الإزالة، ويلازمها النقل والإبطال بالوجوه والاعتبار، كما ذكرنا سابقاً، وبهذا المعنى كان معروفاً في عصر النبيّﷺ وما بعده، فكانوا يطلقونه على التخصيص والتقييد، بل علىٰ كلّ قرينة دلّت على الخلاف كما عرفت.

وأمّا بحسب اصطلاح العلماء فالمشهور بينهم أنّه بيان انتهاء أمد الحكم الثابت سابقاً.

وتوضيح ذلك: أنّ كلّ حكم إذا لوحظ بالنسبة إلى حكم آخر يتصوّر علىٰ وجوه:

الأوّل : الخروج الموضوعي، أي الاختلاف بين الحكمين من ناحية الموضوع، كخروج السؤال والالتماس عن قوله تعالىٰ : ﴿**يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**﴾[1]، فإنّهما ليسا من العقود في شيء، واصطلح العلماء علىٰ هذا القسم بالتخصّص.

الثاني : الخروج الحكمي مع بقاء الموضوع، كخروج البيع الخياري عن العموم المتقدّم، فإنّه بيع مع أنّه لايجب الوفاء به، واصطلح عليه بالتخصيص.

الثالث : بقاء الموضوع والحكم علىٰ حالهما، ولكن جَعْل الحكم كان محدوداً بحدٍّ معيّن في عالم الإنشاء والتشريع، وإنشاء الحكم بصورة الدوام والاستمرار لمصلحة ما، فإذا انتهت مدّة الحكم، أُقيم حكم آخر مقامه، وهذا هو النسخ.

والفرق بين القسمين الأخيرين : أنّ التخصيص خروج فردي وتحديد في الأفراد والحالات ظاهراً، والنسخ تحديد في الأزمان في الواقع، لا أن يكون التحديد في ظاهر الدليل، وإلّا كان تقييداً أو تخصيصاً، بل الحكم أُنشىء بصورة الدوام ولكنّه في عالم التشريع مقيّد إلى وقت معيّن. ولذا قيّد العلماء في التعريف الحكيم بالثابت، أي الثابت في الواقع، وأمّا الثابت في الخارج فلا يرتبط رفعه خارجاً بالنسخ، لأنّ فعليّة كلّ حكم تدور مدار تحقّق موضوعه في الخارج، فإذا وجد يترتّب عليه الحكم لا محالة، وإذا ارتفع يرتفع الحكم الفعلي، وهذا لاربط له بالنسخ بوجه من الوجوه، ولا إشكال فيه من أحد.

حقيقة النسخ والحكمة فيه:

لاريب أنّ القوانين مطلقاً ـ سواء كانت إلٰهية أو وضعية ـ تابعة للمصالح

---

١. سورة المائدة : الآية ١.

والمفاسد، أي أنّها وضعت لتحقيق مصالح الإنسان ودرء المفاسد عنه، فقد تقتضي المصلحة جعل القانون، ثم تقتضي مصلحة أُخرىٰ رفعه أو تغييره، وهذا ممّا تعارفت عليه القوانين الوضعية، فإذا وضع الحاكم حكماً لتنظيم العلاقات الفردية أو الاجتماعية ثم يرى عدم الفائدة في تطبيقه، أو أنّه لا يحقق المصالح المتوخّاة من جعله، يلغي ذلك القانون أو يصلحه بقانون آخر. ولم تخرج القوانين الإلٰهية عمّا تعارف عليه بين الناس، بل لنا أن نقول إنّ النسخ كسائر ما يعرض على القانون من العموم والخصوص، والإطلاق والتقييد. والمجمل والمبيّن، من لوازم جعل القانون، بحيث لا يمكن تصويره إلّا ومعه أحد تلك اللوازم. والنسخ بهذا المعنى معلوم عند كلّ أحد، لاينبغي الإشكال فيه، وهو بالنسبة إلى القوانين الوضعية صحيح، فإنّ الواضع الجاهل بحقيقة الحال لايعرف متىٰ ينتهي وقت العمل بالقانون الذي وضعه ومتّىٰ يتغيّر، ولكن ذلك لا يصلح في النسخ بالنسبة إلى القوانين الإلٰهية، فإنّه يستلزم الجهل بالنسبة إلى الشارع المقدّس، وهو مستحيل، فلابدّ وأن يستند النسخ إليه سبحانه وتعالى بوجه صحيح، وعمدة الوجوه المحتملة هي:

الأوّل: إبداء الحكم بصورة الدوام لمحض المصلحة في الإنشاء والتشريع، ثمّ تتبدّل المصلحة الظاهرية إلى مصلحة واقعية في المتعلّق والمجهول، تقتضي نسخ ما أُنشىء أوّلاً، نظير التكاليف الامتحانية.

الثاني: كون المصلحة الموجودة في المتعلّق محدودة بحدٍّ معيّن في الواقع، ولكن إنشاء الحكم بصورة الدوام لمصلحة في ذلك، ثمّ إنشاء حكم آخر لمصلحة يقتضيها الوقت. وإنّما ظهر من الحكم الثاني أنّ الحكم الأوّل كان محدوداً بحدّ معيّن فانقضىٰ حدّه، وتبدّل المصالح والمفاسد ممّا يشهد بصحّته الوجدان والبرهان.

الثالث : كون الحكم ذا مصلحة كاملة من جميع الجهات في الإنشاء والمتعلّق والدوام ، ثم تبدّلت تلك المصلحة بأُخرىٰ مساوية أو أقوى اقتضت رفع الحكم الأوّل ونسخه ، فيكون مثل التخصيص، إلّا أنّه تخصيص زماني، كما عرفت .

الرابع : كون الحكم في الواقع هو الحكم الناسخ الذي سيثبت بعد ذلك ، وإنّما اُنشيء المنسوخ لمصلحة مقدّمية لبيان حكم الناسخ في ظرفه .

وجميع هذه الوجوه صحيحة في نسخ الله تعالى لأحكامه المتعالية ، ولا يستلزم منها أي نقص بالنسبة إليه عزّوجلّ .

والحكمة في النسخ واضحة بعدما عرفت ، لأنّه من مظاهر ربوبيّته تعالى العظمى ، فإنّه عزّوجلّ لم يكلّف عباده إلّا بالتدريج والإمهال، متلطّفاً بهم ومراعياً أحوالهم ، فكانت الشرائع الإلٰهية خطوات متصاعدة في رقي الإنسان وتربية تدريجية متكاملة ، فالنسخ يرجع إلى سياسة العباد والتعهّد بهم، كما أنّه يظهر مقدار طاعة الإنسان ، فهو نوع من الامتحان ليميز الخبيث من الطيب . وهو بالأخرة من مظاهر علمه الأتمّ وحكمته البالغة ، فهو والبداء يتّفقان في أنّهما يكشفان عن علمه السابق، إلّا أنّ الثاني مورده التكوينيات ، والأوّل مورده التشريعات ، فهو عالم بحقائق الأُمور ومحيط بكل شيء ، ولكن اقتضت حكمته البالغة أن تكون التكاليف على التعاقب والتدريج ، ومن ذلك يظهر إمكان النسخ ذاتاً بالنسبة إليه تعالىٰ ، وعدم الإشكال فيه بوجه من الوجوه .

النسخ ووقوعه:

ذكرنا أنّ النسخ واقع في القوانين الوضعية ، وأجمع المسلمون علىٰ وقوعه شرعاً. وأدلّ دليل علىٰ إمكان الشيء ذاتاً هو وقوعه ، فيمكن ادّعاء إجماع

العقلاء علىٰ جوازه في الجملة، ولكن خالف في ذلك اليهود والنصارى، وهم بين منكر لأصل جوازه، أومنكر لوقوعه في شريعة من الشرائع، واستدلّوا علىٰ ذلك بأمرين:

الأوّل: أنّ النسخ يستلزم جهل الباري عزّ وجلّ، أو عدم حكمته، لأنّه إن علم سبحانه بأنَّ المصلحة في الناسخ وأنّه يرفع المنسوخ، فلا وجه لإظهاره، إذ لا مصلحة فيه، وكلّ تشريع لم تكن فيه المصلحة يكون منافياً للحكمة. وإن لم يعلم بالناسخ حين إظهار المنسوخ يكون جهلاً منه، وهو ممتنع بالنسبة إليه..

والجواب: أنّ الله تعالى عالم بالناسخ والمنسوخ، ولكن اقتضت المصلحة لإظهار المنسوخ بصورة الدوام، ويكون الناسخ كاشف عن انتهاء مدّة حكم المنسوخ وقيام غيره مقامه، لمصالح في الوضع، تختلف باختلاف الجهات والمقتضيات، كما عرفت.

والظاهر أنّ الإشكال المزبور نشأ من جعل النسخ من مراتب علمه تبارك وتعالى الذي هو عين الذات الأقدس، وكلّ تغيير في العالم، يستلزم التغيير والتبديل في الذات.

والحقّ: أنّ النسخ من مراتب الإرادة التي هي عين فعله سبحانه، وهو قابل للتغير والتبديل مع علمه تعالى بذلك، ولا يلزم من ذلك أي محذور.

الثاني: أنّ رفع الحكم الواقع وإزالته لا يمكن، فإنّ الشيء لا يتغيّر عمّا وقع عليه، كما ثبت في الفلسفة.

والجواب: أنّ ذلك من قياس الإرادة الإلٰهية على إرادة الفاعل المختار الممكن، وهو باطل، لأنّ فعل الفاعل المختار إذا صدر عنه خرج عن تحت اختياره، فلايمكن تغييره عمّا وقع عليه. وأمّا الإرادة الإلٰهيّة فالمراد تحت إرادته حدوثاً وبقاءً، وإيجاداً وإفناءً، لاسيما بناء علىٰ ما ثبت في الفلسفة المتعالية أنّ

مناط الحاجة هو الإمكان لا الحدوث.

ولعلّنا نتعرّض لهذه المسألة في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

وهناك وجوه أُخرىٰ استدلّوا بها على إنكار النسخ إمكاناً ووقوعاً، أغمضنا النظر عنها لوضوح بطلانها.

ويمكن أن نقول: إنّ الغاية من إنكار النسخ، هي ردّ الشرائع السماوية لاسيما شريعة خاتم الأنبياء ﷺ، والاحتفاظ لأنفسهم بالحركة الدينية، وهذا ضرب من غرورهم وجهلهم، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه الآخر، كما حكى الله تعالى في كتابه المجيد. وكيف يحقّ لهم الإنكار وهم يذعنون بأنّ شريعتهم نسخت الشرائع السابقة، ثمّ كيف يمكن لهم ادّعاء استحالة النسخ مع وقوعه في كتب العهدين، وهو كثير نذكر منه موردين: أحدهما من العهد القديم، والثاني من العهد الجديد.

الأوّل: ورد في الباب الثاني والعشرين من سفر التكوين، أنّ الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسحاق عليه السلام، ثمّ نسخ هذا الحكم قبل العمل، فقد ورد فيه:

«ثمّ مدَّ إبراهيم يده وأخذ السكّين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الربّ من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم، فقال: ها أناذا. فقال: لاتمدّ يدك إلى الغلام، ولاتفعل به شيئاً، لأنّي الآن علمت أنّك خائف الله. فلم تمسك ابنك وحيدك عنّي، فرفع إبراهيم عينيه ونظر، وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه».

وكذلك ورد في الإصحاح التاسع من سفر التكوين: أنّ كلّ دابّة كانت مباحاً في شريعة نوح ثمّ نسخت في شريعة موسىٰ، فقد ورد فيه:

«كلّ دابّة حيّة تكون لكم طعاماً كالعُشب الأخضر دفعت إليكم الجميع».

الثاني: ورد في الآية الثالثة عشرة من الإصحاح الثامن من الرسالة

العبرانية:

«فإذا قال جديداً عـتق الأوّل، وأمّـا مـا عـتق وشـاخ فـهو قـريب مـن الاضمحلال».

وذكر يابيل في تفسير هذه الآية: «هذا ظاهر جدّاً أنّ الله يريد أن يـنسخ العتيق بالرسالة الجديدة الحسنىٰ، فلذلك يرفع المذهب الموسوي اليهودي ويقوم المذهب المسيحي مقامه».

إلىٰ غير ذلك ممّا ذكروا من موارد النسخ التي تزيد عن ثلاثين مورداً، وإنّما لم نتعرّض لها خوفاً من الإطالة.

شرائط النسخ:

يظهر من ما تقدّم شروط النسخ، وهي ثلاثة:

الأوّل: أن يكون النسخ في الأحكام الشرعية، فـلا يـقع فـي غـيرها إلّا بالعناية والمجاز، كما سيأتي.

الثاني: أن يكون النسخ بدليل شرعي، سواء كان من القرآن أو السـنّة أو الإجماع القطعي. فلا يكون من النسخ موارد ارتفاع الموضوع، أو انتفاء الشرط.

الثالث: أن يكون دليل الناسخ ناظراً إلى الحكـم المـنسوخ ومـعارضاً له تعارضاً حقيقيّاً لا يمكن الجمع بينهما، فيكون كاشفاً عن رفعه، فليس كلّ تناف بين الدليلين أو الحكمين من النسخ، ولذا وقع الخلاف فـي كـثير مـن الآيـات المباركة التي اُدّعي النسخ فيها، وهي ليست كذلك بل من التقييد أو التخصيص، وسيأتي البحث عن كلّ آية في محلّها إن شاء الله تعالىٰ.

ثمّ إنّ الناسخ والمنسوخ يتصوّران بـحسب الاحـتمالات العـقلية ثـلاثة أقسام: تقارنهما زماناً، تقدّم الناسخ على المنسوخ، تقدّم المنسوخ على الناسخ

والمتعارف من النسخ، والمنساق منه في الكتاب والسنّة هو الأخير، والأوّلان من مجرّد الإمكان الذاتي.

نسخ الشرائع:

ذكرنا أنّ النسخ ـ في الجملة ـ من لوازم جعل القانون، سواء كان إلٰهيّاً أو وضعيّاً، فلا يختص بشريعة دون أُخرىٰ، فهو واقع في الشرائع السابقة كشريعة موسى عليه السلام، وشريعة عيسى عليه السلام، بلافرق بين أن يكون في شريعة واحدة أو في لاحقة بالنسبة إلى الشريعة السابقة، راجع كتب العهدين تجد الأمثلة علىٰ كلا القسمين، وقد ذكرنا سابقاً ما يدل علىٰ ذلك.

وأمّا بالنسبة إلى شريعة الإسلام، فقد دلّت الأدلّة العقلية علىٰ أنّها خاتمة الشرائع الإلٰهيّة، وناسخة لجميعها، ولا خلاف بين المسلمين في ذلك، قال الله تعالىٰ: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾**[1].

وقال تعالىٰ: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾**[2].

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة.

وقد ذكرنا أنّ الشرائع الإلٰهيّة خطوات متكاملة في سبيل رقيّ الإنسان، وأنّها مدارج كماله، فهي تبتدئ من الأُمور الفطرية المودعة في الإنسان، الذي بها يتميّز عن سائر المخلوقات، حتّىٰ تصل إلى أقصى درجات الكمال من جميع الجوانب، فكلّ شريعة من الشرائع الإلٰهيّة خطوة من خطوات تلك التربية الحقيقة الإلٰهيّة، حتّىٰ تصل إلى الصرح الشامخ الإسلامي الذي يكون جامعاً لجميع الحقائق والكمالات، قال تعالىٰ:

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٩.

٢. سورة آل عمران: الآية ٨٥.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[1].

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَثَلي ومَثَل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنىٰ بنياناً فأحسنه وأجمله، إلّا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل النّاس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلّا وضعت هذه اللبنة ؟!

قال ﷺ: فأنا اللبنة وأنا خاتم الأنبياء».

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق».

ولا ينافي ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[2]، وغيرها من الآيات المرغبة إلى اتباع ملّة إبراهيم، لأنّها كالمادّة القريبة للملّة الإسلاميّة، وهي متمّم صورتها.

ولابدّ أن يعلم أنّ النسخ في الشرائع الإلٰهيّة يقتصر علىٰ تلك الأحكام الشرعية التي تتبدّل بحسب المصالح والظروف، فيكون تبدل الأحكام في الشرائع المتعدّدة، كتبدّل حالات المصلّي في شريعة الإسلام من الصحّة والمرض، والسفر والحضر، وفقد بعض الشروط ووجدانه ونحو ذلك.

فلا مجرى للنسخ في أُصول الدِّين، وكذا بالنسبة إلى الأحكام العقلية التي يحكم بحسحها جميع العقلاء، والتي كشف عنها الشارع المقدّس، وكذلك بالنسبة إلى مهمّات فروع الدِّين ـ كأصل الصلاة والصوم والزكاة ونحوها ـ ويدلّ علىٰ ذلك جملة من الآيات الشريفة، قال تعالىٰ:

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾[3].

---

١. سورة المائدة: الآية ٣.

٢. سورة النساء: الآية ١٢٥.

٣. سورة الشورىٰ: الآية ١٣.

فما قيل : إنّ الأصل في كلّ شريعة أن تنسخ ما قبلها ، وقد نقل أنّه : «لم تكن نبوّة قط إلّا تناسخت» . فإن أُريد منه علىٰ نحو الجملة أو الإجمال، فهو صحيح لاريب فيه ، كما تقدّم .

وأمّا إذا أُريد منه علىٰ نحو الكلّية، فهو باطل، بل لنا أن نقول إنّ كلّ شريعة لاحقة مقرّرة للشريعة السابقة، إلّا إذا عُلم بنسخها أو بطلانها .

أقسام النسخ:

قد ذكر العلماء للنسخ أنواعاً وأقساماً ، والمهمّ منها ما كان مرتبطاً بأركانه وهي : المنسوخ ، والناسخ، ولايخفى أنّ الناسخ هو الله تعالىٰ، ويطلق على الدليل مجازاً ـ ومورد النسخ . ويظهر حكم بقيّة الأقسام ضمناً .

التقسيم الأوّل : ينقسم النسخ باعتبار الناسخ إلى أنواع ثلاثة :

الأوّل : أن ينسخ الحكم الثابت بالقرآن بمثله .

وهذا لا إشكال فيه عقلاً ، وواقع كثيراً ، كما يأتي في هذا الكتاب .

الثاني : أن ينسخ الحكم الثابت بالقرآن بالسنّة المعتبرة ، أو الإجماع القطعي .

وهذا القسم أيضاً لا إشكال فيه عقلاً ونقلاً . وخالف في ذلك بعض العلماء ، فذهب إلى أنّ نسخ الكتاب الشريف لا يكون إلّا بمثله ، واستدلّ بقوله تعالىٰ : **﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾**[١] .

بتقريب أنّ الله تعالى أسند إتيان الناسخ إلى نفسه عزّوجلّ، وما يأتيه هو القرآن فقط .

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٠٦ .

وهذا الاستدلال موهون جدّاً، فإنّ السنّة المقدّسة أيضاً من الله تعالىٰ، قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[١].

الثالث: نسخ الحكم الثابت بالقرآن بالخبر الواحد.

وفي جوازه وعدمه قولان، نسب إلى المشهور الثاني، والمسألة محرّرة في الأُصول.

التقسيم الثاني: باعتبار المنسوخ، وذكروا له حالتين.

الأُولىٰ: نسخ الحكم الثابت بعد حضور وقت العمل به. وهو واقع بلاريب ولا إشكال.

الثانية: نسخ الحكم قبل حضور وقت العمل به.

وفيه قولان: قول: بعدم صحّته، لعدم الفائدة والمصلحة فيه.

وقول آخر: بالصحّة، وهو المشهور بين الإمامية.

وأورد على القول الأوّل: بأنّ المصالح والمفاسد لايعلمها إلّا الله تعالىٰ، ولا ملزم أن يعلمها كلّ أحد، مع إمكان دعوىٰ مصلحة الامتحان والابتلاء فيه.

نعم، الغالب في النسخ أن يكون بعد حضور وقت العمل بالمنسوخ، ولكن ليس ذلك من المقوّمات الذاتية له، فالمدار علىٰ وجود المصلحة، سواء كان حضور وقت العمل، أو في أثنائه، أو قبله.

ثمّ إنّهم ذكروا أنّ الحكم الناسخ:

تارةً: يكون أخفّ من الحكم المنسوخ، مثل قوله تعالىٰ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾[٢]، بعد تحريم الجماع، والأكل والشرب بعد النوم في ليلة الصيام.

---

١. سورة النجم: الآية ٣ ـ ٤.

٢. سورة البقرة: الآية ١٨٧.

وأُخرىٰ : يكون مساوياً له ، مثل نسخ وجوب استقبال بيت المقدس بوجوب استقبال الكعبة المقدّسة .

وثالثة : يكون أشدّ ، مثل نسخ حدّ الزنا بالحبس في البيت ، والتعنيف بالحدّ مائة جلدة والرجم .

ولا إشكال في الأقسام الثلاثة إمكاناً ووقوعاً ، بل يمكن تحقّق النسخ بلا بدل، وإيكال الأمر إلى البراءة العقليّة .

إن قيل : إنّ هذا مناف لظاهر قوله تعالىٰ : **﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾** .

يُقال : الحكم البتّي العقلي يكون من (مثلها) ، لفرض أنّها مقرّرة بالكتاب والسنّة .

التقسيم الثالث : النسخ في القرآن ، وهو أنواع ثلاثة :

الأوّل : نسخ الحكم فقط ، ولا إشكال في إمكانه ووقوعه ، بل هو المشهور من النسخ إذا أُطلق في القرآن الكريم ، وهو كثير ، مثل نسخ وجوب تقدّم الصدقة علىٰ مناجاة الرسول ﷺ، قال تعالىٰ :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾[1] .

ويأتي التعرّض للآيات المتضمّنة لذلك في محالّها إن شاء الله تعالىٰ .

وخالف في ذلك بعض المفسِّرين ، بل قال بعدم وقوع النسخ في القرآن بل في شريعة محمّد ﷺ . وهو مردود عقلاً ونقلاً .

الثاني : نسخ التلاوة فقط ، والمشهور بين العامّة وقوعه في القرآن، الكريم ، واستدلّوا بآية الرجم: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، فقالوا : إنّ هذه الآية لم يعد لها وجود في القرآن ، مع أنّ حكمها ثابت .

---

١ . سورة المجادلة : الآية ١٢ .

والحقّ عدم وقوع هذا النوع من النسخ ، بل يعدّ ذلك من التحريف الذي أجمعت الإمامية علىٰ نفيه في القرآن زيادة ونقيصة ، وما استدلّوا به أخبار آحاد معارضة بروايات أُخرىٰ كثيرة تدلّ على أنّ الآية ليست من القرآن ، مضافاً إلى عدم وجود المصلحة فيه إن لم تكن فيه المفسدة .

الثالث : نسخ الحكم والتلاوة، وذهب جمهور المفسِّرين إلى إمكانه واستدلّوا علىٰ وقوعه بما ورد عن عائشة أنّها قالت : (كان في ما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثمّ نسخن بخمس معلومات ، وتوفّى رسول الله ﷺ وهن في ما يقرأ من القرآن) .

ويرد عليه ما أورد على النوع السابق ، مع أنّه لا يتصوّر معنى معقول للنسخ في هذا النوع ، وسوف نتعرّض لمسألة تحريف القرآن في المحلّ المناسب إن شاء الله تعالىٰ .

ثمّ إنّ سور القرآن بالنسبة إلى وجود الناسخ فيها ، أو المنسوخ أربعة أقسام :

القسم الأوّل : السورة التي لم يدخلها ناسخ ولا منسوخ ، كسورة الفاتحة ، ويوسف ، ويٰس ، والإخلاص ، وغيرها ، وقيل : إنّها ثلاث وأربعون سورة .

القسم الثاني : السورة التي فيها ناسخ ومنسوخ ، وهي البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة وغيرها من السور التي عدّوها .

القسم الثالث : السور التي فيها ناسخ وليس فيها منسوخ ، وهي الفتح ، الحشر ، المنافقون وغيرها من السور التي ذكروها .

القسم الرابع : السور التي فيها منسوخ ، وليس فيها ناسخ ، وهي طٰه، والرعد، وغيرهما من السور التي عدّوها .

ولكن في هذا التفصيل خلاف بين المفسِّرين، وسيأتي تفصيل كلّ ذلك في محلّه إن شاء الله تعالىٰ. وقد حصر بعض المفسِّرين جميع الآيات المنسوخة في عشرين آية، ومع ذلك فيه بحث.

***

الآية ١٠٩ ـ ١١٣

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى مكائد اليهود ومكرهم بالنسبة إلى المسلمين، بيّن تعالى في الآية الأُولى أنّ سبب ذلك هو الحسد ـ وخبث نفوسهم ـ الذي لا ينفك عنهم. ثمّ وعد المسلمين بالنصر، وأَمَرهم بالإيمان والعمل الصالح، لئلا يتأثّروا بشُبَهِ المنكرين، وتشكيك الكافرين. ثمّ ذكر جلَّ شأنه بعض أمانيهم الفاسدة الأُخرىٰ، وهو انحصار دخول الجنَّة باليهود أو النصارىٰ، وقد أبطل ذلك تعالىٰ بالدليل العقلي، وهو أنّ الجنَّة لا تكون إلّا بالعمل الخالص، بل هي نفس العمل الخالص، فقطع أمانيهم بذلك.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً﴾:

مادّة (و د د) تأتي بمعنى المحبّة، وتستعمل في التمنّي أيضاً، لأنّه مشتمل على المحبّة ومتضمّن لها. أي تمنّى كثير من اليهود والنصارى أن يرجعوكم عن دينكم ويردّونكم إلى الكفر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾:

الحسد: تمنّي زوال نعمة عمّن يستحقّها، سواء أرادها لنفسه أو لا، بخلاف الغبطة التي هي تمنّي مثل تلك النِّعمة للنفس، من دون إرادة زوالها عن الغير. والأوّل مذموم، والثاني محمود، فعن نبيّنا الأعظمﷺ: «المؤمن يغبط، والمنافق يحسد»، وفي الحديث القدسي: «المتحابّون في جلالي، لهم منابر من نور يغبطهم النبيّون».

والمعنىٰ: أنّ حبّهم لإضلالكم عن الإيمان، وإرجاعكم إلى الكفر سببه الحسد الكائن في نفوسهم، من بعد ظهور الحقّ بأنّ محمّداًﷺ هو النبيّ الموعود المبشّر به في كتبهم، وإتمام الحجّة عليهم بالآيات التي أتى بها. وفي قوله تعالىٰ: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾ إيماءٌ إلى أنّ ما يصدر عنهم إنّما هو من سوء سرائرهم، وفساد أخلاقهم، لا أن يكون عن غبطة لحقّ، أو غيرة عليه، أو شبهة ونحو ذلك.

والآية المباركة تشير إلى أمر طبيعي، وهو أنّ كلّ طائفة إذا اعتنق أفرادها أمراً وصار ذلك الأمر مألوفاً عندهم، يحبّون أن يكون غيرهم علىٰ طريقتهم،

---

١. سورة آل عمران: الآية ٦٣.

لاسيما إذا ما يخالف ذلك القديم، فيتصدّون له ويعارضونه بكلّ ما أمكنهم، وينتهي إلى الحسد الكائن في النفوس، فيكون ذلك من عند أنفسهم بعد ظهور الحقّ.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إشارة إلى هذا الأمر الطبيعي المنغرس في الفطرة في بداية ظهوره، كما أنّ في قوله تعالىٰ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾[١]، إشارة إلى ذلك بنحو مطلق.

قوله تعالىٰ: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾:

العفو: ترك المؤاخذة على الذنب. والصفح: إزالة أثره عن النفس، والإعراض عن المذنب بصفحة الوجه، وهما والتجاوز بمعنى واحد، وهي من مكارم الأخلاق.

أي عاملوا النّاس بمكارم الأخلاق من العفو والصفح والإغماض عنهم، وحسن المعاشرة معهم، حتّىٰ يشتدّ أمركم، وتغلب شوكتكم، ويمكّنكم الله منهم فتعملوا فيهم بما هو الفلاح.

وفي الآية المباركة إيماء إلى أنّ المسلمين مع قلتهم حين ذاك هم أصحاب القدرة والمنعة، فإنّ العفو والصفح إنّما يطلبان من القادر. وفيها البشارة بالغلبة وتأييدهم بالعناية الإلٰهيّة.

قوله تعالىٰ: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾:

من القتل، أو الطرد والجلاء ونحو ذلك. والمراد من الأمر الأعمّ من التشريعي وهو الجهاد، والتكويني.

وفيه البشارة للمؤمنين بوعدهم التأييد والنصر والغلبة، كما أنّ فيه التهديد للكافرين علىٰ أن لا يتعرّضوا للمسلمين بسوء فإنّهم في حصن الله تعالىٰ.

---

١. سورة النساء: الآية ٨٩.

والسياق يدلّ على أن الصفح والعفو محدود بزمان خاصّ، بقرينة آيات أُخرىٰ وردت في الجهاد والقتال، فهذه الآية المباركة منسوخة بتلك الآيات، بل نفس هذه الآية الشريفة مغيّاة بغاية خاصّة فلا معنى للنسخ الحقيقي حينئذٍ.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾:
تأكيد للوعد الذي وعده للمؤمنين.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾:

بعد أن أمرهم بالعفو والصفح، والمداراة مع الأعداء ليأمنوا من كيدهم ظاهراً، ويجلبوا قلوبهم إلى الإسلام واقعاً، أمرهم تعالى بأقوى أسباب الاتّصال بينهم وبين الله عزّوجلّ، والتمسّك بأوثق عرى الإسلام، ليحصل ارتباطهم مع خالقهم، وهي الصلاة، فإنّها من أقوىٰ دعائم الدِّين، وأبرز مظاهر إسلام المسلمين، فيتنزّه العبد بمناجاة الله تعالى عن إتيان الفواحش والمحرّمات، وأمرهم بإتيان الزكاة وصلة الأغنياء للفقراء، وفي ذلك من الوحدة والائتلاف ورفع التفرّق والاختلاف ما لا يخفى، وقد تقدّم تفسير هذه الآية المباركة.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ**﴾:

أي: إنّ ما تعملونه في دار التكليف والعمل محفوظ عند الله، فلا يرغب عامل عن العمل، ولايعتريه ريب، فكلّ خير يصدر منكم تجدون جزاءه عند ربّكم، فالدعوة عامّة، والرحمة تامّة، والوفاء ثابت، فإنّه تعالىٰ هو الذي يأخذ منكم ذلك، ولا يتصوّر أن يضيع ما أخذه، كما قال تعالىٰ: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه**﴾[1].

---

١. سورة الزلزلة: الآية ٧ ـ ٨.

وهذه الآيات المباركة وما في سياقها صريحة في ظهور نفس العمل من حيث هو في الدار الآخرة، وفيها تأكيد لتثبيت النفوس علىٰ رؤية نفس العمل، إلّا أنّه يربّىٰ كما يشاء الله تعالىٰ، وفي الحديث: «كما يربّي أحدكم فصيله». وسيأتي في المحلّ المناسب إن شاء الله تعالى تفصيل الكلام.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾:

قد تكرّرت هذه الآية الشريفة في القرآن كثيراً، وفي بعضها بدأت بالإعلام، قال تعالىٰ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[١] وهو يدلّ علىٰ علمه الإحاطي بالجزئيات، ويكفي في ذلك قوله تعالىٰ:

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢].

ومنه يظهر بطلان ما نسب إلى جمع من الفلاسفة من نفي علمه تعالى بالجزئيات، لتوقّف العلم بها على الآلات الجسمانية، وهو تعالى منزّهٌ عنها. فأرادوا التنزيه فوقعوا في التعطيل، ومثل ذلك كثير، وسنعود إلى تفصيل المقال في مباحث العلم إن شاء الله تعالىٰ.

وفي الآية المباركة من الترغيب علىٰ إتيان الأعمال الصالحة، والترهيب عن المعصية ما لا يخفى.

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾:

عطف علىٰ قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وفي الكلام اختصار بديع، وإيجاز حسن.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٣٣.

٢. سورة سبأ: الآية ٣.

أي: قالت اليهود لن يدخل الجنّة إلّا مَن كان يهودياً، وقالت النصارى كذلك في أنفسهم، واشتراكهما في القول أوجب جمعهما في القول، وهذا زعم كلّ مَن يدّعي الاعتقاد بدين، وهو غافل عن أحكامه، أو جاحد معاند.

وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بكلمة «هود» دون التعبير باليهود، لأنّ هود قوم منهم يقولون لا يقبل الله توبة عبد إلّا مَن كان منهم، ولذا خصّهم بالذكر، ولكن الظاهر أنّ جميع اليهود يقولون بذلك، ولعلّ التعبير كان باعتبار منشأ الحدوث.

ولازم كلام كلٍّ من الطائفتين نفي دخول المسلمين الجنَّة.

قوله تعالىٰ: **﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾**:

أي: أنّ قولهم ذلك من مجرّد أُمنياتهم التي لاتتجاوز عن الخيال، ولا واقع لها بوجه، والمقام من مصاديق قوله تعالىٰ: **﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾**[١]، وهذه من جملة تلك الأماني.

قوله تعالىٰ: **﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾**:

تكذيب لهم ومطالبتهم بالبرهان علىٰ دعواهم، وهذا شأن كلّ دعوى، فإنّها لاتقبل إلّا مع إقامة برهان علىٰ صدقها، وإلّا كانت دعوى كاذبة.

قوله تعالىٰ: **﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾**:

بلى: كلمة ردّ لما زعموه، وتقدَّم ما يتعلَّق بها في قوله تعالىٰ: **﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾**[٢].

مادّة (س ل م) تدّل على السلامة من العيب والنقص والخلوص، بلا فرق

---

١. سورة البقرة: الآية ٧٨.

٢. سورة البقرة: الآية ٨٢.

بين كون العيب والنقص من الجسمانيات أو المعنويات، في الدُّنيا أو في الآخرة:

قال تعالىٰ: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢].

واستعمالات هذه المادّة كثيرة بهيئات مختلفة، ومنها (الإسلام) لخلوصه، وتخليصه للمعتقد به عن المعائب والنواقص المعنوية.

والمراد بأسلم في المقام التوجّه والخضوع، والصدق والتخليص، كما قال نبيّنا الأعظم ﷺ في معنى الخلوص:

«أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

والوجه مستقبل كلّ شيء وأشرفه، وطريق الوصول إليه، ويطلق على الذات أيضاً. والمراد هنا عمل الجوانح، وأعمال الجوارح، فيكون المعنى من أخلص دينه لله تعالى اعتقاد وعملاً وهو محسن في عمله، فيكون المناط كلّه في السعادة الأبدية، هو الإيمان والعمل، وقد تكرّر ذلك في القرآن الكريم في مواضع متعدّدة بعبارات مختلفة نفياً وإثباتاً، ونظير هذه الآية المباركة، قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[٣].

قوله تعالىٰ: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾:

هذا من قبيل ترتّب المعلول على العلّة، فإنَّ مَن أخلص وجهه لله اعتقاداً وعملاً، وأحسن في عمله له أجره ولا خوف عليهم من التوقع، ولا يحزنون على

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٢٧.

٢. سورة الشعراء: الآية ٨٨ ـ ٨٩.

٣. سورة البقرة: الآية ١٣٥.

الواقع ، وذلك من قبيل السالبة المنتفية بانتفاء الموضوع .

وفي قوله تعالىٰ : ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾ دلالة علىٰ أنّه الأجر محفوظ عن التغيير والتبديل ، كقوله تعالىٰ : ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾[١]، مضافاً إلى الأدلّة العقلية الدالّة علىٰ ذلك .

ثمّ إنّ إسلام الوجه لله عزّوجلّ بالتوجّه إليه ، وسلوك طرق مرضاته والخضوع والانقياد له تعالىٰ ، والإقبال عليه ، وصرف النظر عن غيره ، والمواظبة على الإخلاص، يجعل الفاعل في المحلّ الأعلىٰ من الكمالات المعنوية ، ويجلو جوهر النفس عن الرين والفساد ، ويمنع عن استيلاء الأغيار عليها ، فيفتح له باب إلى الغيب المحجوب، فيرى ما في نفسه من المساوئ والعيوب . وتقدّم أنّ النفس فاعل للعمل ، والعمل مؤثّر في النفس ، ويأتي في آيات أُخرىٰ مزيد بيان لذلك .

قوله تعالىٰ : ﴿**وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ**﴾ :

أي : ادّعى كلّ فريق أنّ صاحبه ليس علىٰ شيء . وذلك أنّ أصحاب كلّ نحلة ودين لا يرون غيرهم علىٰ حقّ ، وهذا الاختلاف قديم جدّاً يرجع إلى أوائل الخليقة ، ومنذ حدوث الاجتماع الإنساني ، فكلّ طائفة ترمي الطائفة الأُخرى بالباطل ، بل نرى ذلك بين المذاهب المختلفة من دين واحد، فضلاً عن الأديان المختلفة ، ويدلّ علىٰ ذلك قوله تعالىٰ :

﴿**كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾ .

ولو تأمّلنا في المنشأ الحقيقي لذلك، فإنّه لا يرجع إلّا إلى الوهم والخيال، وطرح العقل المؤيّد بالشرع ، وتغليب الهوى، مع أنّ الحقّ واحد في جميع الأديان

---

١ . سورة النحل : الآية ٩٦.

الإلٰهيّة التي يجمعها أنّها من الله الواحد وكتاب منزل منه تعالىٰ، وأنّه لا يوجد دين سابق إلّا ويبشّر بالدين اللّاحق، كما أنّ الأخير متمِّم للسابق، وما عدا ذلك فهو من الوهم والخيال، فتراهم يكفرون بأنبياء الله تعالى ورسله وكتبه، وعليه جرت طريقتهم حتّى صار يُعدّ من الأُمور الاجتماعية بين البشر، وكم كان جديراً بالإنسان أن يرجع إلى فطرته، ويهتدي بهدي عقله، وينبذ الاختلاف والعناد، حتّى يرى ما كان يجلبه من الخير والصلاح، ولم يصل إلى ما وصل إليه من الانحطاط والافتراق، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر.

قوله تعالىٰ: ﴿**وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**﴾:

أي: أنّهم قالوا ذلك وهم يتلون التوراة والإنجيل، وفيهما ما يأمرهم بخلاف ما يقولون، فإنّ أحد الكتابين يدعو إلى الآخر، وكلاهما يدعوان إلى القرآن، كما أنّ الأخير يدعو إليهما، فما بالهم ينقضون كتابهم، ولا يعملون بدينهم. وفي ذلك من التوبيخ مالا يخفىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿**كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ**﴾:

أي: إنّ الذين لايعلمون من الحقّ شيئاً يقولون مثل قولهم، سواء كانوا من المشركين أو الكفّار، بل يشمل كلّ مَن لا يعلم بالحقّ ولا يعمل به وغلب عليه هواه، ولو كان من المسلمين.

إن قيل: إنّ الآية المباركة تدلّ علىٰ ذمّ التقليد، وقد جرت سيرة المسلمين عليه خَلَفاً عن سلف.

يُقال: التقليد تارةً يكون عن حجّة معتبرة وبحجّة كذلك، وأُخرىٰ لايكون كذلك. والثاني باطل ومذموم دون الأوّل.

قوله تعالىٰ: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾:

أي: أنّ الجميع يرجع إليه، وينتهي الحكم إليه، فهو الحاكم بينكم في هذا الاختلاف، ويحكم لمن كان منكم على الصراط المستقيم.

بحث دلالي:

تتضمّن الآيات الشريفة أموراً:

الأوّل: العفو والصفح عن المذنبين، والصبر علىٰ أذى الأعداء، وانتظار الفرصة لتهيئة العدّة للغلبة عليهم.

الثاني: لايمكن أن تتحقّق الغلبة على الأعداء ما لم توثّق عُرى الإيمان بين العبد وبين الله تعالىٰ، ثمّ توثيق الروابط بين الأغنياء والفقراء، وتحقّق الوحدة الاجتماعية، ليكونوا يداً واحدة على الأعداء.

الثالث: العلم بأن ما يصدر من العبد من خير مذخور عند الله تعالىٰ، وأنّ جزاء عمله حاضر لديه عزّوجلّ.. ممّا يوجب سكون النفس في العزيمة، فلايؤثر فيها تشكيك المبطلين، وشُبَه المفسدين. ويزيد في ذلك شهود الله تعالى لأعمال العباد، ومراقبته لعبيده، وربوبيّته العظمى لهم، ممّا يجعل الإنسان مواظباً علىٰ ما يصدر منه من الأعمال والأقوال.

الرابع: يستفاد من قوله تعالىٰ: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، أنّ المدار في ارتقاء النفس بالمعنويات، والفوز بالدرجات العاليات، إنّما هي عبادة الله تعالىٰ وطاعته عزّوجلّ، لا مجرّد التسمية بكون الشخص يهوديّاً أو نصرانيّاً أو مسلماً، والآيات المباركة في هذا المعنى كثيرة جدّاً، والسنّة فوق حدّ التواتر بين المسلمين، فمثل هذه الآيات الشريفة مطابقة للعقل والفطرة السليمة، حيث جعلت المناط على

العمل والحقيقة، دون مجرّد التسمية فقط، قال تعالىٰ:

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلاٰ كُفْرانَ لِسَعْيِهِ وَ إِنّا لَهُ كاتِبُونَ﴾[1].

بحث روائي:

في «الدرّ المنثور» في قوله تعالىٰ: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾** الآية:

(أنّ كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبيّ صلى الله عليه وآله، ويحرّض عليه كفّار قريش في شعره، وكان المشركون واليهود من أهل المدينة ـ حين قدمها رسول الله صلى الله عليه وآله ـ يؤذون النبيّ وأصحابه أشدّ الأذى، فأمر الله تعالى نبيّه بالصبر علىٰ ذلك والعفو عنهم، وفيهم أُنزلت: **﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾**).

وفيه أيضاً، عن ابن عبّاس، في قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ﴾** الآية:

(نزلت في يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران، وذلك أنّ وفد نجران لمّا قَدِموا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاهم أحبار اليهود، فتناظروا حتّى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم علىٰ شيء من الدِّين، وكفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم علىٰ شيء من الدِّين، وكفروا بموسى عليه السلام والتوراة فأنزل الله تعالى هذه الآية).

وقريب من ذلك ما رواه في المجمع، عن ابن عبّاس، وما روي عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

---

١. سورة الأنبياء: الآية ٩٤.

أقول : مع غضّ النظر عن أسانيد الأحاديث، لا يمكن الاعتماد علىٰ متونها، لأنّ النصارى مطلقا يعترفون بالتوراة، ونبوّة موسى عليه السلام ، لأنّ الإنجيل متمّم للتوراة ، ومشتمل علىٰ كثير من أحكامها .

***

الآية ١١٤ـ١١٥

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴿١١٤﴾ وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴿١١٥﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه وتعالىٰ مثالب اليهود والنصارى، بيّن تعالىٰ في هذه الآية المباركة بعض ما وقع منهم من الظلم النوعي ـ بأن منعوا المساجد أن يتعبّد فيها ـ ثمّ أوعدهم الله تعالى بالخزي في الحياة الدُّنيا، والعذاب العظيم في الآخرة، وَرَدَّ عليهم بأنّه لايحدّه مكان ولا جهة، فيجوز لكلّ إنسان أن يعبد الله تعالىٰ في أي مكان وأيّة جهة، فإن الله تعالى واسع المغفرة، عليم بطاعة عباده.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾:

المساجد هي الأماكن المحررة للعبادة والسجود لله تعالىٰ، بل يمكن أن يُراد بها مضافاً إلى ذلك، عباد الله المخلصين الذين أفنوا جميع شؤونهم وحيثيّاتهم في طاعة الله تعالى وعبادته، بكلّ معنى العبودية، فصاروا من مظاهر آيات الله كالمساجد وعبادته، فيكون المراد من منعهم عن ذكر اسم الله تعالىٰ،

السعي في تشتّت حالهم، وتفرّق بالهم، وهجرانهم الأهل والديار، وتشديد الردّ عليهم، ليسكتوا عن إظهار الحقّ، وإزالة الباطل، فتاهوا في الأرض بلا سند ولا ذنب، غير أنّهم يقولون: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]، بل لا يبعد التعدّي إلى مطلق ما أعدّ لذلك كعرفات والمشعر الحرام ومنى.

ووجه كونه أظلم من غيره، لأنّه جُمع في المساجد حقّ الله تعالى وحق الناس، فوقع الظلم بالنسبة إلى الحقّين، فيكون المنع عن ذكر اسمه فيها ظلماً نوعيّاً، وتترتّب عليه المفاسد فيكون أظلم.

والمنع من ذكر اسم الله تعالىٰ فيها، أعمّ من أن يكون بالمباشرة أو التسبيب، وربّ سببٍ أقوىٰ من المباشر.

والمراد بالذكر الأعمّ ممّا كان باللسان، أو القلب، أو الجوارح كالصلاة مثلاً، ويشمل كلّ عبادة الله تعالىٰ، ولو كانت بمجرّد الإمساك كالصوم في المسجد مثلاً، فإنّ الجميع داخل تحت عنوان الله تعالى، إلّا أنّ ظهوره في البعض أكثر من الآخر، وذلك لاينافي ظهور الإطلاق. كما أنّ المراد من اسمه تعالى الأعمّ أي كلّ ما به الإشارة إليه عزّوجلّ وكان له تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾:

المراد به إمّا تهديمها، كما وقع من بعض العتاة والجبابرة، أو تعطيلها عن إقامة الشعائر فيها. وحكم الآية المباركة عام لايختصّ بفرد خاصّ، وما ورد في شأن النزول فقد ذكرنا مراراً أنّه من باب التطبيق. وللمفسرين في المقام تفاسير غريبة، لا يخفىٰ بطلان بعضها.

---

١. سورة الأحقاف: الآية ٣١.

قوله تعالىٰ: ﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾:

يمكن أن يُراد بدخولهم خائفين الإخبار عن مستقبل حالهم بعد استيلاء المسلمين وتسلّطهم عليهم، وطردهم عنها، كما في فتح مكّة، وفي الآية المباركة إشارة إلى منعهم عن دخول المساجد. أو أن يُراد به الإخبار عن حالهم الفعلي، من أنّهم في خوف واضطراب، أي مَن صدر منه هذا الظلم يخاف علىٰ نفسه في الجملة، ولو كان كافراً، لأنّه يرىٰ نفسه محارباً له تعالىٰ مباشرة.

ويُحتمل أن يكون تعجيباً منهم، وتوبيخاً لهم، أي أنّه ما كان لهم إلّا أن يدخلوها خاشعين لله تعالىٰ خائفين من عقابه تعالىٰ، لا أن يدخلوها مفسدين مخرِّبين، فإنّها وُضعت لعبادة الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾:

الخزي بمعنى الإهانة والاستخفاف والانكسار، وقد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم بالنسبة إلى الدُّنيا والآخرة، قال تعالىٰ:

﴿فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[3].

وقد ظهر خزيهم في عام الفتح بكسر أصنامهم، وخذلانهم، وتسفيه أحلامهم، وتشتّت دولتهم، ولحوقهم الذلّ والهوان، إلىٰ غير ذلك ممّا أعدَّ الله

---

١. سورة التوبة: الآية ٦٣.

٢. سورة فصّلت: الآية ١٦.

٣. سورة الحجّ: الآية ٩.

تعالى للظالمين، فكيف بمن كان أظلم.

ولهم في الآخرة عذاب عظيم، بما أعدّه الله تعالى للمحاربين مع الله ورسوله، ومنع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، وما يترتّب عليه من الفساد، فالآية من القضايا العقلية.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾:

المشرق موضع الشروق، والمغرب موضع الغروب، وهما أمران إضافيان يختلفان باختلاف حركة المنظومة الشمسية، فتحقّق المشارق والمغارب لا محال، ولذا قال تعالى في آية أُخرىٰ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾[1].

وأمّا الاعتدالي منها اثنان، قال تعالىٰ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[2].

والكلّ مُلْكه، ومن مظاهر آياته تعالىٰ.

وإنّما خصّ جلَّ شأنه المغرب والمشرق بأنّهما ملكه عزَّوجلَّ، لأنّه يستلزم مالكيّته تعالى لجميع الجهات ملكيّة حقيقية، فإنّ الكلّ تحت سلطانه وربوبيّته، فالمتوجّه إليهما متوجّه إليه تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾:

المراد بالتولّي هنا الإقبال والتوجّه إليه عزّوجلّ. وقد تقدّم معنى الوجه في قوله تعالىٰ: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[3]. والمراد به في المقام التوجّه.

---

١. سورة المعارج: الآية ٤٠.

٢. سورة الرحمٰن: الآية ١٧.

٣. سورة البقرة: الآية ١١٤.

و«ثمّ» تستعمل في المحل البعيد، سواء كان بعيداً عن العقول والأفكار، أو بعيداً مكانياً، ويدلّ على الأوّل قول الصادق‏عليه السلام: «مَن تعاطى ثَمَّ هلك»، حيث يدلّ على خطر التفكير في ذات الله تعالىٰ.

وعلى الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً**﴾[1]، وكذا المقام.

قوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾:

متعلّق وسع يصحّ أن يكون كلّ ما يضاف إليه عزّوجلّ من ملكه، وعلمه، وحكمته، وقدرته وإحاطته وتدبيره، قال تعالىٰ: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾[3].

وقال تعالىٰ: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[4].

وقد ذكر ﴿**واللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ في عدّة آيات.

ولعلّ هذا التعبير في الآيات المباركة عبارة عن عدم التناهي في جميع صفات كماله وجماله، كما أثبته الفلاسفة المتألّهون، أي أنّ الله تعالىٰ واسع في رحمته ولطفه بالتوجّه إليه في عبادته.

ومفاد الآية المباركة قاعدة كلّية، وهي أنّ الله تعالى لا يختصّ بمكان، ولا تخصه جهة خاصّة، وهو منزّه عن أي جهة ومكان، فهو واسع لا يحدّه مكان، إلّا أنّ حكمته المتعالية اقتضت ـ لمصالح ـ أن يخصّ بعض الأمكنة بالاستقبال

---

١. سورة الإنسان: الآية ٢٠.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٥٥.

٣. سورة الأنعام: الآية ٨٠.

٤. سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

في موارد خاصّة في الشريعة المقدّسة ، وفي غيرها يرجع إلى عموم هذه الآية الشريفة ، فما ورد في تفسير الآية المباركة أنّها نزلت في صلاة النافلة، إنّما هو من باب التطبيق ، وممّا يدلّ علىٰ ذلك ذيل الآية الشريفة ، فإنّ سياقها يدلّ علىٰ توسيع موضوع التوجّه إليه عزّوجلّ ، وأنّه غير محدود بحدّ ، أو مكان خاصّ، بل المناط كلّه هو التوجّه إليه تعالىٰ ، وأمّا سائر الخصوصيّات ـ من المكان والزمان ونحوهما ـ فهي مطلوب آخر، ربما يسقط لعذر أو ضرورة ، ويظهر من ذلك وجه ارتباطها بالآية السابقة ، فإنّه تعالىٰ بعد أن ذمّ من منع المساجد أن يُذكر فيها اسمه، ذكر تعالى أنّه لا يحدّه مكان وجهة خاصّة .

بحث روائي:

عن القمّي في قوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**، إنّها نزلت في قريش حين منعوا رسول الله صلى الله عليه وآله دخول مكّة .

ورواه في المجمع عن الصادق عليه السلام .

أقول : هذا الحديث ممّا يدلّ على إطلاق المسجد علىٰ مكّة، كما في قوله تعالىٰ : **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾**[1] مع الاتّفاق علىٰ أنّ المعراج كان من بيت أُمّ هاني . والظاهر أنّه من باب التطبيق لا التخصيص .

وفي المجمع ، عن زيد بن علي ، عن آبائه ، عن علي عليه السلام ، في قوله تعالىٰ : **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾**.

قال : «إنّه أراد جميع الأرض، لقول النبيّ صلى الله عليه وآله : جُعِلت لي الأرض مسجداً ، وترابها طهوراً» .

---

١ . سورة الإسراء ، الآية ١ .

أقول : هذا تنزيل صحيح ، لأنّ كلّ مَن منع من طاعة الله تعالى وعبادته بأيّ وجه كان، يدخل في حكم الآية ، وإن لم يكن داخلاً في منطوقها .

وعن ابن عبّاس ومجاهد في الآية المتقدِّمة، أنّها «نزلت في الروم؛ لأنّهم غزوا بيت المقدس ، وسعوا في خرابها ، حتّى كانت أيّام عمر فأظهر الله عليهم المسلمين ، وصاروا لا يدخلونها إلّا خائفين» .

أقول : إن صح الحديث يكون من أحد موارد التطبيق .

وعن قتادة والسُدي: أنّها نزلت في بختنصر وأصحابه، «غزوا اليهود وخرّبوا بيت المقدس ، وأعانتهم علىٰ ذلك النصارى من أهل الروم » .

أقول : علىٰ فرض صحّة السند، يكون متنه مخالفاً لما هو المعلوم من التاريخ من تأخّر النصارى عن بختنصر بقرون عديدة ، فلا يمكن الاعتماد علىٰ مثل هذه الحديث .

وعن القمّي ، عن موسى بن جعفر عليه السلام، في قوله تعالىٰ : **﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾**:

«أنّها نزلت في صلاة النافلة تصلّيها حيث توجّهت إذا كنت في سفر . وأمّا الفرائض فقوله تعالىٰ : **﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**، يعني الفرائض لايصلّيها إلّا إلى القبلة » .

أقول : صدر الحديث ورد في بيان بعض المصاديق ، كما سيأتي في البحث الفقهي ، وأمّا ذيل الحديث فهو في صلاة الفريضة في حال الاختيار ، وأمّا حال الاضطرار والتحيُّر فله أحكام خاصّة مذكورة في الفقه ، فلا وجه لاحتمال الناسخيّة والمنسوخيّة بين هذه الآية المباركة، وقوله تعالىٰ : **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ**

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾[١]، لاختلاف موردهما بالنصوص المستفيضة، بل المتواترة التي هي شارحة للقرآن.

وفي «الدرّ المنثور»، عن مجاهد: (لمّا نزلت **﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**[٢]. قالوا: إلى أين؟ فأُنزلت: **﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾**).

أقول: هذا أيضاً من أحد موارد التطبيق.

وعن الواحدي، عن ابن عبّاس:

(هذه الآية منسوخة بقوله تعالىٰ: **﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾**).

أقول: تقدّم أنّه لا وجه لاحتمال النسخ، لاختلاف المورد فلابدّ من طرح هذا الخبر.

بحث فقهي:

قد يُستدلّ بقوله تعالىٰ: **﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾** علىٰ عدم جواز دخول الكفّار والمشركين في المساجد، بتقريب أنّه إذا استولى عليها المسلمون وحصلت تحت سلطانهم فلا يمكّنون الكافر حينئذ من دخولها.

والصحيح أنّ الآية الشريفة لوحدها لاتدلّ علىٰ ذلك، إلّا بضميمة قوله تعالىٰ: **﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾**[٣]، وقول نبيّنا

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٠.

٢. سورة غافر: الآية ٦٠.

٣. سورة التوبة: الآية ٢٨.

الأعظم ﷺ: «ألا لا يحجّن بعذ العام مُشركٌ ولا يطوفنّ بالبيت عريان»، بعد الإجماع علىٰ عدم الفرق بين المشرك وغيره من الكافرين، وكذا سائر المساجد من هذه الجهة، كما يأتي في قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[١].

ثمّ إنّه قد يتمسّك بقوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، علىٰ جواز التوجّه إلى غير القبلة في عدّة موارد، وقد ذكرنا أنّ ذلك من باب التطبيق، وهي:

الأوّل: جواز صلاة النافلة على الدابّة أينما توجّهت، كما في صحيح حريز، عن أبي جعفر عليه السلام:

«أنزل الله هذه الآية ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ في التطوّع خاصّة، وصلّىٰ رسول الله ﷺ إيماءً علىٰ راحلته، أينما توجّهت به، حيث خرج إلى خيبر، وحين رجع من مكّة، وجعل الكعبة خلف ظهره».

وروى مسلم، عن ابن عمر: «كان رسول الله ﷺ يُصلّي وهو مقبل من مكّة إلى المدينة علىٰ راحلته حيث كان وجهه».

ورواه في «الدرّ المنثور» عن جماعة.

الثاني: صحّة صلاة الخوف والتحيّر، كما روى زرارة، عن الصادق عليه السلام: «لا يدور إلى القبلة».

وروى الترمذي، عن ابن ربيعة: «كنّا مع النبيّ ﷺ في سَفرٍ في ليلة مظلمة، فلم ندر أين القبلة؛ فصلّىٰ كلّ رجل منّا علىٰ حياله، فلمّا أصبحنا ذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾».

الثالث: جواز سجود التلاوة لغير القبلة، رواه الصدوق في «العلل»، عن

---

١. سورة الأعراف: الآية ٣١.

الحلبي، عن الصادق عليه السلام: «يسجد حيث توجّهت دابّته».

الرابع: عدم قضاء صلاة الفريضة إذا صلّيت خطأً لغير القبلة، فقد روي في «الفقيه» عن الصادق عليه السلام، وتمسّك الجمهور برواية ابن ربيعة المتقدِّمة، وفيه تفصيل ذكرناه في الفقه.

وهناك موارد أُخرىٰ تعرّضنا لها في كتابنا «مهذّب الأحكام»، ومن شاء فليرجع إليه.

***

الآية ١١٦ ـ ١١٧

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

ذكر سبحانه وتعالى من قبائح عقائدهم ومساويها، حيث نسبوا الولد إليه تعالىٰ، وردَّ الله عزَّوجلَّ عليهم متدرِّجاً بحسب فهم المخاطبين، فحكم أوّلاً أنّه غنيٌّ مطلق لا يحتاج إلىٰ شيء من خلقه، وثانيّاً أنّ خلقه خاضع لإرادته، وثالثاً أنّه خلق الخلق من غير مثال، فلا يعقل نسبة الولد إليه.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾:

الاتّخاذ من الأخذ، وضُمِّن هنا معنى الجعل والإحداث، نظير قوله تعالىٰ:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾[1].

والقائل بذلك اليهود والنصارىٰ وبعض مشركي العرب، كما حكى الله تعالىٰ عنهم في كتابه المجيد، قال تعالىٰ:

﴿قَالَتْ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾[2].

---

١. سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

٢. سورة التوبة: الآية ٣٠.

وقال تعالىٰ: ﴿قَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[١].

وقال تعالىٰ: ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٢].

بل قد صدر عن غيرهم من أصحاب الديانات، حيث جعلوا زعماء دياناتهم أبناء الله تعالىٰ، مولودين منه سبحانه وتعالىٰ، وذلك لأنّهم يرون أنّ ذلك كمال لمن يعظمونه. وهذا من غاية جهلهم، حيث يزعمون أن كلّ ما يكون كمالاً لهم يكون كمالاً لله تعالىٰ، كما قال عليّ عليه السلام: «ولعلّ نمل الصفا يزعم أنّ لله زبانيتين».

قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾:

من التسبيح، وهو التنزيه المشوب بالعظمة والتعجّب، قولاً وفعلاً، قلباً وتسخيراً، قال تعالىٰ:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٣].

وسبحانه مصدر كغفران، لايستعمل إلّا مضافاً، فإنّ أصله «سبحته سبحاناً» فحذف الفعل وأُضيف المصدر إلى ضمير المفعول وقام مقامه. ويستعمل في تنزيهه عن جميع ما لايليق به عزّوجلّ، فيجتمع فيه جميع الصفات السلبية.

قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

شروع في الردّ عليهم، فحكم بأنّه غني لايحتاج إلى أحد، وأنّ كلّ ما في السماوات والأرض مملوك له بالإيجاد والاختراع، ومَن كان كذلك لايُتصور

---

١. سورة المائدة: الآية ١٨.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٠٠.

٣. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

الولد بالنسبة إليه.

هذا إذا كان المراد بالولد معناه اللغوي العرفي، أي النَسَبي منه، وأمّا إذا كان المراد الاتّخاذي منه، كما هو الظاهر من لفظ الاتّخاذ في جملة من الآيات المباركة المشتملة علىٰ عنوان ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾[١]:

وقال تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً﴾[٢].

فيكون مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣].

ونظير قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٤].

فيمكن أن تصحّ النسبة حينئذٍ، إذ يكفي فيها أدنى مناسبة فضلاً عن أعلاها.

وهو باطل أيضاً، لأنّ مناط اتّخاذ الولد الحاجة، وهو تعالىٰ منزّه عنها، لأنّه الكمال الأتمّ، والغني المطلق، فلا يُعقل الاحتياج بالنسبة إليه، وهذا الوجه يجري في القسم الأوّل أيضاً، مضافاً إلى ما سيذكره سبحانه وتعالى في ما بعد.

قوله تعالىٰ: ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾:

القنوت بمعنى الدُّعاء والعبادة والخضوع، ومرجع الكلّ إلى الأخير. ولكن للخضوع مظاهر مختلفة، أي: أنّ الكلّ خاضع لإرادته ومنقاد لسلطانه، وذلك ينافي أن يتّخذ ولداً، لأنّ المعبودية المطلقة مناط للاستغناء المطلق، وولادة شيء من شيء مناط الاحتياج، وهما لا يجتمعان، فجميع ما سواه تعالىٰ يشهد له بتنزّهه عن الولد، قال تعالىٰ:

---

١. سورة يونس: الآية ٦٨.

٢. سورة الإسراء: الآية ٤٠.

٣. سورة النساء: الآية ١٢٥.

٤. سورة المجادلة: الآية ٢٢.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[1].

قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

بديع مبالغة في الإبداع، وهو إيجاد الشيء بصورة مخترعة بلا مادّة، ولا آلة، ولا مكان، ولا سَبق مثال، وهو مختصّ به عزّوجلّ.

وبالنسبة إلى غيره فهو مطلق إحداث الشيء من غير سبق الوجود، فإن كان في الدِّين فهو البدعة المحرّمة، لقول نبيّنا الأعظم ﷺ:

«كلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة سبيلها إلى النّار».

ثمّ إنّ بداعته تعالىٰ وكونه بديع السماوات والأرض، لا يختصّ بنوع دون نوع، بل يشمل جميع الموجودات بأقسام جواهرها ـ من الأنواع والأصناف ـ وأنواع أعراضها وأوصافها، ففي كلّ ذات من الذوات له تعالىٰ بدائع كثيره في أصل ذاته، وعوارضها المحفوفة به التي ربما لا تحصى ولا تعدّ، ولا حصر لذلك، فيرجع هذا الاسم فيه عزّوجلّ إلى ربوبيّته العظمى المطلقة في كلّ ذرّات الوجودات، وكلّيّاتها وأجزائها وجزئيّاتها.

وجملة ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لم تُذكر في القرآن إلّا في موردين وكلاهما في نفي الولد عنه سبحانه وتعالىٰ، أحدهما هنا، والثاني قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]، وهو برهان متين جدّاً، فإنّه مَن كان مبدعاً للسماوات والأرض وخالقاً لهما وموجداً لجميع ما فيهما، يمتنع انتساب الولد إليه، إذ لم يوجد من مخلوقاته مجانس له حتّى ينسب إليه تعالىٰ.

---

١. سورة الإسراء: الآية ٤٤.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٠١.

قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾:

مادّة (ق ض ي) قد ذكر لها معان، أنهاها بعض اللّغويين إلى عشرة، وتبعهم بعض المفسّرين، ويمكن إرجاع بعضها إلىٰ بعض، وقد خلط فيها بين الموضوع له والمستعمل فيه، بل خلط بين دواعي الاستعمال وتعدّد المستعمل فيه، ولعلّ المعنى الواحد الساري في الجميع: الفعل، بالمعنى العام الشامل للحتم والحكم ونحوهما، فقضاؤه حكم وحتم وفعل.

هذا بالنسبة إلى مطلق القضاء الذي هو من فعل الله تعالىٰ.

وأمّا ما هو في مقابل القدر، فقال الصادق عليه السلام:

«لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلّا بهذه الخصال السبع: بمشيئة، وإرادة، وقدر، وقضاء، وإذن، وكتاب، وأجل. فمن زعم أنّه يقدر علىٰ نقض واحدة فقد كفر».

أقول: هذه كلّها من فعل الله تعالىٰ، ومطابقة للبراهين العقليّة، كما سيأتي التفصيل في محلّه إن شاء الله تعالىٰ.

والأمر: الشيء، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1]، وجملة ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ تامّة لاتحتاج إلى الخبر، وهي كناية عن إرادته تعالى، والمراد بالأمر «كن» هو الإيجاد، ولا تعبير أليق من هذا التعبير الذي يكون أقرب إلى الفهم، وإلّا فليس في البين صوتٌ يقرع، ولا نداءٌ يسمع، بل كلامه تعالىٰ عين إرادته، وإرادته عين فعله.

والسرّ في هذا التعبير ـ المعبَّر عنه في الاصطلاح بالأمر التكويني ـ هو إعلام النّاس نهاية السرعة في الخلق، وعدم انفكاك المعلول عن العلّة التامّة من دون تقدّم وتأخّر، لا زماني ـ لأنّ إرادته فعله ـ ولا رتبي إلّا في فرض العقل.

---

١. سورة يٰس: الآية ٨٢.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ليس من القضايا التعليقيّة المحضة، بل هي من القضايا التي سيقت لبيان تحقّق الموضوع، كقوله «الشمس طالعة فالنهار موجود»، فتكون قضيّة «إذا طلعت الشمس فالنهار موجود» بياناً للقضية الأُولى.

ثمّ إنّه قد وقع قوله تعالىٰ: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ بعد القضاء تارةً، قال تعالىٰ:

﴿سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[1].

وبعد الإرادة أُخرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[2].

والمراد بالقضاء هو القضاء المبرم، والإرادة هو الفعل، كما أنّ المراد بالأمر (كن) هو الإيجاد، كما مرّ.

هذا في غير الأُمور التي جرت عادته تعالى فيها علىٰ تهيئة الأسباب وتقديم المقدّمات التي بيّنها التقدّم والتأخّر الزماني، والسبق واللحوق الذاتي، كنفس الزمان وما يكون مثله في الحصول التدريجي، إذ كلّ آن من الزمان الذي هو بين العدمين مورد إرادته تعالىٰ، ومورد قوله: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، وكذا جميع الممكنات من المتدرّجات وغيرها، بناءً علىٰ ما هو الحقّ من أنّ مناط الحاجة هو الإمكان لا الحدوث، ففي كلّ آن له تعالىٰ شأن جديد، وفعل حادث في جميع مخلوقاته، فلا يشغله شأن عن شأن، بل شؤونه غير متناهية بالنسبة إلى خلقه.

---

١. سورة مريم: الآية ٣٥.

٢. سورة يٰس: الآية ٨٢.

بحث روائي:

في «الكافي» ، عن هشام الجواليقي :

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول سبحان الله ما يعنى به؟ قال عليه السلام : تنزيهه» .

أقول : أي تنزيهه عن كلّ ما لايليق به ، وهذا هو معناه العرفي واللغوي أيضاً .

وفي «الكافي» و«بصائر الدرجات» عن سدير، عن أبي جعفر عليه السلام، في قوله تعالىٰ : ﴿**بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، قال عليه السلام : «إنّ الله ابتدع الأشياء كلّها بعلمه علىٰ غير مثال كان قبله ، فابتدع السماوات والأرضين ، ولم يكن قبلهنّ سماوات ولا أرضون ، أما تسمع لقوله تعالىٰ : ﴿**وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾».

أقول : يمكن أن يكون الاستدلال كناية عن أنّه إذا لم يكن ثَمَّ شيء غير الماء، فلا شيء حتّىٰ يوجد الأشياء علىٰ مثاله ، مع أنّ الماء لم يعلم أنّ المراد به هو الماء الجسم الخارجي ، أو أنّه كناية عن إظهار ملكه، وسعة رحمته بالماء الذي هو مادّة الحياة فيعمّ المجرّدات ، وستأتي تتمّة الكلام عند ذكر الآية الشريفة .

وفي «الكافي» و«التوحيد» ، عن صفوان بن يحيىٰ، قلت لأبي عبد الله عليه السلام :

«أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟

قال عليه السلام : الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل ، وأمّا من الله تعالىٰ فإرادته للفعل إحداثه لا غير ذلك ، لأنّه لا يروي ، ولا يهتمّ ، ولا يتفكّر ، وهذه الصفات منفيّة عنه، وهي من صفات الخلق ، فإرادة الله تعالىٰ هي الفعل لا غير ذلك ، يقول له كن فيكون ، بلا لفظ ، ولا نطق بلسان ، ولا همهمة ، ولاتفكُّر ، ولا كيف لذلك ، كما أنّه لا كيف له» .

أقول : الروايات في بيان أنّ الإرادة فيه تعالىٰ صفة الفعل كثيرة جدّاً .

كما أنّ الفرق بين صفة الفعل، وصفة الذات واضح، وقد أشرنا إلى ذلك في سورة الحمد.

وأمّا قوله عليه السلام «بلا لفظ ولا نطق... إلى آخره» فهو كناية عن نهاية السرعة في الخلق والإيجاد، كما ورد في رواية أُخرىٰ:

«كن منه تعالىٰ صنع، وما يكون منه هو المصنوع».

بحث كلامي:

اتّفق المتكلّمون علىٰ عدم المجانسة بين الله تعالى وبين مخلوقاته، واستدلّوا عليه بأدلّة كثيرة، منها قوله تعالىٰ: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وكما وردت فيه روايات متواترة عن الأئمّة الهداة عليهم السلام، وهو المستفاد من أقوال أكابر محقّقي الفلاسفة الإلٰهيين.

وخلاصة ما ذكروه في ذلك يرجع إلى ما ورد عن علي عليه السلام: «بائن عن خلقه بينونة صفة لا بينونة عزلة»، ولا يصحّ أن يُنسب إليهم القول بالسنخية والمجانسة، فإنّه لا يمكن أن يلتزموا بلوازمها، مع جلالة مقامهم، وقد تقدَّم بعض الكلام في آخر سورة الحمد.

وعلىٰ هذا فينتفي موضوع الولد له تعالى رأساً، لأنّه مستلزم للسنخية والمجانسة، وهي ممتنعة بالنسبة إليه.

فالآية المباركة تدلّ على امتناع المدّعى بوجوه:

والأوّل: قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ بإنّه دليل إجمالي علىٰ تنزّهه عن جميع ما لا يليق به، فإنّه أَحَديُّ الذات، واحدي الصفات، ليس كمثله شيء. كما ورد في سورة الإخلاص، فقد روي أنّه جاء نفر من اليهود إلى نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وقالوا: «انسب لنا ربّك. فأنزل الله تعالى سورة الإخلاص».

الثاني : قوله تعالىٰ : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنّه يدلّ على أنّ مناط اتّخاذ الولد هو الحاجة ، وبعد كون ما سواه ملكاً له، كيف يعقل الحاجة بالنسبة إليه تعالىٰ حتّى يتّخذ ولداً؟!!

الثالث : قوله تعالىٰ : ﴿كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾، أي خاضعون لربوبيّته وعظمته ، ولا يعقل نسبة الولد إليه مع شهادة ما سواه علىٰ تنزيهه ، قال تعالىٰ : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[١].

الرابع : قوله تعالىٰ : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهذا دليل تفصيلي علىٰ نفي المدّعى .

بيانه : أنّه تعالى مبدع الخلق ومبدؤه، بلا سبق مثال ونظير، ولا احتياج إلى رويّة وتفكير ، ولا تعب ، ولا لغوب ، فهو مستغن عن الغير ، فلا يحتاج إلى الولد .

الخامس : قوله تعالىٰ : ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ دليل آخر تفصيلي لنفي الولد، شرحه في قوله تعالىٰ : ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[٢]، وذلك لأنّ الولدية بحسب نظام التكوين، تتوقّف علىٰ صاحبة، وجرت سنّة الله تعالى في خلقه علىٰ هذا النظام ، فإذا لم تكن له صاحبة، كيف يعقل الولد له عزّوجلّ ، فجميع هذه الآية المباركة متدرّجة علىٰ حسب فهم المخاطبين .

***

---

١ . سورة الإسراء : الآية ٤٤.

٢ . سورة الأنعام : الآية ١٠١.

الآية ١١٨ ـ ١٢٣

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾.

أورد سبحانه وتعالىٰ في ما تقدّم من الآيات المباركة بعض شُبَه الكافرين والمنكرين لوحدانيّته وقدرته تعالىٰ، وأقام الحجّة علىٰ بطلان دعاويهم. وفي هذه الآيات المباركة يذكر سبحانه المنكرين لنبوّة رسوله ﷺ غروراً وعناداً، ويُقيم الحجّة عليهم، فذكر أوّلاً من أنكر نبوته بكثرة السؤال عناداً واستخفافاً بدين الله تعالىٰ، ثم وجّه الكلام إلى الكفّار فأمرهم بالإيمان، وأنّ هُدى الله أحقّ أن يتّبع، وذكر أنّ طائفة منهم يرجى الإيمان منهم، وهم الذين يتلون الكتاب حقَّ تلاوته، تسليةً لنبينا الأعظم ﷺ، ثمّ ذكّرهم بنعمه، وما يترتّب علىٰ أفعالهم في يوم الآخرة.

***

التفسير

قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾**:

لولا كلمة تُستعمل علىٰ وجهين:

أحدهما: امتناع الشيء لأجل الغير، مثل قوله تعالىٰ: **﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾**[١]، ويلزمه حذف الخبر، لقيام الجواب مقامه.

الثاني: بمعنى هلّا للعرض والطلب، ويتعقّبه الفعل، كقوله تعالىٰ: **﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً﴾**[٢].

والفارق بينهما القرائن المحفوفة بالكلام، وفي المقام تأتي بالمعنى الأخير.

والمراد من الذين لايعلمون هم الذين لايعلمون حكمة الله تعالىٰ، ولا يقرّون بنبوّة نبيّهﷺ، مع دلالة الآيات الظاهرة لهم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين.

ولعلّ التعبير بنفي العلم، وعدم إثبات الجهل لهم مماشاة معهم، لئلا ينفروا عن رسول الله ﷺ، لاسيما أنّ جمعاً من القائلين كانوا من رؤساء القوم وكبرائهم.

والمعنى: هلّا يكلّمنا الله تعالىٰ كما يُكلّم رسوله، أو ينزل علينا الآيات الخاصّة التى اقترحناها، كما حكاها عنهم في قوله تعالىٰ: **﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾**[٣]، ولم يكن ذلك منهم إلّا للعناد والجحود، فإنّ في ما أنزل الله تعالى علىٰ نبيّه دلالات واضحة ومعجزات باهرة.

---

١. سورة سبأ: الآية ٣١.

٢. سورة طه: الآية ١٣٤.

٣. سورة الإسراء: الآية ٩٠.

قوله تعالىٰ : ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ :

أي : أنّ مثل هذه الاقتراحات الفاسدة، قالها الذين من قبلهم في الأُمم الماضية ، فقد أقترح اليهود والنصارى علىٰ أنبياء الله تعالى الآيات عتواً واستكباراً ، وقد حكى تعالىٰ جملة منها في ما تقدّم من الآيات .

قوله تعالىٰ : ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ :

التشابه هو التماثل ، أي أنّ قلوبهم تماثلت في الضلال والكفر والجهل ، فإنّ الجهل وعدم العلم حقيقة واحدة، وإن اختلفت مظاهرها ، فإنّهم جميعاً يتشابهون في مكابرة الحقّ وإيذاء أنبياء الله تعالىٰ .

قوله تعالىٰ : ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ :

اليقين أخصّ من مطلق العلم ، يُقال : علم اليقين ، وحقّ اليقين ، وعين اليقين ، وفي الحديث : «لم يقسِّم الله شيئاً بين الناس أقلّ من اليقين» ويأتي الفرق بينهما بعد ذلك ، والمراد به من يطلب العلم واليقين ممّا يوجبه من الآيات ، ولديهم الاستعداد لذلك .

والمعنى : إنّا أظهرنا الآيات مع رسولنا بدلالات واضحة وكافية بما لا يدع مجالاً للشك والريب ، إلّا مَن كان من أهل الأهواء والعناد والضلال .

وقد أعرض سبحانه وتعالى عن جوابهم، إمّا لأجل أنّهم ليسوا من أهل العلم والمعرفة ، أو لأجل أنّ سؤالهم لا يليق بالجواب .

ولو فرض أنّ الآيات جرت علىٰ حسب أهوائهم ومقترحاتهم ، فإنّه ـ مضافاً إلى كون بعضها من المستحيلات عقلاً كسؤال رؤية الله تعالىٰ ، ونزوله جلَّ شأنه ـ لصارت أُموراً عادية ليس فيها أي دلالة على المعجزة ولاحجّية ، فلابدّ من مراعاة النظام الأحسن ، والتدبير الأتمّ الأكمل في كلّ عصر بالنسبه إلى جميع

أفراد الإنسان، بما يوافق الحكمة البالغة، كما أشار إليه سبحانه وتعالى في الآية التالية.

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾:

البشير المُخبر بالخير، وتُستعمل المادّة في الشرّ أيضاً، قال تعالىٰ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1].

والنذير المُخبر بما فيه خوف، وكلاهما يتحقّقان في أنبياء الله وأوليائه الناطقين عنه سبحانه، المبشِّرين بثوابه، والمُنذرين عن عقابه.

والمراد بالحقّ هو القرآن وجميع التشريعات السماوية النازلة علىٰ نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله، الموجبة لسعادة الدنيا والآخرة. ويمكن أن يكون المراد به الأعمّ من كون نفس الإرسال بالحقّ، والمرسل له أيضاً كذلك، للملازمة بينهما، كما هو المعلوم.

يعني: إنّا أرسلنا النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله بالحقّ وفي الحقّ، والحكمة في هذا الإرسال أن يكون بشيراً بالرحمة والثواب لمن يتّبع الحقّ، ونذيراً بالعقاب لمن خالف.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾:

الجحيم هي النار إذا اضطرمت وشبّ وقودها، وقد أعدّها الله تعالى في الآخرة للغاوين، قال تعالىٰ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[2] أي لا تسأل عن أصحاب الجحيم الذين استحقّوها بسوء اختيارهم لِمَ اختاروا الجحيم؟، ولا يضرّك تكذيبهم، فلا يضيق صدرك عليهم بعد أن قمت بالوظيفة، وأتممت الحجّة عليهم، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[3]، وفي ذلك

١. سورة الانشقاق: الآية ٢٤.

٢. سورة الشعراء: الآية ٨١.

٣. سورة البقرة: الآية ٢٧٢.

تسلية للنبي ﷺ.

وهذه الآية الشريفة وما في سياقها مطابقة للعقل الفطري من تحقّق الاختيار في الفاعل المختار ، فإنّ الله تعالى إنّما بعث رسله مبشّرين ومنذرين، وعلى الإنسان أن يأخذ العلم الذي يهديه ، وما له دخل في استكماله ، وما يوجب سعادته في الدارين ، فباختياره يصعد إلى الدرجات، كما أنّ به ينزل إلى الدركات ، والمعلّم غير مسؤول عن ذلك بعد بذل جهده في التربية والتعليم، وهذا أمر قد جرت عليه السيرة العقلائية في التعليم والتعلّم الدائرين بينهم .

قوله تعالىٰ : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ :

الرضاء من المبيّنات العرفية ، ويُستعمل بين الخالق والمخلوق ، وبين المخلوقين بعضهم مع بعض ، قال الله تعالىٰ : **﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾**[١] .

وقال تعالىٰ : **﴿فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾**[٢] .

وهو من أهمّ ما يقوم به النظام .

ومادّة (م ل ل) تأتي بمعنى الإملاء والإثبات ، قال تعالىٰ : **﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾**[٣] ، فالملّة إنّما هي الشريعة التي أثبتها الله لعباده علىٰ ألسنة رسله وأنبيائه ، وهي والشريعة سيّان ، وأمّا مع الدِّين فهما واحد مصداقاً ، وأعمّ في الاستعمال ، يقال : دين الله تعالىٰ ، ودين محمّد ﷺ ، ودين زيد ، ولا يُقال في الملّة

---

١ . سورة المجادلة : الآية ٢٢.

٢ . سورة النساء : الآية ٢٤.

٣ . سورة البقرة ، الآية ٢٨٢.

ذلك إلّا ملّة الله تعالىٰ، ويصحّ نسبتها إلى النبيّ المشرع، قال تعالىٰ: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[1].

ولعلّ السرّ في ذلك أنّه روعي في إطلاق لفظ الملّة، إبلاع التشريعات الإلٰهيّة السماوية، وهذا يختصّ بالنبي دون غيره، ثمّ اتّسعت حتّى استُعملت في الأديان الباطلة أيضاً، وكاد المجاز أن يغلب الحقيقة، فقيل: (الكفر ملّة واحدة).

والآية ظاهرة في اليأس عن إيمانهم بعد أن كان النبيّ ﷺ يطمع في إسلامهم، بل كان يرجو مبادرتهم إلى الإيمان، لأنّ الإسلام دين التوحيد ودين الفطرة، فيوافق ما هم عليه في الجملة. ولذلك كبر على النبيّ ﷺ إعراضهم وجحودهم، وكان سبب ذلك أنّهم كانوا يعتبرون دينهم هو الهدى فقط، وما سواه باطل، فهم أحقّ بهذا الأمر من غيره، فلابدّ من اتباع ملّتهم.

أو كان السبب أنّهم كانوا يزعمون أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه، فلا يعقل اتّباع غيرهم مع الاختلاف في الملّة.

أو أنّهم كانوا يرون أنفسهم أصحاب قوّة ومنعة، وجاه وثروة، وغيرهم علىٰ ضعف، ورفض القوي لما يدعو إليه الضعيف ـ ولو كان حقّاً ـ أمر مركوز في النفوس، وكلّ ذلك من مظاهر عتوهم واستكبارهم، ولذا ردّ الله تعالى عليهم.

قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾:

لأنّ الله تبارك وتعالى هو العالم بالهداية وطريقها، والقادر علىٰ جزاء متّبعيها، وليست الهداية من المقترحات النفسانية، فلابدّ وأن تنتهي إليه تعالىٰ علماً وجزاءً، وتقدّم معنى الهداية فراجع سورة الفاتحة.

قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾:

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٦١.

قضيّة شرطيّة، ومن المعلوم أنّ صدق القضية الشرطية، إنّما هو بصدق الملازمة لابتحقّق الموضوع، وانطباق الجزاء على الشرط المذكور فيها بالنسبة إلى مورد الخطاب أو المخاطب، فيكون مفاد القضية أنّ متابعة الهوى والآراء الباطلة توجب الخذلان من الله تعالىٰ، فالآية المباركة نظير قوله تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[1]. أي أنّ الشرك يوجب حبط العمل، فإتيان الجملة بصورة الشرطية تفيد معنى خاصّاً.

مادّة (هوي) تأتي بمعنى السقوط، وتستعمل في ميل النفس إلى الأُمور والشهوات الباطلة، فتهوي بصاحبها إلى كل داهية في الدُّنيا، وإلى النار في الآخرة، وقد تقدّم ما يتعلّق بها أيضاً.

والمعنى : لئن اتّبعت أهواءهم وعقائدهم الفاسدة بعدما جاءك من العلم بالحقّ يترتّب عليك الجزاء الذي أوعد به الله تعالىٰ.

قوله تعالىٰ: **﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾**:

أي: أنّه يوجب الخذلان من الله تعالىٰ، فليس لك وليٌّ يتولّىٰ شؤونك في الدُّنيا والآخرة، ولا نصير ينصرك من عذاب الله تعالىٰ، كما قال جلَّ شأنه في آية أُخرىٰ:

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[2].

والخطاب وإن كان موجّهاً إلى رسوله ﷺ، ولكن يُراد به أُمّته، لأنّه تعالىٰ يعلم بأنّه ﷺ لا يفعل ذلك، فيكون إرشاداً للإنسان إلى أنّ متابعة الهوى توجب

١. سورة الزمر: الآية ٦٥.

٢. سورة الرعد: الآية ٣٧.

الحرمان عن نِعَمِه تعالىٰ وإفاضاته، فلابدّ من متابعة الحقّ، ولا تأخذه فيها لومة لائم، لأنّه يعلم بأنّ الله هو وليّ أمره وناصره، وإلّا لم يكن لائقاً بعبوديّته تعالىٰ، فيستحقّ أشدّ العذاب.

وفي الآية المباركة إشارة إلى أنّ جميع المعارف الحقّة ـ أُصولاً وفروعاً ـ لابدّ أن تستند إليه تعالىٰ، وما سواها يكون من الأهواء الفاسده والمفسدة، فيجب طرحها وعدم متابعتها.

قوله تعالىٰ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَـئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾:

مادّة (تلى) تأتي بمعنى المتابعة، ولها مراتب ودرجات ترتقي من القول فقط إلى أقصىٰ درجات المتابعة، في القول والفعل والوجود، وسائر الجهات.

والمراد بحقّ التلاوة هي التي توجب فهم الكتاب، والتفقّه فيه، واتباع أحكامه، وقد وردت روايات كثيرة في أنّ المراد بها ترتيل آياته والتفقّه به والعلم بأحكامه ـ وسيأتي في البحث الروائي ذكرها ـ دون مجرّد الترتيل مع المخالفة العملية، وإلّا فهو استهزاء به واستخفاف بالله تعالىٰ، ولذا قال نبيّنا الأعظم ﷺ: «ربَّ تالٍ القرآن والقرآن يلعنه».

والآية تتضمّن قاعدتين عقليّتين قرّرتهما الكتب السماوية.

الأُولى: أنّ الاعتقاد بالحقّ، والعمل به يوجبان كمال النفس وارتقاءها إلى المقامات المعنوية، والفوز بالدرجات الأُخروية.

الثانية: أنّ الكفر بالحقّ، وترك العمل به يوجبان الخسران.

وفي الآية المباركة إعلام للنبي ﷺ بأنّه ربما يكون في أهل الكتاب من يرجى إيمانهم، وهم الذين يتلون التوراة والإنجيل حقّ التلاوة، فيتدبّرون آياتهما،

ويتعلّمون أحكامهما.

قوله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾:

أي: مَن يكفر بالنبيّ ﷺ من بعد علمه بالحقّ، فهو الذي خسر السعادتين الدنيوية والأُخروية، وذلك هو الخسران المبين.

قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾:

إرجاع ختم الكلام إلى بدئه، وهو من محسّنات البيان، فقد سبق أن ذكر سبحانه وتعالىٰ بني إسرائيل أنواع نعمه، وهنا ختم بتذكيرهم لها أيضاً لتتمّ الحجّة عليهم، أو غير ذلك من المصالح.

وما عن بعض المفسِّرين من إنكار التكرار في القرآن، فسيأتي البحث عنه في مستقبل الكلام، وقد تقدّم تفسير الآية الشريفة في آيتي ٤٠ و ٤٧ فراجع.

ونزيد هنا أنّه قد ورد في قوله تعالى مخاطباً لأُمّة محمّد ﷺ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[١] وذكر تعالىٰ في خطابه لبني إسرائيل: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ﴾ فمن اختلاف التعبير يستفاد علوّ منزلة المسلمين عن غيرهم، فإنّ الذكر تعلّق بهم بالذات الأقدس الربوبي، وهو أعلى المقامات، بخلاف بني إسرائيل، فإنّ الذكر تعلّق فيهم بالنِّعمة، وذلك لكثرة انغمارهم في الجهات المادّية، وإعراضهم عن الحقّ، فورد الخطاب علىٰ ما ارتكزت عليه نفوسهم، وكم فرق بين مَن تعلّقت نفسه بنعمة المُنعم، وبين مَن تعلّقت نفسه بذات المُنعم.

قوله تعالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٢.

وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾:

تقدّم تفسيرها في آية ٤٨، إلّا أنّ الأُولىٰ مغايرة مع الثانية في تقديم قوله تعالىٰ: **﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ﴾**.

والوجه في ذلك: أنّ مورد الأُولى في مقام تحلية النفس بالفضائل النفسانية أوّلاً ثمّ أمر الغير بها ثانياً. ومورد الثانية إنكارهم لنبوّة النبيّ ﷺ إلّا باتّباعه لهم، وقد ختم سبحانه وتعالى الكلام مع اليهود بذلك.

بحث دلالي:

المُستفاد من مجموع الآيات المباركة الواردة في ذمّ اليهود والنصارى وغيرهما، أنّه ليس لذاتهم بل لأفعالهم الاختيارية الشنيعة، وقد اتّفق جميع الفلاسفة بل وغيرهم، على أنّ السعادة والشقاوة ليستا ذاتيّتين للإنسان كذاتية النطق له، كما أنّهما ليستا من لوازم الذات كذاتية الزوجية للأربعة، بل هما من لوازم وجوده الخارجي التي تحصل بالاختيار.

نعم، للقضاء والقدر الإلهي دخل فيهما بنحو الاقتضاء لا العلّية التامّة، كدخلهما كذلك في أكثر ـ بل جميع ـ ما يتعلّق بالإنسان، فبالعمل يصير الإنسان سعيداً مستحقّاً للثواب، كما أن به يصير شقيّاً مستحقّاً للعقاب، وهذا هو المستفاد من مجموع ما ورد في هذا الباب بعد رد بعضه إلى بعض، وسيأتي مزيد بيان لهذا البحث في الموضع المناسب إن شاء الله تعالىٰ.

فالشقاوة التي لحقت باليهود والنصارى، إنّما حصلت من أفعالهم الشنيعة، ممّا أوجبت قساوة قلبهم، كما حكى الله تعالى عنهم في الآيات المباركة السابقة، والذمّ تعلّق بهم لأجل هذه الجهة، فإذا وجدت في أي طائفة أوجبت شقاوتهم وبعدهم عن ساحة الرحمن، بلا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين، بل هي

من المسلم أقبح، فإنّ نبيّهم ﷺ أفضل الأنبياء، وأُمّته أفضل الأُمم، ولأنّ السير التكاملي في الإنسان يقضي أن يأخذ بعبر الماضين، فلا يفعل ما فعلته الأُمم السابقة ممّا أوجب شقاوتها وهلاكها، ولذا كان جرائم المسلمين ومذامّ صفاتهم أقبح عند الله من جرائم غيرهم من سائر الأمم، كما أنّ أفعالهم الحسنة أفضل.

بحث روائي:

عن الشيخ الطوسي في قوله تعالىٰ: ﴿**وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى**﴾:

«إن النبيّ ﷺ كان مجتهداً في طلب ما يرضيهم، ليقبلوا إلى الإسلام ويتركوا القتال. فقال الله تعالى له: دع ما يرضيهم فإنّهم لن يرضوا عنك».

أقول: تقدّم ما يدلّ علىٰ ذلك.

العياشي، عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**﴾:

قال عليه السلام: «الوقوف عند الجنّة والنار».

أقول: وهو حقٌّ لاريب فيه، لأنّ حقّ التلاوة عبارة عن العلم بالمتلوّ والعمل به، كما يأتي في الرواية الآتية.

وعن الديلمي في «الإرشاد»، عن الصادق عليه السلام، في قوله تعالىٰ: ﴿**يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ**﴾:

قال عليه السلام: «يرتّلون آياته ويتفقّهون به ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويخافون وعيده، ويعتبرون بقصصه، ويأتمرون بأوامره، وينتهون بنواهيه. ما هو والله حفظ آياته ودرس حروفه وتلاوة سوره، ودرس أعشاره وأخماسه، حفظوا حروفه، وأضاعوا حدوده. وإنّما هو تدبّر آياته والعمل بأحكامه، قال تعالىٰ:

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾».

وعن الكليني، والعياشي، عن أبي ولّاد، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالىٰ: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾**:

قال عليه السلام: «هم الأئمّة».

أقول: لأنّ العلم بحقيقة القرآن والعمل بجميعه إنّما يتحقّق فيهم وبهم، وهذا من باب التطبيق كما مرّ.

والحمدُ لله أوّلاً وآخراً

***

« الفهرس »

المقدّمة ٤
البسملة وتفسيرها ٩

سورة فاتحة الكتاب ٧

الاسم واشتقاقه ١٠
الوجه في تخلّل الاسم بين الباء ولفظ الجلالة ١١
لفظ الجلالة وما ذكر أهل اللغة فيه ١٢
معنى لفظ الجلالة وماورد من الفلاسفة في شأنه ١٣
اشتقاق صفتي (الرحمن الرحيم) والفرق بينهما ١٧
موارد استعمال كل من الصفتين فى القرآن ٢٠

بحوث المقام:

بحث دلالي وفيه أقسام المسمّيات في الاسم، وأنّ البسملة إضافة تشريفية، وأنّ أسماءه تعالى توقيفيّة ٢٢
بحث فقهي وفيه أنّ البسملة جزء من كل سورة فى القرآن ويستحب الإجهار بها ٢٤
بحث روائي وفيه ما ورد في شأن البسملة ٢٥

سورة الفاتحة، الآية ٢ ـ ٤

الحمد ومعناه والفرق بينه وبين غيره ٢٨
اختصاص الحمد والتسبيح به تعالى ٢٩
الربّ ومعناه وأنّه الام في أسمائه المقدّسة، ولم يرد في القرآن دعاءاً إلّا مبدوّاً باسم الرب . ٣١
العالمين ومعناه وتحديده ٣٥
أقسام العوالم وأنّه جلَّ شأنه له المعية فى جميعها ٣٦
المالك ومعناه ومشتقّاته ٣٨

اليوم ومعناه في القرآن ٤٠
الدِّين ومعناه ووجه التخصيص به في سورة التوحيد ٣٥

الآية ٥ ـ ٧

الوجه في العدول من الغيبة الى الخطاب في الآية المباركة ٤٤
العبادة ومعناها وحصرها فيه تعالى والفرق بين العبادة وغيرها ٤٤
أثر العبادة وأقسامها ودواعيها ٤٤
الاستعانة ومعناها، وانها منحصرة به تعالى وهي اختيارية وغير اختيارية ٤٨
الوجه في تأخير ذكر العبادة والاستعانة عن صفة «مالك يوم الدِّين» ٤٨
الوجه في إتيان العبادة والاستعانة بلفظ الجمع ٤٩
الهداية ومعناها ومراتبها وأنّها من صفات الفعل لا من صفات الذات والفارق بينهما...... ٥٠
الهداية علىٰ قسمين ٥١
معنى الصراط وتقوّمه وأنواعه ٥٢
الوجه في تكرار الصراط ٥٤
النعمة ومعناها ٥٥
الهداية واجبة عقلاً، وهي من مختصاته تعالى ٥٦
أنواع الهداية وأقسام سلبها ٥٧
مبدأ الصراط ومنتهاه ٥٩
الفرق بين الصراط والسُبل ٥٩
مراتب وجود الصراط ٦٠
الغضب والضلال ومعناها ٦٠
بحث دلالي وفيه ماتتضمّن السورة من المعارف ومافيها من أدب العبودية ٦٣
بحث روائي وفيه ماورد في فضل السورة وامتيازها عن غيرها وما يتعلّق بتفسير آياتها ووجه تسميتها بالسبع المثاني ٦٥
بحث فقهي وفيه أنّ قوام الصلاة بفاتحة الكتاب وحكم التأمين بعدها، وهل يجوز قصد

الانشاء بالآيات المباركة؟ ٧١
بحث فلسفي وفيه نفي السنخية بين العلّة والمعلول في الفاعل المختار ٧٣
سورة البقرة: الآية١ ـ ٥ .... ٧٥
وجه تسمية السورة بالبقرة، وانّها من أهمّ السور القرآنية ٧٦
مايتعلّق بالحروف المقطّعة في أوائل السور ٧٧
الكتاب ومعناه وأنّه لاريب فيه، ومايستهدف الإنسان في حياته ٨١
معنى التقوى المراد منها في الآية الشريفة، وانّها فوق الإيمان ٨٤
الإيمان وأقسامه وانّه من الصفات التشكيكية ٨٧
الغيب ومعناه ومصاديقه خارجاً وفي القرآن الكريم ٨٩
الصلاة ومعناها وأثرها ٩٢
الرزق ومعناه ٩٣
الإنفاق ومعناه وأقسامه ٩٤
في أنّ إيمان أهل الكتاب لايتم إلّا أن يؤمنوا بالقران ٩٧
الناس في زمان ظهور دعوة النبيّ على أقسام ٩٨
اليقين ومعناه ٩٩
بحوث المقام:
بحث دلالي وفيه أنّ الترتيب الوارد في الآية الشريفة من إعجاز القرآن ١٠١
بحث فلسفي وفيه أنّ الإنسان لايمكن له إنكار ماوراء المادّة (الغيب) بفطرته ١٠٢
بحث كلامي وفيه أنّ التصديق بسيط ومباديه مركّب، وهل العمل بالوظائف المقررة جزء من الإيمان ١٠٤
بحث روائي وفيه ماورد في معنى الغيب والإنفاق ١٠٦
سورة البقرة: الآية ٦ ـ ٧
الكفر ومعناه واستعماله في القرآن ١٠٨
الختم ومعناه في الآية الشريفة ١١٠

الوجه في نسبة الختم الى الله تعالى ١١١
معنى الغشاوة ١١٢
المراد من القلب والسمع والبصر في الآية الشريفة ١١٣
معنى العذاب في الآية المباركة ١١٤
بحث روائي وفيه ماورد في سبق علمه جلَّ شأنه بالكفر الذي هو أقدم من الشرك... ١١٤
ماورد في وجوه الكفر ١١٥

سورة البقرة: الآية ٨ ـ ١٠

نفي الإيمان بالمبدأ والمعاد عن المنافقين ١٢٠
المخادعة ومعناها وهل تصح نسبتها اليه تعالى؟ ١٢١
القلب والشعور ومعنى كل منهما في القرآن ١٢٢
بحث فلسفي وفيه أنّ الشعور في الإنسان من مراتب الإحساس والإدراك وأقسام كليّاتهما ١٢٤
صفات النفس وأقسامها ١٢٤

سورة البقرة: الآية ١١ ـ ١٦

الفساد ومعناه ١٢٦
السفاهة ومعناها في القرآن ١٢٨
الوجه في العدول من عدم الشعور الى عدم العلم في التعبير القرآني ١٣٠
المراد من الشيطان في الآية الشريفة ١٣١
الاستهزاء ومعناه ونسبته إليه تعالى ١٣٢
الاشتراء ومعناه، والفرق بين التعبير باشتراء الضلالة بالهدى والاشتراء بالثمن القليل . ١٣٣
بحث روائي وفيه ماورد من الروايات المرتبطة بالآية المباركة ١٣٥
بحث أخلاقي وفيه ماورد في سبب النفاق وشعبه والوجوه المتصوّرة فيه ١٣٦

سورة البقرة الآية ١٧ ـ ٢٠

المثل ومعناه ووجه استعماله في القرآن ١٣٨
ماورد في الآية الشريفة من الكائنات الجوية ١٤١

اختلاف المقتضيات لايوجب الاختلاف في الحقيقة ١٤٢
الإحاطة ومعناها وأقسامها بالنسبة إليه تعالى ١٤٣
تقوّم مفهوم الإحاطة بالاثنينية تنافي مذهب وحدة الوجود ١٤٣
بحث روائي وفيه أنّ الله سبحانه وتعالى لايوصف بالترك كما يوصف خلقه ١٤٦

سورة البقرة: الآية ٢١ ـ ٢٢

الوجه في ذكر (الرب) في الآية الشريفة ١٤٨
معنى السماء، وأنّ الأرض أنفع ممّا سواه ١٤٩
الرزق ومعناه ١٥٨

سورة البقرة: الآية ٢٢ ـ ٢٤

سياق الآية المباركة تفيد العناية ١٥٤
مرجع الضمير في الآية الشريفة ١٥٤
مواضع ذكر التحدّي بالقران والوجه في اختلافه ١٥٥
الجواب عن الإشكال من أنّ التحدّي غير مقدور فكيف يتعلّق التكليف به؟ ١٥٨
حقيقة الإعجاز وما أُورد عليها والجواب عنه ١٦٠
التحدّي ومعناه ١٦٣
إعجاز القرآن ١٦٣
حياة القرآن ١٦٤
الحياة وأقسامها ١٦٥
القرآن واعجازه في المعارف الإلهيّة ١٦٦
إعجاز القرآن في تشريع الأحكام ١٦٨
القرآن وإعجازه في العلم بالغيب ١٧٠
إعجاز القرآن في فصاحته وبلاغته ١٧٠
القرآن وإعجازه بعدم الاختلاف فيه ١٧٢

سورة البقرة: الآية ٢٥

البشارة ومعناها ١٧٤

معنى الجنّة ١٧٥
المراد من الأزواج المطهّرة ١٧٧
بحث دلالي وفيه أنّ الترتيب في الآية المباركة جري للنظام في النشأتين والوجه في التعبير بـ(الجنّات)........................ ١٧٨
بحث روائي وفيه ما ورد في الأزواج المطهرة وأنّ الآية الشريفة نزلت في شأن أفراد خاصّة ١٧٩

سورة البقرة: الآية ٢٦ ـ ٢٧

الحياء ونسبته اليه تعالى والفرق بينه وبين الخجل ١٨٠
بيان الأمور التي تشتملها الآية ١٨٣
بحث كلامي وفيه شبهة الجبر والتفويض وانّها لم تكن حادثة في الإسلام ١٨٣
الأفعال الاختيارية على أقسام........................ ١٨٤
الجبر ومذاهبه ١٨٤
أدلّة القائلين بالجبر والجواب عنها ١٨٥
التفويض ومعناه........................ ١٨٨
أدلّة التفويض والجواب عنها........................ ١٨٨
الأمر بين الأمرين والمراد منه ١٩٠
الروايات الواردة في بطلان الجبر والتفويض........................ ١٩٢
نقض العهد ومعناه ١٩٤
الصلة والفساد ومعنى كل منهما........................ ١٩٥
بحث روائي........................ ١٩٦

سورة البقرة: الآية ٢٨ ـ ٢٩

الآية المباركة تشتمل على التعيير والتوبيخ........................ ١٩٨
المراد من الموت والحياة في الآية الشريفة ١٩٩
الخلق ومعناه........................ ٢٠١
الاستواء ومعناه في القرآن........................ ٢٠٢

دلالة الآية الشريفة علىٰ خلق الأرض قبل السماء ٢٠٢
بحث فقهي ٢٠٣
بحث روائي وفيه حكمة خلق الأرض قبل خلق السماء ٢٠٤

سورة البقرة: الآية ٣٠

معنى القول المنسوب اليه تعالىٰ ٢٠٥
الملائكة واشتقاقها ووجودها ٢٠٥
مايستفاد من قوله تعالىٰ : «وإذ قال ربّك للملائكة» ٢٠٦
المراد من جعل الخليفة في الأرض ٢٠٨
التسبيح والتقديس ومعناهما ٢٠٩
منشأ سؤال الملائكة وانّه ليس من الاعتراض ٢١١

سورة البقرة: الآية ٣١ ـ ٣٣

التعليم ومعناه ٢١٢
تعليم آدمعليه‌السلام المعارف الآلهية كان بمباشرة منه تعالى ٢١٣
مايتعلّق بلفظ آدم ٢١٤
الاسم ومعناه والمراد منه في الآية المباركة ٢١٤
تعليمه للأسماء لايختص بأسماء عالم المثال ٢١٥
العرض ومعناه والمراد منه في الآية الشريفة ٢١٦
الحكمة ومعناها والمراد منها في القرآن الكريم ٢٢٠
استكمال الملائكة بواسطة الأنبياء ٢٢٢
بحوث المقام:
بحث دلالي وفيه أنّ العلم هو العلّة الغائية لخلق الموجودات ، وان تعليم الأسماء لآدم بمنزلة كتاب بيّنه تعالى له وأنّ الملائكة كانت في الأرض ٢٢٤
بحث اجتماعي حول النطق ٢٢٥
بحث روائي وفيه ما ورد في شأن علم الملائكة ، وتعليم آدم الأسماء وغير ذلك ممّا ورد في

تفسير الآيات ٢٢٧
بحث في الطينة والميثاق........................ ٢٢٩

سورة البقرة: الآية ٣٤

السجود ومعناه ٢٣١
الوجوه المتصوّرة في سجود الملائكة........................ ٢٣٣
هل السجود عبادة ذاتيه؟ ٢٣٤
ما يتعلّق بحقيقة إبليس ٢٣٥
بحث روائي وفيه ماورد في كيفيّة سجود الملائكة ومحل السجود، وماورد في حقيقة إبليس، وغير ذلك من الروايات الورادة في تفسير الآيات........................ ٢٣٨

سورة البقرة: الآية ٣٥ ـ ٣٩

زوجة آدم عليه السلام وكيفيّة خلقها........................ ٢٤٣
جنّة آدم عليه السلام وماورد فيها من الأقوال ٢٤٥
المراد من القرب الوارد في الآية المباركة ٢٤٨
حقيقة الشجرة التي أُمر بالاجتناب عنها ٢٤٨
ارتكاب آدم عليه السلام للأكل وحكمه في القرآن ٢٤٩
المراد من الاستقرار في الأرض ٢٥٢
توبة آدم عليه السلام........................ ٢٥٥
الوجه في تكرار كلمة الهبوط في الآية المباركة ٢٥٨
المراحل التي مرّ عليها آدم عليه السلام في النوع البشري واُصول المجتمعات ٢٥٨
بحث روائي وفيه ماورد في حقيقة جنّة آدم عليه السلام وحقيقة الشجرة المنهى عنها........ ٢٦٠
مايتعلّق بالإدارة ومعناهاوإضافتها إلى الله جلّ شأنه،وأنّها من صفات الفعل لا الذات. ٢٦٢
لبث آدم عليه السلام في الجنّة ومقدار زمانه، وكيفيّة دخول الشيطان للجنة ومكان سقوطه عنها إلى غير ذلك ممّا ورد من الروايات في تفسير الآيات الشريفة ٢٦٧
بحث كلامي وفيه معنى العصمة والأقوال في عصمة الأنبياء والآيات المنافية لها ... ٢٧٠

بحث فلسفي وفيه أنّ الإنسان مخلوق حادث من مخلوق آخر وبيان قاعدة «إمكان الأشرف» وبطلان ما اورد عليها من المناقشة ٢٧٥

بطلان ماذهب اليه بعض الفلاسفة من أنّ كل حادث طبيعي لابدّ وأن يستند الى سبب طبيعي كذلك........ ٢٧٧

الفرق بين مسألتي النشوِ والارتقاء والحركة الجوهرية........ ٢٧٨

سورة البقرة: الآية ٤٠ ـ ٤٣

إسرائيل ومعناه ٢٧٩

معنى الذكر في القرآن........ ٢٨٠

الوفاء والعهد ومعناهما ٢٨١

الفرق بين العهد والميثاق........ ٢٨٢

في بيان جملة من العهود المأخوذة علىٰ بني إسرائيل ٢٨٣

معنى لبس الحقّ بالباطل........ ٢٨٥

سورة البقرة: الآية ٤٤ ـ ٤٦

النسيان ومعناه ونسبته إليه تعالى ٢٨٨

العقل ومفهومه ٢٨٩

ظاهر الآية الشريفة عام يشمل جميع الآمرين بالمعروف والتاركين له........ ٢٩٠

الاستعانة ومصاديقها ٢٩١

الآية المباركة تشتمل علىٰ جميع الكمالات الإنسانيّة الفردية........ ٢٩٢

الظن ومعناه........ ٢٩٤

بحث روائي وفيه أنّ الآية الشريفة نزلت في القصّاص والخُطّاب، وأنّ الاستعانة بالصلاة والصوم في الأُمور مطلقاً لاسيما الشديدة منها، وماورد في معنى الظنّ........ ٢٩٥

بحث أخلاقي وفيه مايتعلّق بالصبر ٢٩٧

سورة البقرة: الآية ٤٧ ـ ٤٨

الآية الشريفة تدل علىٰ وجوب شكر المنعم........ ٣٠٦

العلوم الاستكمالية التي ترد على الإنسان أنواعها علىٰ قسمين ٣٠٧
اختلاف عالم الآخرة عمّا سواه بوجهين ٣٠٨
الأقسام المتصورة في عمل الإنسان وارتباط العوالم بعضها مع بعض ٣٠٩
العدل ومعناه ٣١١
بحث روائي يرتبط بالآية المباركة ٣١٣

سورة البقرة: الآية ٤٩ ـ ٥٠

مايتعلّق بلفظ فرعون ٣١٥
وَصف القرآن عذاب فرعون بالبلاء العظيم والعذاب المهين ٣١٥
البلاء ومعناه في القران ٣١٧
بحث اجتماعي وفيه أنّ دوافع الاختلاف بين أفراد الإنسان الى تحد اُمور ثلاثة ٣٢٠
بحث تاريخي وفيه سبب إطلاق العبريين على الاسرائيليّين وتاريخ دخولهم مصر وكيفيّة عيشهم فيها وخروجهم عنها ٣٢٠

سورة البقرة: الآية ٥١ ـ ٥٤

الوعد وموارد استعماله وحقيقته ٣٢٥
هل المواعدة تتوقّف على الطرفين؟ ٣٢٦
ميعاد موسىﷺ ومعناه وزمانه ومكانه واتحاد الميقاتين له ٣٢٧
الغاية المطلوبة من الميقات، والوجه في اختصاص الليالي بالذكر في الميعاد دون الأيّام . ٣٢٨
موسى عَلَم مركّب من لفظين ٣٢٩
الوجه في اختصاص الميعاد بالأربعين ٣٢٩
ما حصل من الميعاد ٣٣٠
استحالة الترجّي بالنسبة إليه تعالى ٣٣٢
السبب في عناد بني إسرائيل مع ماظهر لهم من الآيات ٣٣٢
الفرق بين البارئ والخالق ٣٣٤
مايتصوّر في قتل بني أسرائيل أنفسهم ٣٣٥

في أنّ عبادتهم للعجل لو كان شركاً كيف يغفر لهم؟ ٣٣٦
بحث روائي يرتبط بالآيات الشريفة ٣٣٧
بحث فلسفي علمي وفيه أنّ الإفاضات الإلٰهيّة محدودة بحدّ الاستعدادات وكيفيّة حصول القابلية للاستفاضة وأنّها الغرض الأصلي من الميقات ٣٣٩
افتراق مواقيت أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله مع ميقات موسى عليه السلام ٣٤٠

سورة البقرة: الآية ٥٥ ـ ٥٩

معنى الرؤية والجهر في القرآن الكريم ٣٤٣
الصاعقة واحتمالاتها في الآية الشريفة ٣٤٤
مايتعلّق بسؤال بني اسرائيل رؤيته تعالىٰ ٣٤٥
البعث ومعناه وموارد استعماله في القرآن ٣٤٦
المنّ والسلوىٰ ومعناهما ٣٤٨
القرية ومعناها في الآية الشريفة ٣٤٩
المراد من السجود في الآية المباركة ومعنى الحطة الواردة في الآية الكريمة ٣٥١
التبديل ومعناه وحكمه ٣٥٢
الرجز ومعناه ٣٥٣
بحث دلالي وفيه أنّ الآيات المباركة يمكن أن تكون إشارة الى مقامات خاصّة ٣٥٤
بحث روائي وفيه ماورد في الرجعة، وأنّ الذين أخذتهم الصاعقة أحياهم تعالى بعد ذلك وبعثهم أنبياء، وماورد في تفسير الغمام والمنّ والسلوى إلى غير ذلك من الروايات المرتبطة بالآية الشريفة ٣٥٥

سورة البقرة: الآية ٦٠ ـ ٦١

شأن الحجر الذي استسقى به موسى عليه السلام لقومه ٣٦٠
مايتعلّق بعصا موسى عليه السلام ٣٦٠
الوجه في انفجار اثنى عشر عيناً ٣٦١
الطعام ومعناه في القرآن ٣٦٢

الغضب ومعناه ونسبته اليه تعالى ٣٦٦
النبيّ واشتقاقه ومعناه........ ٣٦٧

بحوث المقام:

بحث روائي وفيه ماورد في معنى القتل والحجر وأنّ المعاصي توجب الخذلان علىٰ مرتكبيها........ ٣٧٠
بحث فقهي وكلامي وفيه أنّ الأصل في الأشياء الإباحة، وإطلاق الرزق في الآية المباركة على الحلال ٣٧١
بحث فلسفي في حقيقة المعجزة........ ٣٧١

سورة البقرة: الآية ٦٢

لفظ اليهود ومصدر اشتقاقه........ ٣٧٤
الصابئة ومعناها واشتقاقها ٣٧٥
حقيقة الايمان ٣٧٧
بحث روائي يرتبط بالآية الكريمة ٣٧٨
بحث تاريخي عقائدي يتعلّق بالصابئة........ ٣٧٩

سورة البقرة: الآية ٦٣ ـ ٧٤

رفع الجبل فوق اليهود لايستلزم الإكراه في الايمان ٣٨٤
المراد من الذكر في الآية المباركة........ ٣٨٥
المسخ قد يكون في الصورة وقد يكون في القلب ٣٨٧
الآيات الشريفة تسلية للنبي صلى الله عليه وآله ٣٨٨
الحيل الشرعية ومعناها والاستدلال بالآية الشريفة علىٰ عدم جوازها ٣٨٩
الوجه في تأخير أية (٧٢) عن آية (٦٧)........ ٣٩٠
الهزء وقرائتها ٣٩٠
معنى العوذ ٣٩١
القسوة ومعناها........ ٣٩٦

بحوث المقام:

بحث دلالي يتعلّق بالبقرة الواردة في الآية المباركة ٤٠١
بحث روائي يرتبط بالآيات الشريفة ٤٠٣
بحث تاريخي وفيه كيفيّة ذكر قصة البقرة في التوراة ٤٠٧
بحث فلسفي في التناسخ وتجسّم الملكات ٤٠٨

سورة البقرة: الآية ٧٥ ـ ٨٢

التحريف ومعناه وحكمه ٤١٣
صفة أُخرىٰ من صفات اليهود المذمومة ٤١٤
الإسرار ومعناه ومراتبه وأنّ الآية الشريفة تدل علىٰ إحاطته تعالى للعوالم إحاطة واقعيّة ٤١٥
الأمي والأماني ومعناهما ومايتحمل في الآية المباركة منهما ٤١٧
المراد من الاشتراء في الآية الشريفة ٤١٩
فساد مزاعم اليهود من أنّ النار لاتمسّهم إلّا أيّاماً معدودة ٤٢٠
معنى الوجوب على الله تعالى ٤٢٢
الكسب ومعناه في القرآن ٤٢٣
الخطيئة وإحاطتها بالإنسان وأقسام ذلك ٤٢٤
بحث روائي يرتبط بالآيات الشريفة ٤٢٦
بحث فقهي وفيه مايتعلّق بحرمة بيع المصحف وتدوينه ٤٢٨

سورة البقرة: الآية ٨٣ ـ ٨٦

الأخذ ومعناه في الآية المباركة ٤٣٠
الوجه في اقتران الإحسان بالوالدين ٤٣٠
في بيان اقتران شكره تعالى بشكر الوالدين والوجه في إطلاق الإحسان إليهما ٤٣١
التولّي ومعناه واستعماله في القرآن الكريم ٤٣٤
في بيان عدم نسخ الآية المباركة ٤٣٥

النفس ومعناه ٤٣٦
الآية الشريفة تخبر عن نقض اليهود العهود ٤٣٧
الآية الكريمة تتضمّن التوبيخ والتأنيب على اليهود ٤٣٩
بحث دلالي وفيه الوجه في أنّ الخطاب مع اليهود في عصر التنزيل وأنّ ماحدث كان في أسلافهم ٤٤١
بحث روائي وفيه ماترتبط بالايات المباركة من الروايات ٤٤٢

سورة البقرة: الآية ٨٧ ـ ٩١

عدد الرسل بين موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام ٤٤٦
روح القدس ومعناه في القرآن ٤٤٧
معنى الغلف في الآية الشريفة ٤٤٨
البغي ومعناه ٤٥١
الإيمان بجميع الأنبياء الرسل إنّما يتمّ بنحو الوحدة ٤٥٤
بحث روائي وفيه ماورد في كيفيّة هجرة اليهود الى المدينة وأنّهم كانوا يقسمون بمحمّد صلى الله عليه وآله لنصرتهم علىٰ مقالتهم والجواب عمّا نوقش فيها ٤٥٦

سورة البقرة: الآية ٩٢ ـ ٩٦

البيّنات ومعناها ٤٦١
ما أُعطي لموسى عليه السلام من الآيات والبيّنات ٤٦٢
الإشراب ومعناه في الآية الكريمة ٤٦٤
التمنّي وأقسامه ٤٦٦
الوجه في التعبير القراني بـ(ألف سنة) ٣٧١
بحث روائي وفيه ماورد من الروايات المرتبطة بالآيات المباركة ٤٧١
بحث أدبي ٤٧١

سورة البقرة: الآية ٩٧ ـ ١٠١

ما يتعلّق بلفظ جبرائيل، وشأنه عند اليهود ٤٧٤

الملائكة وحقيقتها ٤٧٧
الملائكة الأربع ٤٧٨
الوجه في اختصاص جبرائيل وميكائيل في الآية المباركة بالذكر ٤٧٩
الفسق ومعناه ٤٧٩
بحث روائي وفيه ماترتبط بالآيات المباركة من الروايات ٤٨٢

سورة البقرة: الآية ١٠٢ ـ١٠٣

مُلك سليمان والمراد منه في الآية الكريمة ٤٨٦
بابل وشأنها في التاريخ ٤٨٨
هاروت وماروت وانّهما ملكين ٤٨٩
الفتنة ومعناها في الآية الشريفة ٤٩٠
بحث دلالي وفيه مايستفاد من الآية الكريمة أُمور ثمانية ٤٩٤
بحث روائي وفيه ماورد في تفسير الآية الشريفة من الروايات ٤٩٧
بحث علمي وفيه حقيقه السحر، وتقسيم العلوم حسب أقسام موضوعاتها ٤٩٨
تأثير السحر في النفس ٤٩٩
دلالة الأثر النفسي عن السحر في القرآن ٥٠٠
الفرق بين مايصدر من ألانبياء ومايصدر عن الشياطين ٥٠٢
بحث فقهي وفيه أنّ السحر حرام في جميع الشرايع السماوية، وأقسام المحرمات ... ٥٠٤
بحث كلامي وفيه أنّ ما يفاض على الممكنات ينتهي إليه تعالىٰ والفرق بين المعجزة والسحر ٥٠٥

سورة البقرة: الآية ١٠٤ ـ١٠٥

كلمة «راعنا» ومعناها واشتقاقها ٥٠٨
الخير ومعناه، وسبب حسد الكفّار والمشركين للمؤمنين ٥١٠
الفضل ومعناه ٥١١
بحث روائي وفيه أنّه ليس في القرآن «يا أيُّها الذين آمنوا» إلّا وفي التوراة «يا أيّها

المساكين»، وما أنزل الله تعالى «يا أيّها الذين آمنوا» إلّا وعلي عليه السلام رأسها وأميرها، وماورد في معنى كلمة «راعنا» من السبّ ٥١٢

سورة البقرة: الآية ١٠٦ ـ ١٠٨

النسخ ومعناه وما يستلزمه من الاُمور ٥١٤
الآية ومعناها في القرآن ٥١٥
المراد من النسيان في الآية الشريفة ٥١٦
الآية المباركة تدل علىٰ كمال قدرته وإرادته تعالىٰ ٥١٩
المراد من التبديل في الآية الكريمة، وأنّ أفعال الإنسان معلول نفسه إلّا أنّ لها الأثر النفسي أيضاً ٥٢١

بحوث المقام:

بحث دلالي وفيه الوجه في تكرار قوله تعالىٰ «ألم تعلم» وما يتعلّق بالنسخ والناسخ والمنسوخ ٥٢٣
بحث روائي وفيه ماورد في معنى النسخ والنسيان في القرآن، وأنّ البدء نوع من النسخ . ٥٢٤
بحث كلامي وفيه إمكان النسخ ٥٢٧
معنى النسخ ٥٢٧
حقيقة النسخ ٥٢٨
النسخ ووقوعه ٥٣٠
شرائط النسخ ٥٣٣
نسخ الشرائع ٥٣٤
أقسام النسخ ٥٣٦
أنواع النسخ في القرآن ٥٣٨
سُور القرآن بالنسبة الى وجود الناسخ فيها أو المنسوخ ٥٣٩

سورة البقرة: الآية ١٠٩ ـ ١١٣

الفرق بين الحسد والتمنّي ٥٤٢

العفو والصفح ومعناهما في الآية الشريفة ٥٤٣
ظهور العمل بنفسه من حيث هو في الدار الآخر، وبطلان ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من نفي علمه بالجزئيات ٥٤٥
السبب في التعبير بكلمة «هود» في الآية الكريمة ٥٤٦
معنى الإسلام في الآية الشريفة ٥٤٧
بحث دلالي وفيه ما تضمّنته الآية المباركة من الأُمور ٥٥٠
بحث روائي وفيه ما ورد من الروايات التي ترتبط بالآية الكريمة ٥٥١

سورة البقرة: الآية ١١٤ ـ ١١٥

المساجد ومعناه وما يمكن أن يراد منها في الآية الشريفة ٥٥٣
الخزي ومعناه في الآية الكريمة ٥٥٥
الآية المباركة تفيد قاعدة كلية وهي أنّه تعالى لا يختص بمكان ولا تخصّه جهة ٥٥٧
بحث روائي وفيه ماورد من الروايات في تفسير الآية الكريمة ٥٥٨
بحث فقهي وفيه ما يستفاد من الأحكام الشرعية من الآية الشريفة ٥٦٠

سورة البقرة: الآية ١١٦ ـ ١١٧

الأخذ وما يتضمن من المعنى فيه ٥٦٣
القنوت والبديع ومعنى كل منهما فى الآية المباركة ٥٦٥
القضاء والامر ومعنى كل منهما ٥٦٧
بحث روائي وفيه ما ورد من الروايات في تفسير الآية المباركة ٥٦٩
بحث كلامي وفيه ما استدلّ علىٰ عدم إمكان المجانسة بينه تعالى وبين مخلوقاته، وكذا يمتنع اتخاذ الولد له سبحانه وتعالى ٥٧٠

سورة البقرة: الآية ١١٨ ـ ١٢٣

كلمة «لولا» واستعمالها في القرآن ٥٧٣
المراد من الحقّ في الآية الشريفة ٥٧٥
الجحيم ومعناه في الآية الكريمة ٥٧٥

الملّة ومعناها، وأنّ الخطاب موجّه الى الأُمّة ٥٧٦
الآية المباركة تتضمّن قاعدتين ٥٧٩
الفرق بين الخطابين خطاب لأُمّة محمّد ﷺ وخطاب لنبي إسرائيل في الآية الشريفة . ٥٨٠
بحث دلالي يرتبط بالآية المباركة ٥٨١
بحث روائي وفيه ما ورد من الروايات في تفسير الآية الشريفة ٥٨٢
الفهرس ٥٨٥

***